إدمان المخدرات والمسكرات

بين الواقع والخيالي

من منظور التحليل النفسي اللاكاني

محمد فتحي محمد

مكتبة الأنجلو المصرية

إدمان المخدرات والمسكرات

بين الواقع والخيالي

من منظور التحليل النفسي اللاكاني

تأليف
محمد فتحي محمد



مكتبة الأنجلو المصرية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية ، إدارة الشئون الفنية .

محمد، محمد فتحى .

ادمان المخدرات والمسكرات بين الواقع والخيالى

تأليف : محمد فتحى محمد - ط١. -

القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ٢٠١١.

٣٥٢ ص ، ١٧× ٢٤ سم

١- ادمان المخدرات

أ- العنوان

رقم الإيداع : ٨٩٥٧

ردمك :٦-٢٧٢٤-٠٥-٩٧٧ تصنيف ديوى : ٣٦٢,٢٩٣

المطبعة : محمد عبد الكريم حسان

توزيع : مكتبة الانجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد

القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت : ٢٣٩١٤٣٣٧ (٢٠٢) ؛ ف : ٢٣٩٥٧٦٤٣ (٢٠٢)

E-mail : angloebs@anglo-egyptian.com
Website : www.anglo-egyptian.com

إلى شهداء جُمعة الغضب

أحرف مضيئة.

انتصبت كي تشرق شمس مصر الخلود.

ماحية غمامة الظلم والجهالة...

فربما عاود الوجود فجر ضميره.

إلى...

فرج أحمد فرج...

ذلك الخارج في النهار،

علّني أكون على الدرب سائراً.

قبل البدء

العنوان الأصلي للدراسة : بنية النظام الخيالي لدى مدمني المخدرات والمسكرات، دراسة إكلينيكية في ضوء مفاهيم التحليل النفسي اللاكاني ؛ ولقد نال بها الباحث درجة الماجستير في علم النفس، من كلية الآداب جامعة الزقازيق، تحت إشراف الأستاذ الدكتور/ **عبد الله السيد عسكر**، ولقد أجازت لجنة المناقشة والحُكم الأطروحة بتقدير ممتاز مع التوصية بالطبع والتبادل مع الجامعات الأخرى.

الأستاذ الدكتور/ **حسين عبد القادر محمد**

الأستاذ الدكتور/ **حسين سعد الدين الحسيني**

المحتويات

(أ.فهرس الموضوعات)

الموضوع رقم الصفحة

الفصل الرابع: ديناميات البناء النفسي

تشكل الأنا وبناء الذات وفقاً للخطاب اللاكاني ... ١٣٥ – ٢١٨

الفصل الخامس: نماذج لدراسة الحالة ..... ٢١٩ – ٣١٨

الفصل السادس: نتائج الدراسة

(ب.فهرس الأشكال)

(ج.فهرس الجداول)

شيء من التداعي...على سبيل المقدمة

إن كان الإنساني يأخذ معناه بالوجود في العالَم، الوجود في حضرة الآخر بما هو أُنس ومؤانسة، وإن كان ذلك العالَم يصبح وجوداً غفلاً – خارج نطاق الإدراك – إن لم يتم ترميزه عبر اللغة، فلقد كان سبيلي لترميز ذلك العالَم – منذ طفولتي – عبر الحكي من خلال تلك **الحواديت** التي لعبت أمي دور الراوية لها، ليتشبع عقلي بالعديد من الصور المتناثرة التي حملتني إلى عوالِمٍ رحبةٍ مشعة لها قوانينها ولغتها الخاصة، بل أحاسيسها الخاصة أيضاً التي لم أستشعرها في العالَم المحيط بي...

وتَظل تلك الرؤى وذلك الوميض يسكنني، قابعاً بداخلي ممثلاً لي المدد الذي يخفف وطأة الواقع وربما استحالته؛ دون أدنى معرفة مني بحقيقة ذلك الشعور الذي يدفعني دفعاً إلى استحضار تلك الرؤى وتلك الحالة؛ وكأنها الملاذ الذي ألجأ إليه طالباً السكينة. وتمضي سنوات ليصبح الصبي شاباً لألتحق بكلية الآداب قسم علم النفس جامعة الزقازيق آملاً أن أجد إجابة عن تساؤلاتي؛ إلا أن جُل ما حصلت عليه من شروح وتنظير في السلوك الإنساني قد وقف عند حد الوصف رافعاً لافتة الارتباطات وتكوُّن العادات؛ باعتبار أن السلوك نتاج لعدد من المثيرات، إضافة إلى بعض المفاهيم – القاصرة والمشوهة في كثير من الأحيان – التي تعلمتُها عن تيار التحليل النفسي ومؤسسه **سيجموند فرويد** . وبهذا وجدتُ نفسي أمام طوفان التيار السلوكي المعرفي، ذلك التيار الذي لا أُنكر على أنصاره ما حققوه من نجاحات في التعامل مع بعض الاضطرابات النفسية، إلا أنه لم يُمكّني من الإبحار عبر أعماق النفس مكتشفاً لها كي أتخطى حالة الوصف إلى الفهم والتفسير...

في تلك الفترة، وبينما يهيمن عليّ ذلك الشعور المرير بالإحباط والاعتقاد في عدم جدوى ما أتلقاه من خطاب معرفي؛ تصادف أن حصلتُ على نسخة من رواية **ساحر الصحراء** (السيميائي) للروائي البرتغالي **باولو كويلهو**، والتي قام بترجمتها للعربية الروائي المصري – مرهف الحس – **بهاء طاهر** ، تلك الرواية التي وضعتني

مرة أخرى أمام رغبتي العميقة في التنقيب داخل أغوار النفس في محاولة للفهم والعثور على إجابة عن تلك التساؤلات التي تراودني منذ الطفولة والتي لم أجدْ لها – رغم ما تلقيته من علوم النفس – تفسيراً مقنعاً.

ويكون اللقاء مع المُعلِّم، وللمرة الأولى أجدني أمام النص الأصلي لخطاب التحليل النفسي – دون تحريف النقل، أو تشويه سوء الفهم – عبر **الموجز في التحليل النفسي** وكأنه المسُّ – كما يتناوله الحس الشعبي – الذي أصابني منذ الصفحات الأولى من المتن لتصبح ذاتي مُستلَبة – وإن كان سلبُها إيجاباً – في ذلك العالَم المُلغِز، وتستمر الرحلة مع المؤلَّفات الأساسية في التحليل النفسي ليكون الحبو في المحراب، ويرتبط دال **فرويد** في مخيلتي بـ **زيور وصفوان وسامي ومخيمر** تلك الدوال المنتصبة التي لم يستطع ذلك الحابي استيعابها أو إدراك قيمتها في ذلك الوقت، وبالرغم من الترجمات الرائقة والحواشي الشارحة وثَبْتِ المصطلحات/المفاهيم – التي تُمثِّل نصاً إبداعياً أصيلاً إضافة للنص الأصلي – ظلت نصوص المُعلِّم – في معظمها – مستعصية على الفهم في تلك المرحلة – ويرجع ذلك إلى كوني كنت في بدايات التكوين المعرفي، إضافة إلى المقاومة التي هي قدَر الخطاب التحليلي في مختلف العصور ومختلف الثقافات – إلا أن ذلك لم يقف حائلاً بيني وبين مواصلة الحبو في محراب المُعلِّم؛ وكأنها أسطورتي الذاتية بالمفهوم الكويلهي، وباعتبارها قضيتي الخاصة بالمفهوم الصفواني.

وما بين رغبتي المُلِّحة في الفهم وبين استمراري في جمع وقراءة كل ما يتاح لي من مؤلَّفات تتصل بالتحليل النفسي؛ يكون اللقاء بذلك الدال الشامخ الذي مثَّل لي أباً رمزياً منذ الْتَقيته، إنه مُعلِّمي الأول في درب المعرفة الوَعِرة العلَّامة/ **عبد الله عسكر** – حامل خطاب اللاكانية في مصر والمنطقة العربية – فمعه ومن خلاله أخذ الفهم يستقيم، واللبس ينفضُّ، والمجهلة تتوارى شيئاً فشيئاً كلما أُميط اللثام هوناً عن تلك الحفرية اللغز ألا وهي النفس موضع تساؤلاتي منذ الصغر، وبخطاب عسكر بدأتْ قطيعتي الإبستمولوجية – وفقاً لما ذهب إليه **جاستون باشلار** – وبدأتْ رحلة تكويني المعرفي في محرابه، أو لنقل : «صرحه الذي صنعه على عينه وعبَّد به المتراكم في

نهر الوقفة بعلم وكيفٍ متجدِّد »، والكلم هنا لشمسنا الساطع دوماً دون خَبوٍ المحلِّل النفسي الثاقب والمؤرخ البصير لحركة التحليل النفسي في ثقافتنا، الدال المنتشر مُعلِّمي المُبجَّل العلَّامة **حسين عبد القادر**؛ فمعه وبصحبة مُعلِّمي المُبجَّل الذي يتكسر الكلم على لسان الحرف عاجزاً عن وصف قيمته أو إعطائه حقه، ذلك الحاضر أبداً – الخارج في النهار – العلَّامة **فرج أحمد فرج** تعلمتُ كيف أنتقل من البصر إلى البصيرة، ومن الرأي إلى الرؤية، ومن الوصف إلى الفهم المتعمق في محاولة للتفسير، فمنهما أدركتُ ضرورة الانفتاح على الفكر الفلسفي وعلم الأساطير وعلم الإنسان وعلوم الأدب وعلوم اللغة والسياسة والفنون عامةً؛ وبذلك أدركَ ذلك الحابي في محراب العلم قدْر العلَّامة **مصطفى زيور** حامل الرمز، فهو الأب الرمزي لحركة التحليل النفسي في الثقافة العربية، ومؤسِّس صرحه في مصرنا، وصانع شموسه المشعة في مشارق الأرض ومغاربها، فها هو طرح غرسه علَم أعلام اللاكانية في العالَم العلَّامة **مصطفى صفوان**، والرائد المتفرد بمدرسته وتنظيره في الأمراض السيكوسوماتية في أوروبا العلَّامة **سامي علي** ، والمحلِّل النفسي – صاحب الرؤى المتفردة – العلَّامة **أحمد فائق**، والمحلِّلة النفسية المتعمقة في تيارات التحليل النفسي – الموسوعية في رؤاها – الأستاذة الدكتورة/ **نيفين زيور**، وغيرهم الكثير من شموس لا يتسع المقام لذكرهم(*)؛ كما أدركتُ قيمة وهامة العلَّامة **صلاح مخيمر** ومنهاجيته ورؤاه الخاصة في التحليل النفسي عامة والمنهج الإكلينيكي خاصة.

وفي تلك الفترة كنت قد أنهيتُ دراستي الجامعية والتحقتُ بالسنة التمهيدية للماجستير، كما كنت قد بدأت مشواري العملي في ممارسة دوري كإخصائي نفسي بمستشفى شعلان للطب النفسي بالشرقية، ليكون لقائي بذلك الشامخ النبيل العلَّامة

(*) يمكن للقارئ العزيز الرجوع إلى بحث أستاذي المُبجَّل العلَّامة/ **حسين عبد القادر محمد** الذي أُلقي في «**الجمعية اللاكانية الدولية بباريس**» : «**التحليل النفسي والعالَم العربي**» ٢٠٠٢، والذي أُعيد نشره في «**أوراق فلسفية** » العدد ١٦ تحت عنوان: «**التحليل النفسي في مصر بين أمس واعد وغد غائم**» ٢٠٠٧؛ وذلك للوقوف على تاريخ حركة التحليل النفسي وخطابه ورواده في ثقافتنا.

محمد شعلان ، ولا عجب في إصراري على التتلمذ في محرابه العلاجي التعليمي وهو من القلة – في ميدان الطب النفسي – الذين يؤمنون بدور وتأثير الكلمة وأهمية – بل ضرورة – التحليل النفسي وهو الذي قد حلَّل نفسياً، ومع **شعلان** ومؤسسته العلاجية اكتسبت القدرة على تطويع ما تمثلته من تنظير في التواصل مع المرضى، ومساعدتهم على الاستبصار قدر المستطاع؛ خاصة وأن **علاج الوسَط** كان الأسلوب الرئيسي المتّبع في مؤسسته؛ إضافة إلى **«العلاج الجمعي والسيكودراما»** وغيرها من الفنيات العلاجية، وكلها أساليب وفنيات قائمة على الكلمة، ويتاح عبرها الطرح بحالتيه سلبياً كان أم إيجابياً، وتتجلى فيها آلية الإسقاط. وبدأتُ في إعداد أطروحتي للماجستير، ومن خلال تعاملي مع العديد من حالات الإدمان ومعايشتهم داخل المستشفى، والإنصات إليهم لساعات وهم يصفون تجاربهم ورحلتهم مع المخدرات؛ استوقفني ذلك الوصف لتلك الحالة التي عاشها كل مدمن تدخلتُ معه علاجياً؛ فلقد كان إجماعهم على أن المخدِّر كان وسيلتهم للتخلص من صعوبة الواقع وربما استحالته، فمعه – أي المخدِّر – كانوا ينتقلون إلى عوالمَ رائعةٍ مليئة بأحاسيس النشوة، حينها كنت أمام بداية رحلتي كإنسان؛ فبهذه الأحاسيس وعبر تلك الرؤى وتلك العوالمِ الرحبة المشعة بأحاسيسها ولغتها الخاصة تَفتَّح عقلي من خلال **حواديت** أمي لي، لكن إن كانت أحاسيسي مشابهة إلى حد بعيد لأحاسيس مدمن المخدرات فلماذا كان بحثي عن تلك الحالة من السكينة عبر طرح التساؤلات والبحث لها عن إجابة في محراب العلم، في حين كان سبيل المدمن للإمساك بها عبر تغييب العقل بالمخدِّر؟!؛ ولقد وجدت الإجابة عن تساؤلي في الطرح اللاكاني للنفس البشرية، ذلك الطرح الذي تمحور حول اللغة ودورها الفاعل في تكوُّن الإنسان، فمع اللغة – النظام الرمزي – نتمكن من الانفصال عن الطبيعة لنتصل بالثقافة التي تكسبنا إنسانيتنا، في حين أن المدمن يفشل في ولوج النظام الرمزي عبر اللغة، والذي يدفعه – أي المدمن – نحو عالمه الخيالي الهلوسي، رجوعاً إلى التفكك ووهم التكامل، التفكك الذي يدركه في جسده الحقيقي واقعياً وفي عالمه الفعلي المُعاش، والتكامل الذي يتحقق عبر الصورة المرآوية خيالياً، حيث وهم استعادة الهوية المفقودة، كما تكون اللغة على مستوى قبل

لغوي – إن جاز للباحث القول – حيث المونولوج – الحوار الذاتي – بمفردات لغوية خاصة جداً بالمدمن، وكأنه في علاقة جَدَلية مع الشبيه بالمرآة قوامها العشق/الافتتان والعدوان، خارج النسج الاجتماعي؛ لذلك تعمل المخدرات والمسكرات كوسيط خيالي يتواصل عَبره المدمن مع الوجود، وإن جاز القول، يصبح المخدِّر مرآة تنطبع عليها الصورة المكتملة لأنا المدمن الخيالي، والتي يُستلَب فيها، ويُفتتَن بها، كما حدث لـ **نرجس** ، وليُصبِح صوت الآخر الممثل للنظام الرمزي، والذي يسعى لانتشاله من وهم تلك الصورة وإغوائها النرجسي المُدمِّر – يُصبِح مجرد صَدى يذَهب سُدى.

عزيزي القارئ حاولتُ – مجتهداً – عَبر هذه الدراسة أن أُبحر بين شاطئي النفس في انحرافها، مستعيناً بما تزودتُ به من علم ومعرفة – وإن لم تزل بَعدُ قاصرةً – بالنفس، موقناً بأن للمجتهد إذا ما أخطأ أجراً، وإذا ما أصاب أجرين؛ وسلام من الفجر إلى الفجر .

محمد فتحي محمد

قرية الصوالح – فاقوس – الشرقية

١٠ – ١٠ – ٢٠١٠

إدمان المخدرات والمسكرات ... مدخل

- مقدمة .

- مفاهيم أساسية .

مقدمـة:

الظاهرة هي موضوع ذو معنى يمكن تحديدها عبر شبكة من العلاقات الداخلية والخارجية، ويمكن تمييز ظاهرة عن أخرى من خلال الخواص المُحدِّدة لها؛ تلك الخواص التي تمنحها معنى داخل النظام الرمزي الذي تنتمي إليه (٢٤: ٢٢-٢٣)(*). فالإنسان ظاهرة فريدة لها خصائصها الكمية والكيفية، وإذا كان لنا أن ندرس الإنسان - بوصفه كائناً بشرياً - فلنا أن نضع له قوانينه الخاصة طالما أنه الكائن الوحيد الذي يحتكر الجريمة والاضطرابات النفسية (٧٥: ٢٩١-٢٩٢)، بل كونه الكائن الوحيد الذي يتعاطى/ يدمن المخدرات والمسكرات ويسعى لتكرار هذا التعاطي.

وإذا كان العلم يتحدد بموضوعه، فموضوع علم النفس- بل لنقل إعمالاً للدقة موضوع التحليل النفسي- هو الظاهرة النفسية كونها **ما يصدر عن الكائن البشري بفعل اللغة** (٨١: ٧٠)، تلك اللغة التي بدونها يصبح الوجود عدماً بالنسبة للذات حيث لا يتأكد وجود الذات إلا في حضور اللغة (٦٨: ٨٤)،(٨١: ٢٥٧)، حيث إمكانية قيام الجماعة الإنسانية، فالتفاعل بين الأفراد والجماعات يَحدُث من خلال نص يكشف عن السلوك (٤٧: ١٤٥).

أما إذا اضطرب هذا النص بمعنى حدوث خلل في العلاقات الأساسية في النظام اللغوي للإنسان فيحدُث نوع من الاضطراب بين ما يتصوره الإنسان في نظامه الخيالي وبين ما ينبغي التعبير عنه لفظياً بصوره صحيحة، هذا الخلل الذي يتبدّى جلياً في رسالة مدمن المخدرات والمسكرات حيث الارتداد إلى عالمه الخاص

(*) يشير الرقم الأول إلى رقم المرجع في قائمة المراجع، ويشير الرقم الثاني إلى رقم الصفحة في هذا المرجع.

بكل ما فيه من نرجسية ووهم القدرة المطلقة، حيث تتقطع به كل السبل لولوج العالم الاجتماعي (٨٢: ٧١،٦٧).

فيكون المونولوج(*) حيث يكون المدمن هو المُرسِل والمُستقبِل والمُقيِم وصاحب القرار الأول والأخير، وفي حالة حدوث ديالوج(**)لغوي بين جماعة الإدمان تكون لغة غامضة بدائية خاصة جداً بجماعة المدمنين، مستمدة دلالتها من مادة الإدمان في محاولة متخيلة لإحداث لذة التواصل الجَدَلي مع الآخر، والانخراط في النسق الرمزي العام (١٠٢: ٥٥٦). وحيث يكون التفكك حقيقة واقعة تفضي إلى الهدم دوماً دونما أية قدرة على البناء حيث يتغلف المدمن بحبائل نرجسيته مستعيداً وهم القدرة المطلقة حيث الإشباع المباشر دون معرفة بالتحريم الثقافي (٧٦: ٩٣).

ويأتينا **عبد الله عسكر** بواحدة من حقائق الوجود الإنساني كاشفاً عنها لِباس العُرِي كي تُرى وتُسمع وتُنطق جلية لكل من يُعمِل العقل ذلك الذي – أي العقل – سجد له من سبقوه في الوجود حينما نطق اللسان بتلك التي سبقت كل من سبقوه في قلب الوجود؛ حيث يؤكد **عسكر** على أن **الوجود الحتمي للمخدرات لصيق الصلة بالوجود البشري** (٨٢:٨).

حيث يكون التعاطي بحالتيه بناءً وتطوراً ومداً لجسور التلاقي مع الآخر استكمالاً للمشروع الإنساني، فيكون تعاطياً للكلمات، اللغة تلك الميتة الكبرى حيث الرمز، القانون حيث الثقافة؛ وهدماً ونكوصاً وحبساً انفرادياً مع أنا واهِم نسفاً للمشروع الإنساني، فيكون تعاطي/إدمان المخدرات والمسكرات التهاماً وتحطيماً حيث الخيالي

(*) **مونولوج:** مصطلح مسرحي (شائع الاستخدام في المسرح) يدل على مناجاة الممثِّل نفسه على خشبة المسرح، وهذا ما يحدُث للمدمن حيث يكون حواره مع ذاته دون الانخراط في التواصل الجدَلي مع الآخر.

(**) **ديالوج:** يناقض هذا المصطلح مصطلح مونولوج، حيث يدل على التواصل وتبادل الفكر والرأي باعتباره حواراً بين الذوات داخل النظام الرمزي، لكنه في حالة المدمن يكون في قلب النظام الخيالي.

وحيث يصبح الوجود عدماً والعدم عالماً يحيا فيه المدمن متوهماً اللذة حيث الطبيعة.

وكما يساعد النوم الرضيع على استعادة قدر من الرغبة في تحقيق اللذة بعيداً عن عالم الواقع الذي أوجدته هذه الرغبة، يكون المدمن بوهم القدرة على التماسك والسيطرة والاكتمال دون الحاجة إلى موضوع خارجي تاركاً المسرح لأناه الخيالي الواهم (٧٧: ٥٣،٤٥).

نحن إذن أمام نوعين من التعاطي/ الإدمان: أحدهما يسمح لنا بولوج النظام الرمزي، فيكون تعاطي اللغة، والآخر يوثّق صلتنا بالخيالي، فيكون تعاطي المخدرات والمسكرات، الأول لا يتوقف، فهو صيرورة ودينامية بسبيل التطور وفقاً لما ذهب إليه **بونتي** في تعريفه للإنسان، والثاني تَقهقُر حتى يتعطل العقل والجسد انتظاراً للخلاص...الموت.

ويرتبط تاريخ استهلاك المواد القادرة على تعديل حالات الوعي بتاريخ الإنسانية، فالأفيون المستخلص من نبات الخشخاش يوجد منذ أقدم العصور، والقنب الهندي في الهند والشرق الأوسط، وأوراق الكوكا التي يستخدمها سكان الهضاب المرتفعة في أمريكا الجنوبية، والمسكرات التي يتم الحصول عليها بتخمير مواد نباتية (١٧: ٦٢٥).

ويرجع ذلك الارتباط بين تاريخ استهلاك المواد المؤثرة نفسياً وتاريخ الإنسانية إلى ما كانت تقوم به تلك المواد من وظائف، سواء أكانت للفرد؟ أم المجتمع؟ - (كانت تلك الوظائف في أزمنة غابرة قبل أن يفطن الإنسان إلى ما لهذه المواد من قدرة على تقويض كل ما هو حضاري، وتراجع لكل ما هو إنساني)(*) - فالبنسبة للفرد كانت تعمل كمنشط يخفف من حدة الحالات الانفعالية السيئة، والأعراض

(*) حَرِصَ الباحث على الدقة في توثيق المرجعية للنصوص التي استخدمها في المتن، لذلك فعند وجود جُمَل اعتراضية، أو جُمَل بين قوسين في فقرة/نص ينتهي بتوثيق مصدره تكون هذه الإضافات/الفقرات من عند الباحث، وفي حالة وجود فقرة/نص لا ينتهي بتوثيق يكون النص كله من عند الباحث، وهذا ما ينطبق على المتن كله.

الجسدية المزعجة عن طريق تغيير أو تعديل حالات الوعي، وبالنسبة للمجتمع فكانت تُستخدم في الاحتفالات الدينية، والقيام بطقوسها، كما كانت تُستخدم في العلاج الطبي للعديد من الأمراض (١٣٣ : ٣).

وتُعَد مشكلة الإدمان من المشكلات العالمية التي لا تقتصر على مجتمع دون الآخر، أو طبقة اجتماعية داخل المجتمع دون الأخرى، وبالرغم من تعدد أشكال الإدمان إلا أن إدمان المخدرات والمسكرات يبقى أكثر أشكال الإدمان – إن لم يكن أكثرها على الإطلاق – ضرراً بالمدمن وبالمجتمع الذي ينتمي إليه (١٥٢:٣).

ومع نهاية القرن التاسع عشر، أصبحت مشكلة إدمان المخدرات والمسكرات موضع اهتمام المشرعين (رجال القانون)، والعاملين في مجال الصحة والحركات الإصلاحية، من أجل مواجهة المشكلة على المستويين: التشريعي والعلاجي (١٧٣ : ٢)، ولقد بدأت ظاهرة الإدمان تأخذ مكان الصدارة بين المشكلات الاجتماعية والصحية على الصعيد العالمي منذ منتصف الستينات (١٣ :١١٤).

حيث كان الاهتمام بتناول تلك الظاهرة بالبحث والدراسة بهدف الكشف عن العلاقات القائمة بين العوامل المؤدية إليها، سواء أكانت عوامل عضوية؟ أم اجتماعية؟ وغيرها من العوامل المؤدية إلى الإدمان، وكما تعددت الأهداف التي تسعى إليها الدراسات المتعددة لظاهرة الإدمان، تعددت أيضاً التوجهات النظرية والتيارات المعرفية التي انطلق منها الباحثون، وإن كان ما يعني الباحث هنا هو تلك الرؤية الكلية لظاهرة الإدمان، باعتبار أن المدمن وجود في العالم كونه إنساناً يتشكّل وفقاً لشبكة معقدة من العلاقات بين الذوات في ظل النظام الثقافي المحيط به.

لذا يُفَضّل الباحث إلقاء الضوء – في إلماحة سريعة – على بعض من تلك الدراسات التي اتخذت من الإدمان موضوعاً لدراستها – بوصفه ظاهرة إنسانية متشابكة العوامل – في محاولة لسبر أغوار البنية النفسية للمدمن للكشف عن العوامل النفسية المحركة لفعل الإدمان، وخصائص شخصية المدمن في بيئتنا الثقافية.

وتُعتبر المخدرات والمسكرات بالنسبة للمدمن وسيلة لتبديل حالته النفسية

كخفض الكَدَر المرتبط بالقلق، والغضب، والاكتئاب، وتحقيق التكيف النفسي أو اللذة؛ لذلك يُعتبر الإدمان بمثابة نوع من العلاج الذاتي (١٠٧: ٤٣٧-٤٣٨)،(١٧: ٦٢٥)، وهذا ما يذهب إليه **فرج أحمد** بأن المدمن يسعى إلى إعادة بناء عالمه بشكل وهمي عن طريق المخدر لتحقيق التوافق مع نفسه (٨٦).

كما وضّح **سعد المغربي** في دراسة تُمثّل الإرهاصات الأولى من دراسات الإدمان من منظور التحليل النفسي في مصر **تعاطي الحشيش، دراسة نفسية اجتماعية** أن الإدمان نتاج لبناء نفسي مرضي، ويتبدّى ذلك الاضطراب في اضطراب الموقف الأوديبي، والجنسية الطفلية، وصراعات الاستمناء، مع اضطراب المرحلة الفمية كمرحلة باكرة من مراحل النمو النفسي الجنسي وما يترتب عليه من عدم الشعور بالأمن، وانخفاض تقدير الذات، وفقدان الحب **(العلاقة بالموضوع الأول)** ، لذلك يُعتبر تعاطي الحشيش محاولة نكوصية من المدمن للمرحلة الفمية في محاولة للتعويض(٤٨).

وأشار في دراسته الثانية **سيكولوجية تعاطي المخدرات** إلى أن المدمن يتصف بناؤه النفسي بعدد من الخصائص، منها اضطراب العلاقة بالأب، حيث يمثّل الأب رمزاً للقسوة والإهمال والخوف، كما يسيطر التناقض الوجداني على علاقة المدمن بالأم، والاعتمادية حيث يحل المخدر كموضوع بديل للأم (٥٠).

ويذهب **محمد رشاد كفافي** بنتائج دراسته **سيكولوجية اشتهاء المخدر لدى متعاطي الحشيش** – إلى الوقوف على ديناميات البناء النفسي لمدمن الحشيش عامة، وفي حالة الخرمان (اللهفة Craving)خاصة؛ حيث وضّح أن البناء النفسي لمتعاطي الحشيش يتشابه – إلى حد بعيد – ببنية اضطراب الهوس الاكتئاب (الاضطراب الوجداني ثنائي القطب)، كما يمثل فعل التعاطي نكوصاً إلى المرحلة الفمية المتأخرة في محاولة لتحقيق الإشباع، ومقاومة الشعور بالدونية، ومشاعر الاكتئاب، وأخيلة الالتهام الذي يمثل تهديداً بتدمير الذات (١٠٨).

وهذا ما ذهب إليه كل من: **محمد رمضان** ، و **عبد الله عسكر** ؛ حيث يوضّح

محمد رمضان في دراسته **تعاطي المخدرات لدى الشباب المتعلّم، دراسة سيكولوجية التعاطي** – اضطراب علاقة المدمن بالأم، باعتبارها الموضوع الأول للحب، واضطراب العلاقة بالأب، واعتباره مصدراً للتهديد والعقاب مع سيطرة الاعتمادية الطفلية (١٠٩).

وتَلاَقَى ما توصل إليه **عبد الله عسكر** من دراسته **تعاطي الأقراص المخدرة وعقاقير الهلوسة لدى الشباب المتعلّم** – مع ما توصلت إليه الدراسات الأخرى؛ حيث بيّن مدى اضطراب العلاقة بالأم – باعتبارها العلاقة الأولى بالموضوع – وما ينتج عنه من اضطراب البناء النفسي للمدمن وما يترتب عليه من فقدان الهوية، مع سيطرة المشاعر الاكتئابية، والشعور بالإثم، والاعتمادية، وضعف التواصل الإنساني والمشاركة الاجتماعية (٧٣).

وهذا ما أكدته دراسة **هناء أبو شهبة: دراسة إكلينيكية متعمقة، دراسة حالة هيروين** ؛ حيث بيّنت الدراسة مدى اضطراب البناء النفسي للمدمن المتمثل في التناقض الوجداني الموجه نحو الأب، وضعف الأنا، وتعطل النمو النرجسي، وسيطرة المشاعر الاكتئابية، والشعور بالإثم، والميل إلى عقاب الذات (١٢٥).

وفي دراسة **ماهر نجيب إلياس: العلاقة بين البناء النفسي ونوع المخدر، دراسة لمدمني الهيروين ومدمني المواد البنزوديازينية** – وضّح الباحث سيطرة المشاعر الاكتئابية على المدمن والشعور بالرفض، مع اضطراب العلاقة بالأب واعتباره مصدراً للقسوة، والاضطهاد مع الاعتمادية على الأم، وسيطرة النرجسية(١٢٣).

كما توصّل **وجدي عبد اللطيف** في دراسته **التحقق من التفسير السيكودينامي لسيكولوجية مدمني المخدرات** – إلى أن المدمن يعاني من إحباط في المرحلة الفمية، نتج عنه اكتئاب، لذلك يُعتبر الإدمان محاولة في الدفاع ضد مشاعر الاكتئاب من خلال الحالة الهوسية الناتجة عن المخدر (١٢٧).

وفي محاولة للكشف عن الاختلاف بين مدمني الهيروين ومتعاطيّ الحشيش في ديناميات البناء النفسي – وجدَ **حسين فايد** في دراسته **دراسة مقارنة لديناميات**

شخصية متعاطي الهيروين ومتعاطي الحشيش - اتفاقاً بين مدمني الهيروين والحشيش في جوانب الشخصية الفصامية، الاكتئابية، الهستيرية، السيكوباتية ، وأن الاختلاف يكون في الدرجة وليس في النوع (٣١).

يتضح من النص السابق أن ظاهرة الإدمان تتشكل من خلال شبكة ديالكتيكية بين الذوات، وإذا كان الفهم يتحقق بالدراسة المتعمقة للكشف عن شبكة العلاقات بين الدوال، وإذا كان الفهم بالبنية الكلية يتأتى بتحليل بنائها، فإن الباحث يسعى من خلال هذه الدراسة إلى استنطاق القابع الخفي بداخل مدمن المخدرات والمسكرات، مفترضاً للدور الرئيسي والمحوري الذي يقوم به النظام الخيالي في اضطراب البنية النفسية لمدمن المخدرات والمسكرات.

مفاهيم أساسية

المتن يشتمل على العديد من المفاهيم المتصلة بخطاب التحليل النفسي اللاكاني من جهة، والعديد من المفاهيم المرتبطة بالإدمان من جهة أخرى، والتي سيتناولها الباحث تفصيلاً في سياق النص، وإن كان يُفضِّل عرضها في هذا المدخل كعرض مبدئي.

البنية: Structure

يسكن المفهوم في لغتنا حاملاً دلالة فعل البناء، فالبنية هي ما بُني وجمعها بِنَى، وهي تعني هيئة البناء وشكله، ومنها بنية الكلمة، وفلان صحيح البنية أي سليم الجسد (١٠٠: ٦٤).

ولقد شَبَّ جَدَل حول مفهوم البنية باعتباره تصوراً ذهنياً مجرداً، وليس مجموعة من العلاقات الحسية في هياكل مادية يمكن أن يطولها الإدراك المباشر؛ حيث كان هناك تساؤل: هل البنية في الهيكل المادي الذي نراه؟ أم هو تصور ذهني يُدرِك به العقل طبيعة هذا الهيكل المادي الخارجي؟، والمفهوم يشير إلى هذا التصور الذهني أكثر مما هو علاقات محسوسة مادية (٦٣: ٨١).

وباستعراض الخطاب اللاكاني نجد **لاكان** Lacan قد استخدم مفهوم البنية في أعماله الباكرة عام ١٩٣٠، وكان ذلك للإشارة إلى البنى الاجتماعية من خلال ما كان يعني به وضعاً محدداً من العلاقات بين أعضاء العائلة، تلك العلاقات التي يعيها الطفل بعمق شديد عنه لدى الراشد، ويقوم باستدماجها ذاتياً (١٤١: ١٩٢).

ويوضّح **فرج طه** مفهوم البنية بأنها تنظيم لمجموعة عناصر أساسية يتميز بالتكامل والوحدة والتمايز عن غيره، ويقوم بوظائف معينة (٩٣: ١٥٣).

يتضح من تعريف **فرج طه** ما يشير إليه مفهوم البنية من تعدد العناصر المكونة لها، ومن الدور المحدَّد لهذه العناصر، واختلافها من حيث التكوين والوظيفة عن غيرها من البنى، وهذا ما سيتضح في المتن؛ حيث استخدم الباحث مفهوم البنية من خلال منطلقين: كونها بنية النظام الخيالي من حيث تشكُّله، ووظائفه في المقام الأول وبشكل خاص، كما استخدمها في المقام الثاني من خلال الكشف عن ديناميات البناء النفسي للمدمن، وكيفية تشكُّله وذلك من خلال خطاب النظرية اللاكانية.

النظام الخيالي : The Imaginary Order

يمثِّل النظام الخيالي أحد الأنظمة الثلاثة: **الخيالي** Imaginary، **الرمزي** Symbolic، **الواقع** Real، والتي شكلت المخطَّط الثلاثي الذي مثَّل مركز الفكر اللاكاني، ويرجع استخدام مفهوم الخيالي في الفكر اللاكاني إلى ما قبل عام ١٩٣٦، وكان استخدامه منذ البداية للدلالة على الوهم، والافتتان والإغواء، وارتبط بشكل محدَّد بالعلاقة الثنائية بين الأنا والصورة المرآوية، حيث يشكِّل النظام الخيالي جوهر علاقة الشخص بجسده أو على الأرجح صورة جسده Body Image، حيث يمارس قوة الأسر على الذات من خلال تأثير الصورة المرآوية؛ فأساس النظام الخيالي هو تشكُّل الأنا في مرحلة المرآة، ومنذ تشكُّل الأنا بواسطة التعيين الذاتي بالشبيه Counterpart، أو الصورة المرآوية يصبح التعيين الذاتي مظهراً هاماً في النظام الخيالي (١٤١: ٨٢-٨٣)؛ حيث يمثِّل النسيج الخيالي لمرحلة المرآة Mirror stage أول سبيل لتوظيف الطاقة الليبيدية التي سوف تؤثر في كل التخيلات اللاحقة (٢٨: ١٣٥).

ويمثِّل النظام الخيالي أحد الأنظمة الثلاثة المحورية في الفكر اللاكاني، والتي تتشكل عبرها الذات – كما أشار النص السابق –، والنظام الخيالي يمثِّل عدداً لا نهائياً من الصور المتخيلة Imagoes ابتداءً من صورة الشبيه الممثِّل للأنا المرآوي والذي يُعتبر جُماعاً للتمزُّق، واكتمالاً متخيلاً لعدم النضج البيولوجي، وبذلك فهو يرتبط بمرحلة المرآة وما تتصف به من بداية للتعيين الذاتي Identification، وظهور للنرجسية Narcissism.

الإدمان : Addiction

يُعرِّف **مصطفى سويف** الإدمان بأنه التعاطي المتكرر لمادة نفسية (مخدرات أو مسكرات)، لدرجة أن المدمن يكشف عن انشغال شديد بالتعاطي، كما يكشف عن عجز، أو رفض للانقطاع، أو لتعديل تعاطيه، وكثيراً ما تظهر عليه أعراض الانسحاب، إذا ما انقطع عن التعاطي .

كما بيَّن **سويف** عدداً من أبعاد الإدمان والتي تتمثل في:

* ميل إلى زيادة جرعة المادة المتعاطاة.
* اعتماد له مظاهر فيزيولوجية واضحة.
* حالة تسمم عابرة أو مزمنة.
* رغبة قهرية ترغم المدمن على محاولة الحصول على المادة المتعاطاة بأية وسيلة.
* تأثير مدمر على الفرد والمجتمع (١١٤: ١٧-١٨).

المدمن : Addict

من خلال تعريف مفهوم الإدمان يمكن للباحث تعريف المدمن بأنه الشخص الذي يتعاطى المخدرات أو المسكرات بشكل قهري يعجز معه عن الانقطاع، أو التعديل في فعل التعاطي؛ حيث يكشف عن اعتماد نفسي، أو نفسي وعضوي على المادة المخدرة أو المسكرة، كما أنه يظهر ميلاً نحو زيادة الجرعة المتعاطاة، كما يعاني من مجموعة من الأعراض النفسية أو النفسية العضوية عند الامتناع عن التعاطي، أو

تقليل الجرعة المتعاطاة .

المخدرات : Drugs

تُعتبر دلالة كلمة مخدر في اللغة العربية أكثر وضوحاً ودقة من كلمة Drug في اللغة الإنجليزية، وشبيهتها في اللغة الفرنسية، فإذا كانت الأخيرة تعني – من ناحية – العقار الطبي، ومن ناحية أخرى تعني المخدر المعروف بقدرته التنبيهية، أو التثبيطية، فإن الأُولى تعني المخدرات، بينما يُطلق على العقار الطبي لفظ دواء، أو مستحضرات دوائية (٥١ : ٩).

والمُخَدِّر يعني – في لغتنا – مادة تسبب فقدان الوعي وجمعها مُخَدِّرات، ويقال تَخَدَّر الشخص؛ أي فتر واسترخى أو استتر، وخَدَّرَ أي ستَرَ وفتَّر وكسَّر (١٠٠ : ١٨٧).

فإذا كانت دلالة المفردة اللغوية هنا تحمل دلالة الفتور والاسترخاء وهو المتعارف عليه من تأثير المخدرات التثبيطي، فإنها تحمل أيضاً دلالة التكسير، وكأنها تشير إلى قدرة المخدرات التنبيهية التنشيطية – بل قدرتها على تفعيل العدوانية أيضاً – من ناحية، ومن ناحية أخرى ما ينتج عن الإدمان (المخدرات، المسكرات) من كسر لكل ما هو متفق عليه من نظم وقواعد، كسر لكل ما هو ثقافي، وكأنها ترشدنا إلى النتاج الحتمي لفعل تعاطي المخدرات والمسكرات، كما أنها تحمل أيضاً دلالة الغياب والاختفاء ولكنه ليس غياباً واختفاءً رمزياً – كما استبصره **فرويد** من لعبة حفيده الرمزية التي أراد بها السيطرة على فقدانه للموضوع –، بل هو غياب للرمز، للقانون، غياب للثقافي، وسيطرة للصورة، ووهم النرجسية المطلقة، فالتواري والاستتار هنا توارٍ للعقل بمنطقه، واستتار للقانون بمُحرماته ومقدساته، إنه الجنون بما تعنيه المفردة من استتار للعقل وتعطيل لقوانينه.

ويُعرِّف **عبد الله عسكر** المخدرات بأنها مواد تؤدي إلى الاعتماد العضوي والنفسي، وتساعد على تنمية استعداد المتعاطي للإصابة بالاضطرابات، والأمراض النفسية والعقلية (٧٣ : ١٦).

ويضيف الباحث على تعريف **عسكر** أن المادة قد تكون طبيعية، أو مُصنَّعة

مُخلَّقة، أو مشتقة نصف مُصنَّعة من مادة طبيعية، كما أن الاعتماد على المادة قد يكون نفسياً وعضوياً، أو نفسياً فقط.

كما أن اهتمام الباحث انصب على المخدرات والمسكرات، وذلك بالتركيز على أنواع محدَّدة من المخدرات، والمتمثلة في (الحشيش، الهيروين، الكوكايين)، بينما المسكرات تتمثل في الخمور أو الكحوليات بأنواعها، ومسمياتها المختلفة، والتي ترتبط بالمادة التي يتم استخلاصها منها، وتركيز نسبة الكحول فيها، وهذا ما سيوضحه الباحث في الفصل الأول من المتن.

ويرجع انتقاء الباحث للمسكرات، وتلك الأنواع من المخدرات إلى كونها ترتبط ببنية النظام الخيالي، أو بمعنى أكثر وضوحاً تتبدًى من خلالها بنية النظام الخيالي كونها تحرك بنية اللاشعور، مع الإبقاء على قدر معقول من الاتصال بالواقع، كون هذه المواد لا ينتج – إلا في بعض الحالات التي يتم فيها تعاطي جرعة زائدة – عنها التسمم الحاد نتيجة التعاطي؛ بالإضافة لكونها المواد الأكثر انتشاراً في بيئتنا.

(١)

الفصل الأول

المخدرات والمسكرات

(المفاهيم، الفئات، الأعراض، التشخيص)

- مفاهيم في الإدمان.
- فئات المواد المؤثرة نفسياً.
- المخدرات والمسكرات، المواد موضع الدراسة.
  - الحشيش.
  - الكوكايين.
  - الهيروين.
  - الكحوليات (الخمور،المسكرات).

الفصل الأول

المخدرات والمسكرات

مقدمة:

لم يكن التعامل مع المخدرات والمسكرات في الماضي، من منطلق أنها مشكلة – ليست فقط على المستوى الشخصي بل على المستوى الاجتماعي – ويمكننا أن نلمس ذلك باستعراض تاريخ تعاطي المخدرات والمسكرات، حيث كان استخدام الأفيون غير ممنوع في انجلترا حتى عام ١٨٦٨، وكان يتم تعاطيه في صور مختلفة، كما كان الكوكايين يستخدم على نطاق واسع، وفي صور متنوعة؛ حيث وجدَ ترحيباً وإقبالاً من الجميع، ولقد جرّب **سيجموند فرويد** Sigmound Freud المخدر – سواء بتعاطيه عن طريق الفم أو الحقن – وقام بوصفه لمرضاه، وأصدقائه، وخطيبته، وشقيقاته، وكتب مقالات وصف فيها الشعور بالبهجة، والنشوة الدائمة الناتجة عن تعاطيه (١٠٧: ٤٢١).

كما أن هذا الارتباط التاريخي بين الإنسان والمخدرات يَظهر في الحضارتين القديمتين: الهندية والصينية؛ حيث اشتهرت الحضارة الهندية بتصنيع الأفيون، وتصديره إلى الصين، ولم تُحرِّم الصين استيراد الأفيون، وتعاطيه بشكل قاطع إلا في عام ١٨٠٠؛ بسبب ما تَبيّن من أثر هذا المخدر القوي في إضعاف حيوية الأمة (١٢٦: ٢٩٠).

كما كان يَستخدِم المصريون القدماء الأفيون كعلاج ودواء للكثير من الأمراض منذ القرن السادس عشر قبل الميلاد؛ ويتضح ذلك في العديد من القوائم الطبية التي ذُكِر فيها الأفيون (٥١: ١٢).

لذلك، فالمخدرات والمسكرات مرتبطة بالإنسان ارتباطاً مباشراً يتمثّل في الإدمان، وآخر غير مباشر حيث نجدها تُستخدم في نطاق الطقوس الدينية في بعض الديانات، أو الطوائف الدينية، كما أنها مرتبطة – بشكل أو بآخر – بالاستخدامات

الطبية، أو ما يُعرَف بالوصفات العلاجية الشعبية في المجتمع المصري، كما تُعَد من المظاهر الملحوظة في الاحتفالات الترفيهية، أو بعض المناسبات الاجتماعية.

لذلك تعددت المفاهيم المستخدمة في ميدان إدمان المخدرات والمسكرات للتمييز بين فعلِّي التعاطي والإدمان، وقد استمرت المحاولات منذ العشرينات، وحتى أوائل الستينات للتمييز بين مفهومي الإدمان، والتعود Habituation، باعتبار أن التعود صورة من التكيف النفسي أقل شدة من الإدمان. وفي أوائل الستينات أوصت منظمة الصحة العالمية باستبدال مصطلح جديد وهو **الاعتماد** بمصطلحي الإدمان والتعود (١١٤: ١٨).

ولقد كَرَّس الدليل التشخيصي الإحصائي الدولي العاشر للأمراض ICD-10 الصادر عن منظمة الصحة العالمية WHO –وهو دليل تشخيصي يُستخدم لتعريف وتصنيف الاضطرابات الجسدية والعقلية والسلوكية – قسماً كاملاً يتناول استخدام المواد المؤثرة نفسياً، وإساءة استخدامها، والاعتماد عليها (٣٨: ١٨١).

لذلك يرى الباحث ضرورة تناول بعض المفاهيم المتعلِّقة بإدمان المخدرات والمسكرات، والمتصلة بفعل التعاطي، وما يترتب عليه من أعراض من ناحية، أو طبيعة وأنواع المادة المتعاطاة من ناحية أخرى.

مفاهيم في الإدمان

المادة المؤثرة نفسياً : Substance

هي المادة التي تؤثر على النشاط الذهني بخلق حالة ذهنية خاصة، وحالة نفسية لمتعاطيها؛ إما بتنشيط، أو تثبيط الجهاز العصبي المركزي، وتُحدِث تخييلات وهلاوس (١٢٠ : ١٦٢)، (١٨ : ١٤)، كما تُحدِث حالة من الاعتماد النفسي البدني (١١٥ : ١٣٢)، وتكون هذه المادة ذات تركيب طبيعي، أو صناعي، يتم تعاطيها بهدف إحداث أثر نفسي معيّن، ويكون أحد أشكال الاضطرابات النفسية نتاجاً للتعاطي (٨٠ : ٥-٦).

سوء استخدام المواد المؤثرة نفسياً : Substances Abuse

يَحدُث سوء استخدام المواد المؤثرة نفسياً ضمن الإطار الاجتماعي، ويرتبط بالشعور بالإحباط وعدم إشباع الحاجات، والحاجة للهرب من مواقف غير محتملة، ويتم تحديد إساءة استخدام المواد المؤثرة نفسياً من خلال عدة مظاهر، وهي:

* تقويض الوظيفة الاجتماعية والاقتصادية للمتعاطي.
* حدوث تأثيرات طبية شديدة للمتعاطي، مع التعرض لأعراض انسحابية جسدية ونفسية عنيفة، بسبب التوقف عن التعاطي.
* التهديد بتقويض المؤسسات الاجتماعية كنتاج للتعطل الوظيفي للمتعاطي (٣٨ : ١٨٠-١٨١).

ولقد عرَّفت جمعية الطب النفسي الأمريكية APA مفهوم سوء استخدام المواد المؤثرة نفسياً بأنه نمط غير تكيفي، ينتج عنه اضطراب نفسي، عضوي، اجتماعي، ويتضح ذلك من خلال عدة معايير تتبدى خلال سوء استخدام المتعاطي للمادة المؤثرة نفسياً لمدة زمنية لا تقل عن السنة كالآتي:

١ . فشل المتعاطي/ مُسيء استخدام المادة المؤثرة نفسياً في القيام بالأدوار الاجتماعية مع التعاطي المتكرر للمادة.

٢ . تكرار التعاطي خلال المواقف الفيزيقية الخَطِرة.

٣ . تعرُّض المتعاطي للمشاكل القانونية بسبب التعاطي.

٤ . استمرار التعاطي بالرغم من المشكلات الناتجة عن التعاطي (١٣٠ : ١٨٢-١٨٣).

ويشير لفظ التعاطي إلى إساءة استخدام المواد المؤثرة نفسياً (المخدرات أو المسكرات)، والمفردة اللغوية «تعاطَى» تعني في لغتنا العربية تناول الشيء؛ وتعاطى الرجل، أي قام على أطراف أصابع الرجلين مع رفع اليدين إلى الشيء ليأخذه (١٠٠ : ٤٢٤)، ويتضح من دلالة المفردة اللغوية ما تحمله من رغبة ملّحة من قِبَل متعاطي الشيء في الحصول عليه.

ولقد أشار **مصطفى سويف** إلى ثلاث فئات من التعاطي، يمكن للباحث عرضها كالآتي:

١ . فئة **التعاطي الاستكشافي**: وهو تعاطي من أجل التجريب، وقد لا يتكرر ثانية، أو يصبح بداية للاستمرار في التعاطي.

٢ . **فئة التعاطي بالمناسبة**: وهو تعاطي مشروط؛ حيث لا يَحدث إلا من خلال توافر ظروف معيَّنة كالمناسبات بأشكالها، ولا يمثّل التعاطي رغبة ملّحة في هذه الفئة(*).

٣ . **فئة التعاطي المنتظم**: وهو التعاطي المتصل وبشكل ثابت، ويصاحبه اعتماد نفسي بدني (١١٥ : ٢٠-٢١)، وتمثّل فئة التعاطي المنتظم الفئة التي تهتم بها الدراسة الحالية وتحاول إلقاء الضوء على البنية النفسية لبعض الحالات الممثلة لها.

(*) وَجد الباحث العديد من حالات الإدمان والتي تقع ضمن حدود فئة التعاطي المنتظم التي وضّحها **سويف** كان بداية إدمانهم نتيجة للتعاطي الاستكشافي أو التعاطي بالمناسبة، لذا يرى الباحث ضرورة الاهتمام بهاتين الفئتين من التعاطي خاصة لدى صغار الشباب؛ كونهم أكثر عُرضة للوقوع في براثن إدمان المادة المخدرة أو المسكرة، لما تقوم به تلك المواد من تفعيل للبناء النفسي المضطرب لدى متعاطيها.

زملة الاعتماد : Dependence Syndrome

عَرّفت منظمة الصحة العالمية WHO مُتلازمة (زُملة) الاعتماد في الدليل التشخيصي الإحصائي الدولي العاشر للأمراض ICD-10 بأنها رغبة شديدة قهرية (حاجة استحواذية Compulsive Need) . للحصول على مادة ما (مخدرات، مسكرات)، يصاحبها عدم قدرة المرء على التحكم في معدلات التعاطي، أو على تحديد مستويات الاستهلاك، ويضع أولوية ملّحة للحصول على الجرعة التالية من المادة على حساب غيرها من الحاجات الشخصية، وذلك لتجنب الإحساس بالتأثيرات الكريهة لمتلازمة الانسحاب Withdrawal Syndrome، والتي تنشأ بسبب الانقطاع عن تناول المادة المخدرة أو تخفيض جرعتها، وبالرغم من هذه العواقب الضارة يستمر تعاطي الشخص لهذه المادة (٣٨: ١٨٣-١٨٤).

وتم تحديد المعايير التشخيصية لمُتلازمة الاعتماد في الدليل التشخيصي الإحصائي الرابع DSM-IV الصادر عن جمعية الطب النفسي الأمريكية APA من خلال عدد من المحكات التشخيصية كالآتي:

١ . استخدام المتعاطي للمادة (المخدرة أو المسكرة) بكميات أكبر مما كان ينوي تعاطيها، أو لمدة أطول.

٢ . فشل المتعاطي المتكرر في التوقف عن التعاطي، أو التحكم في الكمية المتعاطاة، مع سيطرة رغبة ملّحة في التعاطي.

٣ . يُظهر المتعاطي انشغالاً شديداً بالمادة المتعاطاة، سواء في محاولة الحصول عليها، أو التخلص من آثار عدم تعاطيها.

٤ . سيطرة الاعتماد النفسي أو العضوي على المتعاطي، مع تكرار التعرض للأعراض الانسحابية مع تقليل الجرعة المتعاطاة أو محاولة الامتناع.

٥ . انسحاب المتعاطي الكلي أو الجزئي من الحياة الاجتماعية بأنشطتها المختلفة (العلاقات الاجتماعية، العلاقات المهنية، الأنشطة الترفيهية) بسبب الانشغال الشديد بالمادة المتعاطاة.

٦ . ظهور العديد من المشاكل النفسية، والاجتماعية، والعضوية بسبب التعاطي، لكن المتعاطي يكشف عن رغبة ملّحة في استمرار التعاطي.

٧ . يكشف المتعاطي عن حاجة متزايدة في زيادة الجرعة المتعاطاة من المادة؛ وذلك للوصول إلى التأثير المطلوب (سواء النفسي أو العضوي)، وتُعرف تلك الحالة بالتحمل.

٨ . يعاني المتعاطي من مجموعة من الأعراض الانسحابية (النفسية، أو العضوية، أو كليهما) عند التوقف عن تعاطي المادة، أو تقليل الجرعة المتعاطاة، وتختلف تلك الأعراض باختلاف المادة المتعاطاة.

٩ . تصبح المادة المتعاطاة بالنسبة للمتعاطي كنوع من العلاج لتجنب الأعراض الانسحابية، أو لتخفيف حدتها (١٣٠ : ١٤٣).

ويمكن للباحث إيضاح مفهوم الاعتماد على المادة المؤثرة نفسياً (المخدرة، المسكرة) من خلال التمييز بين نوعين من الاعتماد كالآتي:

الاعتماد النفسي : **Psychic Dependence**

هو موقف يوجد فيه شعور بالرضا مع دافع نفسي يتطلب التعاطي المستمر، أو الدوري لمادة بعينها، لاستثارة المتعة الناتجة عن تعاطيها، أو لتحاشي المتاعب الناتجة عن عدم التعاطي.

الاعتماد العضوي: Physical Dependence

هو حالة تكيفية عضوية تكشف عن نفسها بظهور اضطرابات عضوية شديدة في حالة الانقطاع عن تعاطي المادة، وتمثل الاضطرابات الناتجة عن انقطاع تعاطي المادة الأعراض الانسحابية، ويُعتبر الاعتماد العضوي عاملاً قوياً في دعم الاعتماد النفسي (١١٤ : ١٩-٢٠).

كما بيّنت جمعية الطب النفسي الأمريكية APA من خلال الدليل التشخيصي الإحصائي الرابع DSM-IV مظاهر الاعتماد ببُعديه: النفسي، والعضوي على المادة

المؤثرة نفسياً، والتي تتضح في شكل أعراض معرفية، وسلوكية، وعضوية، ويتم تشخيص الاعتماد وفقاً لثلاثة معايير تشخيصية يمكن توضيحها كالآتي:

١ .التحمل: Tolerance

هو زيادة الجرعة أو الكمية المستخدمة من المادة، أو الاستمرار في التعاطي لكمية محددة حتى يصل المتعاطي إلى المستوى المرغوب الذي يحقق له اللذة، أو الأثر المرغوب، وتختلف مستويات التحمل وفقاً للمادة المتعاطاة، والقدرة العضوية والعصبية للمتعاطي على زيادة الجرعة (٨٢: ٢١-٢٢). كما يوجد نوع آخر للتحمل وهو **التحمل المتعدي** : Cross Tolerance وهو انتقال أثر التحمل من مادة إلى مواد أخرى من نفس الفئة، أو فئة قريبة من فئة المادة المتعاطاة (١١٤: ٢٣).

٢ . أعراض الانسحاب : Withdrawal Symptoms

هي مجموعة أعراض متباينة الشدة، ترتبط بالاعتماد العضوي للشخص على المادة المؤثرة نفسياً، وتحدث عند الانسحاب – الانقطاع عن التعاطي أو تقليل الجرعة المتعاطاة – المطلق أو النسبي للمادة بعد فترة من الاستخدام المتكرر، أو الجرعات العالية من هذه المادة، وترتبط الأعراض الانسحابية بنوع المادة، وبمقدار الجرعة المستخدمة قبل الانقطاع مباشرة، وتضم هذه الأعراض اضطرابات نفسية كالقلق، والاكتئاب، واضطرابات النوم (٣٨: ١٨٤).

كما بيّن الدليل التشخيصي الإحصائي الرابع DSM-IV الذي يصدر عن جمعية الطب النفسي الأمريكية APA –عدداً من المعايير التشخيصية للأعراض الانسحابية الناتجة عن الامتناع عن تعاطي المادة أو تقليل الجرعة كالآتي:

١ . ظهور زُملة من الأعراض – (النفسية أو العضوية أو كليهما) – الخاصة بالمادة – تمتاز كل مادة بمجموعة من الأعراض– والتي تعقب الامتناع عن التعاطي أو تقليل الجرعة المتعاطاة.

٢ . ينتج عن هذه الأعراض ضيق، أو كرب ذو دلالة إكلينيكية، كما ينتج عنها

خلل في الحياة الاجتماعية، أو المهنية، أو أية مجالات أخرى لدى المتعاطي.

٣ . يجب ألا تكون هذه الأعراض بسبب اضطراب عقلي، أو عضوي آخر (١٣٠ : ١٨٥).

٣ . الاستعمال القهري للمادة : Substance Compulsive Use

يتمثل الاستعمال القهري للمادة في لهفة Craving المدمن/ المتعاطي على استعمال المادة، وتتضح في عدة أشكال كالآتي:

* التعاطي لكمية كبيرة من المادة، أو التعاطي لفترة زمنية طويلة أكثر مما يحتاجه المتعاطي.

* الفشل في السيطرة على التعاطي سواء بالتوقف أو تقليل الجرعة.

* الانشغال الشديد بالحصول على المادة بأية وسيلة، مما يترتب عليه العديد من المشاكل الأسرية والقانونية، وفي العمل، والانسحاب من النشاطات الاجتماعية، وضعف التواصل والارتباط بالآخرين في مقابل قوة التواصل بجماعة التعاطي (٨٢ : ٢٣).

يتضح من النص السابق أن مفاهيم الإدمان Addiction، مدمن Addict، مخدرات Drugs، تم استخدام دلالتها من خلال عدد من المصطلحات وهي: سوء استخدام المواد المؤثرة نفسياً Substances Abuse، مسيء استخدام المواد المؤثرة نفسياً Substances Abuser، المواد المؤثرة نفسياً Substances، وإن كان هناك اختلاف في المصطلح إلا أن المفهوم له دلالة واحدة في كل المصطلحات السابقة، فنحن أمام ظاهرة مرضية تتمثل في تعاطي الشخص لمادة بشكل قهري دون أدنى قدرة منه على التوقف، وما يترتب على هذا التعاطي من اضطراب في بنائه النفسي وما يصاحبه من اضطراب في حياته بشكل عام.

يتوجب على الباحث الآن عرض فئات المواد المؤثرة نفسياً عامة، مع التركيز

على المواد الممثلة للدراسة خاصة، وهي: الهيروين، الكوكايين، الحشيش، والمسكرات أو الخمور الكحوليات ، للتعرف على تكوينها، وآثارها وما يترتب عليها من أعراض انسحابية عند التوقف عن التعاطي، أو تقليل الجرعة.

فئات المواد المؤثرة نفسياً : Substances Classifications

١ . فئة الكحوليات الخمـــور :Alcohol

تشتمل على جميع المشروبات الكحولية مثل: البيرة، النبيذ، الويسكي، العرَق، وغيرها.

٢ . فئة القنبيات مستحضرات القنب : Cannabis

تشتمل على الحشيش، والماريجوانا.

٣ . فئة الكوكايين :Cocaine

٤ . فئة الأفيونات المورفينيات :Opioid

تشتمل على عدد من المواد مثل: الأفيون، المورفين، الهيروين، الكودايين، وغيرها.

٥ . فئة الأمفيتامينات المنشطات :Amphetamines

تشتمل على عدد من المواد مثل: الأمفيتامين، الدكسامفيتامين، الميتامفيتامين، وغيرها.

٦ . فئة المهلوسات محدثات الهلاوس :Hallucinogens

تشتمل على عدد من المواد مثل: الليسيرجك LSD، المسكالين، وغيرها.

٧ . فئة المستنشقات المواد الطيارة الاستنشاقية :Inhalant

تشتمل على عدد من المذيبات العضوية مثل: الأسيتون، الجازولين، وغيرها.

٨ . فئة المسكنات والمنومات ومضادات الاكتئاب : Sedative, Hypnotic, Anxiolytic

٩ . فئة النيكوتين :Nicotine

توجد في العديد من الصور مثل: الطباق، التبغ.

١٠ . فئة الكافيين :Caffeine

توجد في العديد من الصور مثل: البن، الشاي.

المخدرات والمسكرات...المواد موضع الدراسة

سيقوم الباحث – في عرض مختصر – باستعراض المواد الأربع التي تم تناولها بالدراسة من حيث تركيبها، وتأثيرها، وما يصاحبها من تغيرات نفسية وعضوية على المتعاطي، وما ينتج عن انقطاع تعاطيها أو تقليل الجرعة المتعاطاة منها من أعراض انسحابية، والمواد الأربع هي: الحشيش، الهيروين، الكوكايين، الخمور ، وكما وضَّح الباحث آنفاً يرجع سبب اختيار المواد الأربع – كموضوع للدراسة – إلى ارتباطها بالنظام الخيالي لما لها من قدرة على استثارة التخييل، وتحريك بنية اللاشعور لدى متعاطيها، مع الحفاظ على قدر ما من الاتصال بالواقع، وذلك لعدم إحداثها للتسمم الحاد بسبب تعاطيها؛ بالإضافة لكونها المواد الأكثر انتشاراً بين المتعاطين في بيئتنا.

الحشيش Hashish

دلالة كلمة الحشيش في اللغة:

الحَشِيشُ هو ما يَبِسَ من الكَلإِ فأمكن أن يُحش، وأن يُجمع، ومفرده حشيشة، وهو نبات مخدِّر، والحَشَّاشُ هو قاطع الحشيش، وجامعه، وبائعه، ومدمن تدخينه تعاطيه (١٠٠ :١٥٣).

كما تدل كلمة Cannabis - (القنب الذي يُستخرج منه الحشيش) – اليونانية الأصل على الضوضاء، ولعلها إشارة إلى الأصوات المرتفعة التي يصدرها المتعاطون للحشيش، كما يوجد تفسير يؤكد أن كلمة حشيش Hashish مشتقة من الكلمة العبرية شيش Shish، والتي تعني الفرح كناية عن شعور متعاطي الحشيش بالنشوة (٦٥ : ٢١٠).

ويُعرِّف **سامي علي** الحشاش بأنه من يتعاطى الحشيش تعاطياً يسبغ عليه صفات شخصية مميِّزة، أهمها الاستغراق في الخيال بإفراط وبلا تقييد (٥٢ : ٤٨).

والحشاشون Hashisciens مُسمًّى أُطلق على طائفة من فرقة الإسماعيلية

التي عاشت في إيران في أواخر القرن الحادي عشر، وأوائل القرن الثاني عشر، حيث كان يتعاطى أفرادها الحشيش؛ ما كان يساعدهم على ممارسة فعل القتل، ويزيد من شراستهم، وتحورت تلك الكلمة عند انتقالها إلى اللغات الأوربية لتصبح القتلة As-sassins، (١٨ :١٩)، (٦٥ :٢١٠).

دلالة كلمة الحشيش في اللهجة العامية المصرية:

تناول **سامي علي** دلالة لفظة حشيش في اللهجة العامية المصرية بالتحليل، حيث وَضَّح أن «الحشيش كلمة مزدوجة الدلالة، تستهدف كشف موضوعها، وإخفاءه في الوقت نفسه، فهي تعني أي عشب بشرط أن يكون له مظهر العشب البري النابت في الصحراء، أو على ضفة النهر. وبهذا فإن دلالة الكلمة تفقد كل ما يُميِّز الحشيش، ويختفي وراء معنى لا يُفهم إلا بالإشارة» (٥٢ :٤٨).

كما يتضمن استخدام اللفظة حشيشة بصيغة المفرد للتعبير عن مضمون وجداني، لا ينفصل عن لغة التصغير ذاتها، وقد تُحوِّل كلمة الحشيش أحياناً إلى حَسِّيس للدلالة على الرجل الحَسِّيس ذو الحِس المرهف. وحين يُمزج الحشيش بالأبهرة والمربب، يُسمَّى بالمنزول، وهو اسم فعل مشتق خطأ من فعل أنزل؛ والإشارة هنا إلى تنزيل القرآن(*) في آية **«إنا أنزلناه في ليلة القدر»** . وكأن المنزول مُنزَّل من السماء كالمَّن والسلوى (٥٢ :٤٨).

وإن كان الباحث يختلف – في حدود فهمه – مع تلك الرؤية التي تشير إلى التشابه بين القرآن والحشيش في صفة النزول في الحس الشعبي، وذلك لأن تنزيل القرآن بنصوصه التشريعية الفاصلة الواصلة، ونماذجه الإرشادية الهادية، ووعوده ووعيده، يتسق مع مفاهيم التحليل النفسي اللاكاني، خاصة تلك المتصلة بمُركَّب أوديب، ووضعية الأب الرمزي؛ كونه – أي القرآن – قانوناً يفصل الذات عن الطبيعة ليصلها بالثقافة، ومثالاً يتوقف على التعيُّن به تواصل جدلية الذات في الوجود، ووعداً

(*) تفضَّل أستاذي المُبجِّل العلَّامة/ **حسين عبد القادر محمد** بإنارة الباحث في إسناد النص الأصلي لصاحبه، حيث أن العلَّامة/ **سامي محمود علي** قد استنَد – في تحليله لدلالة كلمة الحشيش في الحس الشعبي المصري – إلى مؤلَّف **أحمد أمين : العادات والتقاليد** .

يتسم بالصيرورة، وفي الوقت نفسه وعيداً يبعث في الذات الرغبة في الاستمرارية، وهذا ما لا يمكن ملاحظته في مادة الحشيش وفعل التعاطي؛ كونهما تعطيلاً للنظام الرمزي، وتفعيلاً للنظام الخيالي. لذا يمكن للباحث أن يموضع تنزيل القرآن في سجل الرمزي باعتباره رغبة مستمرة في الاكتمال، قوامها الرمز، حيث اللغة، وهذا ما تتضح دلالته في العديد من آيات القرآن الكريم، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:(وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا واق) (الرعد:٣٧)، (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) (ص:٢٩)، (الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد) (إبراهيم:١). بينما يؤيد الباحث الاستطراد الذي ذكره **سامي علي** بإشارته إلى أن الحشيش تتشابه دلالة تسميته في العامية المصرية بالمنزول مع تنزيل المن والسلوى من السماء، وذلك لأننا نكون أمام الحاجة والطلب بالمفاهيم اللاكانية، حيث كان فعل تنزيل المن والسلوى يرتبط بإشباع حاجة بيولوجية متمثلة في دافع الجوع، والحاجة تنتمي إلى نظام الواقع، كما يتصل بالطلب الذي يتموضع في سجل الخيالي، وهذا ما نراه في طلب الحواريين من نبي الله عيسى – عليه الصلاة والسلام –، وهو بمثابة طلب حب للشعور بالتقبل من الآخر (إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين) (المائدة:١١٢)، (قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين) (المائدة:١١٤)، كما نجد الطلب أيضاً لدى بني إسرائيل متوجهين به إلى نبي الله موسى – عليه الصلاة والسلام – (وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير...) (البقرة:٦١)، حيث كان الله قد أنزل عليهم من السماء قبل ذلك المن والسلوى (...وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم...) (الأعراف:١٦٠).

ومن هنا، يمكن للباحث الائتناس إلى الرؤية القائمة على أن الحشيش عندما

يُسمَّى بالمنزول فإنها إشارة إلى أن الحشيش يشبه المن والسلوى المُنزَّلين على بني إسرائيل، أو مائدة الطعام المُنزَّلة على الحواريين لما يتضمنه التشبيه من ارتباط بين قدرة الحشيش التخديرية والتخييلية ودلالة التنزيل للطعام من السماء، وارتباطه بمفهومي الحاجة والطلب، فكلاهما - المن والسلوى، الحشيش- تجسيد للنظام الخيالي.

الحشيش عبر التاريخ.. إطلالــة:

وَرَدَت أول إشارة عن الحشيش واستعمالاته الطبية في كتاب صيدلة ألَّفه الإمبراطور الصيني شن نونج Shen Nung سنة ٢٧٣٧ قبل الميلاد، وسَمَّى كتابه **المحررون الآثام** وكانت له في رأيه فوائد طبية متعددة؛ فقد وصفه لعلاج الإمساك، وداء الملوك، والملاريا، والروماتيزم (٦٥: ٢١٠)، (١١٤: ٣٩).

كما عَرَفه الآشوريون والفرس، ووصفه «**هوميروس**» في «**الأوديسا**» باسم «**نيبنثي**»، وكذلك ذَكَره المؤرخ الروماني «**بليني**»، وذكره الطبيب الروماني «**جالينوس**» حيث كان يستعمله مع البهارات والمشروبات كمنشط (٦٥: ٢١١).

ولقد استُخدِم في الهند لأغراض دينية قبل أن يُستخدَم لأغراض طبية، وذلك لاعتقاد متَّبعي بعض العقائد الدينية أنه يُخلِّص العقول من المشتِّتات الدنيوية حتى يتم التركيز على الوجود الأعلى، ولا يزال يُستخدَم إلى الآن في معابد الهندوس والسيخ (١١٤: ٤٠).

كما استَخدَمت القبائل الجرمانية القديمة نبات القنب سنة خمسمائة قبل الميلاد؛ حيث كانوا يصنعون من أليافه الملابس، ويستعملونه كدواء، ووجِدت بذوره في مقابرهم (٦٥: ٢١٢). كما تشير بعض المراجع التاريخية إلى أنه عُرِف في مصر منذ حوالي القرن العشرين قبل الميلاد، واستُخدم حينئذ في علاج بعض أمراض العيون (١١٤: ٤٠).

ولقد اهتم الطبيب النفسي الفرنسي **مورو دي تور** Moreau De Tours الذي كان يعمل في مستشفى **بيسيتر** لعلاج الأمراض العقلية بالحشيش؛ حيث أجرى أول دراسة علمية حول الحشيش كعلاج للمرض العقلي سنة ١٨٤٠، ثم كتب عنه كتاب

«عن الحشيش والاضطراب العقلي» ، كما أنه تعاطاه شخصياً، وقام بوصف الهلوسات، والخدع، والسعادة التي شعر بها عند تعاطي الحشيش (٦٥ :٢١٢)، (١١٤ :٣٩).

وعُرِفت المنطقة العربية بالاستخدامات الطبية للقنب في حوالي القرن التاسع الميلادي مع قيام حركة الترجمة عن الطب اليوناني، ومع بداية القرن العاشر تبدأ الإشارات الصريحة إلى القنب في الطب العربي، وذلك في كُتب العديد من علماء العرب، ومنهم **الرازي وابن وحشية** ، وفي أواخر القرن الحادي عشر بدأ كُتَّاب العرب يستخدمون كلمة حشيش (١١٤ :٤٠-٤١).

ويقول **ابن البيطار** عالِم النبات العربي في الحشيش: «ومن القنب الهندي نوع يُسمَّى الحشيشة ولم أره بغير مصر، ويُزرع في البساتين، وهو مُسكِر جداً إذا تناول منه إنسان، وإذا أكثر منه أخرجه إلى حد الرعونة، وهو مُضِر بالصحة ضرراً بليغاً، وقد استعمله قوم فاختلت عقولهم، وربما قَتَلت» (٩ :١٣٣).

خصائص الحشيش وآثاره النفسية على المتعاطي:

تحتوي **أُنثى نبات القنب** Cannabis Indica Sativa على مادة الحشيش، وهي مادة صمغية، تُستخرج من ثمرة أو ساق النبات، والماريجوانا التي تتكون من سيقان وزهور النبات المجففة. وفعالية الحشيش تساوي ثمانية أمثال فعالية الماريجوانا التي ينتشر استعمالها في أوروبا، وأمريكا بينما ينتشر الحشيش في الشرق الأوسط (٦٥ : ١٣).

ويحتوي نبات الحشيش على العديد من المواد المؤثرة نفسياً، أهمها مادة تتراهيدرو كنابينول Tetrahydro Cannbinulدلتا-٩ ، دلتا-٨ - (تُعتَبر مادة دلتا-٩ المادة الرئيسية ذات التأثير الفارماكولوجي القوي من الناحية النفسية، بينما تقل نسبة وتأثير مادة دلتا-٨ وإن كان ذلك لا يلغي وجودها وتأثيرها) - اللتان تم عزلهما في المختبر سنة ١٩٤٠، وهذان المُركّبان هما المادتان الفعالتان كيميائياً في الحشيش، ويتراوح تركيز هذه المواد في صمغ نبات القنب وأوراقه من ٥٪ إلى ٢٥٪، وذلك حسب ظروف نمو النبات، ودرجة الحرارة، ونوع التربة، وفصيلة النبات (٦٥ : ٢١٣)،(٨٢: ٣٥) .ولتعاطي الحشيش العديد من الآثار البدنية والنفسية التي تظهر على

متعاطيه، ومن الآثار البدنية لتعاطي الحشيش تلك الخصائص التي تبدو واضحة في المظهر الخارجي لمتعاطيه والمتمثلة في : احمرار شديد للعينين، وجفاف الحلق، وزيادة الشهية خاصة للحلويات، وانخفاض ضغط الدم وعدم التوازن الحركي، وسرعة دقات القلب (٦٥ :٢١٥)،(١٨ :١١٣).

ويشير **بيتر لوري** B. Lorry إلى أن العلامات البدنية في تعاطي الحشيش تُعتبر طفيفة غير ذات أهمية بمقارنتها بطيف الآثار الذهنية، والتي تتبدى في العديد من المظاهر منها:

* تبلد الانتباه.
* شعور بالنشاط والخفة يتصف بالثرثرة ولفترات مختلفة.
* النشاط الحركي- النفسي والقلق.
* التشوه في الإدراك والإحساس بالزمن بحسب الجرعة المتعاطاة.
* التعب أو التراخي الذي يبلغ ذروته في شكل نوم عميق إذا كانت الجرعة كافية (١٨ :١١٣-١١٤).

وينزلق متعاطي الحشيش في الخيال والتخيل مع ازدياد الجرعة المتعاطاة، فيُخطِئ في تفسير ما يدركه بالحواس، ثم تعتريه الهلاوس البصرية والسمعية المصحوبة بشعور بأنه توصَّل إلى حقائق وبواطن الأمور، وتحدُث هذه الآثار النفسية بصورة متقطعة، فيمر المتعاطي بدورات متوالية من الهلوسة، واختلال الحواس، واضطراب الانفعال؛ ليعود إلى حالته الطبيعية بعد فترة، ثم يضطرب بعد ذلك، وهكذا (٦٥ :٢١٤-٢١٥).

وهذا ما أكده الأديب الفرنسي **تيوفيل جوتييه** T.Gautier سنة ١٨٤٣ عندما دَوَّن ملاحظاته الاستبطانية على خبرته الذاتية الناجمة عن تعاطي الحشيش (١١٤ : ٤٣)، حيث يقول: «شعرت بجسمي يذوب وأصبحت شفافاً، وفي داخل صدري شعرت بالحشيش الذي أكلته في شكل زمردة تتلألأ بمليون نقطة من النيران... ومرت

النوبة الأولى ووجدت نفسي في حالتها الطبيعية، وبعد ذلك بنصف ساعة وقعتُ فريسة لهيمنة الحشيش مرة أخرى، وكانت الرؤى التي أراها هذه المرة أكثر تعقيداً وغرابة...» (١٨ :١١٤-١١٥).

وللتأكيد على تلك الحالة النفسية المرتبطة بتعاطي الحشيش، وما يصاحبها من سيطرة للخيال والتخيلات على المتعاطي - قام الشاعر الفرنسي **بودلير** C.Baudelaire سنة ١٨٤٦ بتعاطي الحشيش، وكتب مقالاً بعنوان **«عن الخمر والحشيش مع المقارنة بينهما كوسيلتين لمضاعفة الفردية»** وصف فيها خبرته مع هذا التعاطي (١١٤ :٤٣)، حيث أكد أن هلوسة الحشيش تُحوِّل العالَم الحقيقي، لا تخلق عالماً داخلياً غير حقيقي، ولا تنضج هذه الهلوسة إلا من خلال عملية التخيل (١٨ : ١١٥).

طرق تعاطي الحشيش:

تتعدد طرق تعاطي الحشيش - وبالتبعية تتعدد مُسمياتها -، وقد لاحظ الباحث أن طريقة التعاطي ترتبط بشكل أو بآخر بالطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها المتعاطي، والمستوى الاقتصادي، والثقافي، والمرحلة العمرية، وبطبيعة فعل التعاطي، - بمعنى هل يتم فعل التعاطي في جماعة **جماعة المتعاطين** ؟، أم يكون المتعاطي بمفرده ؟ -، وعلى أية حال؛ فإن من أشهر طرق تعاطي الحشيش الطرق الآتية:

١ . التعاطي عن طريق التدخين:

ويتم تعاطي الحشيش بالتدخين بخلط مادة الحشيش بالدخان، وتدخينه في الجوزة Water Pipe، أو وضعه مختلطاً بدخان السجائر، أو الغليون (٧٣ : ٢٠)، ويوضِّح **سعد المغربي** سبب تفضيل متعاطي الحشيش طريقة التعاطي بالتدخين من خلال الجوزة في عدة أسباب منها: ترطيب مياه الجوزة لسخونة الدخان، وإمكان ضبط مقدار الجرعة التي يتم تعاطيها، كما أن هذه الطريقة توفر للمتعاطي الجو الاجتماعي النفسي، والذي يخلق للمتعاطي شعوراً مريحاً، ويساعد على استثارة الضحك (٤٩ : ٧١).

وهذا ما لاحظه الباحث في تلك العبارة الشائعة بين جماعة تعاطي الحشيش – في بيئتنا المصرية – وهي **«إحنا الحشاشة الحشاشة...لا يهمنا لا بيه ولا باشا...واللي يكلمنا نغُز عينه بالماشة»** ، و الماشة هي الأداة المستخدَمة في وضع قطع الفحم Coke المشتعل على حَجَر الجوزة لإشعال الحشيش المخلوط بالدُخان أو المعسِّل.

ويلاحَظ من دلالة تلك الكلمات رفض الحشاش لسُلطة القانون **النظام الرمزي** بل السخرية منه والتقليل من قيمته أو قدرته الضابطة، مع الإشارة إلى التأكيد على إمكانية تفجير العدوانية داخل الحشاش في حالة قطع المونولوج الدائر بينه وبين ذاته، أو الديالوج ذي المفردات اللغوية الخاصة الحادث بين جماعة التعاطي، كما يُعبِّر تكرار لفظة الحشاشة على التأكيد على فعل التعاطي، والاستمرارية فيه بقدر ما يحمل من دلالة على تضخم الشعور بالأنا والاستغراق في النرجسية، ووهم القدرة المطلقة لدى الحشاش، إضافة إلى ما تقتضيه الحال الهذلية الهوسية الناتجة عن التخدير بالحشيش من تنغيم للكلمات.

٢ . التعاطي عن طريق الأُكل:

تتعدد طرق تحضير الحشيش للأكل، وإن كانت أكثرها شيوعاً تعتمد على تغليف الحشيش بغطاء من السكر، أو المواد الدهنية، أو البهارات، أو مواد العطارة عامة، حتى يمكن مضغه وامتصاصه (٤٩ : ٧٣)،(٧٣ : ٢١).

٣ . التعاطي عن طريق الشرب:

ويتم ذلك بوضع الحشيش مع المشروبات الساخنة كالشاي أو القهوة، أو في الماء المغلي مع كمية من السكر (٧٣: ٢١)، وتمتاز هذه الطريقة ببطء عملية التخدير الناتجة عن تعاطي الحشيش؛ وذلك لأن عملية امتصاص المادة من الأمعاء تستغرق فترة من الوقت، وهذا يساعد على حدوث التخدير التدريجي ما يضع المتعاطي تحت تأثير المخدر أطول فترة ممكنة (٤٩: ٧٣).

٤ . التعاطي عن طريق الاستنشاق:

يتم تعاطي الحشيش عن طريق استنشاق الدخان المنبعث عن احتراق مادة الحشيش، وتُسمَّى هذه الطريقة «**الدبابيس أو الخوابير**» ، وتتم هذه الطريقة بغرس قطعة حشيش في دبوس – أو بجعل قطعة الحشيش على هيئة دبوس، وتمريرها في السيجارة التي توضع بشكل عَرْضي بالكوب – ثم تمريره وتثبيته بقطعة ورق، ثم إشعال قطعة الحشيش ووضعها في كوب زجاجي، أو **برطمان** زجاجي أيضاً مع إحكام إغلاقه بالضغط على الورقة، ويتم بعد ذلك استنشاق الدخان المتجمع داخل الكوب أو البرطمان، أو يتم وضع قطعة الحشيش بعد إشعالها في الكوب، أو البرطمان مباشرة دون استخدام الدبوس، ويتم إغلاقه بكف اليد، ثم استنشاق الدخان المتجمع داخله، وفي هذه الحالة يُسمَّى بكبوك (*) . لهذا فهناك العديد من الطرق – دائمة التغير – التي تُستخدَم في تعاطي الحشيش.

كما يتم التعاطي عن طريق استنشاق الدخان المنبعث من أحد المتعاطين في عملية الزفير؛ بتوجيه المتعاطي للدخان المنبعث من فمه إلى أنف متعاطٍ آخر مباشرة، وتُعرف هذه الطريقة باسم **الباك فاير** Back Fire – وإن كانت هذه الطريقة نادرة الحدوث بين مدمني الحشيش، بينما تظهر بشكل ملحوظ كأحد الطرق الأساسية في تعاطي البانجو –، ويلاحَظ أن أسلوب الباك فاير فيٍ تعاطي الحشيش يتطلب وجود أكثر من متعاط، وقد لاحظ الباحث أن هذا الأسلوب يعَد مؤشراً على مدى قوة الترابط بين جماعة التعاطي؛ فهو بمثابة تبادل لمشاعر التقبل بين اثنين أو أكثر من المتعاطين، بل يدل على تلك العلاقة التكافلية – وهو في هذه الحالة تكافل نفسي –

(*) لاحظ الباحث من خلال عمله في حقل الإدمان وتعامله مع حالاته، وأيضاً من خلال مفردات عينة الدراسة – باختلاف نوعية المادة التي يتم تعاطيها – وجود مجموعة من المصطلحات العامة – والتي تمثل في بنيتها لغة خاصة ذات دلالة خاصة أيضاً بتلك الفئة – التي يشيع استخدامها بين المدمنين، والتي تحمل بداخلها ذلك التنوع والاختلاف في طريقة استخدامها، ولقد لاحظ الباحث الارتباط بين تلك المفردات اللغوية – في صياغتها باللهجة العامية – والمستوى الثقافي الاجتماعي الذي ينتمي إليه المتعاطي، بل طبيعة العمل والبيئة التي يعيش فيها أيضاً.

بين أفراد جماعة التعاطي؛ ومن ناحية أخرى قد يشير– على مستوى لاشعوري أعمق – إلى تلك الدفعات الغرزية اللاشعورية لنزعات الجنسية المثلية – حيث أن هناك تصوراً قائماً على الرؤية التحليلية النفسية، مفاده أن السلوك الإدماني يُفعِّل الاضطراب الجنسي لدى المدمن، والذي يتمثل في الصراع اللاشعوري ضد الجنسية المثلية، وهذا ما سيقوم الباحث بالتعرض إليه عند تناول البناء النفسي لمدمني المخدرات والمسكرات من منظور سيكوديناميي –، وإن كان ذلك مجرد رؤية قابلة للدحض والتفنيد، سيقوم الباحث بالتحقق منها من خلال الإبحار عبر البناء النفسي لمفردات عينة الدراسة.

الاضطرابات المرتبطة بتعاطي الحشيش : Hashish Abuse Related Disorders

في تناول الاضطرابات الناتجة عن تعاطي الحشيش تبيَّن عدم وجود علامات فسيولوجية دالة على الاعتماد العضوي على الحشيش، على الرغم من وجود التحمل وزيادة الجرعة لدى الأشخاص الذين يتعاطون الحشيش لفترات طويلة، أو التعاطي المزمن. وتم تحديد معايير تشخيص **التسمم بالحشيش** Hashish Intoxication من خلال عدة مؤشرات وهي:

١ . مؤشرات إكلينيكية تشير إلى السلوك غير التكيفي، أو التغيرات النفسية، والتي تتطور خلال أو بعد التعاطي بفترة قصيرة ومنها:

* اختلال الاتزان الحركي.
* النشوة.
* القلق.
* تبلد الإحساس بالوقت.
* فساد القدرة على الحكم.
* الانسحاب الاجتماعي.

٢ . ظهور عرضين، أو أكثر من الأعراض التالية في غضون ساعتين من الاستعمال:

* احتقان العين.

* جفاف الحلق.

* زيادة الشهية للطعام.

* سرعة ضربات القلب.

٣ . لا تكون هذه الأعراض نتيجة لحالة طبية عامة أو اضطراب عقلي (٨٢ : ٣٦-٣٧).

الكوكايين Cocaine

الكوكايين في إلماحة تاريخية:

يُعتبر الكوكايين من أكثر المواد المسببة للإدمان وأخطرها، ويتم استخلاصه من نبات **الكوكا** Erythyroxylan Coca بطحن أوراقه (٩٧ :٢٩). وينمو نبات الكوكا في أمريكا الجنوبية منذ أكثر من ألفي سنة، حيث كانت أوراق الكوكا تُعتبَر شيئاً ثميناً لدى **قبائل الإنكا** ، وفي البداية كان يُقتصَر استخدامها على النبلاء ورجال الدين؛ وذلك عن طريق مضغها وإبقائها (تخزينها) في الفم لمدة ساعة لاستحلابها، لكن نتيجة لما لوحظ من تأثير منشط لهذه الأوراق تم اتساع استخدامها في هذه الفترة؛ حيث بدأ الجنود يستخدمونها عند خروجهم للحرب، كما كان يستخدمها حاملو الرسائل لتعينهم على الارتحال لمسافات طويلة حاملين رسائلهم (١١٤ :٤٤).

وعَرَفت أوروبا أوراق الكوكا في منتصف القرن التاسع عشر حين قدَّم الصيدلي الفرنسي **أنجلو ماریاني** Anglo Mariani سنة ١٨٥٦ العديد من المنتجات المختلفة التي تحتوي على عصارة أوراق الكوكا مثل: قِطَع الحلوى، وشاي الكوكا، ونبيذ ماریاني (٦٥ :١٨٢).

ولقد تَمكّن **نيمان** Nieman سنة ١٨٦٠ من عزل العنصر الفعّال في نبات الكوكا، وأسماه كوكايين، وتوالت التجارب بعد ذلك على الكوكايين لاستغلاله في الأغراض الطبية (١١٤ :٤٥)، حيث كان يصفه الأطباء لمرضاهم كعلاج للعديد من الأمراض؛ مثل: سوء الهضم، أو اضطراب الملانخوليا (٦٧ : ٨٥).

وفي سنة ١٨٨٤ أعلن **كارل كوللر** Karl Koller في المؤتمر الوطني في **هيدربرج** فضيلة التخدير الموضعي للكوكايين، وإمكانية استخدامه في إجراء جراحات العيون دون ألم (٧١ :١٩).

كما كانت إشارة **فرويد** Freud الأولى عن الكوكايين في إحدى رسائله سنة ١٨٨٤ عندما اعتبره مشروعاً علاجياً، يمكن أن يُعلّق عليه أملاً كبيراً، حيث اختبر تلك المادة على نفسه، وكانت النتيجة مدهشة؛ فلقد بددت الشعور بالإعياء، والتعب،

والجوع، هذا بالإضافة إلى إزالة الشعور بالكآبة والاستبدال به نشاطاً وحيوية لم يعهدهما في نفسه سابقاً، لذلك بدأ يعمّم استخدام هذا المخدر على أصدقائه، وأفراد عائلته، ومرضاه، كما عقد عليه العديد من الآمال، منها قدرته على علاج أمراض العُصاب؛ لذا كتب العديد من الدراسات حول مستحضر الكوكايين، وطرق استعماله في مجالات عدة (٧١ :١٨-١٩).

ولقد تم تصنيف الكوكايين ضمن المخدرات في عام ١٩١٤ وذلك بعد ظهور آثاره كمادة إدمان، ويزيد استهلاكه حالياً في الولايات المتحدة الأمريكية؛ حيث يوجد بنسبة ١٢ ٪ وهو ما يعادل ٩,١ مليون أمريكي، ويطلق عليه العديد من الأسماء منها **الكراك** Crack و **حلوى الأنف القاتلة** ، ويُعَد من أقوى المواد المنشطة، كما أنه يسبب الاعتماد السيكولوجي العالي، والأعراض الانسحابية الحادة، ومن أهم الأعراض المصاحبة لإدمان الكوكايين ما يُعرَف باسم (حشرة) **بق الكوكايين** Cocaine Bugs، وهو توهم مدمن الكوكايين بوجود حشرات تزحف تحت الجلد (٩٧ : ٢٩)،(٨٢: ٣٧).

طرق تعاطي الكوكايين:

يتم تعاطي مسحوق الكوكايين عن طريق (**الاستنشاق**) باستخدام أنبوب – أو بلف ورقة عادية على شكل اسطوانة كبديل للأنبوبة – يتم عن طريقها استنشاقه، ويُطلَق على هذه الطريقة اسم **التسطير** ؛ حيث يتم وضع المسحوق على شكل أَسطُر، أو يُستنشَق بدون استخدام الأنبوب عن طريق الأنف مباشرة.

كما يتم تعاطيه عن طريق (**الحقن**) بالوريد، أو تحت الجلد، أو بالعضل؛ وذلك بعد إذابته بالماء وملح الليمون، وأحياناً باستخدام عصارة الليمون، ويلاحظ أن كلتا الطريقتين تستخدمان في تعاطي الهيروين، وسيقوم الباحث بالإسهاب قليلاً في توضيح تلك الطرق في التعاطي عند تناول مادة الهيروين.

ولقد أشار **روبرت ديجارليه** Robert Desjarlais إلى العلاقة بين الكوكايين والهيروين في التعاطي من خلال توضيحه لمفهوم **التعاطي المتعدِّد** Polysubstance -المتعاطون متعددو العقار (Multiple Drug User)-؛ حيث إنه كثيراً ما يَستخدِم

مدمن الكوكايين الهيروين وذلك لتخفيف حدة الاهتياج الناجم عن التنشيط الذي يحدثه الكوكايين، كما بيّن أن تلك الحالة تُعبّر عن نزعة طبيعية في تناول المادتين معاً؛ لأن أحدهما – وهو الكوكايين – يمثل المادة **العلوية** المنشطة، بينما الهيروين يمثل المادة المهبطة (٣٨ :١٩٩)؛ ويؤكد ذلك **عادل الدمرداش** بتأكيده على أن مدمن الهيروين يُفضّل استخدام الكوكايين ليخفف من شعوره بالكسل والخمول الناتج عن تعاطي الهيروين (٦٥ :١٨٤).

الاضطرابات المرتبطة بتعاطي الكوكايين Cocaine Abuse Related Disorders:

ينتج عن تعاطي الكوكايين آثار سُمّية وأعراض انسحابية، كما يؤدي إلى الهذيان، والاضطرابات الذهانية مع الهلاوس والهواجس، واضطرابات المزاج والقلق، واضطراب الوظيفة الجنسية، واضطرابات النوم، ويمكن للباحث عرض معايير تشخيص **التسمم باستعمال الكوكايين** Intoxication Cocaine ، والتي وردت في الدليل التشخيصي الإحصائي الرابع DSM-IV الصادر عن جمعية الطب النفسي الأمريكية APA كالآتي:

١ . سلوك غير تكيفي وتغيرات سيكولوجية واضحة، وتتطور هذه التغيرات خلال أو بعد الاستعمال بفترة قصيرة أهمها:

* النشوة والمرح، أو التبلد الوجداني.
* تغيرات في النشاط الاجتماعي.
* الحرص الزائد، أو اليقظة والتوجس.
* الحساسية في العلاقات الشخصية المتبادلة.
* القلق، والتوتر، أو الغضب.
* السلوك النمطي.
* فساد القدرة على الحكم، أو تعطل الوظائف الاجتماعية، والعمل.

٢ . ظهور اثنين أو أكثر من الأعراض التالية خلال أو بعد الاستعمال بفترة قصيرة:

* سرعة، أو بطء ضربات القلب.
* اتساع حدقة العين.
* ارتفاع، أو انخفاض ضغط الدم.
* زيادة العرق.
* الدوار، والقيء.
* نقصان ظاهر في الوزن.
* الهياج، أو التأخر النفسي الحركي.
* ضعف العضلات، وانقباض التنفس، وآلام الصدر، واضطراب انتظام حركة ضربات القلب.
* التشوش والتشنج، أو الإغماء.

٣ . لا ينبغي أن تكون هذه الأعراض بسبب الإصابة بحالة طبية عامة، أو اضطراب عقلي آخر بسبب اضطرابات الإدراك (٨٢ : ٣٨-٣٩) .

ولا يسبب تعاطي الكوكايين زيادة التحمل Tolerance – بزيادة الجرعة التي يتم تعاطيها نظراً لتعوُّد الجسم على المادة – وذلك لأنه لا يسبب الاعتماد العضوي، لكنه يسبب الاعتماد النفسي فقط. كما ينتج عن الانقطاع عن تعاطي الكوكايين، أو تخفيض الجرعة عدد من الأعراض، وتُعرف باسم **الأعراض الانسحابية للكوكايين** Cocaine Withdrawal Symptoms وهي: التعب، وعدم القدرة على النوم مع الأحلام المزعجة، والأرق، أو كثرة النوم، وزيادة الشهية للطعام، والهياج أو التأخر النفسي والحركي ، ولا تستمر هذه الأعراض إلا لمدة بسيطة لا تزيد عن أيام (٦٥: ١٨٥ -١٨٦)،(٨٢ : ٣٩-٤٠).

الهيروين Heroin

الهيروين كمادة نصف مُصَنَّعة من الأفيون:

يمثل الأفيون Opioid المستخلَّص الطبيعي من ثمرة نبات الخشخاش Papaver Somniferum، والذي يُعرَف في اللهجة العامية المصرية باسم **أبو النوم** ، وشاع استخدامه طويلاً كوصفة شعبية للنوم، وتسكين الآلام، وخاصة الصداع، واضطرابات الهضم، والإسهال، وتنتشر زراعة نبات الخشخاش ونموه في جنوب شرق آسيا، وإيران، وتركيا، وبعض بلدان الشرق الأوسط. وثمرة نبات الخشخاش بيضاوية الشكل، يسيل منها عند تشريطها سائل أبيض اللون، يميل إلى الصُفرة، تزيد لزوجته إلى أن يتجمد عند تعرُّضه للهواء، ويتحول لونه إلى اللون الأحمر الداكن القريب من اللون الرمادي أو الأسود. ويتم تجميع هذه العصائر الأفيونية، وتُسمَّى بالأفيون الخام، ويحتوي الأفيون الخام على ما يقرب من عشرين مادة أفيونية يمكن استخلاصها، وأهم هذه المواد المورفين، الهيروين، الكودايين (٨٢ : ٤٨)،(٦٥: ١٠).

ويُعتبر الهيروين من مشتقات الأفيون التخليقية (نصف مُصنَّعة) Semi Synthetic Synthesized Opiates، وتركيبه الكيميائي هو ثاني أستيل مورفين Diacetylmorphine (٩٧: ٧٣)،، وتم تخليقه معملياً سنة ١٨٧٤ ، وذلك عندما اكتشفه العالم الألماني **هنريش دريسر** H,Dreser –وهو العالم نفسه الذي قدَّم للطب والعالَم مادة الأسبرين– الذي كان يبحث عن مستحضر دوائي قاتل للألم له قوة المورفين، وغير قابل للإدمان، ولقد أُطلق على هذا المستحضر – الذي سُمِّي في البداية باسم داي أسيتايل مورفين – اسم هيروين لأول مرة سنة ١٨٩٨ من قِبل شركة باير Bayer للأدوية. وكلمة هيروين مشتقة من الكلمة الألمانية Heroisch، وهي تعني بطولي (١١٤ :٣٨)،(٩٢ :٣١).

ويكون الهيروين على هيئة مسحوق يتفاوت لونه ما بين الأبيض الناصع، أو الرمادي، أو البني. كما يكون ناعم الملمس، له رائحة تشبه رائحة الخل، ويتصف بأنه

مُــر المذاق، ويذوب فـي الماء، ويتم خلط الـهـيــروين مـع العـديد من المواد الأخــرى كـالكينين(*) – علـى سـبـيل المثــال – ويُـسـمّى حـينئـذ بالـهـيـروين الـصـيـني (٦٥ :١١)،(٩٢ : ٣١).

ويُعتبر الهيروين من أكثر المواد الأفيونية خطورة؛ حيث تفوق فاعلية تأثيره فاعلية تأثير المورفين من ٥ إلى ٦ مرات بما يقارب الضعفين إلى عشرة أضعاف المورفين، ويُعد الهيـروين من المواد ذات التأثير السريع في إحـداث الإدمـان (١٨٥ : ٣٢٦).

وعند تعاطي الهيروين فإن الجسم يقوم بتحويله إلى مورفين، حيث إن المورفين هو المسئول عن التأثيرات الفارماكولوجية للهيروين، ولم يكتشف الأطباء أن الهيروين أسرع وأقوى في تأثيره وقابليته للإدمان من المورفين إلا بعد اثنتي عشرة سنة من استعماله (٩٢:٣١).

ويتباين تاريخ إدمان الهيروين وأسلوبه بين مدمنيه، غير أن تعاطيه دائماً ما يبدأ في سن مبكرة ويمارس تأثيراً مستمراً على متعاطيه؛ فمن يدمنونه يظلون على إدمانهم له باستمرار(٢٣ :٢٦٦–٢٦٧).

ويُعتَبر الهيروين من أكثر الأفيونات استعمالاً بواسطة المدمنيين، وترتفع نسبة تعاطي الهيروين في أمريكا خاصة بين الأمريكان ذوي الأصل اللاتيني والأفريقي؛ حيث يصل عددهم إلى نصف العدد الإجمالي للمتعاطين (٢٣:٢٦٧)، وتقدّر نسبة متعاطي الهيروين في الولايات المتحدة الأمريكية بحوالي ٣,١٪ حيث يوجد حوالي

(*) يصعب وجود الهيروين النقي Pure Heroin؛ حيث يقوم التجار بخلطه بالعديد من المواد لزيادة وزنه، ومنهـا: السكر الناعم Soft Sugar أو سكر البـودرة Powder Sugar، الأقـراص المنومـة Barbiturates، الأقـراص المهـدئـة Tranquillisers أو المهـبطة Depressants، الأقـراص المسكنة Analgesic، ويتضح أن هذه الإضافات تضاعف من الأضرار الناجمة عن تعاطي مخدر الهيروين، كما تضاعف من عدد مرات تعاطي المدمن له، أو زيادة الجرعة للوصول إلى المستوى التخديري المطلوب، وهذا ما يُعرّض مدمنيّ الهيروين لما يُعرف باسم الجرعة الزائدة Overdose، والتي قد تؤدي إلى الوفاة.

خمسمائة ألف مدمن، نصفهم يوجد في مدينة نيويورك (٩٧ :٧٣).

وتُعَد الوظيفة الحيوية للهيروين هي قدرته على إزالة القلق، وتحرير القوى المضادة، وهي الثقة والشعور بالخفة (١٨ :٢٧)، ولكن نظراً للأثر قصير المفعول للهيروين، والذي يصل إلى حوالي أربع ساعات – يتحتم على المدمن أن يتعاطاه ما بين ثلاث مرات إلى أربع يومياً وربما أكثر، وبالتالي يصبح معظم وقت متعاطي الهيروين مُكرّساً للحصول عليه (٢٣ :٢٦٨). حيث يوظف متعاطي الهيروين كل إمكانياته، واهتماماته، ونشاطه في السعي وراء الحصول على الجرعة التالية بأي ثمن أو مقابل (١٩٣ : ١٠٣).

ويفوق تأثير الهيروين غيره من المواد المستخلصة من الأفيون؛ وذلك لقدرته العالية والسريعة في إحداث الاعتماد، كما أن أعراضه الانسحابية تكون حادة (٩٧ : ٧٣)، ويتضح ذلك من خلال حالة التحمل التي يصل إليها مدمن الهيروين، حيث إن بعض مدمني الهيروين يضاعفون من الجرعة المتعاطاة بما يقارب مائة ضعف الجرعة الأولى التي تعاطوها، وقد ترجع الحاجة إلى زيادة كميات الهيروين المتعاطاة إلى عدم نقائه؛ لأنه لا يتم تركيبه بشكل متساوٍ، وهذا يُعرِّض المدمن لأضرار جسيمة ناشئة عن زيادة الجرعة، وقد يصاب بالتسمم من أثر المواد الضارة، وغير النقية التي يتم إضافتها لمادة الهيروين (٢٣ :٢٦٨).

طرق تعاطي الهيروين:

تتشابه طرق تعاطي الهيروين إلى حد بعيد مع الطرق التي تستخدم في تعاطي الكوكايين، والتي وضّحها الباحث سابقاً، كما أن هناك اتجاهاً واضحاً لدى بعض مدمني الهيروين أو الكوكايين في الجمع بين تعاطي المادتين؛ وذلك كون الهيروين من المثبطات، بينما الكوكايين من المنشطات، وبهذا فإن تعاقب تعاطي المادتين – لا يعني تعاقب تعاطي المادتين التعاطي في الوقت نفسه، أو الجمع بين المادتين في الوقت نفسه، لكنه يحدث على فترات – يساعد على تقليل كل مادة منهما لحدة آثار المادة الأخرى.

ويتم تعاطي الهيروين عن طريق (**الاستنشاق**)، وذلك باستنشاق المسحوق المادة مباشرة، سواء باستخدام أداة كأنبوبة مثلاً، أو بالأنف مباشرة، أو بتسخينه عن طريق وضعه على ورق القصدير - وهو ورق معدني Aluminum Foil - واستنشاق البخار المتصاعد من عملية تسخينه.

كما يتم تعاطي الهيروين عن طريق (**الحقن**) في الوريد، أو بالعضل، أو تحت الجلد. وذلك بعد إذابة مسحوق الهيروين في الماء وملح الليمون - ملح حامض الستريك Citric Acid Salts وهو مسحوق أبيض اللون - أو عصارة ثمرة الليمون Lemon، يتم سحبه بالحقنة ويُستخدَم فلتر السيجارة Cigarette Filter كمصفاة لسائل الهيروين - الذي تم طبخه بعد إذابته في ملعقة وتسخينه - وذلك بوضع نصل الحقنة به.

وكثيراً ما يحتفظ مدمن الهيروين بهذه الفلاتر بعد استخدامها؛ حيث إنها تحتفظ بتلك الشوائب، أو البقايا المترسبة من مادة الهيروين؛ وذلك لاستخدامها في حالة عدم وجود الهيروين، حيث يقوم المدمن بإذابة الرواسب العالقة بالفلتر بالماء، ثم يقوم بسحبها وحقن نفسه بها؛ وذلك للتجنب المؤقت للأعراض الانسحابية التي يستشعر بدايتها بسبب عدم تعاطي الجرعة المطلوبة من الهيروين.

ويُفضِّل مدمنو الهيروين تعاطيه عن طريق الحقن؛ وذلك لأن هذه الطريقة تمكنهم من الحصول على النشوة التخديرية المطلوبة بشكل سريع، لذلك فليس من الغريب انتشار العديد من الأمراض المُعدية بين المدمنيين، خاصة عند استخدام طريقة التعاطي بالحقن - وذلك لاستخدام أكثر من مدمن للحقنة نفسها - ومن هذه الأمراض (الفيروسات): الالتهاب الكبدي الوبائي بنوعية B-C، ومرض (عدوى) نقص المناعة الإيدز AIDS.

كما يترتب على التعاطي بالحقن إحداث أضرار بالأوردة كالتقلصات أو الضمور، يستحيل معها استخدام تلك الأوردة في الحقن، لذلك يلجأ مدمن الهيروين إلى استخدام أوردة الرقبة، أو حتى الأوردة الموجودة في العضو الذكري.

الاضطرابات المرتبطة بتعاطي الهيروين Heroin Abuse Related Disorders:

ينتج عن تعاطي الهيروين **التسمم بالهيروين** Heroin Intoxication، ويرتبط تعاطي الهيروين بالتحمل Heroin Tolerance، وهو يتمثل في زيادة المتعاطي للجرعة التي يتعاطاها من أجل الوصول إلى المستوى المطلوب من التخدير، كما أن الانقطاع عن تعاطيه، أو تقليل الجرعة ينتج عنه أعراض انسحابية Heroin With-drawal.

وإن كانت المضاعفات الصحية (الأضرار الجسدية) الناتجة عن تعاطي الهيروين تقل عن تلك الناتجة عن تعاطي المواد الأخرى، إلا أن الآثار السلوكية المترتبة على تعاطيه قد تكون مدمرة (٢٣: ٢٦٧)، ويؤثر تعاطي الهيروين على الصعيد الجسدي من خلال عدد من الآثار منها: عدم القدرة على تحمُّل الإثارات الضوئية والسمعية، وانتفاخ الأنسجة المخاطية، واضطرابات هضمية، وارتفاع ضغط الدم (١٠١: ٢٣٧).

ويتعرض مدمنو الهيروين للعديد من المضاعفات الصحية التي تسبب الوفاة – غالباً – في سن مبكِرة، وتتمثل هذهِ المضاعفات في الإصابة بالضعف البدني الناتج عن سوء التغذية، والإصابة بالعديد من الأمراض المُعدية كأمراض الكبد (١٥١: ٥٢).

أما عن تأثير الهيروين النفسي، فإنه يؤدي إلى اضطرابات الانتباه والوعي والإدراك، واضطرابات سلوكية مع ميول عدوانية، وسيطرة الأخيلة والإحساس بالقوة، وتقليل الرغبة الجنسية (١٠١: ٢٣٧)،(٩٢: ٣٢).

وبصورة عامة، فإن مدمن الهيروين يتميز باضطراب الشخصية مع سلوك ضد اجتماعي، وتدهور اجتماعي، وفشل مستمر في العمل (٦: ٤٦٦).

وحيث إن الهيروين يُعَد أحد المواد التي يتم استخلاصها من الأفيون – كما اتضح من العرض السابق – فإن الباحث يرى ضرورة عرض الاضطرابات المرتبطة بتعاطي مادة الأفيون، وذلك بعرض معايير تشخيص التسمم بالأفيون، والأعراض

الانسحابية الناتجة عن الامتناع عن تعاطيه، أو تقليل الجرعة التي يتم تعاطيها.

معايير تشخيص التسمم بالأفيون :Intoxication Opioid

وضّح الدليل التشخيصي الإحصائي الرابع DSM-IV الصادر عن جمعية الطب النفسي الأمريكية APA، عدداً من المعايير التي من خلالها يمكن تشخيص التسمم الناتج عن إساءة استخدام الأفيون، والتي يمكن توضيحها كالآتي:

١ . سلوك غير تكيفي ظاهر، وتغيرات في الحالة النفسية، تتطور خلال أو بعد فترة قصيرة من تعاطي الأفيون مثل:

* النشوة أو السلطنة المصحوبة بالتبلد، والابتئاس.

* التأخر النفسي الحركي أو الهياج.

* فساد القدرة على الحكم، أو تعطل الوظائف الاجتماعية والعمل.

٢ . انقباض حدقة العين نتيجة نقص وصول الأكسجين لأنسجة العين، وظهور واحدة أو أكثر من العلامات التالية والتي تتطور أثناء أو بعد التعاطي بفترة قصيرة:

* التوهان أو الإغماء.

* ثِقَل الكلام.

* قصور في الانتباه أو الذاكرة.

٣ . لا ينبغي أن تكون هذه الأعراض ناتجة عن حالة طبية عامة أو اضطراب عقلي (٨٢ : ٤٩).

معايير تشخيص الأعراض الانسحابية للأفيون :Withdrawal Opioid

تَظهر عدة أعراض عند الانقطاع أو تخفيض الجرعة المستعملة من الأفيون بعد الاستعمال المفرط ولفترة طويلة، وتتطور خلال دقائق وتستمر لبعض أيام وهي:

١ . المزاج المبتئس، والدوار أو التقيؤ، وآلام في العضلات، وزيادة إفراز الدموع

والرشح والزكام، واتساع حدقة العين، وزيادة إفراز العرق، والإسهال، وكثرة التثاؤب، والحُمَّى والرعشة، والأرق.

٢ . تسبب هذه الأعراض أزمة ظاهرة، أو قصوراً في ميدان العلاقات الاجتماعية، والعمل، أو أية ميادين أخرى.

٣ . لا ينبغي أن تعود هذه الأعراض لحالة طبية عامة أو أي اضطراب عقلي (٨٢ : ٥٠).

الكحوليات (الخمور أو المسكرات) Alcohol

المسكرات والخمر لغــةً:

تسكن المفردة مسكرات في لغتنا العربية من خلال العديد من المفردات كالآتي:

سَكِرَ سَكَراً وسُكْراً أي غاب عقله وإدراكه، والسُّكْرُ هو غيبوبة العقل، والسُّكْرُ كل ما يُسكِر من خمر وشراب، والسَّكْرَةُ هي الذهاب بين الصحوة والسَكرة أي بين أن يَعقل المرء وألا يَعقل (١٠٠:٣١٥).

كما تدل المفردة «خمر» على العديد من الدلالات منها:

خَمَرَ منه أي استحيا أو سقاه الخمر، أَخْمَرَ الشيء أي ستره، والأمر أي أضمره، ومنها خَمَّرَ الشيء أي غطاه (١٠٠:٢١١)، ويلاحظ من دلالة المفردتين: المسكرات والخمر لغوياً الإشارة إلى ذلك الغياب المتفاوت لعمل العقل الممثل للوعي والإدراك، فكما اتضح آنفاً تدل الكلمتان على الوقوف ما بين الصحوة والنوم، أو بين الوعي واللاوعي، وهذا ما سيوضحه الباحث لاحقاً عندما يتناول الاضطرابات المصاحبة لإدمان الخمر أو المسكرات، حيث لا يستطيع مدمن الخمور الفصل بين الحلم والواقع، وكأنه أصبح مجنوناً، تنطبق عليه مقولة **«مصطفى زيور» «الجنون حلم يستغرق الليل والنهار»** .

الخمـــر...رؤية تاريخية:

تُعتبر الكحوليات من أقدم المواد النفسية التي تعاطاها الإنسان، إن لم تكن أقدمها على الإطلاق (١١٤:٣٢)؛ حيث يمتد تاريخ الخمور إلى العصر الحجري، فلقد عرفها الإنسان بتخمير Fermenation التوت، كما عرف أيضاً نبيذ Wine العسل منذ ٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وعرفت الحضارة البابلية الخمر سنة ١٧٥٠ قبل الميلاد (٦٥ : ٨).

ولكن تُعتبر الصين من أسبق المجتمعات إلى معرفة الخمور، وتصنيعها منذ عصور ما قبل التاريخ؛ فقد عرف الصينيون عدداً من عمليات التخمير لأنواع مختلفة من الطعام، تم من خلالها تصنيع أنواع مختلفة من النبيذ، والتي كانوا يطلقون عليها اسم **جيو** Jiu، وهو يعني النبيذ، وكان من هذه الأنبذة النبيذ الأصفر، وهو مصنوع من تخمير الأرز، وهو أقدم أنواع الأنبذة، وكان نوعه يختلف باختلاف نوع الأرز الذي يصنع منه، كما كان هناك أيضاً النبيذ المُقَطَّر Distilled، ومنه النبيذ الأبيض الذي كان يستخرَج من أنواع معينة من البطاطس، والحنطة، وبعض الجذور النباتية التي تحتوي على النشا (١١٤: ٣٢).

كما اهتم الصينيون أيضاً بصناعة مجموعة من الأنبذة، عُرِفت بالأنبذة الدوائية، وكانت تُسمَّى **ياو جيو** Yao Jiu، واستُخدِمت في علاج العديد من الأمراض، ومنها: نزلات البرد، والآلام الروماتيزمية. كما كانت تُستخدم في تنشيط الدورة الدموية، وإغناء الدم، وفتح الشهية (١١٤: ٣٣).

كما يرتبط تاريخ الخمر ببعض الطقوس الدينية في الديانات الوثنية القديمة؛ حيث كانت الخمور تُقدَّم كقرابين للآلهة، ويتضح ذلك في الديانتين: الهندوسية والفارسية القديمتين؛ حيث كان يوجد بهما ترانيم دينية تَنسب للخمر صفات مقدسة منها: قدرتها على شفاء الأمراض، وتقوية الإنسان، وإطالة عمره، كما اهتمت الحضارة الإغريقية بالخمر وجعلت لها إلهاً وهو **ديونيسوس**، وأطلق عليه الرومان اسم **باكوس** (٦٥: ٩٩، ٨).

الكحول باعتباره المادة ذات التأثير الفاعل في المسكرات:

عُرِف الكحول في اللغة العربية باسم **الغَول** نسبة لما ينشأ عن الخمر من صداع وسُكْر، ولأنه أيضاً يغتال العقل، وأول من اكتشف الكحول هم الكيميائيون العرب، ونقله الغرب عنهم، وتُرجم إلى الكحول Alcohol بدلاً من الغول (٩: ٧١).

والكحول يُطلق على العديد من المركبات الكيميائية التي يكون لها خصائص مشتركة، حيث تتكون من ذرات هيدروجين وكربون، ومنها: الكحول الإثيلي Ethyl

Alcohol، والذي يُطلق عليه اسم روح Spirit الخمر – (ولهذا تُسمَّى الخمور مشروبات روحية Spirit Drinking) – والكحول الإثيلي سائل طيار ليس له لون، وله طعم لاذع، وأقوى الخمور تحتوي عادة على نسبة ٤٠٪ إلى ٦٠٪ منه (٩: ٧١-٧٢).

كما يوجد نوع آخر من الكحول وهو الكحول المثيلي Methyl Alcohol، وهو نوع سام يُحضَّر من تقطير الخشب ويستخدم كوقود، أو في التركيبات الصناعية، ويسبب تعاطيه أضراراً جسيمة مثل: الهذيان والعمى، أو الموت (٩: ٦٥).

المشروبات الكحولية وطرق تحضيرها ...إلماحــة:

تنقسم المشروبات الكحولية (المسكرات) إلى نوعين: **مُقَطَّرة** Distilled، وتُسمَّى المشروبات الروحية، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: الويسكي، والجين، والفودكا، والعرَق ، وغير مُقَطَّرة؛ تُستخرَج من تخمير المواد النشوية ومنها: البيرة والنبيذ (٦٥ ٨ -٩).

ويتم تحضير النبيذ عن طريق تخمير بذور النباتات النشوية لمدة تتجاوز الثلاثة أيام حتى تتحلل المواد النشوية، وتتحول بفعل إنزيم الدياستيز Distase Enzyme من نشا إلى سكر ثنائي، ثم يتحول السكر الثنائي إلى سكر أحادي، مثل الجلوكوز أو الفركتوز، ثم يتحول السكر الأحادي إلى كحول إثيلي وثاني أكسيد كربون – ويُعتبر ثاني أكسيد الكربون المسئول عن إحداث الرغوة التي توجد في الأنبذة – ثم يتم إيقاف عملية التخمير، ويضاف إلى المادة المخمرة بعض الأعشاب للحصول على الطعم اللاذع الذي تمتاز به الأنبذة (٩: ٦٩).

وفي حالة المشروبات الكحولية المُقَطَّرة يتم بعد عملية التخمير عملية التخزين، حيث تخزن المادة، ويتم تقطيرها لرفع نسبة الكحول بها (٩: ٦٥).

الاضطرابات المرتبطة بتعاطي الكحوليات

Alcoholic Abuse Related Disorders:

بالرغم من أن متعاطي الكحول قد يسعى إلى التعاطي للتخفيف من الكرب الذي يستشعره؛ إلا أن تعاطي الكحول يتحول مع الوقت نحو سلوك التدمير الذاتي

للشخص؛ حيث يتسبب التعاطي في اضطرابات مزمنة على صعيد السلوك (١٠١: ٢٣٠).

وهذا ما أشار إليه **روبرت ديجارليه** Robert Desjarlais عندما وضّح أن الكحول يعمل كمخدر للجهاز العصبي المركزي، وتتراوح تأثيرات الكحول على المتعاطي بين إحداث شعور بالاسترخاء والطمأنينة، إلى تغيرات سلوكية لا تكيفية، يمكن أن تظهر في صور الاكتئاب، أو العدوانية، أو السلوك العنيف، وتلعثم الكلام، والخَدَر، وعدم القدرة على العمل بصورة مترابطة منطقياً، كما أن التعاطي المفرط والطويل الأمد للكحوليات يؤدي إلى حالات ذُهانية خطيرة، وإلى الهذيان الارتعاشي(*) Delirium Tremens، والهلاوس الكحولية(**) Alcoholic Hallucinations (٣٨: ١٨٧).

معايير تشخيص التسمم الكحولي :Intoxication Alcohol

يمكن إيضاح معايير تشخيص التسمم الكحولي كالآتي:

١ . ظهور أنواع من السلوك غير التكيفي، أو تغيرات نفسية، مثل: ظهور مسالك جنسية وعدوانية غير ملائمة، تقلُّب المزاج، قصور في القدرة على الحكم على الأمور في الوظائف الاجتماعية وميدان العمل والتي تتنامى

(*) **الهذيان الارتعاشي:** من أخطر مضاعفات إدمان الخمور، يصاب به ٥٪ من مدمني المسكرات عند الامتناع عن التعاطي أو تقليل الجرعة، ومن أعراضه رعشة اليدين، والإعياء، وسرعة الإثارة، والغثيان، واختلال الوعي، واختلال إدراك المكان والزمان، ويكون ذلك مصحوباً بهلاوس بصرية – رؤية حشرات وثعابين –، وهلاوس سمعية وحسية، ومعتقدات وهمية (٦٥: ٨٠).

(**) **الهلاوس الكحولية:** هي هلاوس سمعية-كلامية (تُعرف بالشخص الثالث)، تحدث بعد المبالغة في الشرب أو الانقطاع عنه، وتبدأ في الظهور بعد ٢٤ إلى ٤٨ ساعة من الامتناع، ويصاب بها ٦٪ من مدمني الخمر، وتتبدى عادة في الليل، ويصعب تفرقتها عن الأوهام، وتكون مصحوبة بالهياج الحاد، وقد تسبب الانتحار، أو الاعتداء على الآخرين، لما يعانيه المدمن من معتقدات وهمية اضطهادية – سماع أصوات تسخر منه أو تسبه وتأمره – تشبه مرض الفصام (٦٥: ٨٢-٨٣)، (١٠١: ٢٣٣).

أثناء أو بعد تعاطي كمية من الخمور.

٢ . ظهور واحدة أو أكثر من العلامات التالية التي تتنامى أثناء أو بعد التعاطي مباشرة:

* التلعثم أثناء الكلام.
* اختلال الاتزان.
* الترنح في المشي.
* تذبذب مقلة العين.
* قصور في الانتباه والتركيز.
* الذهول أو الإغماء.

٣ . لا تكون هذه الأعراض بسبب حالة طبية عامة، أو أعراضاً لاضطرابات عقلية أخرى (٨٢ :٢٩).

معايير تشخيص الانسحاب الكحولي :Withdrawal Alcohol

وتتمثل معايير تشخيص التسمم الكحولي في الأتي:

١ . بعد الانقطاع عن التعاطي بساعات طويلة أو أيام قليلة تتنامى اثنان أو أكثر من الأعراض التالية:

* تزايد النشاط العصبي الذاتي.
* زيادة ارتعاش اليدين.
* القلق والأرق.
* التقيؤ.
* زوغان البصر أو الزغللة.
* ظهور هلاوس سمعية وأوهام.

* الاهتياج الحركي النفسي.

* نوبات صرعية كبرى.

٢ . تسبب الأعراض السابقة محنة إكلينيكية دالة، أو قصوراً في الوظائف الاجتماعية، والعمل، والميادين الأخرى ذات الأهمية في حياة المتعاطي.

٣ . لا تعود هذه الأعراض إلى حالة طبية عامة أو بسبب حالات عقلية (٨٢ : ٣٠).

(٢)

الفصل الثاني

الإدمـــــــــان

من منظور سيكوديناماي

- الرؤى الســيكوديناميــة لمدمني المخــدرات والمسكرات.

الفصل الثاني

الإدمـان من منظور سيكوديـنامي

مقـدمـة:

تعددت الرؤى والتـوجهـات النظرية المفسرة للسلوك الإدمانـي عامـة، وإدمان المخدرات والمسكرات خاصة، ومن هذه التوجهات: المنظور الاجتماعي، المنظور الفارماكولوجي الفسيولوجي، المنظور المعرفي، المنظور السلوكي، المنظور الطب نفسي وغيرها من المنطلقات النظرية التي يتبناها كل باحث بما يتفق وبنيته المعرفية، وما يسعى لتحقيقه، وإن كان ما يعني الباحث في الدراسة الراهنة هو المنظور التحليلي النفسي – كونه الأنموذج الأمثل لسبر أغوار النفس البشرية، وإماطة اللثام عنها، وفض المجهلة بأقدم نصوص الوجود؛ ألا وهو الإنسان – فإن الباحث وجد ضرورة علمية – تتمثل في عدم التكرار المسِّف للتراث المعرفي الممثل لهذه التوجهات النظرية – في التواني عن الخوض في عرض تلك النظريات، والتي تحظى باهتمام العديد من الباحثين.

لكننا إذا مررنا سريعاً بإحدى تلك الرؤى الأكثر شيوعاً في تفسير السلوك الإدماني – وهي النظريات السلوكية أو الاتجاه السلوكي – فإننا نجده قد انطلق من ركيزة أساسية، تتمثل في أن الإدمان سلوك مُتعلَّم، يعتاد عليه الفرد نتيجة لتدعيم هذا السلوك حتى يتم للعقار السيطرة الكاملة على الوظائف العصبية للفرد (٨٢ : ٥٥).

ويكون هذا التدعيم بحالتيه، سواء أكان تعزيزاً إيجابياً يخبره المدمن عبر الأثر المريح للمخدر (الشعور بالنشوة)؟ أم تعزيزاً سلبياً يتمثل في الأعراض المصاحبة للامتناع عن المخدر (الأعراض الانسحابية المصاحبة للامتناع، أو التقليل من الجرعة المتعاطاة)؟ وبهذا تتكون العادة، أو الاعتياد على استخدام المُخدر، ويصبح الإدمان سلوكاً متعلَّماً (١٨٠ : ٣١٨).

حيث يتضح أن أنصار الاتجاه السلوكي فسروا السلوك الإدماني بوصفه عادة

شرطية يعمل على بقائها تأثير الانتشاء The effect of high الناتج عن التعاطي؛ والذي يمثل نوعاً من الإثابة المدعِّمة، وهذا التدعيم الإيجابي قادر على خلق عادة قوية؛ هي عادة اشتهاء العقار، كما يؤكد أنصار هذا التوجه - بالإضافة إلى التدعيم الإيجابي- على الخوف الفعلي من الامتناع عن تعاطي العقار، أو ما يتوقعه الفرد من آثار الامتناع؛ بحيث إن الفرد إذا خبر الامتناع عدة مرات، نشأ عنده نمط من استجابة التجنب الشرطية (٩٢ :٦٥).

ويُبيِّن لنا **عبد الله عسكر** قصور ذلك التفسير، وسطحية تلك الرؤية عبر طرحه لمفهوم **الرغبة** ؛ حيث يؤكد على أن السلوك الإدماني لا يمكن تفسيره من هذه الناحية فقط - أي كونه عادة شرطية مُتعلَّمة -؛ لأن تعاطي المخدرات والمسكرات يخرج من إطار التعلم المقصود، كما أن تعلُّم عادة معينة يتوقف على ما يرغبه الفرد؛ فرغبة الفرد هي التي تحدد طريقه لقبول التعلم أو الدخول في دائرة اكتساب عادات جديدة (٨٢ : ٥٦).

انطلاقاً من تلك الرؤية، واستناداً لمفهوم الرغبة؛ فإن الباحث يسعى إلى الفهم والوعي بالظاهرة النفسية - في حدود فهمه وحدسه -، ذلك الوعي الذي يُحتِّم علينا الابتعاد عن كل ما هو ظاهري وعَرَضي، والبحث في التجليات الباطنة التي تكشف عن جوهر العلائق بين الدوال والمدلولات بوصفها علاقات ضرورية (٣٢:٣٤٧)، فالعلاقات المثالية هي إجمالات واضحة المعالم، تعين على الفهم أكثر مما تعين على التفسير (٣٥ : ١٠٩). لذلك؛ فإننا نجد أنفسنا أمام خطاب التحليل النفسي الذي يقدِّم لنا جواباً على اللغز الذي يطرحه الفكر الإنساني (١٠ : ١٧)،(٧٧ : ٢٣).

وكلمة التحليل النفسي Psychoanalysis تدل على فعل هو التحليل Analysis، ينصب على موضوع معين وهو النفس Psycho، وتقوم بين الفعل وموضوعه علاقة الوسيلة بالغاية - أي المنهج بمجال البحث -، فالنفس منقسمة على نفسها، منها جانب شعوري نعلم صيغته المُركَّبة، وجانب لاشعوري لا نعلم صيغته بل نجهلها (٨ : ٩).

ويدل اصطلاح التحليل النفسي - وفقاً لتحديد **فرويد** - على ثلاثة أشياء، وهي:

أولاً: منهج للبحث في العمليات النفسية التي تكاد تستعصي على أي منهج آخر، **ثانياً:** فن لعلاج الاضطرابات العُصابية (النفسية)، يقوم على منهج البحث المذكور، **ثالثاً:** مجموعة من المعارف النفسية يتألف منها نظام علمي جديد (٣٣).

فالدراسة المتعمقة للإنسان – بما هو إنسان – لابد أن تبدأ بأسلوب البحث في التحليل النفسي (١١١)؛ فإن علوم الإنسان لا تعرف الإنسان إلا في حضرة الآخرين – أقبل عليهم أو أعرض عنهم –، هم دائماً وأبداً مرآة وجوده (٨٧ : ٧).

ولقد بيّن **مصطفى زيور** الصيغة العامة لنظرية التحليل النفسي في تفسير السلوك المرضي بأنه «إحباط لا يقوى الراشد على مواجهة آثاره النفسية بحل واقعي مناسب، سواء أكان ذلك نتيجة لضخامة الإحباط؟، أم لاستعداد نشوئي قوامه عدم القدرة على احتمال الإحباط؟، والأغلب أن يكون ذلك مزيجاً من العاملين معاً، وتؤدي نتائج الإحباط الصدمي للنفس إلى توتر يؤدي بدوره إلى نكوص إلى أنماط من السلوك تميز مراحل الطفولة، خلاصاً من الموقف المحبِط» (١١٢ : ٢٨٨-٢٨٩).

من أجل ذلك – وانطلاقاً من التوجه النظري الذي يتمثله الباحث – سيقوم الباحث بعرض رؤية التحليل النفسي التفسيرية للسلوك الإدماني كونه أحد الأنماط السلوكية المضطربة، وذلك وفقاً لخطاب التحليل النفسي الكلاسيكي؛ كونه البدء في محاولة الفهم المتعمق للظاهرة، على أن يتم العود على ذلك البدء عند تناول ديناميات البناء النفسي، وتشكُّل الذات وفقاً لخطاب التحليل النفسي اللاكاني، وذلك في محاولة من الباحث للوقوف على التغيرات الكيفية، والتطورات المفاهيمية في خطاب التحليل النفسي.

الرؤى السيكوديناميةلمدمني المخدرات والمسكرات

التحليل النفسي...والإرهاصات الأولى حول السلوك الإدماني:

لقد بدأ اهتمام خطاب التحليل النفسي بإدمان المخدرات، والمظاهر الإدمانية الأخرى باكراً مع بداياته الأولى، حيث كتب **فرويد** سنة ١٨٨٤ مقالاً عن نبات الكوكا، واعتبر المخدرات وسيلة يستخدمها الفرد في محاولة للتأقلم مع الألم (١٩٥ : ٢٣٨).

كما كتب أيضاً سنة ١٨٩٧ رسالة لصديقه **فليس** Fliess موضحاً فيها أن الاستمناء يعتبر أول وأضخم عادة يمكن إدمانها وأسماها الإدمان الأولي ، واعتبر إدمان المخدرات والمسكرات بدائل لعادة الاستمناء. ومع تطور الفهم بمراحل النمو النفسي بدأ النظر للسلوك الإدماني باعتباره نتاجاً للمكابدات الليبيدية الفمية الأولية، حيث أرجع **فرويد** في كتابه **ثلاث مقالات في نظرية الجنسية** – الصادر سنة ١٩٠٥ – التدخين وشرب الخمر إلى إمداد تمركز فمي جبلِّي (٤٣:٧١-٧٢).

وفي عام ١٩٠٨ قَدَّمَ **كارل أبراهام** K. Abraham دراسته عن إدمان الكحول – والتي أجراها على عينة من الذكور– وضَّح فيها أن الإدمان – خاصة إدمان الخمر– يعد انحرافاً بيولوجياً يتمثل في الصراعات الجنسية المكبوتة، والتي تتبدى من خلال فعل التعاطي والشبقية الفمية، كما أن هذه الرغبة الجنسية المثلية المكبوتة تلاحظ من خلال التقارب البدني بين مدمني الخمور، وتساعد حالة السكر على التعبير عنها بطرق مقبولة اجتماعياً (١٧٣ : ١٠١).

وللتأكيد على الصراعات اللاشعورية المرتبطة بالجنسية المثلية لدى مدمني المسكرات قَدَّم **توسك** Tausk تفسيراً لهتر السكارى الارتعاشي – (الهذيان الارتعاشي Delirium Tremens والذي وضَّحه الباحث عند تناوله للاضطرابات المرتبطة بتعاطي الكحوليات) – على أنه تعبير عن الهياج الجنسي عند المرضى المستثارين شبقياً، ولكنهم في نفس الوقت غدوا عاجزين جنسياً بسبب الخمر، والذين هم – في

مستوى أعمق – مثليو الجنسية ونرجسيون (١٣ : ٧٢٧–٧٢٨).

وهذا ما ذهب إليه كل من **خانتزيان** Khantzian و **بريهم** Brehm من دراستهما التحليلية لعينة من مدمني الكحول الذكور، حيث أكدا على أن الكحول يخفض الطاقة الجنسية لديهم، ويساعدهم على حل الصراعات اللاشعورية المرتبطة بالجنسية المثلية الكامنة (١٣٦ : ١٠٦).

وفي تناول «**نايت** knight» للبناء النفسي لمدمني الكحول بالدراسة التحليلية أكد على أنهم أشخاص متشككون في قدراتهم الجنسية، وتسيطر عليهم المشاعر الدونية، ومن هنا يكون التعاطي بمثابة البديل لإشباع الاحتياجات الفمية المُحبَطة والتأكيد على القدرة الذكورية (١٧١ : ١٥).

وإذا كان النص السابق يؤكد على تلك الصراعات اللاشعورية المتمثلة في الجنسية المثلية – خاصة لدى مدمني المسكرات –، والتي تشير أيضاً إلى تلك الإحباطات الفمية المتمثلة في وجود ذلك الخلل في المراحل الباكرة من مراحل النمو النفسي الجنسي – المرحلة الفمية –، بحيث يصبح المخدر وسيلة لحل ذلك الصراع، أو في أقل المستويات التخفيف من حدته وتحقيق الإشباع الفمي المرغوب بالنكوص إلى تلك المرحلة، أو التثبيت عليها، فإن الباحث – في محاولة للتعرض لمختلف الرؤى المنبثقة عن الفكر التحليلي – وجدَ رؤية مُغايرة لدى **صلاح مخيمر**.

حيث يؤكد **مخيمر** على أن « الإحباطات التي خبرها الصبيان والبنات في المرحلة الفمية ينتج عنها إعراضهم عن الأم متجهين إلى الأب، متخذين من قضيب الأب بديل ثدي الأم – وهذا يعني أن ليست هناك جنسية مثلية حقيقية –، فالكحولي عندما يسكر لا تكون الزجاجة التي أمامه رمزاً لقضيب حقيقي، وإنما القضيب من حيث رمز لثدي الأم قضيب مُرضِع ، والبنت أيضاً تتحول إلى الأب، وإلى قضيب الأب كثدي مُرضِع. والأمر لا يختلف في الحشيش عنه في الكحول حيث تصبح الجوزة – (والتي يعتمد عليها متعاطي الحشيش في أحد طرق تعاطيه كما بيّن الباحث سابقاً) – في شكلها ثدياً استطالت حلمته حتى غدت قضيباً » (في ١٢٧ :٤٢).

ويمكن للباحث وضع عدة مداخل – ما هي إلا رؤى قائمة على تفهم ذهنية مدمن المخدرات والمسكرات، كانت نتاجاً لسبر أغوار بنائه النفسي – مثَّلت التوجه التفسيري للسلوك الإدماني – بوصفه سلوكاً مرضياً – من قِبَل خطاب التحليل النفسي الكلاسيكي، حيث ركَزَّت الرؤية التحليلية النفسية على عدة خصائص تمتاز بها البنية النفسية لمدمن المخدرات والمسكرات كالآتي:

* تتصف أنا المدمن بالضعف، وعدم القدرة على مواجهة الواقع المُحبِط.
* يُعَد السلوك الإدماني حلاً خيالياً – مؤقتاً – للصراع المُحتدِّم بين قُوى متعارضة، تتمثل في الهو بدفعاته الغريزية – الخارجة عن السيطرة –، والأنا الأعلى المتطرفة في القسوة والتسلط في مقابل الأنا الوَهِن المُنهَك.
* يُعَد السلوك الإدماني محاولة يائسة من المدمن في تخفيف حدة التوتر الناتج عن الصراع الجنسي اللاشعوري، واضطراب النظام الجنسي لديه.
* يُعَد السلوك الإدماني – عبر فعل التعاطي – نكوصاً إلى المرحلة الفمية، والتي يستشعر معها المدمن الامتلاء والقدرة – (الافتتان بالصورة المرآوية بالمفاهيم اللاكانية، حيث السيطرة على أخاييل الجسد المُمزَّق) –، وسيطرة النزعة النرجسية.

البناء النفسي للمدمن...ما بين الأنا الوَهِن وإرهاب الهو:

يشعر البعض بأن المخدرات تبعث النشوة، ويستخدمونها: إما للدخول في الأحلام والرؤى السعيدة، أو لتهدئة أعصابهم الهائجة وتحقيق الهدوء، لكن بعد التعاطي يحدث شيئان: الأول زيادة التوتر بسبب إحساسهم بالذنب، والثاني إضعاف الأنا بسبب أن توترات الهو تصبح أشد إرهاباً، وهذا ما يدفع بالمتعاطي إلى زيادة الجرعة المتعاطاة (٤ :٢٢٧-٢٢٨).

ويتميز البناء النفسي للمدمن بالاضطراب، حيث إن الأصل في الإدمان يرجع إلى التركيب النفسي المرضي الذي يحدث في حالة الاستعداد (٣٩ : ٦٣)، ويساعد على تَفعِّيل ذلك الاستعداد النشوئي، أو البنية النفسية المرضية عدم قدرة المدمن على

تحمل الإحباط، أو مجاراة متطلبات الواقع، وضغوط الأنا الأعلى؛ ما يدفعه إلى النكوص إلى المرحلة الفمية، ليصبح المخدر أو الكحول بديلاً لثدي الأم، ويحدث ذلك الاتحاد بين الأنا والهو بغرائزه في مواجهة الأنا الأعلى، والواقع المحبِط (١٣٦ : ١٠٦).

وهذا ما أكد عليه **عبد الله عسكر** بأن أنا المدمن يتميز بالضعف وعدم القدرة على القيام بمهمته الأساسية، والهو يمارس هوايته بالغزو الداخلي للأنا؛ ذلك لأنه ما زال محتاجاً إلى إشباعات شبقية نتيجة التثبيت الليبيدي في المرحلة الفمية، أما الأنا العليا، فتتميز بالقسوة أحياناً، ما يجعلها تطلق مشاعر الإثم التي تبعث الدفاعات المولِّدة للمرض، أو قد يتصف بالإهمال واللامبالاة، ومن هنا تنعدم الوظيفة التحذيرية للضمير، ما يمهد المجال الفسيح لغزوات الهو ضد الأنا في غيبوبة الأنا العليا المضطربة (٧٣ : ٩٢).

ومن هنا يعمل تعاطي المخدرات والمسكرات على تحرير قُوى الكبت، ويُفعِّل العدوان بحالتيه سواء في اتجاه المدمن – عدوان متجه نحو الذات – أو في اتجاه الآخرين، وذلك كون فِعل التعاطي ذاته يُعَد سلوكاً مُدمِّراً (١٨٥ : ٤٠٣).

وبهذا؛ فإن المخدرات أو المواد المؤثرة نفسياً – بكل أنواعها – تُشكِّل إحدى المحاولات اليائسة للخروج من المأزق، والتغلب على الأعراض النفسية، والحالات المزاجية المضطربة؛ حيث تعمل كوسيط خيالي يُطيح بالوسيط الرمزي (٨٢ : ٩، ٧).

حيث يقوم السلوك الإدماني بِعدة وظائف – (وإن كانت على المستوى الخيالي، حيث ينهار الجسر الرمزي لتتقطع خيوط التواصل الجدلي مع الآخر، وينسج منها المدمن شرنقته التي يتغلَّف بها في حبس انفرادي مع أناه الواهم، ونرجسيته ببُعديها: الشبقي، والعدواني، ووهم القدرة المطلقة، حيث يكون تدمير الذات عبر أخاييل تدمير الآخر، فما الآخر سوى أنا) – بالنسبة للمدمن فهو بمثابة مانع للإحباطِ، وتنفيس عن الحفزات العدوانية، خاصة تلك المتجهة نحو الأب والأم، ووسيلة فعَّالة لإنكار انخفاض تقدير الذات، والتخلص من المازوشية، وتُمثِّل تلك الوظائف التي يقوم بها الإدمان مجموعة من الأعراض العُصابية (١٣٢ : ١٠٣).

ومن هنا يكون اشتياق المدمن للمخدر الذي يحرره من الشعور بالوحدة، والعجز، والتمركز حول الذات، بحيث يصبح المخدر هو البديل الوحيد عن فشله في العلاقة مع الآخر، بالإضافة إلى استثارته لمشاعر القدرة المطلقة، والقوة التي يحتاجها المدمن. وبهذا؛ فإن الدور الذي يلعبه المخدر في تلك الحالة يُعد عَرَضاً مرضياً نتيجة لخلل أساسي في البناء النفسي للمدمن (١٤٤: ١٤٤).

وفي تناول **كريستال** Krystal و **راسكن** Raskin للبناء النفسي لمدمني المخدرات والمسكرات بيّنا أنه بناء مضطرب، حيث تسيطر على وجدان المدمن مشاعر الاكتئاب والقلق، وتكون علاقته بالموضوعات مضطربة، يسيطر عليها التناقض الوجداني الذي تتسم به المرحلة الفمية، كما وضّحا أن المخدر يعمل كوسيلة لتحقيق التوافق لدى المدمن بطريقة هلوسية عن طريق تعديل شعوره، وذلك من خلال النكوص إلى مرحلة الطفولة الأولى (المرحلة الفمية) عبر فعل التعاطي (١٥٨).

وإذا كان البناء النفسي للمدمن على هذه الحال من الاستعداد المرضي – إن لم يكن مضطرباً بالفعل – فيمكن للباحث الائتناس إلى رؤية **هانز هارتمان** H.Hartman في تحديد خصائص شخصية مدمن المخدرات والمسكرات وطبيعتها، والتي يتضح من خلالها طبيعة بنائه النفسي، حيث بيّن **هارتمان** عدة خصائص يتصف بها البناء النفسي للمدمن كالآتي:

* قصور في نمو الأنا، وسيطرة المشاعر الاكتئابية، والتقدير المنخفض للذات، مع القابلية للإنجراح النرجسي.
* اضطراب العلاقة الباكرة بالموضوع، والشعور بالدونية، وعدم القدرة على تحمل الإحباط. (وهذا ما يدفع بالمدمن إلى الانغماس الكلي أو الجزئي في الاندماج مع جماعة التعاطي).
* الانسحاب التدريجي من الواقع إلى عالم اللذة التخديرية تجنباً للوجدان المؤلم – (الاكتئابي) – ما يؤدي إلى تضخم الاضطراب في وظائف الأنا (٣:١٤٥).

المدمن...ما بين التثبيت الليبيدي والنكوص:

تُعَد اضطرابات الإشباع الليبيدي في مرحلة الطفولة – أو في مراحل النمو النفسي الجنسي – سبباً رئيسياً في مشكلات الصراع النفسي الذي يعتري البناء النفسي لدى الراشد، وعبر النص السابق يتضح الدور الهام الذي تلعبه المرحلة الفمية – كأحد مراحل النمو النفسي – في السلوك الإدماني، حيث يتصف البناء النفسي لمدمني المخدرات والمسكرات باضطراب الإشباع الليبيدي في المرحلة الفمية.

وبتقسيم **كارل أبراهام** لمراحل النمو النفسي الجنسي يتضح أن مدمني المخدرات والمسكرات ينتمون إلى المرحلة الفمية المتأخرة، وهي مرحلة مجاورة للمرحلة التي ينتمي إليها المرضى بذُهان الهوس الاكتئاب (١١٢: ٢٨٩).

ويؤكد **أوتو فينخل** Otto Fenichel على أن مدمني المخدرات والمسكرات يَحدث لديهم نكوص غير عادي يحدد مجالاته من الجنسية الطفلية نقط التثبيت المختلفة، حيث يستمر الليبيدو في صورة طاقة توترية شبقية عديمة الشكل ليست لها خصائص فارقة، أو أشكال انتظام . ومن الناحية الشبقية تكون المناطق المتزعِمة هي المنطقة الفمية والجلد، فتقدير الذات – بل حتى الوجود نفسه – يتوقفان على الحصول على الطعام والدفء، حيث يستشعر المدمن المخدر كونه هذا الطعام وهذا الدفء (١٣: ٧١٧-٧١٨).

وللتعرف على الدور الذي تقوم به الأم وأنماط التربية في مراحل النمو المختلفة، وعلاقته بالتثبيت الليبيدي لدى الطفل؛ يتضح أن الليبيدو ينتقل من منطقة لأخرى بحكم التنظيم البيولوجي، والنضج المرتبط بالتطور الفعلي في أنماط التربية إزاء كل مرحلة من المراحل، وما يدعو إلى التثبيت يبدو بارزاً في اضطراب العلاقة بين الحاجة إلى الإشباع، وطريقة الأم في مقابلة تلك الحاجات، سواء بالإسراف، أو الإحباط، أو التذبذب بين الإسراف والإحباط؛ فالأنا تميل إلى الإشباع الأسهل، وأية إحباطات في مستوى إشباع الليبيدو في المرحلة الاستية من شأنه أن يرجع – (ينكص) – بالطفل إلى وسائل الإشباعات السابقة التي كان فيها الإشباع، والحصول

على اللذة، وتَجنب الألم أيسر مما يعانيه، وكذلك في مراحل ما بعد البلوغ، فالقديم قابع تحت الجديد (٧٣: ٩٣-٩٤).

ولقد حدد خطاب التحليل النفسي – عبر الدراسة التحليلية – عدداً من الخبرات المختلفة التي يتعرض لها الفرد عبر مراحل النمو، والتي تؤدي إلى التثبيت الليبيدي كما عرضها **أوتو فينخل** كالآتي:

* المرور بخبرة من الإشباعات المُسرفة في مستوى بعينه، يصعب معها تخلي الفرد عن هذا المستوى، بحيث يراوده الحنين الدائم له – (ويمكن للباحث القول: إنه في حالة سلوك مدمني المخدرات والمسكرات – كما في العديد من أنماط السلوك المرضي – يكون ذلك الحنين نكوصاً إلى المرحلة الفمية في محاولة لتخفيف التوتر الناتج عن الإحباط الصدمي) – خاصة، إذا تعرّض لخبرات مُحبِطة أو مؤلمة.

* المرور بخبرة من الإحباطات المُسرفة في مستوى بعينه، يترتب عليها التثبيت على هذا المستوى المُحبِط، ما يعوق تقدم نمو الفرد، مع استمرار تلك الحوافز في اللاشعور على حالها دون تغير؛ ساعية على الدوام إلى النوع نفسه من الإشباع. (ويرى الباحث أن تلك الرغبة الملّحة في تحقيق الإشباع لتلك الحوافز المكبوتة تُمَكّننا من تفهم شعور مدمني المخدرات والمسكرات بالعجز النفسي عن التوقف عن التعاطي، كما تساعد أيضاً على تفهم السلوك الانتكاسي – الإرتكاس Relapse – لدى المدمن بعد فترات التوقف عن التعاطي، وحتى بعد الخضوع للعلاج).

* المرور بخبرات انتقالية مفاجئة من الإشباعات المُسرفة، إلى الإحباطات المُسرفة يترتب عليها عجز الفرد عن احتمال أية إحباطات لاحقة، كما ينتج عنها أثر تثبيتي خاص (١٢: ١٦٨-١٦٩). (يستطيع الباحث عبر ذلك الطرح أن يفسر سلوك المدمن الاستحواذي المتمثّل في احتفاظه الدائم بكميات من المخدر، والذي يستشعر معه الأمان، بل السيطرة، وكأنه يهرب

من تلك المشاعر المؤلمة – بل مشاعر الذُعر والهَيلة – التي يدركها عند التفكير في احتمالية عدم وجود المخدر، أو عدم القدرة في الحصول عليه).

ومن هنا يُعَد المخدر إشباعاً شبقياً بديلاً للإشباع المفقود في المرحلة الفمية بما تنطوي عليه من إشباعات للحاجات البيولوجية، والنفسية التي تتمثل في الرضا والسرور عقب الإشباع البيولوجي، والاعتماد على المخدر يمثل تحقيق الشعور بالأمن واعتبار الذات، ونمو التخدير عند المدمن ترجع جذوره إلى اعتماد فمي على مصادر خارجية (٤٩: ٤٠٨).

حيث تُعَد شخصية مدمن المخدرات والمسكرات شخصية فمية نرجسية سلبية استقبالية، ترجع إلى إحباطات فمية في مرحلة الطفولة، وبالتالي تثبيتات فمية أرست التبعية تجاه الموضوعات كإمدادات نرجسية ليس غير، ويتضح ذلك من خلال ثلاثية الأخيلة الفمية، والتي أطلق عليها **«برترام ليفين» «الثلاثية الفمية»** وهي:

١ . الالتهام الإيجابي: (التهام الآخر بوصفه الموضوع المحبوب المكروه).

٢ . الالتهام السلبي: (الالتهام من قِبَل الآخر، وهو رمز للخوف من الخصاء).

٣ . الرغبة في النوم والاستسلام له، وهو هنا الرغبة في الاتحاد بالثدي والنوم عليه (١١٢: ٢٨٩).

ويمكن للباحث القول: إن التثبيت الليبيدي الذي يستتبع النكوص لدى مدمني المخدرات والمسكرات ينتج عن ذلك الإشباعِ الغريزي الذي يخبره الفرد – المدمن – خلال المرحلة الفمية، هذا الإشباع الذي سجِّل في نظامه الخيالي عبر تلك الحالة – الصورة – من الاكتمال، والتي تمكّنه من كبت الشعور بالنقص والتمزُّق، كما تُمَكّنه أيضاً من الشعور بالقدرة والسيطرة، والتي تحقق له الأمن، والاستقرار على مستوى خيالي في مقابل المشاعر الدونية التي تهدد وجوده، لذلك تعمل المخدرات والمسكرات كوسيط خيالي يتواصل عبره المدمن مع الوجود، وإن جاز القول، يصبح المخدر مرآة تنطبع عليها الصورة المكتملة لأنا المدمن الخيالي، والتي يُستلَب فيها، ويفتتَن بها، كما حدث لنرجس، وليُصبح صوت الآخر الممثل للنظام الرمزي، والذي يسعى لانتشاله

من وهم تلك الصورة وإغوائها النرجسي المُدمِّر -يصبح مجرد صدَى يذهب سُدى.

المدمن...ما بين البنية الاكتئابية والهوس المصطنع كآلية دفاعية:

إذا كان الوجود الإنساني يتأرجح ما بين الإشباع والإحباط، ذلك الإشباع الذي تتبدى بداياته مع تلك الحالة من اللذة، والراحة، والدفء التي يخبرها الطفل عبر إشباع حاجته البيولوجية للطعام، وما يقابلها من ألم وضيق ومشاعر اكتئابية في حال الحرمان من الإشباع، إذا كان الأمر على هذه الحال، فإن المدمن تتبدى لديه دورية الاكتئاب والهوس بشكل ملحوظ، حيث يصبح المخدر - بديل الطعام - وسيلة لاستثارة الحالة الهوسية الاصطناعية كآلية دفاعية ضد المشاعر الاكتئابية، والشعور بالدونية المسيطرة على المدمن.

وإذا كان الباحث سيتناول دورية الاكتئاب والهوس لدى مدمني المخدرات والمسكرات، فيجب - بداية - إلقاء الضوء على الآليات الدفاعية التي يمتاز بها كل من: الاكتئاب، والهوس، وإن كان الباحث يرى في الحالة الهوسية - التي يتم توليدها / اصطناعها من خلال تعاطي المخدرات والمسكرات - ذاتها آلية دفاعية ضد المشاعر الاكتئابية، سواء أكانت تلك الحالة الاكتئابية داخلية قابعة في اللاشعور؟، أم خارجية؟، ناتجة عن الإحباطات التي يتعرض لها المدمن، والتي تستحضر - بدورها - تلك المشاعر العميقة المرتبطة بإحباطات سابقة.

ويتميز الاكتئاب بآلية الإدماج، ويعتبر الإدماج الهدف الأوَّلي الأول تجاه الموضوع؛ ففي مرحلة أنا اللذة الخالصة كل شيء سار يستدخل، ويُعد الاستدخال الأنموذج الأولي لاستعادة القدرة المطلقة، كما أنه النمط البدائي الأول للعلاقة بالموضوعات (١٣: ٨١-٨٢).

كما يُعَد الاستدخال الفمي السادي - (المرحلة الفمية المتأخرة، وهي مرحلة مجاورة للمرحلة التي ينتمي إليها مَرْضَى ذُهان الهوس الاكتئاب كما بيَّن تقسيم أبراهام) - للموضوع بمثابة مدد نرجسي، فهو ليس محواً لفقدان الموضوع فقط بل محاولة لتحقيق الاتحاد المستمر مع موضوع خارجي مطلق القدرة، والتناقض

العاطفي يسبغ على هذا الاستدخال دلالة عدوانية (١٣ : ٧٣٣).

وإذا كان الإدماج هو الآلية الدفاعية المميزة للاكتئاب، فإن الآلية الدفاعية التي يتميز بها الهوس هي الإنكار؛ حيث يُستخدم على نطاق واسع، وبالرغم من أنه يوجه أساساً إلى وقائع مؤلمة في العالم الخارجي، إلا أن الأنا قد تستخدمه في مواجهة الوجدان المؤلم، وكأنه واقع خارجي، ويحدث ذلك التحول في وجهة الإنكار كآلية دفاعية عندما تفلت محتويات اللاشعور من قبضة الكبت، وتصبح شعورية، ما يستثير الضيق والألم، أو عند اندلاع وجدان الهيَلة، أو الحسرة المريرة نتيجة الإحباط. فغاية الإنكار في نهاية الأمر تفادى الهيَلة، والشعور بالعجز، أو الحِطة، أو الملامة، ما يخدش نرجسية الذات (١١٢ : ٢٩٠-٢٩١).

ولقد بيّنت **أنّا فرويد** A. Freud أن الإنكار يكون في الخيال، وفي الكلمة، والفعل، مؤكدة على أن الأنا لا تدافع عن نفسها فحسب ضد الألم المنبعث من الداخل – بالسيطرة على المثيرات الغريزية – لكنها تحاول بشتّى الطرق، أن تدافع عن نفسها ضد الألم الموضوعي، والأخطار الموضوعية التي تهددها، وتكون نتائج هذه الجهود تكوين الشخصية ، الخُلق، (١١ : ٧٣-٧٤).

ومن هنا يتضح أن المخدرات والمسكرات تقوم بجلب حالة من الهوس الاصطناعي – لدى المدمن – قوامها المرح، والفرفشة، وتضخم الشعور بالذات، ووهم القدرة والسيطرة – حالة النشوة أو السلطنة –، والتي تعمل كآلية دفاعية ضد الحالة الاكتئابية – الشعور بالدونية، والقابلية للإنجراح النرجسي – المتأصلة في البنية النفسية للمدمن، وما أن يزول الأثر التخديري – الحالة الهوسية – للمادة، حتى تعاود الحالة الاكتئابية الظهور، ما يدفع بالمدمن إلى التعاطي مرة أخرى، وهكذا يدور مدمنو المخدرات والمسكرات في حلقة مفرغة ما بين الاكتئاب والهوس. ومع استمرارية التعاطي تعجز المادة المخدرة أو المسكرة عن الوصول بالمدمن إلى المستوى المطلوب من الحالة الهوسية، وهذا ما يدفع بالمدمن إلى زيادة الجرعة المتعاطاة.

الإدمان وسيكولوجية الأنا...من الدفعات الغريزية إلى آليات الدفاع:

ظهرت نظرية سيكولوجية الأنا في أربعينات القرن العشرين، وكان اهتمامها منذ البداية منصباً على الدور الذي تقوم به الأنا في الجهاز النفسي، حيث اعتبرت وظيفتها الأساسية – أي الأنا – استخدام آليات الدفاع ضد المثيرات – الضغوط – الخارجية – وهذا ما قام الباحث بإيضاحه عند تناول الإنكار كآلية دفاعية مُميِّزة للهوس في دورية الهوس الاكتئاب لدى المدمن – والداخلية المتمثلة في الدفعات الغريزية الصادرة عن الهو.

ومن هنا يكون الهدف الرئيسي لنظرية سيكولوجية الأنا – عبر أي فعل تحليلي علاجي – هو تقوية الأنا، وكيفية استخدامها للآليات الدفاعية، وإذا كان الأمر كذلك، فإن أنصار نظرية سيكولوجية الأنا تَحوَّل اهتمامهم – عند تناول ديناميات البناء النفسي لمدمن المخدرات والمسكرات – عِن الصراع بين الدفعات الغريزية والأنا، والأنا الأعلى إلى اعتبار السلوك الإدماني نتاجاً لأنا وَهِن غير قادر على القيام بوظيفته بسبب عدم نموه نمواً سليماً.

حيث تتكون الأنا، وترتقي عبر العلاقة بالآخر، وهذا ما يذهب إليه **فرج أحمد** بتأكيده على أن الأنا آخر، والآخر أيضاً أنا على نحو ما...وعلى هذا، فالذات بدون الآخر تظل وجوداً غفلاً خالياً من المعنى، وتظل بلا وجود متعين متجدد، تظل – كما يقال – إمكانية بالقوة لا يتحقق بالفعل إلا من خلال وجود الآخر، وإيجابية علاقته بالذات (في٧٣: ٩٨).

فالأنا الأولية تُعَد – في مقابل الأنا الأكثر تمايزاً – ضعيفة؛ بمعنى أنها عاجزة في علاقتها مع غرائزها، وفي علاقتها مع العالم الخارجي على السواء. ولكن بما أن الانفصال السيكولوجي للأنا عن العالم الخارجي لم يكتمل بعد – بسبب احتوائها للعالم الخارجي، أو لأجزاء منه بداخلها – فإن الأمر يتأدى بالأنا إلى أن تستشعر نفسها مطلقة القدرة (١٢: ١٠٦).

ويُعَد هذا التكوين المُنهَك المُبكِّر للأنا سبباً للاضطراب النرجسي، ومن ثَمَّ يخلق

حاجة إلى بديل اصطناعي يريح النفس، ويُسَرِّي عنها، ما يؤدي في النهاية إلى سوء تكيف قد يتخذ شكل الإدمان (٤٠:٣٥).

ويشير **«ساندر رادو** S. Rado»إلى ذلك الخلل في تكوين الأنا، وعجزها عن القيام بوظيفتها لدى المدمن، والذي ينتج عنه اضطراب الشخصية بتأكيده على أن القدرة الوظيفية للأنا تكون ضعيفة، أو عاجزة عن التأليف، والتوفيق بين الحاجات النرجسية والواقع، أو بين مبدأ اللذة، ومبدأ الواقع، وينشأ ضعف وظائف الأنا من خلال اضطرابات نمو الليبيدو الذي يفسد نظام الواقع عند الأنا (في٧٣: ١٠٠).

ويحقق المدمن ما يسعى إليه من قدرة مطلقة للذات عبر الآثار التخديرية المتنوعة التي تنتج عن المخدر، ولكن تستشعر الأنا التهديد بسبب مشاعر الإثم التي تنطلق من جانب الأنا العليا القاسية، والتي استمدت قسوتها، وصرامتها من قسوة وصرامة الأبوين، حيث يتمثل التهديد في فقدان الأنا للإمدادات النرجسية الخاصة بتقدير الذات واعتبارها، ما يجعل المدمن في حالة اضطراب ساعياً للخلاص من هذا الوجدان المؤلم بتكوين الدفاعات (٧٣: ١٠٠–١٠٢).

ويؤكد **عبد الله عسكر** على أن المدمن عندما يستشعر هذا التهديد بفقدان المدد النرجسي ينطلق لديه وجدان الهِيلة، ويسعى لمواجهته، ولكن بحكم عجز الأنا عنده فإنها لا تستطيع التغلب على تلك الوجدانات بآلياتها الدفاعية المتمثلة في الإنكار، وبالتالي يسعى المدمن إلى بديل للإشباع والإمدادات النرجسية، فيكون المخدر بمثابة البديل الذي يمنح الحب والأمن، كما يستطيع من خلاله أن يخلق حالة من الهوس الصناعي الذي يدعم آلية الإنكار، ويجعله أوسع انتشاراً (٧٣: ١٠٢). وهذا ما وضَّحه الباحث عند تناوله لدورية الهوس الاكتئاب لدى المدمن.

الإدمان والعلاقة بالموضوع..ما بين اضطراب الشخصية وتطبيب الذات:

وضَّح **حسين عبد القادر** أن مصطلح العلاقة بالموضوع يشير إلى اتجاهات الفرد وسلوكه إزاء الموضوعات، سواء أكانت أشخاصاً؟ أم أشياء؟، ونوع العلاقة بالموضوعات، وطبيعة بناء هذه العلاقات، وصفاتها من حيث الحيل الدفاعية

المستخدمة، وطبيعة العلاقة بين الأجهزة النفسية، والفرد، وعالمه (٣٠ :٥٤٨).

وفي تناول أنصار نظرية العلاقة بالموضوع للسلوك الإدماني، والبناء النفسي للمدمن قاموا بتناولهما في سياق اضطرابات الشخصية التي تُعَد محصلةً لاضطراب العلاقة بالموضوع.

حيث يؤكد **خانتزيان** Khantzian على أن المدمن شخص لم ينَل في طفولته الرعاية الكافية، ويدرك أنه يفتقد إلى الدعم، والمساندة خاصة عند تعرضه للضغوط، كما أنه يستشعر حالة من الخواء، يترتب على ذلك قلق، وتهديد بانهيار تقدير الذات، لذلك يُعَد السلوك الإدماني والمخدر مصدراً خارجياً يستخدمه المدمن للتقليل من مشاعر القلق التي تهدده (١٥٥ : ٥٨٢).

كما ذهب **هانز كوهيت** Heins Kohut إلى أن المدمن شخص يشعر بخيبة الأمل المستمرة في علاقاته بالآخرين وفي تحقيق أهدافه، ما يترتب عليه الشعور المستمر بالإحباط، ونظراً لأنه يتصف بعدم النضج، ورفض للآخرين، ويسيطر عليه أيضاً الشعور بالرفض من الآخرين، فإنه يلجأ إلى المخدر للتخفيف من حدة هذا الشعور. ومن هنا، فإن المدمن يعاني من اضطراب في الأنا، ووظائفها (١٥٦ : ٤١٨).

ووفقاً لصياغة **مارجريت ماهلر** M. Mahler مراحل النمو – والتي تتمثل في ثلاث مراحل تبدأ بالميلاد، وتستمر حتى السنة الرابعة – فإن اضطرابات الشخصية تنتج عن اضطراب العلاقات في المرحلة الثانية من مراحل النمو؛ حيث يتصف البناء النفسي للمدمن بالقصور الذي يتضح في قصور في تنظيم الذات.

ولقد حدد **فلوريس** Flores عدة جوانب يمكن من خلالها دراسة اضطراب الأنا، واضطراب أو قصور وظائف الذات كالآتي:

١ . عناية الذات: Self-Care

يتميز المدمنون بالسلوك الهدَّام للذات؛ وذلك لعدم قدرتهم على رعاية أنفسهم، وحمايتها من السلوك الهازم للذات، وفقدانهم للقدرة على التعبير عن مشاعرهم أو التعرف على ما يصيبهم من إجهاد أو جوع، أو مرض، أو قلق، أو اكتئاب، وهذا

يعوقهم عن تجنب ما يحيط بهم من أخطار.

٢ . تنظيم الوجدان: Affect Regulation

يعاني المدمنون من قصور في وظيفة الأنا يؤدي إلى عدم قدرتهم على استخدام مشاعرهم في الحماية من الاضطراب، والتشويش، ولديهم قصور في التعبير عن المشاعر الوجدانية، ويعانون من القلق، والاكتئاب، والذعر، لذلك يكون تعاطي المخدرات والمسكرات وسيلة لتخفيف حدة هذه المشاعر.

٣ . الاعتمادية والذات : Dependency And The Self

وضّح **كوهيت** Kohut أن المدمنين – نتيجة لاضطراب وظيفة الذات – تضطرب علاقاتهم بالآخرين، وينخفض لديهم تقدير الذات، أو الشعور بالقيمة، لذلك فهم دائماً في احتياج لمصدر خارجي.

ويؤكد **كيرنبرج** Kernberg على أن الدفاعات الأولية لدى هؤلاء الأفراد تدفعهم إلى الكبت وانفصال أجزاء من النفس، وبهذا تعمل المخدرات والمسكرات – بالنسبة للمدمنين – على تحسين صورة الموضوعات، وإنكار صورة الموضوعات السيئة.

٤ . النكوص الوجداني: Affect Regression

بيّن **ورمسر** Wurmser كيفية الاستخدام القهري للمخدر من خلال دورة إدمانية سمّاها الدائرة اللعينة ، وهي تتكون من سبع خطوات، دائماً ما تبدأ بأزمة نرجسية حادة تتمثل في خيبة الأمل في الذات، أو في موضوعات الحب، وتصبح إحباطاً لا يقوى الفرد على احتماله، ما يدفعه إلى النكوص. وتتمثل الدورة الإدمانية في الخطوات السبع التالية:

١ . الانخفاض الشديد والمفاجئ لتقدير الذات نتيجة للمبالغة في الشعور بالمذلة.

٢ . الإنجراح النرجسي الذي يترتب عليه النكوص الوجداني مع عدم القدرة

على السيطرة على مشاعرالقلق، واليأس، والخزي، وانهيار الدفاعات الوجدانية، ولا تكون كافية لاحتواء المشاعر الداخلية.

٣ . يختفي الوجدان ويصبح غامضاً، وتظل حالة لا تطاق من التوتر، وتظهر رغبة ملّحة في البحث عن الإثارة والتنفيس. ونتيجة لاكتمال الاختلال الوظيفي تتزايد الحاجة للاعتماد على مصدر خارجي لتهدئة التوتر، ويتمثل هذا المصدر في المخدرات والمسكرات، وهنا يحدث الانقسام، ويتم كبت الكثير من المشاعر المُقلقة، ويزيد استخدام الإنكار.

٤ . هذا التطور يؤدي إلى الرغبة في البحث عن مصدر خارجي يساعد على حل الصراع الداخلي الذي تم إنكاره، وتعمل المخدرات والمسكرات كموضوع خارجي يوجه الوجدان بعيداً عن مشاعر القلق، وعدم الارتياح الداخلي.

٥ . يمكن الآن أن يتحول العدوان الموجه نحو الذات في أشكال الخزي، والإذلال إلى التوجه نحو الآخرين من خلال الخروج عن القيم، والأعراف، والقواعد الاجتماعية، والعنف، ما يجعل المدمن يشعر بتأكيد الذات.

٦ . يحدث انقسام في الأنا العليا، وعدم اكتراث بانتقادات أو لوم الآخرين.

٧ . النقطة النهائية تتمثل في الشعور بالسعادة، والمتعة، وحل الأزمة النرجسية الحادة بصورة مؤقتة من خلال التعاطي، وتؤدي الرغبة في الاحتفاظ بهذه الحالة إلى زيادة الطلب على المخدر، وظهور اتجاهات غير واقعية لدى الفرد تجعله عُرضة للإحباط الشديد، وتزيد من قابليته للإنجراح النرجسي. وبهذا تكتمل الدائرة الإدمانية ليعود المدمن مرة أخرى إلى نقطة البداية (١٤٤: ١٨٩-١٩٢).

الإدمان واضطرابات الشخصية...علاقة جدلية:

ينظر التيار السيكودينامي إلى اضطراب الشخصية بوصفها سبباً رئيسياً في إقدام الأفراد على تعاطي المواد المؤثرة نفسياً (المخدرات والمسكرات)، والاعتماد

عليها كحيلة أساسية لتطبيب الذات Self Medication، أو علاج الذات (٨٢: ٦٣).
فالإدمان يعتبر عرضاً لاستعداد نشوئي في الشخصية، حيث تتصف شخصية المدمن بعدة خصائص تمهد لظهور السلوك الإدماني (١٤٨).

ويؤكد **كِسلر** Kessler على تلك العلاقة بين إدمان المخدرات والمسكرات، وذلك الاستعداد النشوئي المرضي بتوضيحه لارتفاع معدلات الإدمان بين ذوي الاضطرابات النفسية، حيث يلاحظ ارتفاع معدلات اضطرابات الشخصية، يليها اضطرابات المزاج بين مدمني المخدرات والمسكرات (١٥٤: ١٧).

وتتبدى تلك العلاقة خاصة لدى من يعانون من اضطراب الشخصية الحدية، والشخصية الهستيرية، والشخصية النرجسية؛ حيث يمثل المخدر بالنسبة لهؤلاء المضطربين محاولة منهم في ترميم ذلك التصدع الذي يشعرونه في بنائهم النفسي، حيث يعمل المخدر كحائل للخبرات اللاشعورية المؤلمة، فيمنعها من الولوج إلى مستوى الشعور مانحاً الأنا الشعور بالكمال والنرجسية، ووهم القدرة المطلقة (١٩٠: ٢٩٩-٣٠٠).

ويبيِّن **هارتوكوليز** Hartocollis الدور الذي تلعبه المخدرات والمسكرات لدى المدمنين مضطربي الشخصية الحدية، والنرجسية من خلال تأكيده على أن المخدر يمثل بديلاً للموضوع الذي كان مسئولاً عن تحقيق الإشباع للفرد، ويمنح الذات التماسك، بحيث تصبح الوظيفة المحورية للمخدر تخفيف الألم النفسي الناتج عن الإنجراح النرجسي، وعدم تماسك الذات (١٥٠: ٩٣).

ولقد توصلت العديد من الدراسات المسْحية التي أجريت على مدمني المخدرات والمسكرات، وغير المدمنين - في محاولة للوقوف على خصائص البناء النفسي لديهم - إلى وجود اضطرابات الشخصية بمعدلات مرتفعة لدى مدمني المخدرات والمسكرات عنها لدى غير المدمنين (١٣٤: ١٤٢).

كما أشارت بعض الدراسات إلى ارتفاع نسبة احتمالية إدمان المخدرات والمسكرات لدى المصابين باضطراب الشخصية المضادة للمجتمع عنها لدى

المصابين باضطرابات الشخصية الأخرى (١٨٢: ١٣٥).

وفي دراسته الموسومة بعنوان: **اضطرابات الشخصية وعلاقتها بالإدمان واختيار مادة التعاطي، دراسة مقارنة لمتعاطي المسكرات، والهيروين، والمنشطات، والحشيش** استطاع **عبد الله عسكر** الوقوف على صدق فرضيات التوجه السيكوديناميي في أن تعاطي المخدرات والمسكرات يُعَد وسيلة يلجأ إليها ذوو الاضطرابات النفسية كوسيط كيميائي علاجي لحالات الاضطراب التي يعانون منها، كما بيّن شيوع أنماط اضطراب الشخصية النرجسية، والتجنبية، والاستعراضية، والحدية، والاعتمادية، والمضادة للمجتمع لدى مفردات عينة الدراسة.

كما بيّن أن التعاطي يُعَد بمثابة وسيلة لتطبيب الذات، ويقوم المتعاطي باختيار العقار الذي يساعده على تحقيق الأمن النفسي، والتغلب على الآلام النفسية الناتجة عن الإحباطات الصدمية الداخلية،.والخارجية التي لا يستطيع التعامل معها بحلول مناسبة، لما تنطوي عليه شخصيته من اضطراب مُزمن يعود إلى مراحل النمو الباكرة.

وفي عرضه للعلاقة بين نوع المخدر، ونمط اضطراب الشخصية وَضّح **عسكر** الآتي:

* مدمنو المسكرات أكثر اضطراباً على محور الشخصية النرجسية، والتجنبية، والهستيرية.
* مدمنو الهيروين أكثر اضطراباً على محور الشخصية التجنبية، والنرجسية، والهستيرية، والحدية.
* مدمنو المنشطات أكثر اضطراباً على محور الشخصية التجنبية.
* مدمنو الحشيش أكثر اضطراباً على محور الشخصية الحدية، والهستيرية، والتجنبية، والنرجسية (في٨٢).

ونظراً لما يترتب على اضطراب الشخصية من معاناة الشخص المضطرب، وعدم قدرته على تحقيق التوافق، فإنه يلجأ إلى تعاطي المخدرات والمسكرات في

محاولة منه لتطبيب الذات، أو لتخفيف من حدّة الآلام النفسية التي يستشعرها، وتحقيق قدر أفضل من التوافق، وبهذا تكون العلاقة بين إدمان المخدرات والمسكرات واضطرابات الشخصية علاقة جِد مركبة (١٥٧ : ١٦٨).

ويشير **فلوريس** Flores إلى أن إدمان المخدرات والمسكرات يُعَد نتاجاً أو عرَضاً شائعاً لاضطرابات الشخصية (١٤٤ : ١٨٣)، في حين يذهب **مالوي** Malow إلى التأكيد على تلك العلاقة الجدلية بين إدمان المخدرات والمسكرات، واضطرابات الشخصية، بإشارته إلى ارتفاع معدلات حدوث اضطرابات الشخصية بين مدمني المخدرات والمسكرات – (كون تلك المواد تُفَعِّل الاستعداد النشوئي المرضي لدى المدمن) – فيكون الاضطراب نتاجاً للتعاطي، كما أكد على الدور الذي تلعبه اضطرابات الشخصية في دفع الشخص المضطرب إلى التعاطي (١٨١).

ويرى الباحث أن مدمني المخدرات والمسكرات تتبدى لديهم أعراض اضطرابات الشخصية، وبشكل ملحوظ – باختلاف نوعية اضطراب الشخصية، وباختلاف نوعية المادة المتعاطاة – أثناء فترة التعاطي، وحتى خلال فترة التوقف عن التعاطي، وأثناء الخضوع لأنواع العلاجات المختلفة، ما يترتب عليه صعوبتان: تتمثل إحداهما في صعوبة وضع تشخيص فارق، أو محك تشخيصي لوجود اضطراب الشخصية لدى المدمن – خلال فترة التعاطي، أو أثناء التوقف، ومتابعة العلاج – من عدمه، بينما الصعوبة الثانية – في حالة وجود اضطراب في الشخصية – تتمثل في: هل تُعَد هذه المؤشرات أو الأعراض اضطراباً في الشخصية؟ أم مجرد مجموعة من الأعراض المصاحبة للإدمان؟.

من أجل ذلك أكد **داكس** Dackis، وآخرون على ضرورة التأكد من وجود المعايير التشخيصية المتفق عليها، والمُميِّزة لاضطرابات الشخصية لفترة زمنية طويلة، وألا تكون تلك الخصائص الدالة على اضطراب الشخصية نتاجاً لنمط الحياة الإدمانية (١٣٩ : ٤٦٧).

(٣)

الفصل الثالث

جـــاك لاكـــــان... رحـــلـــة دال

الفصل الثالث

جاك لاكان... رحلة دال

ما قد آل إليك من آبائك يتعين عليك أن
تزيده وتنميه حتى تصبح له مالكاً

«جوته»

المولد... ولبنات التكوين المعرفي الأولى:

وُلِدَ **جاك ماري إميل لاكان** Jacques Marie Emile Lacan في ١٣ أبريل عام ١٩٠١، وكان الطفل الأول لأبيه **شارلز ماري ألفريد لاكان** Charles Marie Emile Lacan، وأمه **إميلي فيليبين ماري بودري** Emily Philippin Marie Budry وذلك بمنطقة **بوليفار دي بومارشيه** Boulevard Du Bumarchais، ثم انتقلت الأسرة بعد ذلك إلى منطقة مونبارانس، ليلتحق الطفل **جاك لاكان** بمدرسة كاثوليكية هي **كلية ستانيلاس** College Stanislas، حيث كان تلميذاً متفوقاً مُبرزاً في الدراسات الدينية واللاتينية، كما تبدّى منذ البداية المُبكّرة ولَعه وشَغفه بالكتب باختلاف موضوعاتها، ما كان يؤهله لأن يكسب كل عام الجائزة الأولى في الأدب (٣٦:١٠-١١)،(٣:١٨٩).

وفي فترة المراهقة بدأ اهتمامه بالفلسفة، وخصوصاً فلسفة **إسبينوزا** Spinoza فقد زيّن حجرة نومه بخطة عن بنية كتاب **الأخلاق**، وظل هذا النص عزيزاً على نفسه باستمرار، واقتبس منه في بداية بحثه للدكتوراه في الطب، ومن خلال الدراسة المتعمقة للفلسفة استطاع **لاكان** الانفتاح على عالم الحداثة، فبدأ يتردد على المكتبات، وانصب اهتمامه على مذهب الدادية، وتأثر كثيراً بأفكار **شارلز موراس** Charles Mauras، والتي ساعدت في تقليل أهمية التقليد الكهني الإكليركي فيما يتعلق بالإيمان، وذلك لمصلحة إعادة تجديد النزعة العقلية، والرومانسية (٣٦:١٠-١١)،(٣: ١٨٩).

لاكـــان ...ما بين السريالية والطب النفسي:

بدأ **لاكـان** دراسة الطب عـام ١٩٢٠ وتخـرّج عـام ١٩٢٦، وفي عـام ١٩٢٧ عيِّن طبيباً مُقيماً في مستشفى **أسيلس** Asiles، وفي العام ١٩٢٨ عمل في مستشفى **القديسة آن** Saint-Anne في عيادة الأمراض العقلية والدماغية تحت إشراف **هنري كلود** Henri Clude، ثم انتقل عام ١٩٢٩ ليعمل في مستشفى تخصصي للخدمة العلاجية تحت إدارة **كليرامبو** Clerambult و **جورج هيير** G.Heuyer، حيث تعلّم الملاحظة التحليلية على يديهما - (وإن كـان تأثير الأول أكثر وضوحاً في تكوين **لاكـان** الطبي) -، كما بدأ يراجع اصطلاح **الآلية العقلية** Mental Automatism الذي صاغه **كليرامبو** ، والذي يستند إلى الاضطرابات البدنية، والحسية التي تقتحم النظام العقلي آلياً، ويكون مصدرها خارجياً، ويظل صداها يتردد آلياً، ويفرض نفسه على أفعال الشخص الخاصة، حيثِ تناوله في مقال يحمل عنوان **بنيانات الأذهنة البـارانوية** وضّح فيه ثلاثة أنماط للذهان البارانوي: الهذاءات (الضلالات) الجبلِّية Constitutional، والهذاءات التفسيرية Interpretative، وهذاءات الحب، وكانت هذه الدراسة تطرح تأييداً لفكرة التصنيف التنظيمي للجنون، والتي يدين فيها بالفضل لمُعلّمه **كليرامبو** (٣ :١٨٩-١٩٠)،(٨١ : ٣٨).

ولقد أبدى **لاكان** انشغالاً بالحركة السريالية، والوسط الثقافي الباريسي الذي كان يزخر بالعديد من الكُتّاب، والفنانين، والمثقفين، وكثيراً ما كان يتردد على مكتبة **أدريان مونيير** ليلتقي و **أندريه جيد** ، و **بول كلوديل** ، و **جيمس جويس** - (سيلعب إنتاج **جويس** الأدبي دوراً هاماً في ظهور مفهوم **السنتوم** في الخطاب اللاكاني، كما سيأتي لاحقاً) -، كما توطدت أواصر الصداقة بينه وبين كل من **سلفادور دالي** ، **وأندريه بريتون** ، ومنذ أوائل الثلاثينات أصبح مُساهماً في المنشورات السريالية المتعددة (٣٦:١٢-١٣).

حيث قام بنشر العديد من المقالات في مجلة **المينوتور** Le Minotaure، تتعلق بالسريالية، خاصة ما أسماه السرياليون بالأسلوب العاصف لكتابات الجنون، وذلك بتناوله لموضوع الكتابات **الإبداعية الإلهامية** Inspired، فلقد قام بالاشتراك

مع **بيير ماجليت** Pierre Migault و **تيفي فلنسي** Tevy Valensi بنشر مقالة تناولوا فيها الكتابات الإلهامية لحالة مريضة وهي **مارسيل** Marcelle، والتي كانت تعاني من الأريتومانيا، والبارانويا؛ حيث قاموا بدراسة حالتها من خلال لغتها المكتوبة، وتم تحديد بنية البارانويا لديها على أساس الاضطرابات السيمانطيقية، والأسلوبية، والنحوية الموجودة في خطاباتها، كما بيّنوا أن كتاباتها ليست بالإلهامية، وإنما ظاهرة آلية يمكن فهمها في سياق التجربة السريالية (٣ :١٩٢، ١٩٠).

الاهتمام بالبارانويا...والخطى الأولى نحو صرح فرويد التحليلي:

أبدى **لاكان** تصميماً واضحاً على أن يكون مُنَظِّراً في بنية البارانويا – الإرث المذهبي لمُعلّمه **كليرامبو** (الذي يقول عنه **لاكان** إنه أستاذي الحقيقي الوحيد في ميدان الطب النفسي) –، حيث قدَّم حتى عام ١٩٣١ ما لا يقل عن ثلاث عشرة مقالة تتعلق كلها بالهستيريا، والبارانويا، والهلوسات، واضطرابات اللغة، والعلاقات الاجتماعية، والتي تُعَد فيما بعد جوهر أطروحته للدكتوراه، والتي قادته صوب التحليل النفسي، حيث كان قد شَرَع – في هذه الفترة – في اكتشاف أعمال **فرويد** ، وأعطى اهتماماً بالمدى الكلي للعمل في ميدان الذُهان (١٩١:٣).

وفي عام ١٩٣٢ أكمل **لاكان** رسالته للدكتوراه عن البارانويا بعنوان: **ذُهان البارانويا وعلاقته بالشخصية** Paranoid Psychosis And Its Relation To Personality، وكان لدراسته الأثر الكبير على الكثير من السرياليين، ومنهم **سلفادور دالي** الذي أشار إلى دراسة **لاكان** في المسألة الأولى في النظرة السريالية مينوتور، كما دافع **بول الوار** عن شِعر **إيمي** Aimee، وهي الحالة التي تناولها **لاكان** في دراسته (٣٦ :١٦).

وكانت **إيمي** قد حاولت طعن ممثلة مشهورة، وهي **هوجيت دوفلو** Huguette Duflos، وتناولت الصحف هذا الحادث بشكل مكثَّف، ما دفع **لاكان** إلى جمع التقارير الصحفية ليبحث عن السبب الذي دفع **إيمي** لهذا الفعل غير المعقول، وأقام **لاكان** من خلال هذه الحالة الحُجة على نحو يتعارض مع تقليد الطب النفسي

القائم آنذاك، ليثبت أن ما قامت به **إيمي** كان من جراء خبرات حياتية معاشة خاصة بها، وبعض خصائص شخصيتها، وهذا ما دفع **لاكان** إلى الاتجاه صوب المنهج الدينامي (٨١ : ٣٩)،(٣ :١٩١).

حيث انتهى **لاكان** من دراسته لحالة **إيمي** بتقديم مفهوم جديد داخل أوساط الطب النفسي الفرنسي، وهو **عقاب الذات البارانوي** Self Punishment Paranoid، حيث تَوصَّل **لاكان** إلى أن طعن **إيمي** للممثلة **دوفلو** كان يُعبِّر عن عقابها لصورة ذاتها، والمتمثلة في شخص **دوفلو**، والتي كانت موضوع كراهية **إيمي** وطموحها في الوقت نفسه. وعبر تحليل **لاكان** للقضية يكشف عن العديد من المفاهيم، والتي ستصبح فيما بعد مركزية في عمله مثل: النرجسية، والصورة، والمثل الأعلى، كما بيَّن أن الشخصية تمتد إلى ما وراء حدود الجسم وتتألف داخل مُرَكَّب شبكة اجتماعية، حيث أكد على أن الشخصية تتكون حول ثلاثة محاور مختلفة وهي:

المحور الفردي: الذي يرتبط بقصة حياة (تاريخ الحياة الخاص).

المحور البنائي: الذي يرتبط بعناصر نموذجية بعينها تؤثر في كل تطورات الإنسان.

المحور الاجتماعي: الذي يرتبط بتفاعل الإنسان الاجتماعي مع الآخرين (٨١: ٣٩)،(١٩: ٣٦)،(٣ :١٩٢).

ويواصل **لاكان** اهتمامه بالبارانويا، كما يواصل ولوجه إلى عالم **فرويد** التحليلي مكتشفاً لدروبه، متعرفاً على مفاهيمه، متأملاً لها، معيداً صياغتها عبر قراءة تتناغم والبنية الثقافية للمجتمع الفرنسي، فيقوم بترجمة مقال **فرويد** : **بعض الميكانيزمات العُصابية في كل من الغيرة، والبارانويا، والجنسية المثلية**، ويواصل مسيرته بالقراءة التأملية لحالة الرئيس شريبر لتتبدَّى أمامه المكانة الخاصة التي حظيت بها البارانويا من قِبَل **فرويد**.

وفي عام ١٩٣٣ يقوم **لاكان** بدراسة حالة الأختين **بابان** Papin اللتين قامتا بقتل سيدة وابنتها، ويُقدِّم تعليقاً على تلك الجريمة في المجلة السريالية **المينوتور**،

حيث قام بمقارنة الحادثة بحادثة مريضته **إيمي** وأعرب عن أنهما – أي الأختين **بابان** – تعانيان من مرض البارانويا، ودفع ذلك بـ **لاكان** إلى التركيز على المنظور الدينامي القادر – وحده – على حل اللغز المتعلّق بعلم الجريمة، وبدأ عبر هذا الطرح في التناول الدقيق للعديد من المفاهيم مثل: الخصاء، والقدرة المطلقة القضيبية، والجنسية المثلية الكامنة، ولغز خصاء المرأة (٣:١٩٥).

ومع إنهاء **لاكان** لأطروحة الدكتوراه كان قد بدأ الدخول في خبرة الأريكة التحليلية – (التحليل النفسي التدريبي) – مع المُحلّل النفسي **رودلف لوفينشتاين** R.Loewenstein–(والذي كان قد أسس مع كل من **هانز هارتمان** H.Hartman، و **إرنست كريس** E.Kris سيكولوجية الأنا Ego Psychology، وكان الهدف الرئيسي من هذا التيار التحليلي هو تقوية الأنا، وإكسابها القدرة على التوافق مع الصراعات الداخلية، والضغوط الخارجية – وهذا ما وضّحه الباحث عند تناوله لديناميات البناء النفسي لمدمن المخدرات والمسكرات في الفصل الأول من المتن –، وسيقوم الباحث لاحقاً بعرض موقف **لاكان** الهجومي على هذا التيار التحليلي – وغيره من التيارات التحليلية – باعتباره تغريباً لخطاب التحليل النفسي الفرويدي) – واستمر حتى عام ١٩٣٨ (٣٦ :٢٠).

ونظراً لأن **لوفينشتاين** قد تم تحليله هو الآخر من قِبَل أحد تلامذة **فرويد** – (المُقربين، بل المُخلصين لتعاليمه) – وهو **هانز ساكس** H.Sachs لذلك كان ممارساً قاسياً حاول – وبشدة – أن يُخضِع **لاكان** لقواعد الممارسة التحليلية بصرامة، لكن – ونظراً لأن **لاكان** كان صعب المِراس – لم ينجح تحليله (٣:١٩٣)، فلم يكن **لاكان** ينظر إلى التحليل النفسي بوصفه طريقة في استقصاء جذور الاضطرابات النفسية، وتحقيق نوع من الشفاء، بقدر ما كان ينظر إليه بوصفه مشروع وجود متكامل (٨١ : ٤٠).

لاكان والمحراب الفلسفي...تجليات الخطاب الهيجلي، وسريالية الحكي الكوجيفي:

بدلاً من أن يحصر **لاكان** نفسه في ميدان طب الأمراض العقلية والتحليل النفسي، راح يقرأ بشكل واسع – وباهتمام خاص – في مؤلفات **كارل ياسبرز** K.Jaspers، و **مارتن هايدجر** M.Heidegger، و **هيجل** Hegel (٢١:٣٦)، كما كان تواصله الواضح بوجودية **سارتر** Sartre عبر عدد من المفاهيم السارترية كالوجود والعدم، والذي يتجلى – أي ذلك التواصل بينه وبين وجودية **سارتر** – وبشكل خاص في بنية النظام الخيالي، وما ينتج عن التعيينات الذاتية الخيالية الثنائية التي يتميز بها النظام الخيالي.

ولقد بدأ وَلَع **لاكان** بالفلسفة منذ مراهقته، وانشغل بفلسفة الأخلاق عند **إسبينوزا** – (كما تَبَيَّن آنفا) –، وأثناء دراسته للدكتوراه واظب على حضور أشهر دروس قَدَّمها الفيلسوف **الهيجلي** الجديد **ألكساندر كوجيف** A.Kojeve، ولقد اكتشف **لاكان** في خطاب **كوجيف** المدد الكافي لتفعيل تفسير جديد لأسس الفكر (٨٤ : ١٦٩).

حيث قام **كوجيف** بتفسير فينومينولوجيا الروح في اتجاه أنثروبولوجي وماركسي، وصاغ الأسطورة الهيجلية في قصة أدبية سريالية، وذلك في الفترة من ١٩٣٣ وحتى ١٩٣٩، ولقد نقل عنه **لاكان** أفكار نظرية **هيجل** في اللغة محاولاً أن يكامل المفهوم مع الزمن، ومع الخطاب، ومع الوعي بالذات، ومع الوعي بالموت (٣: ١٩٦).

فلقد مزَج **لاكان** بين علاقات التوسط في علم اللغة البنيوي، والديالكتيك في الهيجلية الجديدة، على نحو جعل من التحليل النفسي عنده جانباً من تاريخ اجتماعي واسع المجال، وحوَّل التداعي الحر إلى أداة منهجية تكشف عن كل من الأصول الثقافية والفردية، بل على نحو أصبح فيه الآخر في فلسفة **هيجل** يشير إلى كل آخر عند **لاكان** (١٤: ٢١٥).

واحتفظ **لاكان** من **كوجيف** بفكرتين أساسيتين: الأولى هي **الروح الجميلة** Beautiful Soul ؛ حيث تُسقِط الذات اضطرابها الخاص على العالم لكي تلقي بسخطها عليه، أما الفكرة الثانية فكانت **جدل السيد والعبد** (٨٤ :١٦٩).

كما نقل عنه فكرة **هيجل في الرغبة** Desire بوصفها نقصان Lack، وأيضاً فكرة الوعي بالذات في اللحظة التي يقول فيها الإنسان لأول مرة Moi، ومن ثم فإن فهم أصل الإنسان يستلزم فهم أصل Moi كما تكشفها الكلمة، وأن Moi الإنسان هي رغبة في رغبة (٣:١٩٦)، حيث تتحدّد الرغبة في كونها الحضور في غياب الواقع، الرغبة هي رغبة في الاعتراف في الصراع بين السيد والعبد، هي الرغبة في أن تكون مرغوباً (٨٤ :١٧٠).

وبطرح **كوجيف** لجدلية السيد والعبد، ومفهوم الرغبة ساعد على فهم **لاكان** لـ **هيجل** ، هذا الفهم الذي مكّنه من استخدام اللغة باعتبارها وسيطاً يُمَكِّن الذات من الحصول على اعتراف الآخر بوجودها، ويُمَكِّن الآخر من التعرف عليها، باعتبار أن اللغة في هذا المقام تُمثّل رسالة إلى مُخَاطَب (٩٦:١٤١)، وباعتبارها جسراً للتواصل الجدلي بين الذوات.

ومن هنا كان استيعاب **لاكان** للجدل الهيجلي استيعاباً تحليلياً أكثر منه فلسفياً، بمعنى أن الممارسة الفعلية لدور المُحلِّل النفسي، وقراءته لـ **فرويد** ، وتدريبه التحليلي قد سحبت المقولات الهيجلية إلى حقل التحليل النفسي، وهو الحقل الذي يرى فيها **لاكان** جدلية الوجود الفردي والجمعي، فلقد انطلق من أرضية جدلية لإعادة بناء التراث الفرويدي في التحليل النفسي، هذه الأرضية هي التي أتاحت له أن يصوغ مفاهيمه الجديدة من رحم الفلسفة الهيجلية والجدلية القديمة (٨٤ :١٧٠-١٧٥).

اللغة وخطاب التحليل النفسي... لاكان ما بين دي سوسير و جاكوبسون :

لقد قام **لاكان** بتطبيق الأنموذج اللساني - (اللغوي) - على معطيات التحليل النفسي. إنه في الواقع قد أعاد قراءة نظريات **فرويد** ، وشرحها على ضوء اللسانية البنيوية مُجدداً بذلك علم اللاوعي - (اللاشعور) - من وجهة نظر بنيوية، كما أنه قد

وسّع آفاق الألسنية بأن فتح لها مجال اللاوعي الواسع، وهو مجال لم يُكتشف بعد (١١٣ :٥٧).

من أجل ذلك فلقد اعترف **لاكان** عام ١٩٥٧ بفضل عالمي اللغة **فرديناند دي سوسير** F.De Saussure، و **رومان جاكوبسون** R.Jakobson اللذين أسسا علم اللغة الحديث، وذلك لأن الأول قد حدد الرمز اللغوي كجوهر ذي وجهين هما: الدال Signifier والمدلول Signified، وميّز الثاني العمليتين الأساسيتين للكلام Speech: الانتقاء، والتنسيق للوحدات اللغوية وفقاً لمحورين أساسيين للغة هما: المحور الاستبدالي، والمحور النظمي (٨١: ٤٥).

ومن هنا فإن الباحث يرى ضرورة المرور – في إلماحة – على تخوم فكر كل من: **سوسير و جاكوبسون** للوقوف على تأثيرهما في الفكر اللاكاني، وخطاب التحليل النفسي البنيوي.

١ . سوسير والبنيوية اللغوية:

وُلِدَ **فرديناند دي سوسير** في جنيف عام ١٨٥٧ في أسرة مشهورة بالعلم والأدب، ودرس في جامعات جنيف، ولايبزج، وبرلين، وحصل على درجة الدكتوراه من لايبزج عام ١٨٨٠ ، عمل مُدرساً في مدرسة الدراسات العليا في باريس من عام ١٨٨١ وحتى عام ١٨٩١، ثم أستاذاً للغات الهندية الأوروبية والسنكسرية من عام ١٩٠١ وحتى عام ١٩١٣، وأصبح أستاذاً لعلم اللغة العام في عام ١٩٠٧ في جامعة جنيف (١٢٩ :٣).

ويُعَد **سوسير** – وبلا شك – الأب الحقيقي للحركة البنيوية، وعلى الرغم من أنه لم يستخدم كلمة بنية، وإنما استخدم كلمة نسق أو نظام System، إلا أن الفضل الأكبر في ظهور المنهج البنيوي – (في دراسة الظاهرة اللغوية، وهو ما عُرِف باسم البنيوية اللغوية Linguistic Structuralism) يرجع إليه هو أولاً وبالذات (٤٥ :٤٣).

ولقد أسس **سوسير** علم اللغة العام بوصفه العلم الذي يدرس عمل اللغة، وليس تطورها، أي البحث في اللغة ذاتها من خلال التعرف على بنيتها بوصفها نظاماً قائماً

بذاته يوجد في كل عقل تقريباً في شكل مرجعي تتعادل نُسخه بين الأفراد (٨١ : ٤٥).

حيث قام بتفسير حقائق اللغة من خلال الرجوع إلى المُحدَّدات اللغوية، وكانت وسيلته في ذلك تطبيق ثلاثة أنواع من التباين، أو التعارض، والمقابلة بينها، وهي: التعارض بين اللغة Language والكلام Speech، والتعارض بين النظرة الآنية أو التزامنية Synchronic والنظرة التعاقبية أو التاريخية Diachronic، ثم التعارض بين الصورة Form والجوهر أو المادة Substance(١ :٧٢) لذا يُفَضِّل الباحث تناول تلك الثنائيات اللغوية السوسيرية في إيجاز.

(أ) ثنائية التزامني والتعاقبي:

حدَّد **سوسير** بُعدين أو محورين أساسيين لعلم اللغة، وهما: البُعد **التزامني** أو **الآني** Synchronic حيث تُعالَج اللغات بوصفها أنظمة اتصال تامة في ذاتها في أي وقت (٨١ : ٤٥-٤٦)، حيث قام - عبر هذا البُعد - بوضع المبادئ الأساسية لأي نظام لغوي، والعناصر المؤلِّفة لأيَّة حالة لغوية. فخصائص الدلالة، والقواعد العامة قسم من هذا المحور، حيث يهتم بتطور اللغات خلال الحُقب التي تُميِّز اللغة في مسيرتها التاريخية (١١٩ :٦٠).

ولقد أعطى **سوسير** أولوية مطلقة للدراسة الآنية أو التزامنية (البنائية) التي تنظر إلى اللغة كنسق متكامل، وتسعى لإعادة تركيب هذا النسق ككل وظيفي، حيث كانت نظرته للغة على أنها نسق من العناصر المتساندة أو المترابطة ترابطاً وظيفياً، والتي لن يمكننا إدراك أهميتها إلا عن طريق تحديد مكانها، وموقفها من النسق (١: ٧٤-٧٥).

بينما البُعد الثاني هو البُعد **التعاقبي أو التاريخي** Diachronic، والذي تخضع فيه اللغة تاريخياً لعوامل تغير عبر مسيرة الزمن (٨١ : ٤٦). فحَسَب **سوسير** يدرس البُعد التعاقبي العلاقة بين أطراف لغوية متتابعة، ويحل بعضها محل البعض الآخر في الزمن، فالثابت المطلق في اللغة غير موجود، وكل أجزائها خاضعة للتغير والتبدُّل،

إذ لكل حقبة نمط من التطور مختلف في الأهمية (١١٩: ٦١).

وخلاصة القول في ثنائية التعاقبي والتزامني أنه بالرغم من أن **سوسير** لم يُنكر أهمية الدراسات التاريخية للغات، وتتبُّع تطورها عبر المراحل المختلفة، إلا أنه كان يعتقد أن لكل لغة وجوداً وكياناً حقيقياً وصحيحاً ومستقلاً عن تاريخها، وذلك من حيث هي نسق من الأصوات الصادرة عن شفاه الذين يتكلمون هذه اللغة الآن، والذين يؤلِّف كلامهم في الحقيقة اللغة ويكوِّنها في صورتها الحالية دون أن يعرفوا شيئاً من تاريخها (١ :٧٥).

(ب) ثنائية اللغة والكلام:

أكد **سوسير** على أن الفصل بين اللغة Language والكلام Speech يعني الفصل بين ما هو اجتماعي، وما هو فردي، الفصل بين ما هو جوهري، وما هو ثانوي وعَرَضي، فاللغة ليست وظيفة الفرد، بل نتاجاً يهضمه الفرد بصورة سلبية، ولا تحتاج إلى تأمل سابق، أما الكلام، فهو فعل فردي، وهو عقلي مقصود (٨٨ :٣٢).

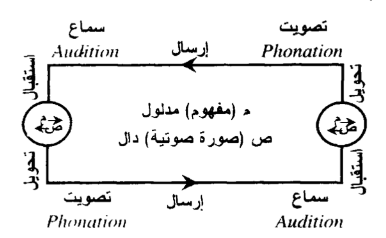
ومن هنا فإن التمييز بين اللغة والكلام يعتمد على أساس التمييز بين اللغة – من حيث هي نسق – وبين المظاهر التي تتخذها اللغة في الحياة اليومية في شكل حديث أو كتابة، فالغرض من التمييز بين اللغة والكلام إذن هو الفصل بين النسق الذي يكمن وراء الفعل اللغوي وبين الفعل ذاته (١ :٧٢).

ويُبيِّن **سوسير** عدة مميزات للغة؛ حيث أكد على أن اللغة شيء محدد تحديداً واضحاً ضمن الكتلة غير المتجانسة لعناصر اللسان، فهي الجانب الاجتماعي له، وتقع خارج الفرد الذي لا يستطيع أبداً أن يخالفها، أو يُحوِّرها بمفرده، فلا وجود للغة إلا بنوع من الاتفاق، يتوصل إليه أعضاء مجتمع مُعيَّن، كما أن اللغة تُعَد شيئاً يمكن دراسته، فهي نظام متجانس من الإشارات، جوهره الوحيد الربط بين المعاني والصور الصوتية (٨٨ :٣٣).

وفي تناوله للكلام ودوره يؤكد **سوسير** على أن الكلام ضرورة لتثبيت أركان اللغة، وهو يأتي أولاً من الناحية التاريخية، حيث لا تستقر اللغة في الدماغ إلا بعد

عدد لا يُحصى من الخبرات، كما أن الكلام هو السبب في تطور اللغة، ويوضح **سوسير** ما يتضمنه الكلام؛ حيث بيّن أنه يضم الفعاليات الفردية التي تعتمد على رغبة المتكلّم، والأفعال الصوتية التي تعتمد أيضاً على إرادة المتكلّم، وبهذا لا يكون الكلام وسيلة جماعية، بل مظاهر فردية قصيرة الزمن (٣٨:٨٨).

ويتطلب الكلام وجود شخصين يتم التبادل – تبادل الكلام – بينهما إرسالاً واستقبالاً، حيث يتم إرسال الصورة الصوتية، وهي الدال، ويتم استقبالها كمفهوم، وهو المدلول أو الصورة الذهنية – وهذا ما سيأتي عليه الباحث عند توضيح ثنائية العلامة –، وتتم العملية في علاقة تبادلية؛ حيث يكون المُرسِل مستقبِلاً، والمستقبِل مُرسِلاً في آن واحد – وتتبدى تلك العملية في دائرة مغلقة Closed Circuit – كما في الشكل التوضيحي التالي:



شكل رقم (١) يبيّن كيفية تبادلية الكلام في دائرة مغلقة

(ج) ثنائية العلامة:

وفقاً لـ **سوسير** فإن التعريف الصحيح للغة يكون هي نسق عضوي مُنظّم من العلامات Sign(٤٥ : ٤٤)، ولقد بيّن أن العلامة وحدة ثنائية المبنى، تتكون من وجهين يشبهان وجهي الورقة ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر، الأول هو الدال

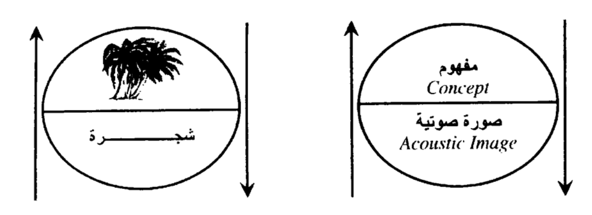
Signifier، وهو عند **سوسير** حقيقة نفسية، أو صورة سمعية، تُحدِثها في دماغ المستمع سلسلة الأصوات التي تلتقطها أذنه، وتستدعي إلى ذهن هذا المستمع صورة ذهنية أو مفهوم هو المدلول Signified(١٩:٥٨) .

وبهذا فإن اللفظ لا قيمة له – (بمعنى أنه لا يتولَّد المعنى إلا عبر علاقة الدال بالمدلول) – بدون أن تكون له دلالة عبر وجود مدلول، فإن الرمز اللغوي (الكلمة) هو الذي يربط بين الفكرة أو المفهوم والصورة الصوتية، وليس بين الشيء واسمه، ولا يُقصد بالصورة الصوتية الناحية المادية للصوت بل الصورة السيكولوجية له، أي الانطباع أو الأثر الذي تتركه الأصوات في الحواس، فالرمز اللغوي كيان سيكولوجي، يبدأ بالإحساس، وينتهي بالإدراك أو المعرفة (٨١: ٤٧) .

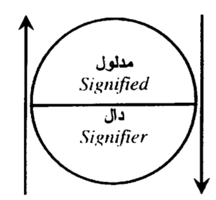
ومن هنا كان تشبيه **سوسير** للغة من خلال العلاقة بين الدال والمدلول بأنها تشبه ورقة ذات وجه وظهر، حيث لا يمكن قطع الوجه، وهو المدلول دون قطع الظهر – في نفس الوقت –، وهو الدال (١٦٢: ١٣٨) .

كما أكد **سوسير** على أن الرابطة التي تجمع بين الدال والمدلول هي رابطة اعتباطية Arbitrary، وبما أن العلامة اللغوية هي المجموع الناتج عن اقتران الدال بالمدلول، فنتيجة لذلك تكون العلامة اللغوية اعتباطية (١٥٤:٨٩) .

ومن هنا فالعلامة تُشكِّل الوحدة الأساسية للغة، وكما اتضح آنفاً فإن العلامة تتكون من عنصرين أساسيين: أحدهما مفاهيمي، وهو المدلول، والثاني ظواهري، وهو الدال، وكما تَبيَّن أيضاً فالعلاقة بينهما علاقة اعتباطية، حيث يرتبطان برابطة غير قابلة للانفصام، ولقد مَثَّل **سوسير** العلامة بصورة تخطيطية – (كما في الشكلين التاليين شكل رقم ٢ ، وشكل رقم ٣) –، حيث تُمَثِّل الأسهم – (بالشكلين) – المضامين المتبادلة التي توجد بصورة أساسية في الدلالة، والخط الفاصل بين الدال والمدلول يُمثِّل الوحدة (١٤١: ١٨٣) .



شكل رقم (٢) يُبيّن الدلالة اللغوية " في علاقة رأسية "
باعتبارها نتاجاً للعلاقة بين المفهوم والصورة الصوتية

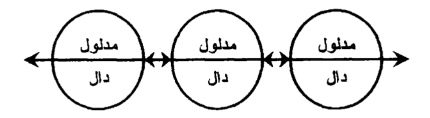


شكل رقم (٣) يُبيّن الدلالة اللغوية " في علاقة رأسية "
باعتبارها نتاجاً للعلاقة بين المدلول والدال

وعبر هذه التحديدات لثنائية العلامة توصّل **سوسير** إلى مبدأين هامين في علم اللغة: **المبدأ الأول** هو مبدأ لا منطقية الدلالة؛ بما معناه أن العلاقة بين الدال والمدلول لا تخضع لقرار عقلي، وإلا لكان بمستطاع العقل البشري تغيير أية لغة بقرار منه، **والمبدأ الثاني** يبرِز الطابع المتلاحق للدال، ذلك لأن الدال ذو طبيعة سمعية، وهو يتم في الوقت، فيشكّل مسافة تقاس ببُعد واحد، وهو بُعد الخط المتصل (١١٩: ٦٠).

وفي الشكل التالي – شكل رقم ٤ – يشير السهم الأول في بداية الشكل إلى وجود سلسلة سابقة من الدوال، كما يشير السهم الثاني في نهاية الشكل إلى إمكانية ظهور سلسلة أخرى من الدوال، حيث إن الدال يتصف بالطابع المتلاحق، بينما تُعبّر

الأسهم الداخلية عن تلك العلاقة الأفقية بين شقي العلامة اللغوية؛ أي الدال والمدلول، أو الصورة الصوتية والمفهوم.



شكل رقم (٤) يُبيِّن العلاقة الأفقية بين الدال والمدلول، وطبيعة الدال المتلاحقة

ومن خلال الوحدة اللغوية – (الدال والمدلول) – وَضَّح **سوسير** ارتباطها – (أي اللغة) – باستبدادية العلامة التي تمتلك قيمة تتعدى المعنى المُحدَّد لها، من حيث ارتباطها باللغة، وبالعلامات المضادة لها؛ فقيمة الكلمة مرتبطة – إلى حد بعيد – بالمعنى الذي تضفيه عليها بنية الكلمات المنتسبة إلى نظام اللغة، والتي تدخل في تأليف الجملة (٦٩:٥٤).

٢ . جاكوبسون والتحليل النفسي...منه وإليه:

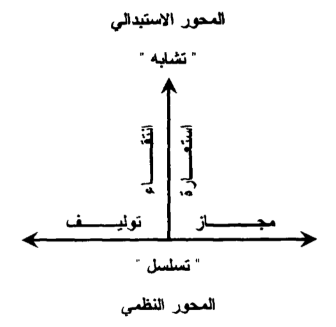
هو **رومان جاكوبسون** العالم اللغوي الروسي، ومؤسِّس نادي براغ اللغوي، والذي تأثر بالاتجاه البنيوي عند **سوسير** ، وعبر هجرته إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٤٠ استطاع أن يلتقي بتلاميذ **فرويد** ، وأسَّس حلقة نيويورك اللغوية، وتواصل مع **نعوم تشومسكي** Noam Chomsky عالم اللغة البنيوي الأمريكي، كما التقى في معهد الدراسات العليا الحرة بعالم الأنثروبولوجيا البنيوية **كلود ليفي شتراوس** Cloude Levi Strauss –(ومن المعروف أن **شتراوس** كان له تأثير واضح – وإن كان أقل من ذلك التأثير الذي أحدثه كل من **سوسير** ، و **جاكوبسون** – في تكوين خطاب التحليل النفسي البنيوي اللاكاني، وهذا ما سيأتي عليه الباحث لاحقاً عند تناوله للأنثروبولوجيا البنيوية ورائدها – بل رائد المذهب

البنيوي – **شتراوس** ودوره الفاعل في تكوين الخطاب اللاكاني) –، حيث بات كل منهما تلميذاً للآخر (٨١ : ٤٩).

ولقد اعتمد **جاكوبسون** – في بنائه لنظريته اللغوية – على التوفيق بين اللسانية من جهة، وعلم النفس المرضي – (والتحليل النفسي، والعمليات اللاشعورية) – من جهة أخرى، حيث انطلق من مفاهيم لسانية يُطَّبقها على دراسات نفسية، وعصبية ليتوصل إلى نتائج تُغني اللسانية، وتفيد تحليل اللغة (١٥ :٥٠). ومن ثَم توظيف تلك النتائج في ميدان التحليل النفسي – من قِبَل المحلِّلين النفسيين – وهذا ما يتضح جلياً في خطاب التحليل النفسي البنيوي لدى **جاك لاكان**.

فلقد اعتمد **جاكوبسون** على نظرية البنية المزدوجة للغة، وقسّم عمل اللغة إلى وظيفتين أساسيتين هما: **التوليف** Combination، و**الانتقاء** Selection، وتتم عملية التوليف على **المحور النظمي** ضمن العلامة اللغوية وخارجها. فكل كلمة مُؤلَّفة من عناصر تتناسق فيما بينها ضمن الكلمة نفسها، ولا تُشكِّل الكلمة رسالة لغوية إلا إذا ظهرت ضمن مجموعة متناسقة من الكلمات أو العلامات اللغوية. أما الانتقاء، فيتم على **المحور الاستبدالي** حيث يكون إبدال الكلمة، أو العلامة اللغوية بكلمة أخرى تُنتقى من مجموعة من الكلمات التي تتكون منها اللغة (٨١ : ٥٠–٥١)، وهكذا فإن المستمع (المُستقبِل) يدرك أن القول الذي يلتقطه هو عبارة عن تناسق بين أجزاء منظمة جُمَل، مفردات، وحدات صوتية انتقاها المتكلِّم (المُرسِل) من مجموعة العناصر التي تتألف منها اللغة (١٥:٥٠).

وعبر وظيفتي، اللغة ومحوريها بيَّن **جاكوبسون** أن المحور المُرَكَّبي – (النظمي) – محور أفقي أي متصل – (تسلسل) –، أما المحور الاستبدالي، فهو محور عمودي؛ أي محور التشابه، وفي ميدان اللسانية تُعتبَر التداعيات التي ينتجها الاستبدال – ضمن المحور الاستبدالي – ذات طبيعة **استعارية**، أما التداعيات الناتجة ضمن المحور النظمي، فتعتبر ذات طبيعة **مجازية**، ولقد احتل مفهوما الاستعارة والمجاز المُرسَل أهمية كبيرة ضمن العلوم الإنسانية (٩١:١٤–١٥). ويمكن للباحث إيضاح هذين المحورين – النظمي والاستبدالي – من خلال الشكل التالي:



شكل رقم (٥) يُبيِّن العلاقة الأفقية والعمودية " الرأسية " بين المحورين: النظمي والاستبدالي، وتكوين المجاز والاستعارة

وبتطبيقه لمفاهيم نظريته اللغوية استطاع **جاكوبسون** أن يُظهر أن بعض الاضطرابات النفسية تُفقدنا إما إمكانية تركيب بعض الكلمات في جُمَلٍ، أو إعطاء مرادفات لبعض الكلمات المقترحة (٩١: ١٥)، فمن خلال ملاحظاته للمصابين بـ الأفازيا أو الحبسة الكلامية Aphasia (*)، ميَّز **جاكوبسون** بين نوعين من الاضطرابات: النوع الأول تتعطل فيه عملية الانتقاء والاستبدال، في حين تبقى عملية النظم والنسق سليمة، أما النوع الثاني، تضطرب فيه عملية النسق والنظم مع بقاء عملية الانتقاء والاستبدال شبه طبيعية (١٥: ٥٠).

(*) الحبسة Aphasia هي امتناع أو حبس الكلام، وهي خلل في الفهم، والتعبير اللغوي نتيجة لإصابة مراكز الكلام في الجهاز العصبي التي تقع عادة في نصف كرة المخ الأيسر، ويوجد منها عدة أنواع منها: حبسة نسيانية Amnestic Aphasia، حبسة سمعية Auditory Aphasia، حبسة وظيفية Functional Aphasia، حبسة شاملة Global Aphasia، حبسة حركية Motor Aphasia، حبسة اسمية Nominal Aphasia، حبسة المدلول Semantic Aphasia، حبسة حسية Sensory Aphasia (٩٧: ١٢).

٣ . لاكـان والمعطيات اللسانية..إعادة قراءة لـ سوسير و جاكوبسون :

يمتد اهتمام **لاكان** باللغة منذ بدايات تكوينه المعرفي الأولى، فنجده – كما بيّن الباحث آنفاً – منذ البداية مهتماً بالحركة السريالية – شعراً أو رواية – كما أبدى اهتماماً واضحاً بالأسلوب العاصف لكتابات الجنون – هذا الأسلوب الذي امتاز به الإنتاج الفكري لمُبدعي المدرسة السريالية – وذلك بتناوله لموضوع الكتابات الإبداعية الإلهامية – خاصة لدى حالات اضطراب ذُهان البارانويا – والتي قام بتحليلها عبر الاضطرابات السيمانطيقية، والأسلوبية، والنحوية الموجودة في خطاب الحالات التي قام بتحليلها.

ويُفضّل الباحث تَتَبُع المراحل المختلفة التي مر بها التحليل النفسي اللاكاني في توظيفه للنظريات اللغوية؛ للوقوف على مدى أهمية تلك النظريات اللغوية، ومدى تأثيرها في خطاب التحليل النفسي البنيوي، ولقد مر تطور اهتمام **لاكان** باللغة من خلال تنظيره، وممارساته التحليلية بأربع مراحل أساسية وَضَّحها **إيفانز** Evans كالآتي:

المرحلة الأولى: تمتد في الفترة ما بين عام ١٩٣٦ وعام ١٩٤٩، ويتبيَّن في هذه المرحلة تأكيد **لاكان** على أن أساس خبرة التحليل النفسي هو اللغة، ويتضح ذلك التأكيد عام ١٩٤٦ عندما أشار إلى استحالة فهم الجنون دون مواجهة مشكلة اللغة، ومن الملاحظ في هذه المرحلة عدم إحالة **لاكان** لاهتماماته باللغة إلى أية نظرية لغوية بعينها، ولكنها كانت حافلة بالإشارات الفلسفية، خاصة تلك المفاهيم المستمدة من الفلسفة الهيجلية – (وهذا ما أتى عليه الباحث عند توضيح علاقة **لاكان** بالفلسفة، خاصة فلسفة **هيجل** عبر حضوره لمحاضرات **كوجيف**، وشروحه للفكر الهيجلي) – حيث تعامل مع اللغة باعتبارها عنصراً متوسطاً – (وسيطاً) – يُمكّن الذات من الحصول على الاعتراف من قِبَل الآخر، وإلى جانب استخدام اللغة في نقل المعلومات فإنه نظر إليها – وفقاً لمفاهيم **جاكوبسون** – كوسيط بتركيزه على وظيفة المضمون أو الفحوى، وذلك برفضه لاعتبار اللغة وسيلة للتسمية.

المرحلة الثانية: تمتد في الفترة ما بين عام ١٩٥٠ وعام ١٩٥٤، وفي هذه المرحلة باتت اللغة تحتل موقعاً مركزياً في أعمال **لاكان** ، واتسمت هذه المرحلة باهتمامه بعلم الظواهر عند **هايدجر** Heidegger، والأنثروبولوجية اللغوية عند **موس** Mauss، **ومالينوفسكي** Malinowski، **وليفي شتراوس** L.Strauss، حيث اعتمد اللغة كمعاهدة رمزية مؤسّسة للقوانين الاجتماعية – (وكأنها بمثابة عقد اجتماعي يحدّد شكل العلاقات، وكيفية التفاعل بين الذوات) – الضابطة لعملية التبادل الاجتماعي، كما اتسمت هذه المرحلة أيضاً بالإشارة إلى نظرية **سوسير** اللغوية، إلى أن قام بتناول التعارض بين اللغة والكلام، وذلك في تقريره **خطاب روما** Rome Discourse.

المرحلة الثالثة: تمتد في الفترة ما بين عام ١٩٥٥ وعام ١٩٧٠، وفي هذه المرحلة تزايد اهتمام **لاكان** باللغة، وأصبحت تُمثّل موقعاً مركزياً في فكره، ويتضح ذلك من خلال أحد مقولاته الشهيرة وهي: **اللاشعور مبني كبناء اللغة** ، كما استفاد بشكل مباشر من نظريات عالمي اللغة: **سوسير** ، **وجاكوبسون** ، حيث وَضّح الأول أن اللغة تُعد بناء يتكون من عناصر مختلفة، وفي حين اهتم **سوسير** باللغة المستخدمة Langue – (والمقصود بها اللغة الخاصة بكل مجتمع، أو جماعة بشرية على حده، والتي تم الإجماع عليها كوسيط للتواصل فيما بينهم) – انصب اهتمام **لاكان** على اللغة بصورة عامة أو بمعناها العام Langage (أو بنية اللغة بصورة عامة – اللسان – دون النظر إلى تباين اللغة، أو بمعنى آخر اختلاف اللغات كالعربية أو الفرنسية وغيرها).

المرحلة الرابعة: بدأت مع العام ١٩٧١، حيث بدأ اهتمام **لاكان** يتزايد في هذه المرحلة باللغة الذُهانية، وذلك بتناوله لإنتاج **جيمس جويس** الأدبي، حيث أصبح خطاب **لاكان** حافلاً بالتورية، والتعبيرات الجديدة، وغموض اللغة، كما اتسمت هذه المرحلة أيضاً باهتمام **لاكان** بالمعادلات الرياضية (١٤١:٩٦-٩٧).

وكما بيّن الباحث آنفاً – عبر النص السابق – أن **لاكان** قد نَهل من نبع النظريات اللغوية لدى كل من **سوسير** ، **وجاكوبسون** موظّفاً – بذلك – للمفاهيم

اللسانية في إعادة قراءة الظاهرة الإنسانية مفترضاً أن النفس ما هي إلا نص قابل للقراءة، وذلك عبر تأكيده على أن اللاشعور له بنية تشبه بنية اللغة، ومن هنا يرى الباحث ضرورة إلقاء الضوء على كيفية إعادة بناء **لاكان** – كعهده دائماً – برؤيته الثورية ومنهاجيته الجدلية – في تناول أي فكر – لتلك المفاهيم اللسانية – والتي قد تم التعرض لها – وإن كان تعرضاً عَرَضياً في عجالة – عند تناول عالمي اللغة: **سوسير** و**جاكوبسون** – في تناوله للظاهرة الإنسانية.

فاللغة لدى **لاكان** تُعد العامل الأساسي، والسبب الرئيسي في تكوين الذات، وبدونها لا يمكن أن توجد الذات، فهي شرط اللاشعور، وفي اللغة والكلام تَغترِب – (تُستلَب) – الذات بطلبها الموجه للآخر، وطلب الآخر الكبير الموجه إليها (١٧٩: ١٩٥)، حيث إن الكلمة تمثِّل حضوراً نشأ عن غياب، وعالَم الكلمات يخلق عالَم الأشياء، فالرمز يجعل من الإنسان إنساناً (بمعنى أنه يُكسبه إنسانيته) (١٦٤: ٦٥).

وانطلاقاً من ذلك، فلقد أَولى **لاكان** أهمية بالغة للغة والكلام، فكل كتاباته وتدريسه تُعَد – بشكل أو بآخر – نوعاً من التأملات اللغوية، سواء لوظيفتها باعتبارها مكونة للاشعور وللذات، أو لدورها في العملية التحليلية المتمثلة في الحديث المتبادل بين المُحلِّل والمُحلَّل (١٨٣: ١٤٤).

وكما تَبيَّن آنفاً فإن **سوسير** قد تناول اللغة من خلال النظرة الثنائية – ثنائية التزامني والتعاقبي، وثنائية اللغة والكلام، وثنائية العلامة – وفي تناوله لثنائية العلامة وَضَّح أنها تتكون من العلاقة بين المفهوم والصورة الصوتية – كان هذا هو التناول الأول لِشقَّي العلامة اللغوية من قِبَل **سوسير** – أو المدلول والدال – حيث قام **سوسير** – خشية من حدوث التباس أو سوء فهم – باستبدال مصطلح المدلول بالمفهوم ومصطلح الدال بالصورة الصوتية – وكما تبيَّن في الأشكال التوضيحية (٤، ٣، ٢) فإن **سوسير** اهتم بوضع المدلول فوق الدال، حيث أكد أنهما يرتبطان بعلاقة اعتباطية.

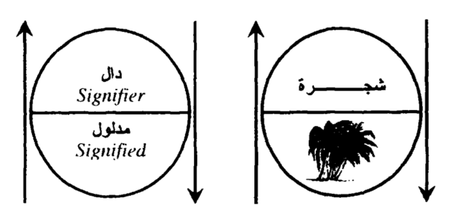
وانطلاقاً من ثنائية العلامة لدى **سوسير** فإن **لاكان** قد عُنِي بالعلاقة بين الدال والمدلول، وإن كان قد أعطى أهمية للدال أكثر منها للمدلول – بل أعطاه

الأولوية – وذلك بجعله الدال فوق المدلول (١٦٧: ١٤٩–١٥٠).

حيث أكد **لاكان** على أن الدال يرتبط بالمدلول بعلاقة رأسية وأفقية، فيُمثِّل الدال الشبكة الأولى؛ أي البنية التزامنية للغة، ولكل عنصر وظيفته، بينما يُمثِّل المدلول الشبكة الثانية؛ أي البنية التعاقبية للغة وهي الخطاب (١٦٥: ١٢٦).

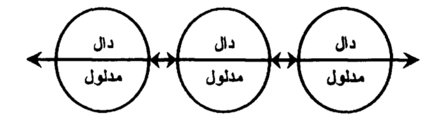
فالدال – (في خطاب التحليل النفسي اللاكاني) – هو الشيء الواقعي، ووجوده المادي أمر مؤكد، وبدونه لا يمكن وجود مسألة الوجود والعدم (١٨٨: ٨٣)، كما أن المدلول هو الذي يحقق المعنى، فالمعنى لا يتحقق إلا انطلاقاً من أخذ الأشياء كمجموعة (١٨٩: ٦٠).

ومن هنا أصبحت العلاقة بين الدال والمدلول – العلاقة الرأسية باعتبار الدال فوق المدلول – لدى **لاكان** كما في الشكل التوضيحي التالي:



شكل رقم (٦) يُبيِّن العلاقة الرأسية
بين الدال والمدلول

كما يمكن توضيح العلاقة الأفقية بين الدال والمدلول لدى **لاكان** – وطبيعة الدال المتلاحقة أو سلسلة الدوال، حيث يرتبط الدال بدال آخر في سلسلة متلاحقة – من خلال الشكل التوضيحي التالي:



شكل رقم (٧) يُبيِّن العلاقة الأفقية بين الدال والمدلول،
وسلسلة الدوال المتلاحقة

ويُكَوِّن الدال – (عبر العلاقة بين الدال والمدلول) – المدلول، ومن خلال علاقتهما ينتج المعنى، ويرى **لاكان** أن هذا المعنى يكون سطحياً، وبمثابة وهم يجب التخلص منه ليمكننا فهم حقل اللغة وتركيبها، كما أكد على أن الدال يكون منفصلاً ومتمايزاً عن المدلول من خلال الفاصل -- (الحاجز) – الذي يفصل بينهما، والذي يقاوم المعنى (١١٣ :٥٩). ولقد أشار **لاكان** إلى الدال والمدلول بالحرفين S، s على التوالي، كما يَتبيَّن في الشكل التالي:

$$\frac{S}{s}$$

شكل رقم (٨) يُبيِّن العلاقة بين الدال والمدلول،
وانزلاق المدلول تحت الدال

ويشير الحرف S إلى الدال، في حين يشير الحرف s إلى المدلول، ويفصل بينهما خط فاصل ومن خلاله – (أي الخط الفاصل) – يتضح أهمية وأفضلية الدال على المدلول، كما يُعبِّر هذا الفاصل أيضاً عن العلاقة بين ما يقال على مستوى الشعور، وبين ما هو قابع في بنية اللاشعور – (باعتبار أن اللاشعور له بنية اللغة كما ذهب إلى ذلك **لاكان**) – من حديث خفي (١٣١ :٣٠)،(١٧٠:١٥٣).

ومن خلال نقاط التقاطع بين نظامي الدال والمدلول أشار **لاكان** إلى – ما أطلق عليه مفهوم – **نقطة الحشو** Quilting Point، والذي من خلاله – (أي مفهوم نقطة الحشو) – يمكن تفسير إيقاف انزلاق الدال بالنسبة للدلالة (١٩٤ :٣٥).

حيث يؤكد **لاكان** على أن نقطة الحشو تَحدُث عندما يتعذر الوصول إلى المعنى نتيجة لاضطراب العلاقة بين الدال والمدلول، والتي تتبدّى في انزلاق الدال تحت المدلول، سواء أكان هذا الانزلاق انزلاقاً دائماً كما في حالات الذهان؟ أم مؤقتاً كما في حالات العُصاب؟ كما بيّن – (أي **لاكان**) – أيضاً كيفية تبدّي نقطة الحشو في عملية التواصل بين الذات والآخر عبر بُعدي اللغة: التزامني، والتعاقبي (١٤١ : ١٤٩)،(١٦٧: ١٤٩).

ومن هنا فلقد اختلف **لاكان مع سوسير** بإسقاطه – أي **لاكان** – لأفضلية العلامة واستبداديتها في توالد المعاني، واعتبر أن الفضل الأول والأخير يعود للدال من حيث ارتباطه وتشابكه بسلسلة الدلالات التي تُكوِّن الذات (٦٩ :٥٥)، كما اختلف أيضاً معه في النظرة الثنائية للغة من خلال التمييز بين اللغة والكلام، لأنه في حين اهتم **سوسير** بالتمييز بين اللغة والكلام – باعتبارهما ثنائية – معطياً للغة الأهمية عن الكلام، فإن **لاكان** ينظر إلى اللغة نظرة ثلاثية من خلال اللغة، والكلام، واللسان ، حيث اهتم بالتمييز بين اللسان والكلام (١٤١).

ومن خلال العرض السابق للأفكار الأساسية للنظرية اللغوية عند **جاكوبسون** اتضح أنه قد تناول اللغة من خلال محورين أساسيين وهما: المحور الاستبدالي، والمحور النظمي، حيث استنتج **جاكوبسون** أن اللغة الإنسانية تقوم على دعامتين أساسيتين هما: **الاستعارة** Metaphore، **والكناية** Metonyme، وتعمل الاستعارة على المحور الاستبدالي كوسيلة تنتقل فيها الكلمة من دلالتها الأصلية إلى دلالة أخرى لا تتوافق معها إلا بفعل تشبيه ضمني، أما الكناية فتعمل على المحور النظمي، وهي وسيلة أسلوبية نُعبِّر فيها عن المُسبِّب بالسبب، وعن المحتوى بواسطة المحتوى عليه، وعن الكل بواسطة الجزء (٨١ : ٤٩–٥٠).

ولقد استفاد **لاكان** من إسهامات **جاكوبسون** ، ونظريته اللغوية في إعادة قراءة مفهومي **فرويد** : **الإزاحة** Displacement، **والتكثيف** Condensation، حيث استخدم مفهوم الاستعارات اللغوية، والتي تقوم على المحور الاستبدالي للتعبير عن مفهوم التكثيف في الخطاب الفرويدي، كما استخدم مفهوم الكناية، أو المجاز المُرسَل،

والتي تقوم على المحور النظمي للتعبير عن مفهوم النقل أو الإزاحة الفرويدي، ويضرب **لاكان** مثالاً : **ثلاثين شراعاً** بدلاً من **ثلاثين قارباً** ، مبيناً به مفهوم الكناية مؤكداً على أن الكناية تركز على العنصر الدال، حيث يَتبيَّن من المثال أنه حذَف مُميِّز للدال، ومن هنا فإن تطابق الكناية، أو المجاز المُرسَل مع حذف الدال يعطي شكلاً بلاغياً للأعراض (٨١ : ٥٠)،(١٩٦ :٤٢٩).

شتراوس ...الأنثروبولوجيا البنيوية وخطاب التحليل النفسي:

وُلِدَ **كلود ليفي شتراوس** Cloude Levi Strauss في بلجيكا عام ١٩٠٨ لأب يعمل رساماً، درس في كلية الحقوق بجامعة باريس، وحصل على ليسانس في الفلسفة، اشتغل بالتدريس من عام ١٩٢٢ إلى عام ١٩٣٤، وفي عام ١٩٣٤ عُيِّن أستاذاً لعلم الاجتماع بجامعة ساوبولو بالبرازيل، واستمر بها حتى عام ١٩٣٧، ظهرت باكورة كتاباته عام ١٩٣٦ بمقال عن التنظيم الاجتماعي لهنود **بورورو** Bororo، في عام ١٩٤١ يحتل منصباً في مدرسة البحوث الاجتماعية بنيويورك، وفي عام ١٩٤٨ عُيِّن مديراً لمعمل الأنثروبولوجيا الاجتماعية بجامعة باريس، وفي عام ١٩٥٩ يحتل كرسي الأنثروبولوجيا الاجتماعية بكلية فرنسا (٦٧:٢٤).

ويُعتبر **شتراوس** بحق مؤسس المنهج البنيوي في الأنثروبولوجيا، ذلك المنهج البنيوي الذي استطاع **شتراوس** – عبر علاقته باللغوي **جاكوبسون** – أن يجد له البرهان العلمي على صلاحيته كأداة بحث علمي، ليس فقط في الأنثروبولوجيا، بل أيضاً في مناهج سائر العلوم الإنسانية (٥ :٦١-٦٢).

ولقد لخَّص **شتراوس** أهمية الكشوف اللغوية البنيوية الحديثة من خلال عدة نقاط أساسية، تُوضِّحها **إديث كريزويل** كالآتي:

أولاً: يتحول علم اللغة البنيوي عن دراسة ظواهر لغوية واعية إلى دراسة بنيتها التحتية اللاواعية (اللاشعورية).

ثانياً: لن يتعامل علم اللغة مع المُسميات، أو الكلمات بوصفها كيانات مستقلة، بل يتعامل معها على أساس العلاقات التي تنظمها.

ثالثاً: يطرح علم اللغة مفهوم النسق System (النظام) -، فلا يزعم علم الفونيمات الحديث Phonemes(وحدات الكلام الصغرى) - أن الفونيمات جانب من النسق فحسب، بل يُظهر الأنساق الصوتية نفسها على نحو ملموس واضح البنية.

رابعاً: يهدف علم اللغة البنيوي إلى الكشف عن قوانين كلية - سواء أكان ذلك بالاستنباط؟ أم الاستدلال؟ - ما يعطي هذه القوانين صفة مطلقة (١٤ :٣٩-٤٠).

وإن كان تأثير البنيوية اللغوية في فكر **شتراوس** - عبر تواصله مع رموز علم اللغويات - واضحاً، فقد كان تأثير التحليل النفسي أكثر وضوحاً - باعتبار أن التحليل النفسي أحد المصادر المعرفية، والعلوم المُلهِمة الثلاثة لـ **شتراوس** وهي: الجيولوجيا، والفلسفة الماركسية، والتحليل النفسي - ويتضح ذلك من خلال إدخاله لمفاهيم التحليل النفسي في نسج نظريته.

فلقد مثّل اللاشعور حجر الزاوية في أبحاث **شتراوس** - وإن كان تسكين هذا المفهوم الفرويدي في الأنثروبولوجيا البنيوية قد أفقده الصبغة الغريزية - كما استفاد أيضاً من تفسيرات **فرويد** لعملية الكبت، ومنع الزواج من المحارم في معرفة كيفية انتقال الظاهرة النفسية من النظام الطبيعي إلى النظام الثقافي، وتأسيس المجتمع البشري (٦٧ :٢٧)،(٨١ : ٥٣).

وكما كان للمفاهيم الفرويدية دور فاعل في الفكر الشتراوسي، كان - أيضاً - للمفاهيم اللاكانية الدور نفسه، حيث استلهم **شتراوس** العديد من أفكار **لاكان** ليوظفها في الأنثروبولوجيا البنيوية، وفي الوقت ذاته كان استلهام **لاكان** للعديد من رؤى الأنثروبولوجيا البنيوية لـ **شتراوس** ليوظفها في التحليل النفسي البنيوي، ويتضح ذلك - أكثر ما يتضح - في قانون **منع إتيان المحارم** المؤسِّس للحياة الاجتماعية، والناقل للإنسان من الطبيعة للثقافة، وبالمفاهيم اللاكانية يتمثّل في **الأب الرمزي** - في مُركّب أوديب Odipus Complex، وإعادة تشكيل الذات عبر الاستعارة الأبوية Paternal Metaphor-باعتباره - أي الأب الرمزي - فاصلاً واصلاً، فهو يفصل بين الطفل والأم - عالَم الطبيعة والعلاقة الخيالية - ويصله بالثقافة - اللغة والرمز - لينخرط في العالم الاجتماعي بقوانينه.

وإذا كان **شتراوس** قد طبّق المنهجية لعلم اللغة البنيوي على الظواهر الاجتماعية؛ بإيجاد العناصر المشتركة للقص الأسطوري - في نوع من لاوعي الأنماط العتيقة، وعلى مستوى مبرمج - فإن **لاكان** نظر إلى الرموز المستخدمة في الأساطير - الثقافية والشخصية - ليعين على الكشف عن الفكر الواعي، واللاواعي - (اللاشعوري) - للفرد في السياق الخاص بهذا الفكر، وترتب على ذلك قيام أتباع **شتراوس** و**لاكان** إلى العمل معاً في نوع من تنظيم الأساطير المَحلِّية، وأحلام المرضى المُحلِّلين على السواء؛ سعياً وراء الكشف عن أصول كل من: الطبيعة والثقافة في مستوياتها الفردية والجمعية (١٤ :٢٢٣).

العودة إلى فرويد ... لاكان بوصفه مُحلِّلاً ثورياً:

أعاد **لاكان** قراءة **فرويد** ، ليؤسِّس العهد الجديد في التحليل النفسي، ويكتشف ما لم يستطع الآخرون اكتشافه، فلقد رأى أن الاستبصار الفرويدي الأساسي، وعبقريته لم تتجل فقط في كشفه للاشعور، ولكن في كشفه عن بنية اللاشعور التي تظهر بل تسيطر على أفعال البشر وأقوالهم، ومن خلال كشف اللاشعور عن بنيته؛ فإنه يكون مادة قابلة للتحليل **(٨١ : ٨٩)**.

وكان قَصدُ **لاكان** من دعوته **العودة إلى فرويد** ؛ هو تصحيح الانحراف الحاصل في الأوساط التحليلية حول تأويل نظريات **فرويد** ، والذي أدّى إلى إفراغها من محتواها، وتحويلها إلى معطيات هيكلية تتَداول كمادة بسيكولوجية بعيدة كل البعد عن المتطلبات العيادية. إضافة إلى ذلك، أراد أن يُعطي للتحليل النفسي بُعداً جديداً، يُعمِّق الجذور التي رَسَّخها **فرويد** ، ويُضفي عليها طابعاً علمياً انطلاقاً من معطيات ألسنية، وبنيوية، ورياضية - (وهذا ما اتضح آنفاً عند تناول تأثير كل من **سوسير** ، و**جاكوبسون** ، و**شتراوس** في خطاب التحليل النفسي اللاكاني) - لم تكن متيسرة في ذلك الوقت (٧١ :٨٨).

ولقد بدأ الصدام بين فكر **لاكان** والمحلِّلين الفرويديين منذ عام ١٩٣٦ عبر قراءته لخطاب التحليل النفسي الفرويدي، وكان ذلك في المؤتمر الرابع عشر للرابطة

الدولية للتحليل النفسي، والذي عُقِدَ في مارينباد، وذلك من خلال عرضه لنظريته عن **مرحلة المرآة** Mirror Stage، والتي أعاد صياغتها ليتقدم بها – للمرة الثانية – للمؤتمر السادس عشر الذي عقدته الرابطة عام ١٩٤٩ في زيورخ ، حيث ذهب **لاكان** بنظريته إلى أن تَشَكُّل الأنا إنما يتحقق من خلال تشويهات Distortions تُمَاثِل ما يُحدِثه انعكاس المرايا على المرايا، والتوالجات المتشابكة المُشوَّشة – في اللغة اللاواعية للذات – بين الـ أنا The Iوالـ آخر The Other(١٤: ٢٠٩–٢١٠).

وكانت أفكار **لاكان** حول مرحلة المرآة مُناقضة لما ذهب إليه المحلِّلون من أنصار **سيكولوجية الأنا** Ego Psychology، ذلك التيار التحليلي الذي أسَّسه عام ١٩٣٩ كل من: **هانز هارتمان** ، و **إرنست كريس** ، و **رودلف لوفينشتاين** ، والذي – (أي تيار سيكولوجية الأنا) – حوَّل التحليل النفسي – في الولايات المتحدة الأمريكية – إلى سيكولوجية للتكيف – (في محاولة لتطويع مفاهيم التحليل النفسي الفرويدي للبنية الثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية الأمريكية – باعتباره مجتمعاً يَتكوَّن من خليط للعديد من الثقافات المتنافرة في أغلب الأحيان – وكما تَبيَّن سابقاً، فإن مؤسِّس هذا التيار – أو على الأقل واحد من أعمدته الثلاثة – هو المحلِّل النفسي **رودلف لوفينشتاين** الذي خاض معه **لاكان** تجربة التحليل النفسي التدريبي، والتي – كما تبيَّن أيضاً – لم تكتمل، ما دفع البعض إلى تأويل هجمات **لاكان** الحادة على تيار سيكولوجية الأنا من ناحية، وتعنُّت، وتجاهل **رودلف لوفينشتاين** – خاصة – وأنصار تيار سيكولوجية الأنا – عامة – لأفكار **لاكان** من ناحية أخرى في ظل مُركَّب أوديب، باعتباره مؤشراً دالاً على احتدام الموقف الأُوديبي، وعدم تصفيته لدى **لاكان**) – حيث أُضيف إلى الأنا هيأة مستقلة، هي الأنا المستقل، الذي تكون وظيفته هي تصفية الصراعات الميتاسيكولوجية، لذلك تم إدخال تعديل عميق على الممارسة التحليلية بهدف تقوية الأنا بكل الوسائل (٩٦: ١٣).

ومن هنا فلقد عوَّلت نظرية سيكولوجية الأنا على الدور الذي تقوم به الأنا، والطريقة التي تتَّبِعها وظائفها في الاستجابة للمثيرات – (الصراعات الداخلية، والضغوط الخارجية) – الداخلية والخارجية، لذلك أصبح الهدف الأولي من العملية

العلاجية – (وفقاً لأنصار سيكولوجية الأنا) – هو تقوية آليات الدفاع التي تستخدمها الأنا في مواجهة المثيرات (١٨٧: ٣٢).

ولقد رفض **لاكان** – وبشكل عنيف – توجه أنصار سيكولوجية الأنا في محاولة أن يُستبدَل بأنا المريض المتهالك أنا قوي يُمكّنه من تجاوز مآزقه؛ ذلك لأن العملية العلاجية – وفقاً لتقنية سيكولوجية الأنا (وحسب ما ذهب إليه **لاكان**) – تمر عبر تعيُّن المحلِّل بالمحلَّل، وتتم على خشبة الخيالي، كما أن تلك الأنا التي يُعوِّل عليها المحلِّلون القدرة على تحمُّل الإحباط تُعَد مُحبطه في ذاتها، وهذا الإحباط ليس إحباطاً في رغبة الذات نفسها بل إحباطاً ناتجاً عن موضوع رغبة الذات المُستلَبة (٩٤: ٣٣)، (١٨٧: ٤٠).

ومن هنا فلقد رأى **لاكان** التحليل النفسي باعتباره اختزالاً للخيالي عبر تجريب جميع الصور التي يستتبعها، فالأمر لا يتعلق بتعزيز أنا مستقل ضمن حدود التحليل، وإنما سيتعلق فقط بإرجاع سلسلة رمزية تدل أبعادها الثلاثة: بُعد تاريخ حياة يُعاش باعتباره تاريخاً، بُعد الانقياد لقوانين اللغة القادرة وحدها على الحتم المضاعف، بُعد اللعبة البينذاتية التي تدخل الحقيقة من خلالها (٩٤ :٣٣).

لذلك رفض **لاكان** مفهوم الأنا المستقل، أو المتوافق بتأكيده على أن استقلال الأنا ما هو إلا مفهوم نرجسي للسلطة، فالأنا ليست حُرة بل محكومة بالنظام الرمزي، والذي يتصف وحده بالاستقلالية، ولقد اعتمد **لاكان** في هجماته اللاذعة على أنصار سيكولوجية الأنا – ذلك المشروع السيكولوجي الأمريكي – على عدة منطلقات يُوضحها **إيفانز** Evans كالآتي:

أولاً: التأكيد على الوظيفة التكيفية للأنا يعمل على تبسيط مفهوم الواقع، على الرغم من أن الواقع ليس شيئاً موضوعياً يمكن للأنا التوافق معه، بل هو ناتج عن مجموعة من التمثلات الخاطئة، والإسقاطات الخيالية للأنا.

ثانياً: جعْل التكيف هدفاً للعملية العلاجية يجعل من المحلّل وسيطاً لتحقيق هذا التكيف، ما يُفترض معه أن يكون المحلّل أكثر تكيفاً من المحلَّل.

ثالثاً: يُمثّل التكيف علاقة خيالية بالطبيعة، تلك التي انتقل منها الإنسان إلى الثقافة عبر تسجيله في النظام الرمزي (١٤١:٥٢،١٤).

انطلاقاً من ذلك رفض **لاكان** تيار سيكولوجية الأنا، وهدفه العلاجي في تقوية الأنا بتأكيده على أن الأنا مركز خداعات، ومصدر للمقاومة، خاصة تلك المقاومة المانعة لاكتساب الذاتية، ويرجع ذلك إلى كون الأنا خيالية (١٤١:٥١).

ومع إصرار **لاكان** على رؤيته لهذا التيار التحليلي، وتأكيده على نظريته في مرحلة المرآة، وكيفية تَشكُّل الأنا، بل وصفه أيضاً لهؤلاء المحلّلين بأنهم قد أصيبوا بالجمود، ولم يعودوا قادرين حتى على تمييز نرجسيتهم، وأنهم ينطلقون من نظرة آلية تُحوِّل الإنسان إلى آلة، أدى ذلك إلى القطيعة بين جمعية باريس للتحليل النفسي والرابطة الدولية للتحليل النفسي (١٤:٢١٠-٢١١).

وإذا كان موقف **لاكان** من مدرسة سيكولوجية الأنا قد اتسم بالنقد اللاذع، والهجوم المتواصل، باعتبارها تغريباً لخطاب التحليل النفسي الفرويدي، وتشويهاً مُتعمَّداً له عبر الجمود الفكري الذي تملّك القائمين على هذا التيار التحليلي، فإن موقفه من مدرسة **العلاقة بالموضوع** Object Relation، ورائدتها **ميلاني كلاين** Melanie Klein لم يَخلُ من ذلك الطابع الثوري الناقد المُفنِّد، والمُعتمِد - في المقام الأول، وبشكل كلي - على النص الأصلي - أي الفكر الفرويدي، وخطاب التحليل النفسي - بعيداً عن التحريف والانحراف الذي أصاب الخطاب الفرويدي ومساره، خاصة ذلك الذي كان على يد من رأوا في أنفسهم الورثة الشرعيين للميراث الفكري للمُعلِّم - هذا التوريث الذي رفضه **لاكان** بشكل قاطع - مستمدين تلك الشرعية - الوهمية، وكأنها الخداع والوهم الذي يتميز به النظام الخيالي - من وريثة المِلكية - وحتماً ليست الكينونة، وهي **أنّا فرويد** - وكأنهم يُعلِنون أن العلم والمعرفة مِلكية خاصة قابلة للتوريث.

إذن، فلقد اتخذ **لاكان** موقفه الهجومي الثوري من تيار العلاقة بالموضوع، إلا أنه - أي موقف **لاكان** الهجومي - كان أقل حِدّة من ذلك الذي تعامل به مع تيار سيكولوجية الأنا، وربما كان ذلك ناتجاً عن علاقته بـ **كلاين** حيث إن **لاكان** كان

ملّماً – وبشكل واسع – بأعمالها، وتقنياتها التحليلية، ما دفعه إلى الكتابة عنها، كما أنه تأثر بأفكارها في بداية حياته المهنية.

ولهذا فإن **لاكان** قد رأى في مدرسة العلاقة بالموضوع، ورائدتها **كلاين** أكثر وفاءً لـ **فرويد** ، ونصوصه من مدرسة سيكولوجية الأنا، ورائدتها **أنّا** ، ما جعله يضعها – أي مدرسة العلاقة بالموضوع – في منزلة أرقى من تلك التي جعلها لمدرسة سيكولوجية الأنا، ويتضح ذلك من خلال ثنائه على اهتمام **كلاين** بـ **غريزة الموت** Death Instinct، ودورها الهام في خطاب التحليل النفسي، وتطويرها لمفهوم الموضوع الجزئي (١٤١: ٩٣).

وإن كان هذا الإطراء – غير المُفرِط – الذي تعامل به **لاكان** مع نظرية العلاقة بالموضوع لم يَحُل بينها وبين انتقاداته، فلقد وجّه **لاكان** لهذا التيار التحليلي عِدّة انتقادات، حيث رأى في الكثير مما ذهبت إليه **كلاين** ، وأنصار العلاقة بالموضوع انحرافاً عن المسار الصحيح لخطاب التحليل النفسي، لذلك يمكن للباحث أن يعرض لهذه الانتقادات من خلال مقارنتها بما ذهب إليه **لاكان** من إعادة تصحيح لمسار الخطاب التحليلي فيما يأتي:

أولاً: أَغفلت **كلاين** البنية الرمزية، واهتمت بدراسة التخييلات داخل النظام الخيالي، في حين اهتم **لاكان** بالبنية الدالة في التخييلات.

ثانياً: أكدت **كلاين** على المناطق قبل اللفظية للاشعور، في حين اعتبر **لاكان** اللاشعور بنية لغوية.

ثالثاً: أكدت **كلاين** على دور الأم في العلاقة الثنائية بين الطفل والأم، وتجاهلت دور الأب، في حين اهتم **لاكان** بدور الأب باعتباره يتوسط العلاقة الثنائية الخيالية بين الطفل – الأم – (عبر فترات مُركّب أوديب، بالتحديد من الفترة الثانية وصولاً إلى التسوية الأوديبية، وتكوين الاستعارة الأبوية) – ما يساعد الطفل على الانخراط في العالم الاجتماعي، ويُجنّبه السقوط في الذُهان.

رابعاً: اهتمت **كلاين** بالنمو الباكر لمُركّب أوديب؛ من حيث تحديد وقت

محدد لمُركَّب أوديب، كما أنها أنكرت المرحلة قبل الأوديبية، في حين أكد **لاكان** على وجود مرحلة قبل أوديبية – (وهي الفترة الأولى من مُركَّب أوديب، والتي أطلق عليها **لاكان** الثالوث قبل الأوديبي) –، ورفض أية محاولة لتحديد وقت محدد لمُركَّب أوديب، حيث كان تعامله معه – (أي مع مُركَّب أوديب) – باعتباره بنية دائمة للذاتية، وليس مرحلة من مراحل النمو.

خامساً: اهتمت **كلاين** بالعلاقات البينذاتية المتبادلة، وإمكانية حدوث علاقة مُشبِعة، وكاملة بين الذات والموضوع، في حين رفض **لاكان** – بالرغم من تأكيده على العلاقات البينذاتية – إمكانية قيام تلك العلاقة الكاملة، وذلك لأنه لا يوجد تناسب بين الحاجة والموضوع الذي يقوم بإشباعها؛ لأن موضوع الإشباع ينتمي لمستوى الحاجة، وأَرجَع هذا اللبس إلى الخلط الذي حدث بين موضوع التحليل النفسي والموضوع البيولوجي.

سادساً: اعتبرت **كلاين** الاستدخال آلية عكسية للإسقاط، حيث يتم استدخال موضوعات داخلية، ثم يعاد إسقاطها مرة أخرى (ومن هنا – وبالرغم من كون الاستدخال والإسقاط آليتين متضادتين – فلقد جعلت **كلاين** منهما عملية واحدة) في حين أكد **لاكان** على التمييز بين الاستدخال – باعتباره عملية رمزية ترتبط بالدال – والإسقاط الذي يرتبط بالصورة (وهذا ما سيقوم الباحث بالتعرض إليه عند تناول بنية النظام الخيالي، وما أسماه **لاكان** بـ **حيوية الخيالي** ، حيث قام **لاكان** بإعادة قراءة للمفهوم الفرويدي الإسقاط من خلال الصورة الكلية للجسد في المرآة الشبيه) ويُعَد عملية خيالية، ومن هنا فلا يمكن جمعهما في عملية واحدة، كونهما ينتميان لمستويين مختلفين (أحدهما خيالي – ينتمي لسجل الخيالي – ويتصل بالصورة، وهو الإسقاط، والآخر رمزي – وهو الاستدخال الذي ينتمي لسجل الرمزي – يتصل بالدال، وهو الكلام المُمثِّل لخطاب الآخر، والذي معه تتكون بنية الذات عبر مُركَّب أوديب) كما رفض **لاكان** – من ناحية أخرى – الخلط الذي قامت به كلاين بين مفهومي الاستدخال والإدماج (١٤١ :١٢٣، ٩٣، ٩٠، ٦١)، (١٨٧ :٣٣–٣٤)، (١٦٨ : ٢٤٤).

ويمكن للباحث – بعد عرض موقف **لاكان** من مدرستي سيكولوجية الأنا، والعلاقة بالموضوع – الائتناس إلى العرض الذي قدّمته **إديث كريزويل** – والذي قامت بنقله عن **لاكان** – ليكون القول الفصل في دلالة ومعنى الشعار الذي أطلقه **لاكان** بالعودة إلى **فرويد** ومُكتَشَفه الأكثر إبداعاً واستبصاراً، ألا وهو اللاشعور – كونه مبنياً كبنية اللغة – وموقفه الثوري من المدارس التحليلية التي غَرّبت الخطاب التحليلي، وفرضت سيطرتها على الرابطة الدولية للتحليل النفسي.

حيث يؤكد **لاكان** على أن أتباع **فرويد** قد تجاهلوا وظائف اللغة في التحليل النفسي، وما استخفافهم باللغة سوى نوع من الدفاع، ونوع من المقاومة التي تلتمس للذات بعض العذر، ويتضح ذلك لدى الفرويديين الأمريكيين الذين لا يُقدِّرون أهمية الكلام الذي يصدر عنهم في عملية التحليل النفسي عندما يعالجون أوهام مرضاهم، أو عندما يناقشون علاقة الموضوع الليبيدي، أو عندما يتعاملون مع التحول العاطفي، والتحول المضاد، فهم ينسون أن الخيالي – الذي ينطوي على تنظيم لصور لا تخضع إلى اللغة – يتكون أساساً من تعرُّفات مشوشة، لذلك يجب عليهم أن يعودوا إلى منهج **فرويد** وتركيزه على الرمزية (١٤: ٢٢١-٢٢٢).

(٤)

الفصل الرابع

ديناميات البناء النفسي

(تشكل الأنا وبناء الذات وفقاً للخطاب اللاكاني)

- بنية الأنظمة الثلاثة...الخيالي، الرمزي، الواقع.
- الأنظمة اللاكانية والعقدة البرومينية.
- ثلاثيات لاكانية...البنية الثلاثية في الخطاب اللاكاني.

الفصل الرابع

ديناميات البناء النفسي

(تشكُّل الأنا وبناء الذات وفقاً للخطاب اللاكاني)

مقدمـــة:

حاول الباحث عبر النص السابق إلقاء الضوء على شخص **لاكان** – كَونه المحلِّل النفسي الأكثر فرويدية – في محاولة لتَتَبُّع المنابع المعرفية – وما أكثرها، بل ما أعقدها – التي كان لها الدور الفاعل في تشكيل الخطاب اللاكاني، بل كونها الآلية التي مكّنت **لاكان** من سبر أغوار النفس – باعتبارها نصاً قابلاً للقراءة –، وإماطة اللثام عن مُبهم الخطاب الفرويدي، والابتعاد به عن التسطيح المُسِّف والاستئصال المُخِّل، تلك المنابع المعرفية التي وضعت **لاكان** أمام عبقرية **فرويد** – والتي استُلب فيها **لاكان** سلباً إيجابياً مكّنه من استبصار تلك العبقرية التي قلّما تتوافر لشخص ما – المتمثلة في أكثر كشوفه أصالة وإبداعاً، وهو اللاشعور؛ كونه خطاباً يحمل مكونات البنية اللغوية، هذا الاستبصار اللاكاني لكشف **فرويد** دفعه إلى التأكيد على انصهاره في النظرية الفرويدية، وولائه التام لها – وإن كان سيُعيد بناءها مضيفاً موضّحاً للنص الأصلي – وهذا ما يتضح في قوله: **يمكن أن تكونوا لاكانيين مثلما أنا فرويدي** .

وهذا ما يؤكد عليه **جاك آلان ميلر** Jacques Alain Miller بأن هدف **لاكان** لم يكن إعادة اكتشاف التحليل النفسي من جديد، بل إنه – على العكس من ذلك – أقام تعليمه تحت شعار العودة إلى **فرويد** ؛ واكتفى بأن يتساءل: ما الشروط التي يكون فيها قيام التحليل النفسي ممكناً؟، ليتوصل إلى أن إمكانية التحليل النفسي تتمثل في أن اللاشعور يُشكِّل بنية مثل اللغة، وتتميز النظرية اللاكانية بالسيولة التي يصبح معها إدراك النقطة التي بدأت عندها، والتي انتهت إليها أمراً عسيراً (١٩: ٧٨، ٧٩) .

وفي تناولها لشعار **لاكان** بالعودة إلى **فرويد** تُشير **نيفين زيور** إلى أن الفضل يرجع إلى **لاكان** لدفعه حركة التحليل النفسي إلى آفاق أبعد بكثير مما كانت

عليه من قبل – (والإشارة هنا إلى وضعية الخطاب التحليلي عبر تياري سيكولوجية الأنا، والعلاقة بالموضوع، وهذا ما أتى عليه الباحث سابقاً بتناوله لموقف **لاكان** النقدي الهجومي على هذين التيارين بوصفهما تغريباً لخطاب التحليل النفسي، وخيانة واضحة للمُعلِّم ونصه الأصلي) – وتوضحً **نيفين زيور** أن هذه العودة – (أي العودة إلى **فرويد**) – لا تعني استعادة خبراته السابقة واستنتاجاته الأولى كي نتبناها كما هي، وإنما تعني الاحتكام إلى خبرة **فرويد**، واستقراء ما بين السطور التي خطّها لنستخلص المعنى الصحيح (١٢٤: ٨٨).

وبالعودة إلى تداعيات **جاك آلان ميللر** حول النظرية اللاكانية في مقاله المُعنوًن بـ **جاك لاكان بين التحليل النفسي والبنيوية** يتضح تأكيده على أن حجر الزاوية في النظرية اللاكانية يَتمثّل في تأكيده – أي **لاكان** – على بنية اللاشعور باعتبارها بنية مشابهة لبنية اللغة، بالإضافة إلى تمييزه بين المستويات الثلاثة: الخيالي، الرمزي، الواقع، حيث يشير هذا الثالوث – بالإضافة إلى بنية اللاشعور اللغوية – وكما ذهبت إليه **كاثرين ب. كليمان** Catherine B. Clement إلى أن هذه المفاهيم تابعة لنسق أصيل أصالة عميقة، استطاع **لاكان** أن يُمنَهِج استعمالها داخل نظرية صارمة (١٩: ٧٩)،(٩٤: ٢٢).

وعند تناول ديناميات البناء النفسي وفقاً لخطاب التحليل النفسي اللاكاني يتضح أن **لاكان** لا يهتم أبداً بتأسيس ضرب من التسلسل الزمني للمراحل – (مراحل النمو النفسي الجنسي التي تناولها **فرويد** بالتحليل) – في الطفولة، ولكنه يهتم – بالأحرى – بأن يبيِّن نشوء فترات بنيوية تُضفي معنى على هذه الطفولة (١٠٦: ١٣١). حيث أكد على أن مراحل النمو النفسي الجنسي التي قام **فرويد** بتحديدها، وهي: المرحلة الفمية Oral Stage، والمرحلة الشرجية Anal Stage، والمرحلة القضيبية Phalic Stage، – لا يمكن اعتبارها ظاهرة بيولوجية مشابهة لمراحل النمو النفسي الحركي، بل هي بِنى مُعقَّدة ليست مُرتَّبة ترتيباً زمنياً (١٤١: ٤٥).

ومن هنا، فلقد اهتم **لاكان** بإبراز التكون الاستيهامي والمتخيل الذي يستحوذ على الطفل منذ أصغر عمره، ويصف ما تُمثله عقدة (مُركَّب) أوديب بوصفها ارتقاء

لعَالَم الرمـزي (١٠٦: ١٣١) . لذا سيقوم الباحث بتناول الفترات البنيوية التي تناولها الخطاب اللاكاني، والتي تتمثَّل في ثلاث فترات أساسية تتمحور حول مرحلة المرآة Mirror Stage وهي: الفترة قبل المرآوية، والفترة المرآوية، والفترة بعد المرآوية، والتي تُمهد لمُركَّب أوديب Odipus Complex ، ومُـركَّب الخصـاء Castration Complex، وما تشتمله تلك الفترات من مفاهيم لاكانية الصك، والتي تُمثِّل عوامل أساسية في تَشكُّل الأنا وبنيـة الذات مـثل: الصـور The Images ، والعـُقـد The Complexes ، واللغـة The Language، وغـيـرها من المفـاهيم الأسـاسـيـة في النظرية اللاكـانيـة، وسيكون تناول الباحث لهذه الفترات الثلاث من خلال إلقاء الضوء على بنية الأنظمة الثلاثة: الخيالي The Imaginary، والرمـزي The Symbolic ، والواقـع The Real، ثم التـعـرض لمفـهـوم البنية الثلاثية في الخطاب اللاكاني.

بنية الأنظمة الثلاثة...
(الخيالي، الرمزي، الواقع)

في بنية النظام الخيالي: On Structure Of The Imaginary Order

يرجع استخدام مفهوم الخيالي في الفكر اللاكاني إلى ما قبل عام ١٩٣٦، وكان استخدامه منذ البداية للدلالة على الوهم، والافتتان، والإغواء، وارتبط بشكل مُحدّد بالعلاقة الثنائية بين الأنا **والصورة المرآوية** Specular Image، وإن كان الخيالي يحتفظ دائماً بدلالة الوهم والغواية إلا أنه – ببساطة –لا يكون مرادفاً للوهم Illusion، حيث يكون الأخير متضمناً شيئاً غير منطقي بينما يكون الخيالي بعيداً كل البُعد عن اللامنطقية، فهو ليس بالشيء البسيط الذي يمكن الاستغناء عنه، حيث تظهر تأثيراته الفعّالة في الواقع (١٤١ :٨٢).

فالمستوى الخيالي يحقق نوعاً من الاستقرار والحدود التي تُمثّل قاعدة أساسية لحياة الفرد أو ما يسميه **لاكان** بـ الدلالة المطلقة Absolute Signification(٨١ :٧٨).

ومنذ عام ١٩٥٣ أصبح الخيالي واحداً من الأنظمة الثلاثة التي شَكّلت المُخطط الثلاثي Tripartite Scheme، والذي مَثّل مركز الفكر اللاكاني، حيث أصبح النظام الخيالي في مقابل النظام الرمزي، ونظام الواقع، ومن خلاله تتشكّل بنية الذات، حيث تبدأ الحياة النفسية بالمستوى الخيالي (١٤١ :٨٢)،(٩٤ :٢٢)،(٧٨ :١١٣).

ويُشكّل الخيالي جوهر علاقة الشخص بجسده، أو على الأرجح صورة جسده، الصورة الجسدية التي تتشكّل تبعاً للرؤية الواقعية لوجه الأم، ولنقاط الهداية الحسية التي ما ينَي يحملها للطفل حضور الأم المتكرر، فصورة الجسد تؤسّس البُعد الأساسي للإنسانية (١٤١ :٨٣)،(٩٠ :٩٣)،(١٣٥ :٢٨).

فالنظام الخيالي في الخطاب اللاكاني يُشير إلى نظام من الإسقاطات، والتعيينات، ويتكون من خلال العلاقة بين الذاتية، وهو يعتبر بمثابة بديل الأنا في الخطاب الفرويدي، ويُعَد أساساً للطريقة الثنائية للتماثل وعدم التماثل، والجدل بين

الشخصي باعتبار أن الأنا هي آخر (١١:١٦١).

حيث تَتشكّل بنية النظام الخيالي فجأة من خلال مرحلة المرآة، حيث يصبح أول فعل للذاتية وأوجهها الخادعة وقبل أي فعل ميلادي، فأساس النظام الخيالي هو تَشكُّل الأنا في مرحلة المرآة، فمنذ تَتشكّل الأنا بواسطة التعيين الذاتي Identification بالشبيه Counterpart أو الصورة المرآوية يصبح التعيين الذاتي مظهراً هاماً في النظام الخيالي، فالأنا والشبيه يُشكّلان أنموذجاً أولياً للعلاقة الثنائية، حيث إمكانية تبادل المواقع، وتلك العلاقة التي وفقاً لها تَتشكّل الأنا من خلال التعيين الذاتي بالآخر الصغير Little other تعني أن الأنا والنظام الخيالي كلاهما تموضع في استلاب Alienation أساسي، حيث يعد الاستلاب أساسياً في النظام الخيالي (٨٢:١٤١)،(٩٤: ٢٥،٢٩).

فالنظام الخيالي هو عالَم الصور، والتخييل، والخداع، والإغواء، وتُعَد الأوهام الرئيسية في الخيالي هي: أوهام الاكتمال، والجُماع، والاستقلال، والازدواج، وفوق كل هذا التشابه، فالخيالي هو نظام المظاهر السطحية الخادعة (٨٢:١٤١).

ولقد استخدم **لاكان** مفهوم الخيالي لشرح – وتطوير – الصيغة الفرويدية في الحوافز Drives، حيث يوَجه الخيالي تجاه الشكل عنه إلى المضمون، فالخيالي يمارِس قوة الأسر على الذات من خلال تأثير الصورة المرآوية، ويُمثّل النسيج الخيالي لمرحلة المرآة أول سبيل لتوظيف الطاقة الليبيدية التي سوف تؤثر في كل التخييلات اللاحقة (٨٣:١٤١)،(٢٨،٣٠:١٣٥).

ويُشير **إيفانز** إلى أن المقابلة بين الخيالي والرمزي لا تعني أن الخيالي يُمثّل نقصاً في البنية، فعلى العكس تماماً دائماً ما يُبنى الخيالي بواسطة النظام الرمزي، فالخيالي يتضمن بُعداً لغوياً، فلما كان الدال Signifier أساس النظام الرمزي فإن المدلول Signified، والدلالة Signification يكونان جزءاً من النظام الخيالي، وتكون اللغة لها مظاهرها الرمزية والخيالية، ففي مظاهرها الخيالية تكون اللغة **حائط اللغة** الذي يعكس ويُحرّف خطاب الآخر (٨٢:١٤١–٨٣).

فالفرد في النظام الخيالي يتيه، ولا يلتقي بالغير ولا ينفَذ إلى الواقعي، ويؤكد **لاكان** على أن العلاقة الثنائية الخيالية بين الأم والطفل تُمثّل عالماً مُغلقاً تمزّق فيه الموجودات بعضها بعضاً، وتُقطّع بعضها بعضاً، ويعتدي بعضها على بعض في علاقات من النوع السادي المازوخي، فثمة نمطان للحياة السيكولوجية يسودان في علاقة متخيلة: العدوانية، والتعيين الذاتي بصورة الآخر، فثمة عدوانية مرتبطة بالعلاقة النرجسية – (العلاقة الثنائية بين الطفل والأم، أو بينه وبين الشبيه، أو حتى مع الإخوة، أو الصورة الأخوية أثناء عُقدَة الاقتحام، حيث تكون العلاقة الثنائية قبل دخول الطرف الثالث – وهو الأب – نرجسية، وتتمثّل النرجسية في بُعديها الشبقي والعدواني) – إلا أن هذه العلاقة محكوم عليها بالموت بفعل الانغلاق الذي تُمثّله، وتُشبه هذه العلاقة الثنائية المتخيلة أوصاف بين الذاتية التي صنعها **سارتر** في مسرحه وفي كتابه **الوجود والعدم** بوصفه عَالماً مُغلقاً مُتمزّقاً .

ولقد حدّد **لاكان** مفهوم النظام الخيالي – باعتباره أحد المفاهيم المحورية – ذات الدور الفاعل في تَشكُّل الأنا وبنية الذات – في النظرية اللاكانية – من خلال ثلاث أفكار رئيسية – قام بعرضها من خلال عِدّة تساؤلات – وهي:

- تشريح الخيالي The Imaginary Anatomy
- حيوية الخيالي The Imaginary Energetic
- وظيفة الخيالي The Imaginary Function

***تشريح الخيالي The Imaginary Anatomy:**

وظيفة العقدة والصورة The Imago & The Complex Function:

أشارت **وفاء مسعود** – في أطروحتها للدكتوراه الموسومة بعنوان **بُعد المتخيل عند جاك لاكان ، دراسة في نماذج من الحكاية الشعبية الخرافية** – إلى أن تشريح الخيالي يتمحوّر حول تساؤل – قد طرحه **لاكان** – مفاده: كيف يمكن أن نتحدث عن واقع قبل أن نُعيد تصويره مجازياً؟ . وبيّنت أن **لاكان** قد طرح عبر تشريح الخيالي فكرته عن الصورة الجسمية، أو بنية العلاقة بين الجسم المُقطّع والهوية

المتخيلة، بما هي بنية مؤسّسة للغة، ومكوّنة من مجموعة من العلامات والإشارات (٣:١٢٨).

ويرتبط تشريح الخيالي بمرحلة المرآة، وهو يتَمثّل في الصورة النفسية، أو خريطة الجسم التي تستدخلها الذات وتعيشها كواقع، إنه البناء النفسي والمرآوي، واستحضار الخبرات المُعاشة للذات ولأجزاء جسمها وأعضائه، وهو ليس استحضاراً مصوراً، أو واقعياً للجسم، ولكنه صورة خيالية ونتيجة مُعقدة لاستدخال الذات لصورتها المرآوية، وتقبلها للمعتقدات الاجتماعية اليومية السائدة عن البناء العضوي للجسم، والذي هو نتاج للاستثمارات الليبيدية والثقافية في الجسم، ولقد أحال **لاكان** تطوير فكرته عن تشريح الخيالي إلى كل من: **روجر** Roger و**شيلدر** Shelder؛ حيث أكدا على أن اكتساب الذات للإحساس بنفسها وبالصورة المستثمرة هو نتاج لقدرة الطفل على موضَعة نفسه داخل جسم في مكان، ومن ثَم يكتسب توافقه المكاني (١٤٧: ٨٤).

حيث أكد **لاكان** على الدور الفاعل الذي تلعبه الصورة Imago في تكوين الطفل داخل القول الأُسري (العائلي)(*)، وتُمثّل الصورة نمطاً لصورة ذهنية مثالية، وتُعَد تصوراً لاشعورياً أو ضرباً من الامتثال (التَمثُّل) اللاشعوري Unconscious Representation، ويُمثِّل التشكُّل أو إعطاء شكل مُعيَّن للشيء الوظيفة الأساسية للصورة الذهنية، والذي بدوره يُمكّن الطفل من التطور، وتجمع الصورة بين عدد من التفاعلات الجسدية والنفسية (١٧٨: ٢٨)،(١٤١: ٥٢)،(١٠٦: ١٣٢).

وتشير الصورة المرآوية إلى الأشعة المنعكسة على المرآة، والتي عبرها يتم

(*) يُفضّل الباحث استخدام لفظة **عائلة** بدلاً من أُسرة، وذلك لما تحمله كلمة عائلة من دلالة التواصل الجدلي والتفاعل بين أفراد العائلة، كون الذات تُبنى في قلب العلاقة الجدلية بين شبكة من الذوات، فلفظة أُسرة تحمل دلالة أهل الرجل وعشيرته، حتى وإن اختفى البُعد العلائقي القائم على التواصل الجدلي بين الذوات، في حين تشير اللفظة عائلة إلى الأشخاص – الآباء، والأبناء، والأقارب – الذين يضمهم بيت واحد، وهذا ما يتحقق معه التواصل الجدلي الذي هو المقوّم الأساسي في تَشكُّل الذات.

تحديد الموضوع في مكان متخيل غير موقعه الواقعي، وتتبدّى وظيفة الصورة الذهنية في قدرتها على تحقيق التوحد والتكامل، فالصورة الذهنية للآخر هي التي يربط عبرها الطفل نفسه في وحدة مثالية، ومن هنا تصبح الصورة المرآوية الوحدة لكل العوامل الخيالية، والتي تسمّى بالجسد الممزّق Fragmented Body، كما أنها تؤسّس أساس الاستقرار والثبات، وبهذا فإن الصورة الكلية الخيالية تحقق نقطة تثبيت داخل مجرى الحياة النفسية (١٣٥: ٢٥)، (١٧٧: ٤٦).

ولقد ربط **لاكان** بين الصورة Imago –(وهي الصورة الذهنية الخيالية) – والعُقدَة Complex، حيث قَدَّم عرضاً منهجياً لها – (أي العُقدَة وما يقبع وراءها من صورة خيالية) – في الجزء الثامن من الموسوعة الفرنسية، والذي حمَل عنوان **الحياة العقلية**، وذلك عام ١٩٣٨ بتكليف من **هنري فالون** Henri Wallon – الذي كان مسئولاً عن الجزء الخاص بالحياة الوجدانية – فلقد اضطلع **لاكان** بالجزء الخاص بحرف « أ » A، من القسم الثاني، والذي حمل عنوان **الأسرة** (العائلة)، وكتب نصه في مقالين: المقال الأول حمل عنوان: **العُقَد كعامل أساسي في سيكولوجية العائلة**، وأتى المقال الثاني تحت عنوان: **العُقَد العائلية في الباثولوجي**، حيث تناول في مقاله الأول ثلاث عُقَد قام بربطها بثلاث صور ذهنية وهي:

- عُقدَة الفطام *Weaning Complex* – صورة الأم *Maternal Imago*
- عُقدَة الاقتحام *Intrusion Complex* – صورة الأخ/الأخت *Fraternal Imago*
- عُقدَة أوديب *Oedipus Complex* – صورة الأب *Paternal Imago*

(١٠٦: ١٣١)، (٣: ١٩٧)، (١٨٧: ١٣).

وتُمثّل العُقدَة عاملاً لاشعورياً موجوداً في قاعدة البنية الأُسرية (العائلية)، إنها ضرب من العُروة التي تُنظّم سلوكيات الكوكبة الأُسرية (العائلية) وتوزّعها، وتتميّز هذه العُقدَة بثبات معيّن، وضرب من النوعية، وطراز من الحياة خاص بكل أُسرة (عائلة)؛ ومن هنا تكون العُقدَة نتاجاً لعملية التربية وليست تكراراً خيالياً لأحداث سابقة، كما أنها تتصف بالنوعية، فهي لا تظهر بالمظهر نفسه في كل الأجناس وعند

كل الشعوب، بل تتغير مع شكل العائلة، ويتبع التوازن الذي تتصف به العُقَد لمختلف الدوافع التي يُبديها الثنائي الأبوي، والعُقَد يمكنها – بدمغتها اللاشعورية وتوازنها – أن تكون عامل تَقَدُّم بالنسبة للطفل الذي تستحوذ عليه، كما يمكنها أن تكون عامل نكوص (١٠٦: ١٣١–١٣٢)، (٣٧ :١٠٣، ٨٣).

وبهذا يتضح أن العُقدَة تشير إلى مجمل الوضع العلائقي البينذاتي (البُعد العلائقي بين الشخص والآخرين)، بينما تشير الصورة الخيالية إلى استمرارية الوضع الخيالي لذلك الآخر الذي شارك في الوضع العلائقي، حيث تصبح العُقدَة وما تستتبعه من صورة خيالية فكرتين متقاربتين تنبعان وتتبعان المجال التفاعلي للطفل، أو علاقات الطفل بالمحيط الأسري الاجتماعي (٢٥: ٣٠٧).

وفِي تناوله للصورة باعتبارها تَمَثُّلاً لاشعورياً قابعاً وراء العُقدَة بيَّن **لاكان** علاقة العُقد الثلاث – التي تم الإشارة إليها آنفاً – بالصور الذهنية الثلاث الخيالية، ويَتَضّح ذلك كالآتي:

فالعُقدَة الأولى التي تظهر لدى الطفل هي **عُقدَة الفطام** Weaning Complex، والتي تقابلها **صورة الأم** Maternal Imago –(أو بالأحرى صورة ثدي الأم) – حيث إن الصورة الخيالية للأم تقع في قلب عُقدَة الفطام، ولا تَتمثّل في الإشباع الذي يحققه ثدي الأم للوليد، وإنما تُمثّل العجز المولِدي – (كون الوليد الإنساني يكون ميلاده مُبتسراً غير كامل من الناحية البيولوجية) – الذي يواجهه الرضيع مقابل حاجاته الجسدية، وهذه الصورة الذهنية الخيالية المثالية للأم – التي تعمل وظائفياً بوصفها محل الجنة بالنسبة للطفل – يمكنها أن تعوقه في نمائه بفعل الرغبة في العودة الإنصهارية إلى الأم، ولكن الطفل يَتمكّن من التغلب عليها، والتسامي بها، إلا أنه في حياة الراشد تبقى بعض الصور المُعبِّرة عن عُقدَة الفطام، والصورة الخيالية المثالية للأم، ويتضح ذلك في طوباويات كَون موحّد بصورة كلية، ووراء كل مطلب فلسفي، أو ديني، أو سياسي (١٠٦ :١٣٣)، (٣: ١٩٨)، (١٨٧ : ١٤).

أما العُقدَة الثانية التي تنبعث بعد عُقدَة الفطام فهي **عُقدَة الاقتحام** Intrusion Complex، والتي تقابلها **الصورة الأخوية** Fraternal Imago، وتبدو هذه العُقدَة عندما

يجتاح الطفل الشعور أن بإمكان آخرين أن يَحلّوا محله قرب الأم، إنه إذن ارتكاس من ارتكاسات الغيرة، والذي يعتبره **لاكان** قاعدة النمو الخاص بالارتباط بالجماعة، وفي هذه الفترة يلازم الطفل شعور بأن هويته ترتبط بهوية الآخرين، ومن هنا ينبغي للطفل أن يناضل ضد متطفل يسرق مكانه قرب أمه، وتظهر هذه العُقدة عادة عند ولادة الطفل الثاني، وعندئذ يحدث ضرب من توحُّد البكر بالولَد الثاني(*)، إذ ينكص الأول إلى حالة الرضيع على الغالب، وفي حالات أخرى يُبدي الطفل اهتمامات بالغير، حيث تظهر لديه الازدواجية في المشاعر إزاء الغير الذي يغار منه، ولكنه في الوقت نفسه يشعر ببعض الانجذابات إليه، وتساعد هذه العُقدة بصورها الطفل على الشعور بالآخر وبنفسه، وتمكّنه من الامتزاج (التفاعل) بالغير، ويؤكد **لاكان** على أن الغيرة لا تُمثّل منافسة حيوية بقدر ما تُمثّل تَعيُّناً عقلياً ينتج عنه سلوك عدواني، وهذا يجعل الصورة الأخوية ذات أساس لاشعوري في السلوك البشري الاجتماعي (١٠٦ : ١٣٣-١٣٤)،(١٨٧ : ١٤-١٥).

وإذا كانت عُقدتَا الفطام والاقتحام وما يكون خلفهما من صور متخيلة – صورة الأم (ثدي الأم)، وصورة الإخوة – تقعان في قلب نسج الخيالي، وتشتمل عليهما مرحلة المرآة من خلال تلك العلاقة الثنائية بين الطفل والأم قبل دخول الطرف الثالث الذي يتوسط تلك العلاقة وهو الأب، فإن العُقدَة الثالثة – والتي أشار إليها **لاكان** في مقاله الأول عن العائلة – هي **عُقدَة أوديب** Oedipus Complex والتي تقابلها **صورة الأب** Paternal Imago– تلك العُقدَة (مُركّب أوديب) التي تمتاز بالانتقال من العلاقة الثنائية إلى العلاقة الثلاثية تُمثّل الطريق الوحيدة التي تُمكّن الطفل من الانتقال من

(*) يُعتبر تَعيُّن الطفل بالأخ في عُقدة الاقتحام بمثابة تعيُّن بالمُعتدي، هذا المفهوم الذي تناوله بحدس مُرهف ورؤية جليّة ثاقبة الرائد الراحل العلّامة/ **مصطفى زيور** – وكيف لا؟! وهو بمثابة الأب الرمزي، والدال الذي انتصب ليكون شاهداً على القطيعة الابستمولوجية – بالمفهوم الباشلاري – والانتقال لجيل كامل – مثّل الرعيل الأول لعقول ملأت مشارق الأرض ومغاربها بأنوار الحقيقة التي أجابت بها على الواقع، والتي لازالت تسعى آملة في أن تغمر تلك الأنوار أرض الحقيقة مصر – من الطبيعة إلى الثقافة – عند تناوله لجدل السيد والعبد عبر إلقائه الضوء على المجتمع الإسرائيلي بوصفه شتاتاً مُمزّقاً مُعتدى عليه يتحول إلى جُماع – وإن كان جُماعاً واكتمالاً خيالياً، يسيطر عليه وهم القدرة المطلقة، والافتتان بالصورة – يمارس الاعتداء على الآخر عبر تَعيُّنه بالمُعتدي.

الطبيعة إلى الثقافة – تقع في سجل الرمزي، فمن خلالها يتم الانتقال من الخيالي إلى الرمزي، وما يخضع له من قانون، وثقافة، ولغة، فتعيُّن الطفل بالأب يمكّنه من ولوج العالَم الاجتماعي، ويفرض عليه الخضوع لمبدأ الواقع – هذا كون الطفل قبل ذلك لم يكن ليخضع إلا لمبدأ اللذة – والتخلي عن عدوانيته التي كانت تصبغ علاقته بالآخر – وإن كان الآخر قبل ذلك لا يُعد إلا أنا أو صورة شبيهة – ذلك كونها علاقة خيالية، وهذا ما سيأتي الباحث عليه عند تناوله لمرحلة المرآة، ومفهوم النرجسية كونهما يُكّونان نسج النظام الخيالي، كما سيتم تناول مُركّب أوديب عند عرض بنية النظام الرمزي.

ومن هنا يتضح أن الصورة تلعب دوراً فاعلاً في تشريح الخيالي، كما أنها – أيضاً – تقوم بهذا الدور في توظيف الطاقة الليبيدية، حيث يكون أول توظيف لتلك الطاقة الليبيدية في الصورة، هذا التوظيف الذي يؤثر في كل التخييلات اللاحقة، ومعه يمكن تفسير المفهوم الفرويدي **الاستحضار الغريزي**.

حيث بيّن **فرويد** أن القوة الغريزية لا تُستحضَر من تلقاء نفسها، سواء أكانت شعورية أم لاشعورية؟، ولكنها ومن خلال النواب أو الوكلاء فقط تصبح مؤثرة، ذلك أن الأفكار هي التي يمكن لها أن تدخل مجال الشعور، وتستحضر الغرائز، لذا فإن لم تصل الغريزة نفسها بفكرة، أو ينتج عنها حالة انفعالية معينة لا يمكن التعرف عليها أبداً (١٣٥: ٢٧).

وفي توضيحه لدور الصورة الذهنية الخيالية يُشير **لاكان** إلى أن الصياغة الأوائلية لليبيدو تأتي إلى الوجود في – ومن خلال – الاعتراف بالشكل الكلي الخيالي، حيث تُعد الصورة الخيالية أكثر الصياغات أساسية للاستحضار الغريزي، والاعتراف بها – أي الصورة الخيالية – يُهيئ توجيه الدوافع خارج حالة الاستثارة المُشوّشة داخل الجسم الطفلي، وبهذه الطريقة يوضّح مفهوم **لاكان** الروابط بين التخييلات وأساس دوافع الحوافز (١٣٥: ٢٨).

حيث إن **لاكان** استخدم مفهوم الخيالي لشرح الصيغة الفرويدية في الدوافع

وتطويرها، كما قام بتوضيح الاختلافات الأساسية بين الحوافز والغرائز Instincts، حيث وضع الدوافع – والتي تكلم عنها **فرويد** في مستوى الاستثارة الداخلية والخارجية – في مستوى الحاجة إلى الطعام والشراب (١٤١: ٨٣،٤٠)،(١٧٦: ١٦٤).

والحوافز لدى **لاكان** هي حوافز جزئية، فكل حافز هو حافز بوجوده كحافز جزئي، والحافز يكون جزئياً لأنه يتحدد في علاقة بالمنطقة الشهوانية، وإذا كان **فرويد** قد سمّى الحافز بالمنطقة الشهوانية واعتبره شكلاً للعامل الغريزي، فإن **لاكان** استخدمه تحت مفهوم تشريح الخيالي، أي الحوافز التي تتحدد في مصطلحات وظيفة العضو المنتخب Selected Organ Function، حيث لا يمكن لأي عضو أن يُفرِّغ إمكانية الرغبة أو قوتها الكامنة (١٧٦: ٥٧).

ولقد بيّن **لاكان** أنه لا توجد علاقة بين الحوافز الجزئية – (بمعنى أنه لا توجد علاقة بين الحافز والحافز الآخر الذي يليه تبعاً لمراحل النمو النفسي الجنسي، والانتقال من مرحلة لأخرى) – فالانتقال من الحافز الفمي إلى الحافز الشرجي لا يتوقف على عملية النضج، بل على توسط دخول طلب الآخر، هذا الذي لا ينتمي لحقل الحافز، ومن هنا فليس هناك طبيعة مختلفة للانتقال من الحافز الفمي إلى الحافز الشرجي (١٧٠: ١٨٠–١٨١).

فعند تناوله للحافز الفمي أكد **لاكان** على أن الحافز الجزئي على المستوى الفمي لا يتَمحوّر حول السؤال عن الطعام، أو عن رعاية الأم واهتمامها بالطفل، وإنما يتمحوّر حول السؤال عن الثدي – (وهذا ما تَبيّن عند تناول عُقدَة الفطام، والصورة الخيالية المثالية للأم، أو كما تم التنويه إليه صورة ثدي الأم خاصة) – حيث إن الثدي يُمثّل موضوعاً مُسبّباً للرغبة (١٧٠: ١٦٨).

وبالانتقال من المرحلة الفمية – (وفقاً للتقسيم الفرويدي لمراحل النمو النفسي الجنسي) – إلى المرحلة الشرجية، يكون الحافز الجزئي على المستوى الشرجي – (الحافز الشرجي) – والذي يُمثّل استعارة، حيث يتم استعارة موضوع – وهو البراز –

ليحل محل موضوع آخر، وهو القضيب Phallus، فالحافز الشرجي يتمحوّر حول العطاء (١٧٠:١٠٤).

*** حيوية الخيالي: The Imaginary Energetic**

وظيفة الصورة المرآوية (الشبيه) The Specular Image(The Counterpart) Function:

استخدم **لاكان** فكرة الشكل الكلي الخيالي (الجشطلت الخيالي، أو الكلية والوحدة الخيالية، والتي تتحقق عبر الصورة الخيالية) لتوضيح حيوية الخيالي، وذلك عبر التساؤل الذي طرحه وهو: كيف يمكن للشخص أن يتصور أن معظم غرائزه التي تتحول وتَتبدّل في حياته هي تلك التي يُركّبها ويُموضعها ثانية، وكأنه يربط تاريخه الذاتي بما هو فطري وغير عاقل في رغباته؟ (١٣٥:٥٤).

ويشترك **لاكان** بمفهومه حيوية الخيالي، والوحدة الكلية أو الشكل الكلي الخيالي للجسد مع **فرويد** بمفهومه عن الإسقاط، ذلك أن **لاكان** أعاد قراءة المفهوم الفرويدي الإسقاط عبر مفهوم الكلية الخيالية (الجشطلت)، فلقد أكد على أن الإسقاط ظاهرة خيالية ترتبط بالصورة، وذلك فيما يتعلق بمشكلة أصل الأنا المُستلّبة، وكيفية تَشكُّلها وبنائها، ذلك العامل المُستلّب (المُغتَرِب) الذي يُبنى بين الكائن – الجسم – وبين هويته الخيالية، ويؤثر في حياته النفسية، ومن هنا يُمفصِل الخيالي طاقة الدوافع الأصلية عن طبيعتها، ويُركّب منها أشكالاً جديدة مختلفة عن الأصل، وذلك عبر كبت طاقتها الأصلية ليُصبح ما يتَولّد عنها مختلفاً عن أصله (١٧٦ : ٥٦)،(١٦٨ : ٢٤٤).

وبهذا فإن كل ما هو مُستَبعَد أو منفي يسعى للإعلان عن نفسه من خلال الانتخاب الأساسي للشكل الكلي، بحيث تَستدخِل الصورة الكلية الخيالية دوافع مُعيّنة وتَستبعِد أخرى، وكنتاج للتثبيت الزمني للصورة الخيالية، يتم استبعاد الأشكال الجديدة من الدوافع المنبعِثة في دورة التطور الطبيعي (١٣٥:٥٩).

ولقد بيّن **لاكان** أن الشكل الكلي الخيالي (الجشطلت) هو نظام حدود

التواصل، بحيث تَتمثّل وظيفة الشكل الكلي الخيالي في أنه عملية انتقائية، كما أنه في الوقت ذاته عمليات إحساس في تشكيل، وتتم العملية الانتقائية للأفعال من خلال أي شكل منُفصِل عن الأرضية، حيث يُمثّل الشكل مصدراً لجذب الانتباه (١٣٥ :٥٤).

وفي توضيح دور الشكل الكلي (الجشطلت)، وكيفية تلاقيه بالإسقاط يُشير **لاكان** – وكما ذهبت إليه **نيفين زيور** بترجمتها للنص الأصلي – في مقاله : **مرحلة المرآة، بوصفها مُشكّلة لوظيفة ضمير الذات، كما تَتكشّف لنا في خبرة التحليل النفسي** إلى أن الشكل الكلي للجسد، والذي ينبثق في شكل سراب اكتمال قوته، لا يُعطى (للفرد) إلا بوصفه جشطلتاً بمعنى استخراج، حيث يكون فيها الشكل بالطبع مُشيّداً أكثر منه مُشيِّداً، إلا أن ما هو أهم هو أن الشكل يتبدّى للأنا في هيئة مُجسّمة تُثبته كما يبدو في سيمترية تقلبه، في مقابل اضطراب الحركات التي تخبرها الأنا وتغذيها (٢٦ : ٣٢٨).

وبهذا فإن هذا الجشطلت – بهذين الوجهين لتبديهما – يَرمُز للديمومة الذهنية للأنا في الوقت نفسه الذي يرهص فيه لمصيرها المُغَرّب، ويفيض هذا الجشطلت بإرسال الإشارات التي توحّد الأنا بالتمثال الذي يُسقط عليه الإنسان نفسه، أو الأشباح التي تسيطر عليه، وأخيراً بالآلي Automate الذي ينحو إلى علاقة ملتبسة Ambigu تميل إلى تحقيق عَالَم اصطناعي Frabrication(٢٦ :٣٢٩).

*** وظيفة الخيالي :The Imaginary Function**

بنية اللاشعور :The Unconscious Structure

تُمثّل وظيفة الخيالي الفكرة الثالثة التي تناول عبرها **لاكان** مفهومه الأصيل – والذي يُمثّل أحد المفاهيم المحورية في خطابه – النظام الخيالي، وتتمحور هذه الفكرة حول تساؤل طرحه **لاكان** وهو: كيف تُشبِعنا الكلمات رغم أنها لا تمنحنا أي مكسب حقيقي على خارطة الوجود؟.

وأتت فكرة **لاكان** عن وظيفة الخيالي كنتاج لتأثره بعالمي اللغة: **فردينان دي سوسير ، ورومان جاكوبسون** عبر إعادة قراءة – بل إعادة صياغة واستخدام –

إسهاماتهما، فأخذ عن الأول علاقة الدال بالمدلول – وإن كانت الأفضلية عنده للدال –، بينما كان تأثره بالثاني من خلال عمليتي الكلام الأساسيتين: الانتقاء والتنسيق للوحدات اللغوية وفقاً لمحوري الاستبدال والنظم، ولقد قام الباحث – في إلماحة – بالتعرض لتلك المفاهيم السوسيرية والجاكوبسونية، وكيفية استخدام **لاكان** لها في قراءة النفس بوصفها نصاً، وما ترتب عليه من ظهور الشعار اللاكاني الأكثر أصالة، بل الأكثر إبحاراً نحو قلب الفكر التحليلي الفرويدي، وهو **اللاشعور له بنية اللغة**، ويبنى على غرارها .

حيث اعتمد **لاكان** في إيضاحه لوظيفة الخيالي على الدال اللغوي، ذلك الدال الذي عبره يتم الإشارة إلى حركة الذات، فالدال يُعبِّر عن كناية الذات في مواجهة دال آخر، وعبر هذه الفكرة أصبح من الصعب الفصل بين البنية الثلاثية للأنظمة الثلاثة: الخيالي، الرمزي، الواقع ، بل أصبح من الصعب الفصل بين كل المفاهيم المكوِّنة للنظرية والخطاب اللاكاني، وإن كانت كل تلك المفاهيم تتلاقى عند التأكيد اللاكاني على البنية اللغوية للاشعور.

وبهذا فإن الشعار اللاكاني **العودة إلى فرويد** ما هو إلا دعوة لاكانية للعودة إلى حقل القول، الكلام، اللغة الذي تم تجاهله – عمداً – على يد المحللين الأمريكيين.

فالصيغة اللاكانية الشهيرة التي تقول: إن للاشعور بنية شبيهة ببنية اللغة هي صيغة تعني بكل بساطة أن في الإمكان التعبير عن آليات اللاشعور عن طريق بعض العمليات اللغوية أو بعض الأشكال البلاغية، كما يظهر بوضوح من خلال عملية تكوين الأعراض العُصابية، ولكن دلالة تلك العبارة لا يمكن أن تتكشف على نحو تام إلا إذا ألحقناها بتلك الصيغة التي تقول : إن من شأن اللاشعور أن يؤدي عمله الوظيفي على نحو ما تؤديه اللغة بما لها من طابع بنيوي ، ذلك أنه لا سبيل إلى تَعقُّل اللاشعور إلا بتحويله إلى بنية لغوية (٤٥: ١٧٣-١٧٤) .

وعبر استخدام **لاكان** لمفهومه **اللاشعور هو خطاب الآخر** ، استطاع أن يبيِّن أنه ينبغي على الفرد أن يرى في اللاشعور آثار الكلام على الذات، فاللاشعور هو

بمثابة آثار فعل الدال على الذات، والدال هو ما تم كبته ثم عاد في أشكال مختلفة كالأعراض، النكات، الهفوات، الأحلام، حيث إن كل ما يشير إلى اللغة، والكلام، والخطاب، والدوال، هو بوضوح ما يحدد طبيعة اللاشعور بوصفه نظاماً رمزياً، فاللاشعور هو مبني بوصفه وظيفة للنظام الرمزي، فاللاشعور هو تحديد موقع الذات في النظام الرمزي (١٤١: ٢١٨).

ويمثل اللاشعور من وجهة نظر **لاكان** ذلك الجزء من الخطاب المادي، والذي بقدر ما يكون متجاوزاً للفرد لا يكون تحت تصرفه في إعادة تأسيس استمرارية خطابه الشعوري، فاللاشعور هو النتيجة الدينامية للتفاعل ما بين الشخص موضوع التحليل وبيئته باعتباره وجوداً إيجابياً في تشكيلة من السلوكيات الرمزية التي يمكن قراءتها في كلام المريض عن أعراضه الجسدية، وذكرياته عن الطفولة، ومفرداته المتناقضة، وقصصه الأسطورية المبعثرة البعيدة عن تاريخ حياته (١٨٧: ٤٤).

فالأعراض تتألف من كلمات، ودراسة اللغة وحدها تكشف عن وجود آليات لغوية كثيرة مختلفة، ودراسة الأعراض تعطي النتيجة نفسها، فاللاشعور بنيوي مثل اللغة، أي مؤسس من سلسلة حلقات من العناصر ذات الدلالة، ويقوم بتحويل الكلمات إلى أعراض، فالأعراض يمكن أن تكون – حرفياً – كلمات وقعت في شراك الجسد، ولتخفيف آلام الجسد – التي ليس لها سبب عضوي – فإن الأفكار المكبوتة تحتاج إلى أن يطرأ عليها ترجمة جديدة (٣٦: ٥٧-٥٩).

ويستخدم اللاشعور الاستعارة وذلك لأن الصورة تتطلب استبدال الدوال، فالاستبدالات الاستعارية في اللغة المستعملة لها دلالة واضحة نسبياً، وذلك لأنها مبنية على بعض التشابه في الدوال، فالعلاقة بين الدال الأصلي والدال الاستعاري هو عالمي أو عام على الأقل، وعلى العكس فغالباً ما نري أنه ليس لهذا التشابه من وجود في لغة اللاشعور إلا بالنسبة للشخص، وهو يتعلق بأحداث خاصة وطارئة ولكنها لا تمحى، فيجتمع ذلك الدال الاستعاري مع دال آخر من اللغة المستعملة، وغالباً ما تكون العلاقة فريدة من نوعها (١١٣: ٦٢).

وبهذا – وانطلاقاً من التأكيد اللاكاني على أن اللاشعور مَبني كاللغة – فإن وظيفة الخيالي تتَمثَّل في طبع العمليات العقلية على هيئة صور لغوية، والتي تُمكِّن الفرد من خلق مكان له في الواقع دون القدرة على خلق هذا الواقع، لذا يُعَد النظام الخيالي هو نقطة الانطلاق للخطاب اللاكاني، حيث كان وُلُوجه للمحراب التحليلي – وإن كان وُلُوجه قد اعتُرِض مراراً وتكراراً، ما دفعه – في تَهكُم لاذع – إلى التأكيد على حرمانه من العفو الكنسي من قِبَل الرابطة الدولية للتحليل النفسي – عبر رؤيته – المُغايرة لما هو سائد في الأوساط التحليلية، خاصة لدى أنصار تيار سيكولوجية الأنا – للدور الفاعل الذي تضطلع به المرآة في تَشَكُّل الأنا المُغترِبة، والتي يكون لها بنية البارانويا نفسها، وما تُمارسه الصور من استلاب وأَسر للأنا في وهم القدرة والكلية المقابل للعجز، والتَمزُّق المُعَاش فعلياً.

وإذا كان الخيالي – كما تَبَيَّن من النص السابق – يَتَكوَّن من الصور، ويسعى للوحدة والكمال، وإذا كانت الصور تأخذ قيمتها من العُقَد، وما ينتج عنها من تعيين ذاتي، وما يُصاحبه من ظهور للنرجسية بِبُعديها: الشبقي والعُدواني، فإن الباحث يرى ضرورة تناول مفهومي مرحلة المرآة – بفتراتها المختلفة – والنرجسية – بِبُعديها: الشبقي والعُدواني – وما يصاحبهما من تعيين ذاتي – ذلك التعيين الذاتي الخيالي، والذي يُمثِّل تعييناً أولياً يؤثر في كل التعيينات اللاحقة – بتلك الصورة المرآوية، أو الشبيه، وما يترتب عليه من تَشَكُّل الأنا وانبناء الذات، وذلك كون هذه المفاهيم – وكما تَبيَّن – تُشكِّل نسج النظام الخيالي.

(أ) مرحلة المرآة :Mirror Stage

تُشكّل مرحلة المرآة حجر الزاوية بالنسبة لصرح **لاكان** النظري. حيث كان مفهوم مرحلة المرآة – والذي يُعرف أيضاً بـ **طور المرآة**(*) Glass Looking Phase– موضوع أول الإسهامات اللاكانية في نظرية التحليل النفسي، ولقد مر المفهوم بتجربتين في التناول، حيث قَدَّمه **لاكان** للمرة الأولى إلى المؤتمر الدولي الرابع عشر للتحليل النفسي بـ **ماريتباد** عام ١٩٣٦ تحت عنوان: **مرحلة المرآة**، لكن أوراق البحث الأصلي لم تُنشر، ثم قَدَّم **لاكان** المفهوم للمرة الثانية كمُداخلة مُقدَّمة إلى المؤتمر الدولي السادس عشر للتحليل النفسي بـ **زيورخ** عام ١٩٤٩ تحت عنوان: **مرحلة المرآة بوصفها مُشكِّلة لوظيفة ضمير المتكلّم أنا، كما تتبدّى في خبرة التحليل النفسي** The Mirror Stage as Formative of The I as Revealed in Psychoanalytic Experience، وتمثّل هذه المُداخَلة إعادة كتابة للنص الأول مرحلة المرآة، ولقد تم نشرها (١٧٨)، (١١٩:١٤١)،(٢٨).

وعن مرحلة المرآة يقول **لاكان** هي مرحلة مثيرة للاهتمام في أنها تُظهِر الدينامية الفعّالة التي يتعرّف بها الفرد على نفسه، وعلى شكله، وعلى جسده، ولقد أعطاها قيمة ثنائية، أولاً: كونها تُمثّل قيمة تاريخية، بوصفها نقطة مرجعية فاصلة في النمو العقلي للطفل، ثانياً: أهميتها من حيث هي علاقة جوهرية ليبيدية بصورة الجسم (١٨:١٦٣)،(١٣٠:١٠٢).

ومن هنا فإن مرحلة المرآة تُعَد باكورة أعمال **لاكان**، وهي تشير إلى لغة بدون لغويات، حيث موضَعها – (أي أن **لاكان** موضَع مرحلة المرآة في نسج نظريته) – في بنية النظام الخيالي قبل أن يصل الفرد إلى المستوى اللغوي، حيث تكون المرحلة المرآوية في معزل عن الاستخدام اللغوي، ذلك الاستخدام الذي يتبدّى

(*) أشار **لاكان** إلى ترجيح (تفضيل) استخدام مفهوم طور المرآة عن مفهوم مرحلة المرآة، كونه أكثر مُلائمة (٤٠٩:٢٥)، وإن كان الباحث – تماشياً مع نص الخطاب اللاكاني في ثقافتنا التحليلية – يفضّل استخدام مفهوم مرحلة المرآة عن استخدام مفهوم طور المرآة.

مع سلسلة الدال، الذي يتحكم في عملية الاختلاف الجنسي، عبر إقحام حركة القضيب، وعبر تَعيُّن الطفل بالصورة المرآوية يحصل على صورة كلية لجسده تُقابِل شعوره بالتَمزُّق، هذا الجسد المُمَزَّق الذي يُعَد أحد المفاهيم الأساسية في أعمال **لاكان**، والذي يُعد المُعطى الأولى، وليست الصورة الكلية للجسد (١٤١ :٦٧)،(١٧٨ : ٦٦،٨)،(١٧٥ :١٢٨)،(١٣٨ : ٤).

حيث تُعتَبر مرحلة المرآة قيمة تاريخية، كونها نقطة مرجعية فاصلة في نمو الطفل، كما أنها تُمثِّل العلاقة الليبيدية بصورة الجسم، أو الجشطلت البصري للجسم – (وهذا ما تم التعرض له آنفاً، عند تناول حيوية النظام الخيالي) – الذي يَتعيَّن به الطفل – وبصورة أولية – ويتعارض هذا الشكل الكلي للجسم في الصورة المرآوية مع اضطراب الحركات، وعدم التآزر الذي تستشعره الذات فعلياً (من خلال الجسد المُمزَّق) (١٤١ :١١٥)،(١٦٢ :٢)،(١٨٤ :١٣٣).

فالطفل يستبق – (على المستوى الخيالي) – اكتساب الوحدة الوظيفية لجسده الخاص، والتي تكون حتى هذه المرحلة غير مكتملة بَعد على مستوى الحركة الإرادية، وعبر مرحلة المرآة يسجل الطفل استجابات انفعالية دالة على العَبرية السوية، حيث يخلط الطفل بين ذاته وذات الآخرين – (خاصة الأقران) – ويتضح ذلك في العديد من المظاهر، فمثلاً عندما يَضرِب الطفل طفلاً آخر يُدرِك ذلك الفعل على أنه هو الذي ضُرِبَ، وعندما يرى طفلاً يسقط فإنه يبكي وكأنه هو الذي سقط (١٩١ : ٦).

وعبر مرحلة المرآة استطاع **لاكان** أن يُقدِّم نظرية مُركَّبة حول الذات، باعتبارها – أي الذات – تكون في مواجهة مع الآخر، كما أنها – أي مرحلة المرآة – تُوضِّح علاقة الطفل بالنظام الرمزي، أو اللحظة التي عبرها يَدخل الطفل إلى التَمثُّل الرمزي، واللغة، والثقافة (١٨٧ :٢١)،(١٤٩ : ٢٨٧)، حيث إنه هناك – وكما سيأتي عليه الباحث لاحقاً – ثلاث فترات للمرحلة المرآوية وهي: قبل المرآة، والمرآة، وبعد المرآة، وإن كانت الفترتان: قبل المرآة والمرآة يسيطر عليهما النظام الخيالي – خاصة فترة المرآة تقع في قلب سجل الخيالي– بما يشتمل عليه من صور، وعُقَد، وتَعيُّن خيالي، إلا أنه بداية محورية، واستهلال لا مفر منه لدخول الطرف الثالث وهو الأب

عبر مُركَّب أوديب، والصورة الأبوية، وعُقدَة/مُركَّب الخصاء، والذي يُمكِّن الذات من الولوج إلى العالَم الرمزي.

كما استطاع **لاكان** من خلال مرحلة المرآة – أيضاً – أن يفسر كيف، ولماذا لا توجد الأنا منذ البداية؟، وذلك لأن الفترات المرآوية تُبيِّن أن الأنا خيالية – صورة مرآوية – وهذا ما يتفق مع مفهوم النرجسية في الخطاب الفرويدي، حيث أكد **فرويد** على أن وحدة الأنا لا توجد في الفرد منذ البداية (١٣٥: ٣٣).

وبهذا فإن مرحلة المرآة تُمثِّل مرحلة تصورية بحتة، يسيطر عليها الخيال قبل أن تصبح نقطة انطلاق لتكوين الأنا، وينتج عن الصورة المرآوية الناتجة عن تلك المرحلة عمليتان أساسيتان وهما: إدراك الطفل لوجوده ككائن يتحدد بالنسبة للآخر، وبداية عملية التعيين الذاتي بالآخر (٧١ :٥١-٥٢).

الفترات البنيوية لمرحلة المرآة:

أكد **لاكان** على الدور الفاعل الذي تمارسه المرآة في تَشكُّل الأنا، وما يستتبعه ذلك من انبناء للذات، فلقد اهتم بتحديد الفترات البنيوية التي يحدث فيها هذا التَشكُّل، وعند تناول الفترات التي تمر بها مرحلة المرآة يتضح أن **لاكان** قد حدد ثلاث فترات أساسية لتلك المرحلة، وهي: الفترة قبل المرآوية، وفترة (مرحلة) المرآة، والفترة بعد المرآوية، أو الفترة التي يتم فيها الانتقال من المستوى الخيالي – والذي تُسيطر عليه الصورة، ووهم الاكتمال – إلى المستوى الرمزي، حيث تنخرط الذات في الوجود الاجتماعي بما هو ثقافة وقانون، بما هو لغة ورمز، ويحدث ذلك بأن يتم تسجيل الذات في سجل الرمزي – بعد أن كانت تُعاني التيه، واللاتمايز في سجل الخيالي – عبر ظهور الطرف الثالث – الأب – ليضع نهاية للعلاقة الثنائية – بضروبها المختلفة – الخيالية، ويتم ذلك من خلال مُركَّب أوديب، وخصاء الذات (عُقدَة/مُركَّب الخصاء يقوم بعمليتي خصاء – وحتماً يضطلع الأب بهذا الدور بوصفه القانون – يتمثلان في خصاء الأم، ثم خصاء الذات، وهذا ما سيأتي عليه الباحث لاحقاً).

*** الفترة قبل المرآوية، والواقع المستحيل:**

حدَّد **لاكان** الفترة قبل المرآوية – باعتبارها الفترة الأولى من الفترات البنيوية لمرحلة المرآة – في الأشهر الستة الأولى من حياة الرضيع، ووصفها بأنها الفترة التي يخبر فيها الرضيع جسده أجزاءً مفتتة، وصوراً ذهنية، ولا يكون لديه إحساس بالكينونة كوحدة كلية Totality، أو فردية Individual، وذلك لعدم النضج العضوي عند الميلاد، ولقد وصف **لاكان** هذا العجز بأنه نقصان في اتساق جهاز الطفل الحركي، وسمَّى تلك الفترة بـ الصفر Zero، أو الخُلوّ/الغُفْل Blank (٢: ٧٩) .

ونظراً لهذا النقص الشديد في التكامل العضوي الذي يصاحب ميلاد الطفل الإنساني، فإن الطفل يتكوَّن لديه – نتيجة لهذا النقص – فكرة الجسد المُمزَّق، حيث يستشعر العجز وعدم القدرة في السيطرة على جسده المُمزَّق، ولا تستطيع – أيضاً – مرآة الأم – وجهها، ونظرة العين – التحكم في هذا القلق المُسيطِر على الطفل (٨١ : ٦١).

وحيث إن الرضيع – في هذه الفترة – يكون بمثابة تجميع غير متسق لإمكانيات طبيعية، يهدف – أي هذا التجميع غير المتسق – إلى مساعدة الرضيع على الحياة في البيئة المحيطة به، فلقد دفع ذلك بـ **لاكان** إلى التأكيد على العجز المولِدي الخاص الذي يتصف به الرضيع، والنقصان في التكامل البدني الذي ما يَنِي يعاود الظهور – في حياة الفرد المقبلة – عبر تخييلات سادية، ومازوخية، وأحلام الجسد المُمزَّق (١٨٧ : ١٩).

ولقد ساوى **لاكان** التخييلات الأولية الأساسية للطفل – والتي تُشكِّل الإدراك الأولي عند الطفل؛ كنتاج لتأثيرات العَالَم الخارجي البصرية، واللغوية، والموضوعات التي يخبرها، والخبرات التي يعيشها – مع أول طبقة للواقع، ومن ثم جَعَل الواقع يترادف أساساً مع إدراك الفرد، كما قدَّم مفهوم الواقع المستحيل الذي لا يمكن استرداده على المستويين: الذاتي والرمزي (٢ :٨٠).

*** الفترة المرآوية (مرحلة المرآة)، والخيالي المُغَرِّب:**

تبدأ تلك الفترة – مرحلة المرآة – مع الشهر السادس من عمر الطفل الرضيع، نتيجة لتمايز سطح النظام النفسي على نحو تدريجي، حيث يبدأ الطفل الرضيع في الإدراك، ويقيم صلة بالعالم الخارجي المحيط به، ويتعرَّف على صورته في المرآة – (يتضح أن الرضيع يُدرِك – في بادئ الأمر – الصورة المرآوية **الشبيه** على أنها آخر، لذا يوجه نحوها عدوانية، ولكن عبر وجود الوسيط – الأم أو أي شخص آخر – يتم التعرف على الصورة المرآوية كونها صورته، ومن هنا تتحول العدوانية التي يوجهها الطفل الرضيع نحو الصورة كونها آخر إلى افتتان **شبق** كونها أنا، أو بالأحرى أنا مثالياً، ويتبيَّن من هذا التناقض الوجداني – المتمثِّل في الشبق والعدوان، الذي يصبغ علاقة الأنا بالصورة المرآوية – العلاقة النرجسية – والتي تُعَد من أهم خصائص بنية النظام الخيالي – بالصورة المرآوية، والتي تَتمثَّل في كل مظاهر التعيين الذاتي الخيالي، ومن الجدير الإشارة إلى أنه ليس بالضرورة أن تكون المرآة واقعية، فعبر الأقران **الآخر** يمر الطفل الرضيع بالخبرة نفسها، أو الفترة الممثلة لمرحلة المرآة) – فينتابه شعور عام بالزهو والفرحة؛ حيث يصبح الابتهاج بالصورة المرآوية علامة هامة ومميِّزة لبداية المرحلة المرآوية (٢:٨٠).

وكما وضَّح **لاكان** مع الشهر السادس، وحتى نهاية الشهر الثامن عشر تكون مرحلة المرآة، حيث يحدث التعيين الذاتي بالصورة المرآوية، والتي تُمثِّل شكلاً تجبيرياً يجمع أجزاء الأعضاء في شكل كلي، أي جسد ينتمي إلى الذات مُحققاً مِلكية وهمية (٩٤:٢٧).

ولقد أكد **لاكان** على أن ما يسمح للطفل أن يمر من الفترة قبل المرآوية السلبية إلى المرحلة المرآوية الإيجابية ليس النضج الفسيولوجي، والقدرة على الضبط الحركي، وإنما سيادة العجز الفسيولوجي، والذي يسميه **لاكان** البؤس الأصلي (٢: ٨١).

ويمكن للباحث – للوقوف على الرؤية اللاكانية لفترة مرحلة المرآة – تَتَبُّع الكيفية التي تَحدُث بها مرحلة المرآة كالآتي:

١ . إذا ما وضع الطفل أمام صورته في المرآة فإنه يدركها كغريب، لذا سيوجه إليها شكلاً من أشكال العدوانية، ولا يتحتم أن يكون هناك مرآة فعلية، فيمكن ملاحظة السلوك نفسه مع أي شخص حقيقي يقترب من الأم (وهذا ما اتضح عند تناول عُقدة الاقتحام، والصورة الأخوية).

٢ . عن طريق الأم، أو أي وسيط آخر يتم تَعرُّف الطفل على صورته من خلاله، حيث يأتي التَعرُّف بالصورة المرآوية من الخارج.

٣ . بعد تَعرُّف الطفل على الصورة المرآوية، وإدراك أنها ليست طفلاً حقيقياً بل هي صورته يحدث ما يُسمَّى بـ **الافتتان بالصورة** Capture Image، حيث يتعيَّن الطفل بها، وترجع مظاهر الابتهاج لدى الطفل إلى إدراكه لتكامل الصورة، ذلك التكامل الذي يساعده في تحقيق السيطرة على قلق الجسد المُمزَّق، ويُعَد هذا أول مؤشر من مؤشرات تسجيل الأنا عبر الصورة وفقاً للنظام الخيالي.

٤ . سريعاً ما يدرك الطفل أن الصورة المرآوية مجرد صورة، وهي تُمثِّل صورته، فتتكشَّف الصورة الكلية للبدن، وتبدأ هوية الأنا في الظهور، حيث تنشأ العلاقة بين العَالَم الداخلي للطفل وعَالَمه الخارجي المحيط به (٢٨ : ٤١)،(٨١ : ٤٩-٥٠).

وتَتمثَّل أهمية مرحلة المرآة في أهمية مزدوجة: إيجابية وسلبية معاً، فأهميتها الإيجابية تَتمثَّل في كونها تُمثِّل الخطوة الأولى نحو اكتساب كلية وظيفية للذات، بينما تَتمثَّل أهميتها السلبية في كونها تفتح السبيل أمام ضرب من الاغتراب، ومن ثم الانقسام، وبهذا تُعَد المرحلة المرآوية التمهيد – عن طريق وظيفتها البنيوية – لكل ضروب الجَدَل بين الذاتية والاغتراب، إنها بمثابة مرحلة تَوَحُّد (تَعيُّن) نرجسي اغترابي تَسِم مجيء الذاتية إلى الحياة الإنسانية من حيث هي بنيان للأنا في اتجاه الاغتراب (٢:٨١).

ومن هنا يتضح أن الأنا تتكون من خليط من الاندماجات والتوحُّدات الخيالية،

حيث يكون الاستلاب الخيالي - (عبر التعيُّن بالشبيه، الصورة المرآوية) - هو المُميِّز لمرحلة المرآة، بحيث تكون هناك بارانويا موجهة إلى صورة الشخص في المرآة التي تُمثِّل - في الوقت نفسه - صورة لآخر، تلك الصورة التي ترهنه، وما عليه إلا أن يتطابق معها، ويندمج فيها، ويتعيَّن بها (٧٨:١١٢-١١٣).

*** الفترة بعد المرآوية، والرمزي المؤسِّس للإنسانية:**

إذا كان **لاكان** قد موقَع الفترة قبل المرآوية في سجل الواقع المستحيل استرداده، فإنه يموقع فترة مرحلة المرآة في سجل الخيالي، ذلك السجل الذي يُبنى عن طريق التمثُّلات المكانية (وعادة البصرية)، أما الفترة بعد المرآوية، والتي تبدأ مع إحلال العناصر الرمزية، ودخول اللغة، والانتقال إلى الثقافة من الطبيعة، فلقد موقَعها في سجل الرمزي، حيث يكون الانتقال من التفردية الخيالية إلى الكونية الرمزية، والذي يحدث عبر التعيُّن مع صورة الشريك المقابل ودراما الغيرة الأساسية، هذا الجدل الذي يربط منذ ذلك الحين - فصاعداً - الـ **أنا** I بمواقف تتم صياغتها اجتماعياً (٢:٨٤).

فمع انتهاء فترة مرحلة المرآة، وانتقال الطفل إلى الفترة بعد المرآوية، يكون الدخول في الصراع الأوديبي، وتكون بداية بزوغ ضرب من الاستخدام المتماسك للغة، فعوضاً عن معاملة الصور الذهنية الخيالية كما لو كانت واقعية - (وهذا ما أتى عليه الباحث عند تناول فترة مرحلة المرآة، كما تبيَّن - أيضاً - عند تناول تشريح الخيالي وما يشتمل عليه من صور: صورة الأم (ثدي الأم)، وصورة الشبيه، وصورة الإخوة) - يبدأ الطفل في الفترة بعد المرآوية بتمثُّلها - أي تلك الصور الخيالية - في كلمات، ومن ثم يمر من حالة الطبيعة إلى الثقافة، وتحل العناصر الرمزية (أي المتمايزة)، والقدرة على تسمية الأشياء محل العناصر المتخيلة في ضرب من إعادة التشكُّل التوحُّدي للذات (٢:٨٢).

وتتصف الأنا المرآوية - وحتى في الفترات بعد المرآوية - بقدر كبير من العدوانية، تلك العدوانية التي تتجه لأنفسنا وللآخرين، والتي تُشعرنا بالانقسام، وعلى هذا النحو يقع الإنسان بين شقي رَحى التمزُّق والاغتراب، وينطبع أناه بوهم الكمال

من خلال رابط خيالي يجمع أشلاءه عبر الصورة، والقبض عليها في المرآة، وتظل العدوانية في حال من التواصل والتحفز، ويظل الأنا في حالة من التوتر، والتوجس، والاضطهاد. وعبر النظام الرمزي تحاول الأنا أن تتحرر من الانقسام والتوجس؛ حيث تساعد الوظيفة الرمزية على التسامي بالعدوان النرجسي (٨٣ :٥٠)،(١٥٩ : ٢).

وترجع العدوانية – وكما أشار إليه **لاكان** – إلى فترة مرحلة المرآة بنرجسيتها حيث الافتتان بالصورة المرآوية، فالعلاقة بين الأنا والشبيه تكون علاقة نرجسية، تلك النرجسية التي تُمثّل خاصية من خصائص النظام الخيالي (١٤١ :٨٢).

وإذا كانت الأنا مُستلَبة في الصورة المرآوية التي تُفتَن بها بقدر ما تَحمِل لها من عدوانية، وإذا كانت هذه الأنا تتشكّل في قلب النظام الخيالي، وتحتوي بداخلها على نرجسية تمثّل ذلك المدد للكلية، ووهم القدرة المطلقة، وإذا كانت – أيضاً – تلك النرجسية غير موجودة منذ البدء – وذلك ما تبيّن عند التعرض لطبيعة الجسد المُمزّق، وعدم التآزر الذي يمثّل الواقع الذي يعيشه الطفل في الفترة قبل المرآوية، وما يتبعه من قبض على الصورة الكلية، والتي يتعيّن بها الطفل تعيُناً أولياً خيالياً في الفترة المرآوية – فإنه يتوجب على الباحث عرض مفهوم النرجسية في الخطاب اللاكاني – كونه عنصراً فاعلاً في نسج بنية النظام الخيالي – وذلك للوقوف على كيفية ظهور تلك النرجسية، وعلاقتها بالصورة، ودورها الفاعل في الشبق والعدوان، وكيفية تناول كل من الخطاب الفرويدي، والخطاب اللاكاني للمفهوم.

(ب) النرجسية :The Narcissism

النرجسية والخطاب الفرويدي.. إطلالة:

يرجع الاستخدام الأول لمفهوم النرجسية إلى **هافيلوك إليس** Havelock Ellis، حيث استخدمه في سياق الطب النفسي وذلك عام ١٨٩٨، ثم قام **سادجر** Sadger بإدخاله كمفهوم في التحليل النفسي عام ١٩٠٨، ولقد علّق **فرويد** على مقال **سادجر**، والذي تناول فيه مفهوم النرجسية قائلاً: ملاحظات سادجر ذات العلاقة بالنرجسية تبدو لي جديدة وصحيحة (٩:١٦).

وكانت الإشارة الأولى لمفهوم النرجسية في الخطاب الفرويدي عام ١٩١٠ بمثابة هامش أُضيف للمقالة الأولى المعنوّنة بـ **الانحرافات الجنسية**، والتي تضمنها مؤلّفه **ثلاث مقالات في نظرية الجنسية**، حيث استخدم مفهوم النرجسية لتبيان أساس السلوك الجنسي غير السوي لدى المنحرفين جنسياً، وذلك بتأكيده على أن هؤلاء المنحرفين جنسياً يمرون في سنوات طفولتهم الأولى بمرحلة عنيفة – رغم قصرَها – من التثبيت على امرأة (هي أُمهم عادة)، وأنهم يتوحدون فيما بعد بامرأة، ويتخذون من أنفسهم موضوعاً جنسياً لهم. أي أن أساس سلوكهم نرجسي، فهم يبحثون عن يافع شبيه بهم فيحبونه كما أحبتهم أمهم (١٢٠:٥٦).

وفي دراسته التحليلية لشخصية **ليوناردو دافنشي** Leonardo da Vinci–والتي أخرجها في بداية أبريل عام ١٩١٠ في كتاب حَمَلَ عنوان اسم هذا الرسام (الفنان والمفكر الشمولي) الشهير – استخدم **فرويد** مفهوم النرجسية، وأشار أيضاً إلى الأسطورة اليونانية **نرجس** Narcissus، وذلك في تناوله للسلوك الجنسي المنحرف لدى **دافنشي** – كما ذهب إليه **فرويد** – والذي تمثّل في الجنسية المثلية، حيث يقول: بكبت الطفل حبه لأمه يتخذ نفسه كبديل لها بل يتقمّص شخصيتها، ثم يقيم من نفسه نموذجاً يستطيع أن يختار به حبه الجديد، ويتحول لوطياً بهذه الطريقة... يختار مادة حبه على الطريقة النرجسية، التي فَضّل فيها نرجس انعكاس نفسه على أي شيء آخر (٧٩:٥٤).

وفي دراسته لحالة الرئيس **شريبر** Schreber عام ١٩١١ واصل **فرويد** استخدام

مفهوم النرجسية بالإضافة إلى الجنسية المثلية في توضيح العوامل المسببة للبارانويا، حيث عزى **فرويد** تكوين الأعراض البارانويدية إلى التثبيت على المرحلة النرجسية من نمو الليبيدو، والذي يدفع إلى الكبت، وحيثما يكن التثبيت عميقاً تكن عودة المكبوت أو شدة الطفح الليبيدي (١٠٨:٧٨)، حيث اعتبر النرجسية في هذه الحالة مرحلة وسيطة في التطور الليبيدي بين الشبقية الذاتية وحب الموضوع (٨٣٤:٣٠).

وفي متابعته لاستخدام مفهوم النرجسية باعتبارها مرحلة ثالثة وسيطة في تطور الليبيدو، وتوظيفه في الذات والموضوع تناول **فرويد** المفهوم عام ١٩١٣ بتطبيقه على نفسية المتوحشين والعُصابيين، وذلك في كتابه **الطوطم والتابو** (المُقدَّس والمُحرَّم) في مقالته الثالثة **الأرواحية والسحر وطغيان الأفكار**، حيث أشار إلى أن الدوافع الجنسية المتفرقة سابقاً تتجمع في وحدة واحدة، كما تجد موضوعها، لكن هذا الموضوع ليس خارجياً غريباً عن الشخص، بل هو الأنا الخاصة التي تكونت في هذه الأثناء، سوف يتصرف الشخص كما لو أنه عاشق لذاته، وهذا ما يُسمَّى بالنرجسية، فالمرء لا يتخلى أبداً بصورة تامة عن الطور النرجسي، فالإنسان يبقى إلى حد معين نرجسياً حتى بَعد أن يكون قد وَجَدَ مواضيع خارجية لليبيده...ومن هنا توجد علاقة بين التقدير العالي للأفعال النفسية لدى البدائيين والعُصابيين، وبين النرجسية، حيث يُعَد هذا التقدير العالي كجزء أساسي من النرجسية (٥٥ :١١١-١١٢).

وفي عام ١٩١٤ يخصص **فرويد** مقالاً خاصاً حمل عنوان **في النرجسية: مَدخل** On Narcissism: an Introduction، وفي هذا المقال – وكما بيَّن **حسين عبد القادر** – ينتقل المفهوم نقلة كيفية، إذ لا يَقنَع – أي **فرويد** – بالكشف عن النرجسية بل يُبيِّن معنى الواقعية ضمن نظرية التحليل النفسي، ويشير إلى النرجسية الأولية باعتبارها حالة تُبيِّن في حالات الفصام، وهذاء العظمة (البارانويا)، حيث يسحب المريض الليبيدو من الموضوعات، ويستثمرها في أناه (٨٣٥:٣٠).

حيث أشار **فرويد** إلى وجود نرجسية أولية في كل شخص، والتي تعلن عن

نفسها في بعض الأحيان بشكل غالب في اختياره لموضوعه. كما أشار إلى نوعين من توظيف الليبيدو، فإما أن يتم توظيف الليبيدو في الذات، أو في المرأة التي قامت بالرعاية أثناء الطفولة (٨٤:٥٧).

ويكون الإخفاق في التعيين الذاتي بالآخر مُمثّل النسق القيمي – والذي يُمثّله الوالد، أو القيم الوالدية – توكيداً نرجسياً للحاجات الفردية، والنزعات التسلطية، في محاولة لفرض قيم فردية خالصة (٣٤).

وفي تناوله لعرض مراحل تطور مفهوم النرجسية في خطاب التحليل النفسي الفرويدي – قبل أن يتناولها **لاكان** ليُعيد توظيفها في نسج نظريته، لتصبح من أهم خصائص النظام الخيالي، والإطار الذي يُطوّق مرآة الأنا التي تنطبع عليها – أي المرآة – أنا مثالي Ideal Ego يتَعيّن بها الطفل في تَعيُّنه الأولي، والذي معه يَشعر بالاكتمال والقدرة المطلقة – يشير **حسين عبد القادر** إلى مرحلتين في استخدام المفهوم من قِبَل **فرويد** كالآتي:

المرحلة الأولى: كان تناول **فرويد** لمفهوم النرجسية في ضوء النظرية الأولى في الدافع الغرزي، وبخاصة ما بين ١٩١٠ و ١٩١٥ منذ أن طرح المفهوم لأول مرة، وحتى مقالته عن حالة بارانويا اعتبر **فرويد** النرجسية الأولية أول توحُّد للأنا، وتقع بين الشبقية الذاتية وحب الموضوع. فهي بذلك تلك الحالة المُبكرة التي يقوم فيها الطفل باستثمار كل الليبيدو في ذاته هو، بينما تشير النرجسية الثانوية إلى ارتداد الليبيدو من الموضوعات التي كان يُستَثمَر فيها للأنا مرة أخرى.

المرحلة الثانية: مع الإرهاص بظهور نظريته الثانية عن الجهاز النفسي مال **فرويد** للتعبير عن النرجسية الأولية باعتبارها حالة أولية من النمو سابقة على تَشكُّل الأنا، ويُمثّل الشكل الأوقيانوسي (الحياة الرحمية) نموذجها الأوائلي، حيث رأى أن النرجسية الأولية إنما هي حالة أولية تشير إلى غياب العلاقة مع الموضوع، والتي تتميّز بحالة من اللاتمايز ما بين الأنا والهو، في حين رأى النرجسية الثانوية – والتي تعاصر تكوين الأنا من خلال توحُّده بالآخر – هي استعادة الأنا ليبيدو الموضوع Object Libido ثانية لتستثمره في الأنا (٨٣٥:٣٠).

النرجسية والمرايا اللاكانية...تجليات الصورة:

اتضح عند تناول بنية النظام الخيالي – والمُتمثِّلة في تشريح وحيوية الخيالي – الدور الفاعل الذي تمارسه الصورة في تَشكُّل تلك البنية، والتي عبرها يتم – أيضاً – تَشكُّل الأنا وانبناء الذات، سواء أتمثَّلت تلك الصورة في صورة الأم الساكنة في قلب عُقدَة الفطام؟ أم صورة الإخوة، والتي تشتمل عليها عُقدَة الإقحام؟، وعند تناول مرحلة المرآة – كونها النسج الأساس في النظام الخيالي – واستعراض فتراتها/مراحلها الثلاث: قبل المرآوية، والمرآوية، وبعد المرآوية تَبيَّن ما تمارسه الصورة المرآوية على الأنا من أسر وافتتان، هذا الافتتان الذي أعاد به **لاكان** قراءة مفهوم النرجسية في الخطاب الفرويدي.

وتُمثِّل المرايا اللاكانية المرحلة الثالثة في تطور مفهوم النرجسية وفقاً لما ذهب إليه **حسين عبد القادر** – وكما بيَّنه الباحث آنفاً – حيث يشير **عبد القادر** إلى أن **لاكان** قد أقام همزة وصل بين اللحظة الأولى في تكوين الأنا وبين تلك التجربة النرجسية الأساسية التي أُطلِق عليها اسم مرحلة المرآة، حيث يُعرَف الأنا – الذي يُمثِّل تشييئاً للذات – من خلال التوحُّد بصورة الآخر (٣٠: ٨٣٥)، وهذا الإدراك النرجسي للآخرين لا يُخرِج المُدرِك من عزلته، فما الآخر بالنسبة إليه إلا شبيه، صورة كصورة المرآة أو كرجع الصدى (١١٦: ١١١).

ومن هنا يتلاقى – بل يتطابق – مفهوما النرجسية – في الخطاب الفرويدي – والصورة المرآوية – في الخطاب اللاكاني – في إيضاح كيفية تشكُّل الأنا، حيث أشار **فرويد** في مقاله – الأساس – عن النرجسية – والذي سبق الإشارة إليه – **في النرجسية: مدخل** إلى أن الوحدة المُساوية للأنا لا يمكن أن توجد لدى الفرد منذ البدء، إذ إن الأنا لابد أن ينمو، وبهذا فإن **لاكان** قد اتفق مع **فرويد** بمفهومه عن أصل الأنا في مرحلة المرآة، والتي تُبيِّن كيف ولماذا لا يوجد الأنا منذ البدء (١٣٥: ٣٣).

ويمكن للباحث الاستناد إلى رؤية **عبد الله عسكر** لمفهوم النرجسية – وذلك

للوقوف على التباين بين الخطابين: الفرويدي، واللاكاني في تناولهما للمفهوم – والتي يطرحها في مرجع **مدخل إلى التحليل النفسي اللاكاني** ، حيث يشير **عسكر** إلى أنه في حين رأى **فرويد** أن النرجسية هي التوظيف الليبيدي في الأنا، وبالتالي فهي الحب الموجه إلى صورة الذات، وأي موضوع يعكس نرجسية الذات سيكون موضوعاً للحب، فإن **لاكان** نظر لها – أي النرجسية – نظرة مختلفة، حيث اعتبرها الانجذاب الشبقي للصورة المرآوية، وهذه العلاقة الشبقية بالصورة تُحدِّد التوحُّد الأولي بالتشكيل المرآوي الصوري للأنا، وبهذا فإن النرجسية وفقاً لـ **لاكان** – وكما يذهب إليه **عسكر** – تُشكِّل محنة البقاء في دائرة الصورة والافتتان بها دون الدخول في دائرة الصوت التي تُشكِّل صورة الآخر الرمزي، الذي ينتشل الفرد من أَسره في صورته إلى نسج علاقة بآخر خارجي (٨١ : ٦٥-٦٦).

كما أشار **عسكر** إلى أن النرجسية تحمل كلاً من الخصائص الشبقية والعدوانية، فمن ناحية تحتوي النرجسية على بُعد شبقي حياتي لاذٍّ حين يُفتَّن الفرد بصورته المرآوية، أو أي موضوع يعكس هذه الصورة، وفي جانب آخر تحتوي على بُعد عدواني مدمِّر حين تتعارض هذه الصورة المرآوية المتكاملة مع أخاييل الجسد المُفتَّت أو المُمزَّق، والتي تهدد ذاتية الفرد بعدم التكامل، والذي قد يفضي إلى **العدوان النرجسي الانتحاري** Narcissistic Suicidal Aggression (٨١:٦٦) .

وبهذا فإن النرجسية تحمل ذلك التناقض – أي العدوان الشبقي – والذي يستمر كتناقض أولي ضمن كل أشكال التعيين الذاتي اللاحقة، والذي يجعل النرجسية تستطيع – وببساطة – تغيير الاتجاه من الافتتان بالذات إلى النقيض حيث العدوان النرجسي الانتحاري (١٤١:٦) .

حيث يرى **لاكان** أن العلاقة الثنائية تُخلِّف تأزماً يشكل مصدراً للعدوانية عند الإنسان في التعامل مع الآخر، حيث إن طاقة الأنا تنبعث من الشعور النرجسي، فمبدأ العدوانية كانفعال يكون ملازماً للنرجسية (١٦٣:١٦)،(١٣٥:٤٣) .

وتُمثِّل العدوانية Aggressivity واحدة من القضايا المركزية التي عرضها الخطاب اللاكاني منذ عام ١٩٣٦ وحتى عام ١٩٥٠، وأول ما تميز به الخطاب اللاكاني هو ذلك الاختلاف الذي وَضَّحه بين العدوان Aggression(*) من حيث كونه إشارة إلى الأفعال العنيفة بأشكالها المختلفة، والعدوانية كونها العلاقة الأولية المُشكِّلة لأساس – ليس فقط – الأفعال العنيفة بل العديد من الظواهر الأخرى، فخطاب التحليل النفسي اللاكاني أتى بحقيقة مؤداها أن العدوانية تُمثِّل العلاقة الأولية المشكِّلة لأساس فعلي الحب والعنف (١٤١:٦).

ويتجلى اهتمام **لاكان** بمفهوم العدوانية عبر تلك المقالة شديدة الأهمية التي تقدَّم بها كتقرير نظري للمؤتمر الحادي عشر للمحللين النفسيين الفرنسيين عام ١٩٤٨، والذي حمل عنوان **العدوانية في التحليل النفسي** Aggressivity In Psychoanalysis، حيث كشفت الرؤى اللاكانية عن العدوانية كونها مُشَكِّلة لأساس فعلي العنف والحب، تلك العدوانية التي يتحدد موقعها في العلاقة الثنائية بين الأنا وقرينها المرآوي، فالعدوانية هي العلاقة الأولية الثنائية بين الأنا والشبيه (٨١ : ٦٧)،(١٧٨ :٢٧)،(١٤١ :٦).

حيث تكون العدوانية الطاقة الدافعة تجاه عنف الشكل المتخيل للجسد، فهي

(*) تسكن المفردة **عدوان** في لغتنا حاملة تعددية المعنى؛ فمادة **عَدا** ومنها عَدْواً أي جرى وتقدَّم، **وعَدَاءً** وعُدْواناً أي ظلم وتجاوز الحد، ومنها العُدْوان؛ فيقال لا عدوان على فلان أي لا سبيل ولا سلطان عليه (١٠٠ :٤١٠)، فاللفظة إذن تحمل دلالات متعددة: فهي التقدُّم والتحرك إلى الأمام، وهي في الوقت ذاته الظلم والتعدي، وهي ثالثاً الخروج على النظام والسيطرة، وعدم الرضوخ للقانون، وكأن اللفظة **عدوان** تشير – عبر دلالاتها المتكثرة – إلى كلا النظامين: الخيالي والرمزي، فإذا كان عدواناً في **سجل الخيالي** كان التعدي وكسر القانون، حيث تكون أخاييل الجسد الممزَّق، ووهم القدرة المطلقة، أما إذا كان عدواناً في **سجل الرمزي** كان التقدم والتواصل الجدلي مع الآخر عبر اللغة، وهذا ما يتضح عند دخول الأب – كطرف ثالث عبر الاستعارة الأبوية – لينتشل الطفل من بئر نرجسيته الذي أسقطته فيه تلك العلاقات الثنائية والتعيين الأولي الخيالي.

ليست دفاعاً عن الوحدة المثالية للذات، بل دفاعاً ضد تلك المثالية عندما تهدّد بفقدان وحدة الذات (١٤١ :٦)،(١٣٥ :٣٩).

ويشير **عبد الله عسكر** – في مرجع **مقدمة في التحليل النفسي** – إلى أن العدوانية هي طاقة دافعة للنمو النفسي تعمل على ارتقاء الذات في علاقتها بالموضوع، حيث تُمثّل أهم مظاهر الرغبة الإنسانية التي تَشكّلت عبر العلاقة بالموضوع، والتي تبدأ مع الميلاد الفعلي للشخص، وتتبدى في الصرخة أيضاً بشكل موجه إلى الاستعداء بالآخر، أي طلب عونه، وعداوة التوتر أي كراهيته (٧٩ :١١٨).

وبهذا فإن العدوانية تعمل على المستويين: الخيالي والرمزي، فعلى **المستوى الخيالي**: يكون العدوان بمعناه الحرفي موجهاً نحو الذات، مُعثّراً لها في ولوج النظام الرمزي، وأيضاً موجهاً نحو الآخر الذي يجعله يدرك تمزقه وعجزه، أما على **المستوى الرمزي**: فتكون العدوانية محاولة لهدم وحدة الأنا الخيالي، ذلك الأنا المُغتَرِب الواهم، والذي يقاوم كل نمو وتغير نحو الشعور بالذاتية (١٣٥ :١١٧).

وإذا كان الباحث قد أتى – بالتوضيح – على عدة مفاهيم رأى – في حدود فهمه ورؤيته – أنها تُمثّل بنية النظام الخيالي والتي تَمثّلت في: تشريح الخيالي، وحيوية الخيالي، ووظيفة الخيالي من جانب، ومرحلة المرآة بفتراتها الثلاث، والنرجسية ببُعدَيها من جانب آخر، فإن هناك ضرورة ملّحة، وهي التعرض لمفهوم **التعيين الذاتي** Identification في الخطاب اللاكاني، وذلك للوقوف على كيفية حدوث تَشكُّل الأنا – كما تَبيّن آنفاً في النص السابق – من خلال تلك الصور الخيالية، والتي مهدت لانبثاق النرجسية.

وبداية يجب الإشارة إلى أن **لاكان** أكد على الدور الفاعل للصورة في التعيين الذاتي، حيث أحال – أي **لاكان** – التعيين الذاتي إلى تَمثُّل الصورة، وما يستتبع هذا التَمثُّل من تحوُّل يطرأ على الذات (١٦٤ :٩٤).

ولقد ميّز **لاكان** – (عبر فترات مرحلة المرآة، ونظامي الخيالي والرمزي) – بين نوعين من التعيين الذاتي وهما: التعيين الخيالي، والتعيين الرمزي؛ حيث اعتبر

التعيين الذاتي الخيالي The Imaginary Identification تعييناً ذاتياً أولياً Primary Identification ينتج عنه بزوغ **الأنا المثالي** Ideal Ego(*)، وبهذا فهو - (أي التعيين الذاتي الخيالي) - الآلية التي تتَشكَّل بواسطتها الأنا في مرحلة المرآة - (كما اتضح سابقا) - بحيث تتأسس الأنا بالخارج - (في الصورة المرآوية/الشبيه، أو في صورة الإخوة/المنافس، وقبلهما في صورة الأم/ ثدي الأم) - ما يؤدي إلى بزوغ فكرة المنافس، وما تنطوي عليه من عدوان واستلاب - (وبهذا تُعتبَر الأنا في تَشكُّلها لها بنية البارانويا نفسها) - كما اتضح في النرجسية ببُعديها: الشبقي والعدواني، أما **التعيين الذاتي الرمزي** The Symbolic Identification فهو تعيين ذاتي ثانوي Secondary Identification ينتج عنه بزوغ **مثال الأنا** Ego Ideal، وبه - (أي التعيين الذاتي الرمزي) - يتم تجاوز العدوان المصاحب للتعيين الذاتي الأولي الخيالي، ويُمثّل التعيين الذاتي الثانوي الرمزي تعيناً بالأب في المرحلة الثالثة والنهائية في مُركّب أوديب، حيث يُمثّل تسوية ليبيدية، ولقد اعتبر **لاكان** التعيين الذاتي الرمزي تعيُّناً بالدال، وهذا بخلاف التعيين الذاتي الثانوي الذي يُعَد تعيُّناً بالصورة (١٤١ :٨١-٨٢).

(*) ميَّز **لاكان** بين الأنا المثالي، ومثال الأنا، فـ **الأنا المثالي** Ideal Ego في صياغة **لاكان** هي الصورة التي تَزعُمها، والتي تتكون من التعيين الذاتي الأولي الخيالي، ومن هنا فهو يشتمل على خصائص النرجسية، ووهم القدرة المطلقة، وعلى ذلك التناقض - المُمثّل لبعدي النرجسية - الشبق والعدوان ؛ أما **مثال الأنا** Ego Ideal فهو النقطة التي تعطي لك مكاناً، وتمدك بالنقطة التي تنظر منها، وهو بمثابة الوريث لمُركّب أوديب، والذي يُمثّل التسوية الليبيدية الناتجة عن التعيين الذاتي الثانوي الرمزي بالأب في المرحلة الأخيرة من مُركّب أوديب، ومعه يتم الانتقال من النظام الخيالي وعالَم الصورة إلى النظام الرمزي وعالَم الدال.

الموضوع الشبيه بالأنا : Object a

مع الوجود الثقافي للإنسان؛ يظل الصراع قائماً مع الطبيعة البيولوجية للإنسان وموضوعاتها التي ترفض أو تقاوم الثقافة أو التحضر، وهذه الموضوعات تُشكّل القاع المركزي لمقاومة التربية والقانون، وترتبط هذه الموضوعات بالقوة النرجسية المطلقة للخيال الطفلي، وتظل في حالة من الاستنفار والإلحاح، الذي لا يَملُّ في سبيل تحقيق الإشباع والارتياح، وفقاً لقدرتها على تحريك الوجود الثقافي أو الأنا المتكلّم للوصول إلى أهدافها، وتَتمثّل هذه الموضوعات في **الموضوع** أ Object a (٧٨:٨١).

ويشير **عبد الله عسكر** إلى أن الموضوع الشبيه بالأنا أو القرين يتكوّن على المستوى الخيالي، ويُمثّل هذا الموضوع أول أمر داخلي يكون تحت طلب الرغبة، ويَتشكّل من الصورة البدنية للحاجات الإنسانية التي تتمثّل في الطعام، والإخراج، والإفراغ الجنسي بصفة عامة، أو هي موضوعات الطبيعة التي تقفز إلى العالَم الثقافي بالقُدرة الخيالية، وتظل قابعة في النسج اللاشعوري لتُحرّك معظم الأنشطة النفسية الرمزية اللاحقة (٨١ : ٧٩).

ولقد اعتبر **لاكان** الموضوع أ – والذي يسميه أيضاً الموضوع الصغير، أو شقيق الأنا الخيالي – الموضوع المولّد لجميع موضوعات الرغبة، فهو الموضوع الجزئي المفصول أو النفاية، إنه أثر الغرابة ضمن الذات، هو السمة الدالة على قطيعة لا رجعة فيها، ولهذا السبب خص **لاكان** الذات بشطب Barre، وهو العلامة الدالة على الانشطار Spaltung، فهو يبدو كفجوة Hole أو كنقصان Lack، ويمكن تحديد فجوة النقصان Hole Of Lack في تقاطع حقلي الحقيقة والمعرفة (١٧٩: ١٩٨)،(٩٥: ١٩).

فالموضوع أ – (الموضوع الصغير، شقيق الأنا الخيالي) – يُمثّل الصورة الأولى التي يتم بها امتلاء الصدع الناتج عن الانفصال عن الأم، حيث يشير إلى القضيب بمفهومه الرمزي كعلاقة وصل مُميّزة للوحدة المستحيلة بالأم، كما يُمثّل – أي الموضوع أ – أيضاً موضوع النقصان، بمعنى الموضوع المجازي للرغبة (١٧٨: ٣٧٣).

ولقد حدَّد **لاكان** الموضوع أ في أربعة جوانب، وذلك بربطه بالرغبة في مُخطط الرغبة: ففي طلب الآخر The Demand Of The Other يكون الموضوع أ هو **البراز**، وفي طلب جزء من الآخر The Demand On The Part Of The Other يكون الموضوع أ هو **الثدي**، وفي الرغبة في جزء من الآخر The Desire On The Part Of The Other يكون الموضوع أ هو **التحديق**، وفي رغبة الآخر The Desire Of The Other يكون الموضوع أ هو **الصوت** (١٧٩:١٩٩)، ومن هنا اعتبر **لاكان** كل موضوع من تلك الموضوعات الجزئية الأربعة موضوعاً في ذاته، حيث إن الذات تأخذه كموضوع للرغبة (١٤١:١٣٤).

ويمكن للباحث توضيح موضوعات الموضوع أ – الموضوع الجزئي وارتباطه بالحافز الجزئي – في حقلي الطلب والرغبة، ومناطقها الشبقية؛ كما في الجدول التالي:

	الحافز الجزئي *Partial Drive*	المنطقة الشبقية *Erogenous Zone*	الموضوع الجزئي *Partial Object*	الفعل *Verb*
حقل الطلب D	***Oral*** الفمي	***Lips*** الشفتان	***Breast*** الثدي	***Suck*** يمتص
	Anal الاستي	***Anus*** الشرج	***Faeces*** البراز	***Shit*** يتبرز
حقل الرغبة d	***Scopic*** النظاري	***Eyes*** العينان	***Gaze*** التحديق	***See*** يرى
	Invocatory التوسلي	***Ears*** الأذنان	***Voice*** الصوت	***Hear*** يسمع

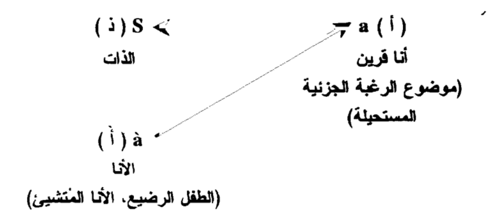
جدول رقم (١) يُبيِّن الموضوعات الجزئية للموضوع أ،
وحوافزها الجزئية، في حقلي الطلب والرغبة

ومن هنا فإن الموضوع الصغير، أو الشقيق الصغير للأنا يَظَلّ رهينة للصورة الخيالية، ويستمد وجوده من تواصل حاجات الإنسان البيولوجية: المأكل، والمشرب، والإخراج، والجنس، وما إلى ذلك، وهو المُمثّل النفسي للغريزة الفرويدية، كما أنه المُسبِّب للقلق لأنه يرفض الوساطة الثقافية (٨١:٨٠).

ويُعَد الموضوع أ بمثابة الموضوع الحقير أو الدون abject وفقاً لوصف **جوليا كريستيفا** Julia Kristeva، حيث تراه – أي **جوليا** – على أنه نوع من الأزمة

النرجسية، أو الفطنة إلى الجوانب الزائلة من النرجسية، فالموضوع الدون – (الموضوع أ) – يعطي النرجسية تصنيفاتها مع الشبيه (١٤:١٦٠).

ويتَكوَّن الموضوع أ، الشبيه بالأنا، أو القرين على المستوى الخيالي في المخطط اللاكاني كما في الشكل التالي:



شكل رقم (٩) يُبيِّن " الموضوع أ " وعلاقته بالأنا والذات، وفقاً للمُخطط اللاكاني

النظام الخيالي...تعقيب:

بعد تناول بنية النظام الخيالي يجد الباحث ضرورة العودة إلى تعليق **جاك آلان ميللر** على النظرية اللاكانية، حيث يقول: إن هذه النظرية تَتميَّز بسيولتها، ما يجعل من العسير إدراك النقطة التي بدأت عندها أو التي انتهت إليها، وإذا ميَّزنا فيها بين مستويات فقد لا نحس بالانتقال من واحد إلى آخر، إنها تنتقل – دون انقطاع – من القول الجازم إلى العبارة المرنة من غير انفصام ولا تَمزُّق (١٩: ٧٩).

وهذا ما تَبيَّن من النص السابق، حيث تتشابك المفاهيم فيما بينها، وتظل في تلك العلاقة الجدلية، أو – والتعبير لـ **ميرلوبونتي** – في صيرورة وديناميةٍ بسبيل التطور، وإذا كان موضوع المتن الأساس هو بنية النظام الخيالي، فإن هذا الخيالي لا يأخذ معناه إلا عبر علاقته بالرمزي، كما أن هذا الأخير يرتبط بالأول بشكل أو بآخر، وكلاهما يتكامل مع الواقع – ليكون دور السنتوم، والموضوع الصغير في تماسك البناء

النفسي، وترابط الأنظمة الثلاثة – لتَكون البنية النفسية للفرد في سوائها أو مرضها عُصاباً، أو ذُهاناً، أو انحرافاً تبعاً لتموضع العلاقة مع الآخر الأكبر.

ويمكن للباحث القول بأن النظام الخيالي هو عالَم الصور شعورية كانت أو لاشعورية، مُدرَكة أو متخيَّلة، كما أن بنيته – أي النظام الخيالي – تشتمل على عدد من العناصر/المفاهيم – تم تناولها من خلال: تشريح الخيالي، وحيوية الخيالي، ووظيفة الخيالي – والتي تَبيَّن أن تَشكُّل الأنا يتم عبرها، وتتمثَّل هذه العناصر في الآتي:

١ . **الصور**: والتي تَمثَّلت في: صورة الأم/الثدي، صورة الإخوة/المنافس، والصورة المرآوية/الشبيه، القابعة في مرحلة المرآة ، والتي – أي مرحلة المرآة – كانت بمثابة المركز للتنظير اللاكاني في النظام الخيالي، فمنها تنبثق: الصورة، والنرجسية، والتعيين الذاتي، وتتشكَّل الأنا في وحدة كلية – عبر الصورة المرآوية – في مقابل الجسد المُمزَّق الذي يعيشه الطفل على المستوى الواقعي، تلك المرحلة المرآوية التي قسَّمها **لاكان** إلى ثلاثة فترات: قبل مرآوية، ومرآوية، وبعد مرآوية ، وإن كانت الفترة الثالثة منها تمهد لدخول الطرف الثالث – أي الأب – لينتقل الطفل من العلاقات الديادية/الإنصهارية – حيث اللاتمايز – والعلاقات الثنائية، وتعييناتها الأولية الخيالية – حيث الوهم، والافتتان، والعدوان – إلى العلاقة الثلاثية، حيث الرمز والتعيين الذاتي الثانوي.

٢ . **العُقَد**: وما تتضمنه من صور، وتَمثَّلت تلك العُقَد في: عُقدَة الفطام، وعُقدَة الإقحام، وعُقدَة أوديب ، وإن كانت الأخيرة – أيضاً على غرار الفترة بعد المرآوية – تتداخل مع بنية النظام الرمزي، حيث تباشير الآخر الأكبر، والانتقال من الطلب بحقله الخيالي إلى الرغبة والحقل الرمزي، حيث تَكوُّن الذات.

٣ . **النرجسية**: والتي تَمثَّلت في الانجذاب الشبقي للصورة المرآوية – سواء

أكانت صورة الطفل في المرآة؟ أم صورة أي آخر؟ – وما تتضمنه تلك النرجسية من شبق وعدوان، وهذا الأخير الذي يسيطر على الأنا، ما دفع **لاكان** إلى التأكيد على البنية البارانوية للأنا، بل ما دفعه إلى تلك الهجمات – الشرسة – على أنصار تيار سيكولوجية الأنا – التيار الأنجلو أمريكي – فما هم بالنسبة إليه – أي بالنسبة إلى **لاكان** – سوى مُغرِّبين للخطاب التحليلي، ولمرضاهم – بالضرورة – في غيابات الجُب النرجسي عبر تدعيمهم لتلك الأنا المستلَبة الواهمة.

٤ . **التعيين الذاتي:** والذي تَمثَّل في نوعه الخيالي، حيث التَعيُّن بالصورة، والذي اعتبره **لاكان** بمثابة التعيين الذاتي الأولي، والذي ينبثق عنه الأنا المثالي.

٥ . **الموضوع الشبيه بالأنا/القرين:** والذي يُمثِّل الواقع المستحيل، أو موضوع الرغبة الجزئية المستحيلة، والتي حَدَّدها **لاكان** في أربعة موضوعات: الثدي، البراز، النظرة، الصوت .

٦ . **اللاشعور:** والذي بيَّنه **لاكان** باعتباره مبنياً على غرار البنية اللغوية، وما كانت دعوته بالعودة إلى فرويد سوى تأكيد على تلك الحقيقة بأن اللاشعور مبني كاللغة، وأن الآلية الوحيدة التي تُمكِّن المحلِّل من كشف/فك الرموز اللاشعورية هي الكلام/اللغة.

إذن – ومن خلال العرض السابق الذي قام به الباحث لبنية النظام الخيالي – فالخيالي يغيب فيه بُعد الآخر، فهو يُمثِّل ملجأ للأنا حين تفشل في استخدام اللغة والانخراط في العالَم الاجتماعي، فالخيالي لا يخلق رغبة، ولكنه يخلق صورة الرغبة الذاتية التي قد تنتهي بتدمير الذات – كما تبَيَّن في مفهوم العدوان النرجسي الانتحاري، على غرار ما حدث لنرجس حيث سيطرة الصورة، وتراجع تأثير الصوت المُمثِّل للدال الرمزي، والذي تحوَّل إلى مجرد صدى، وكأنه انعكاس للصوت، كما انعكست صورة نرجس على صفحة الماء، كي يكون الأسر والغرق في ذلك البئر

النرجسي بأوهام الاكتمال – فبنيته – أي النظام الخيالي – تتَكوّن عبر علاقات ثنائية نرجسية، سواء بصورة مرآوية، أو بالأم إغفالاً للنظام الرمزي، والذي يُمثّله الأب بقوانينه التحريمية، فيكون سقوط العالَم الاجتماعي، والقانون لحساب الخيالي.

وهذا ما يتضح جلياً لدى مدمني المخدرات والمسكرات، حيث يكون الفشل في ولوج النظام الرمزي عبر اللغة، والذي يدفعه – أي المدمن – نحو عالمه الخيالي الهلوسي، رجوعاً إلى التفكك ووهم التكامل، التفكك الذي يدركه في جسده الحقيقي واقعياً، والتكامل الذي يتحقق عبر الصورة المرآوية خيالياً، حيث وهم استعادة الهوية المفقودة، كما تكون اللغة على مستوى قبل لغوي – إن جاز للباحث القول – حيث المونولوج – الحوار الذاتي – بمفردات لغوية خاصة جداً بالمدمن، وكأنه في علاقة جدلية مع الشبيه بالمرآة قوامها العشق/الافتتان والعدوان، خارج النسج الاجتماعي.

في بنية النظام الرمزي On Structure Of The Symbolic Order:

كان ظهور المصطلح **رمزي** في كتابات التحليل النفسي الباكرة لـ **لاكان** - (والإشارة هنا إلى أعمال **لاكان** الباكرة وليس المقصود عمله الأكثر انتشاراً **كتابات** écrits، والذي قام بجمعه تلميذه **جاك آلان ميللر**) - على نحو وصفي، وذلك منذ عام ١٩٣٦، وفي هذه الأعمال الباكرة كان المصطلح يحمل - ضمناً - الإشارة إلى المنطق الرمزي، والمعادلات المستخدمة في الفيزياء الرياضية، ومع العام ١٩٤٨ بدأ **لاكان** يعطي الأعراض دلالة رمزية، ومع العام ١٩٥٠ اتخذ المصطلح معنى أنثروبولوجياً، وذلك عندما أثنى **لاكان** على أعمال **مارسيل موس** Marcel Mauss لتأكيد الأخير على أن بِنى المجتمع ما هي إلا بِنى رمزية، ولقد تم ضم هذه الاختلافات الدقيقة ضمن مقولة واحدة - (أي مقولة الرمزي) - وذلك عام ١٩٥٣ عندما بدأ **لاكان** يستخدم المصطلح رمزي كاسم، حيث أصبح واحداً من الأنظمة الثلاثة المركزية في أعماله - (الخيالي، الرمزي، الواقع) - ويمثِّل النظام الرمزي بالنسبة للتحليل النفسي النظام الأكثر حسماً وأهمية بالمقارنة بالأنظمة الأخرى، حيث إن المحلِّل النفسي يعتمد - وبشكل أساسي - على وظيفة الرمزي (١٤١:٢٠١).

ويُعَد النظام الرمزي من أهم إسهامات **لاكان**، وفيه يتم الانتقال من النظام الخيالي الذي تسيطر عليه الصورة إلى مستوى استخدام الكلمات (الرمز) الذي تسيطر عليه اللغة، حيث يمكن للفرد أن يدخل في علاقة جدلية بينه وبين العالَم الاجتماعي المحيط بكل موضوعاته، فبواسطة الأنا - كدال خيالي - يتكون الدال الرمزي، وبهذا يكون النظام الرمزي هو النظام والقانون، أو خطاب اللغة الأساسي (٨١ : ٩١).

فبلوغ النظام الرمزي هو الذي يجعل من الإنسان إنساناً، ومن ثم فإن أية علاقة إنسانية ذات دلالة تخضع لقوانين النظام الرمزي وتتبعه، فدخول اللغة يفرض نظامها المباشر، ويُقحِم في الآن نفسه انفصال الرمزي عن الخيالي، وذلك بالتخلي عن السلطان المطلق للخيالي (٢:٩٨).

ومن الخطأ التصور بأن النظام الرمزي نتاج من صنع الإنسان أو تكوينه، حيث إن الإنسان نفسه هو مجرد نتاج لهذا النظام الرمزي، فالوظيفة الرمزية هي العلِّة

الكافية التي تحدد كل وجودنا، فهي البنية القصوى التي تتحكم في كل أنشطتنا، وبهذا فإن اللغة وبالتالي الدال لهما السيادة، وتكون الصدارة للكلام عند دراسة الإنسان – (ويتضح هذا جلياً في الشعار اللاكاني العودة إلى فرويد) – وهذا ما يـؤكد عليه **عبد الله عسكر** – كونه ناقلاً/حاملاً للخطاب اللاكاني – بقوله: إن النظام الرمزي هو ذلك النظام الذي يُحدِّد الصياغة الإنسانية والاجتماعية للإنسان، مستشهداً – أي **عسكر** – بكلمات **لاكان** : «إن الطفل البريء لا يدري وهو يلعب بالكلمات كم ستلعب به هذه الكلمات، وتُحدِّد مسار هويته في طريقه للبحث عن ذاته» (٤٥: ١٦٠–١٦١)،(٨١: ٩٠).

ويُمثِّل النظام الرمزي، والذي قدَّمه **لاكان** في تقريره **خطاب روما، وظيفة ومجال الكلام واللغة في التحليل النفسي** عام ١٩٥٣ نتاجاً لتأثره بأفكار عالمي اللغة: **فرديناند دي سوسير** ، **ورومان جاكوبسون** ، وأفكار **كلود ليفي شتراوس** في الأنثروبولوجيا البنيوية، فالنظام الرمزي من وجهة نظر **لاكان** يُعَد – في أحد معانيه – المرادف لفكر **شتراوس** حول القواعد والعلاقات الرمزية التي نولَد فيها، ونتعلم كيف نعمل وفقاً لها (١٣٥: ١٨).

فوفقاً لـ **شتراوس** يُعَد العَالَم الاجتماعي ذا بنية تؤسسها قوانين، تلك القوانين التي تنظم علاقات النَسَب والقرابة، والمُبادَلة، وكما أن الشكل الأساسي للتبادل هو التواصل في حد ذاته كتبادل الكلمات، وكلام الثناء. ومفهوم القانون والبنية لا يمكن التفكير فيهما بعيداً عن اللغة، فالرمزي أساساً هو بُعد لغوي، وهذا ما يتضح في قوله – أي **شتراوس** – بأن أية ثقافة هي مُجْمَل من الأنظمة الرمزية يحتل مكان الصدارة فيها كل من: اللغة، وقواعد القرابة، والعلاقات الاقتصادية، والفن، والعِلم، والدين (١٤١: ٢٠١)،(٢٥: ٢٦٧).

وإن كانت اللغة تقوم بالدور الفصل في النظام الرمزي، إلا أن **لاكان** لم يجعل اللغة مكافئة للنظام الرمزي بشكل مطلق، أو لم يعنِ أن اللغة هي النظام الرمزي، وذلك كون اللغة تشتمل على بُعدي الخيالي والواقع بالإضافة إلى البُعد الرمزي – (وهذا ما سيأتي عليه الباحث عند تناول المُخطَّط اللاكاني ل) – ويتمثَّل البُعد الرمزي

للغة في الدال، وتَتشكَّل عناصر هذا البُعد – (أي البُعد الرمزي) – عبر التبادل (١٤١:٢٠١-٢٠٢).

ويتَميَّز النظام الرمزي بتعارض مزدوج أساسي بين الحضور والغياب، ففي النظام الرمزي غير الموجود يوجد على أساس التسليم بغيابه، ويُعد هذا هو الاختلاف الأساسي بين الرمزي والواقع، حيث إنه ليس هناك غياب في الواقع، فالغياب يكون فقط إذا افترضنا وجود ما هو غير موجود، وبهذا فإن النظام الرمزي عبارة عن نظام مغلق للاختلافات، ويتشابه وقانون الدلالة حيث يمكن استيعابه في اللغة، ولهذا فهو أساس التمييز والاختلافات (١٤١:١)،(١٦١:١١).

ويتجلى – عبر النظام الرمزي – الاختلاف بين كل من: **لاكان** و**فرويد** في موضَعَة حافز الموت وطبيعته؛ ففي حين اعتبر **فرويد** حافز الموت مرتبطاً – وبشكل قوي – بالبيولوجيا مُجسِّداً الميل الأساسي لكل كائن حي في العودة إلى الحالة غير العضوية، كانت رؤى **لاكان** لحافز الموت باعتباره ينتمي للنظام الرمزي من خلال عملية إجبار التكرار، وما دافع الموت سوى قناع النظام الرمزي، وبهذا يكون **لاكان** قد ربط الموت بالثقافة أكثر من ربطه بالطبيعة، كما ميَّز بينه وبين الغريزة باعتبار أن الأخيرة بيولوجية، وبهذا يُعَد الموت هو المُشكِّل للنظام الرمزي؛ لأن الرمز مكافئ لموت الشيء، فهو يقوم مقام الشيء المرموز له، فالرمز هو موت الشيء؛ كما يختلف – أيضاً – مفهوم الرمزي عند **لاكان** عن مفهوم الرمزية The Symbolism عند **فرويد** ، فالمفهوم عند **فرويد** تختلط فيه العلاقة بين الشكل والمعنى، في حين أن المفهوم عند **لاكان** تغيب فيه أية علاقات يختلط فيها الدال بالمدلول (١٤١:٣١-٣٢، ٢٠٣).

وفي توضيحه لكيفية الانتقال من النظام الخيالي إلى النظام الرمزي يشير **إيفانز** إلى أن النظام الرمزي يتميَّز بالبِنى الثلاثية Triadic Structures، في حين يتميَّز النظام الخيالي بالعلاقات الثنائية Dual Relations؛ وذلك لأن العلاقة البينذاتية تسمح لتوسط المصطلح الثالث، وهو الآخر الأكبر The Big Other الذي يتوسط تلك العلاقات الثنائية، ويسمح بالانتقال من النظام الخيالي إلى النظام الرمزي (١٤١:٢٠٢).

وهذا ما يؤكد عليه **عبد الله عسكر** بقوله: إن الطفل في المرحلة الأولى من حياته يكون مرهوناً بالعلاقات الثنائية – العلاقة بين الطفل وأمه – حيث يكون الطفل رغبة أمه، والأم مصدر الإمداد الحيوي والخيالي للطفل، وتكون هذه العلاقة علاقة مباشرة بدون توسط، ومع تطور النمو يبدأ دور الأب – كطرف ثالث – يفصل الأنا عن رغبتها، ويصلها بالعالم الاجتماعي – رغبة الآخر – من خلال اللغة (٨١ : ٩١-٩٢).

إذن – وكما اتضح آنفاً – فالانتقال من النظام الخيالي – عَالَم الصورة – إلى النظام الرمزي – عالِم الدال – يتم عبر توسط الطرف الثالث المتمثّل في الأب بوصفه قانوناً، ومثالاً، ووعداً، بوصفه أباً رمزياً، فاصلاً واصلاً، يُمكّن الذات من أخذ موقع في الوجود، ويساعد على التحول من الطلب بحقله الخيالي إلى انبثاق الرغبة بحقلها الرمزي، وباعتبارها رغبة في رغبة الآخر. لذا لابد من تناول مُركّب أوديب – ذلك الذي ينعته **لاكان** بأنه مُركّب سمو ورفعة – وما يتضمنه من مفاهيم – تَشكَّل معظمها على نحو ثلاثي، وهذا ما سيتبيّن عند تناولها – مثل: مُركّب الخصاء، والاستعارة الأبوية، والقضيب ، والدور الذي يقوم به في بناء الذات.

(أ) مركب أوديب Oedipus Complex:

فرويد والكشف الأوديبي...إلماحة:

تشير **كاثرين كليمان** Catherine B. Cl ment إلى أن **فرويد** أصبح في اتصال مع الواقع الثقافي للأسطورة منذ اللحظة التي انكب فيها على دراسة الأحلام، حيث صادف حكاية أوديب في المسرحية المأساوية – (والإشارة هنا إلى إحدى روائع **وليم شكسبير هاملت**) – بقدر ما وجده في الأسطورة(*) . هذه الحكاية التي تَعرَّف فيها على سيناريو بدا له مشروعاً على المستوى الكوني، ولقد صادف **فرويد** التاريخ الأوديبي عندما كان يُخضِع ذاته للدراسة – (والإشارة هنا إلى شروع **فرويد** في

(*) هي تراجيديا صاغها الشاعر اليوناني **سوفوكليس** في ثلاثية: أوديب ملكاً ، وأوديب في كولون ، وأنتيجون .

التحليل الذاتي) – كما أنه عمَم نظرية أوديب انطلاقاً من ذاتيته الخاصة، ويتضح ذلك من نص رسالته لصديقه **فليس** ، والمؤرخة في ١٥ أكتوبر ١٨٩٧ حيث يقول فيها: «وجدت في ذاتي – كما وجدت في أي مكان آخر – مشاعر الحب تجاه أمي، ومشاعر الغيرة حيال أبي، هذه المشاعر التي أعتقد أنها مشاعر مشتركة بين كل الأطفال الصغار» (٣٩:٩٦).

وفي تناوله لعُقدَة أوديب يشير **حسين عبد القادر** إلى أن تعبير عُقدَة أوديب لم يظهر في كتابات **فرويد** إلا في عام ١٩١٠، وذلك في مقاله **أنماط خاصة من اختيار الموضوع قام به الرجال** ، وكان ذلك المقال ضمن سلسلة مقالاته المُعنونَة بـ **إسهامات لسيكولوجية الحب** ، كما بيّن – أي **حسين عبد القادر** – أن تلك العُقدَة ما هي إلا جملة الرغبات الليبيدية والعدوانية التي يشعر بها الطفل تجاه والديه، وتبلغ ذروتها في الحِقبة بين ثلاث سنوات وخمس سنوات (٣٠ :٥٢٩-٥٣٠).

وتُمثّل العُقدَة الأوديبية المحور الذي يدور حوله كل تحليل نفسي، فمِن هذه العُقدَة تتفرع الأعراض العُصابية، ومِن حلها تبدأ الحياة السوية، وهي المحور الذي تتكون حوله البنية النفسية في كل مشتقاتها، سواء أكانت مسلكية اجتماعية؟ أم إحساسات نفسية داخلية؟ وبهذا تكون النقطة الحاسمة في تطور نمو الإنسان، وفي تركيبته الحضارية (٧١:٧٧،٧٥).

ويُبيّن **حسين عبد القادر** أن عُقدَة أوديب تظهر في العديد من الأشكال، وإن كان **فرويد** – من أجل التبسيط لأغراض علمية – قد تناولها من خلال شكلين: أحدهما إيجابي والآخر سلبي، ففي **عُقدَة أوديب الإيجابية** Positive Oedipus Complex ، يتميّز الطفل بثنائية الوجدان Ambivalence نحو الوالد من الجنس نفسه، وعلاقة الحب الشبقي الحنون بالوالد من الجنس الآخر، ذلك الذي يتناوله الكبت Repression بسبب الصراع الناشيء من اصطدام هذا التعلق بمشاعر الحب، والكراهية، والخوف الذي يشعر به الطفل تجاه الوالد من الجنس نفسه؛ أما **عُقدَة أوديب السالبة** Negative Oedipus Complex ، فهي تعني أن يحل التعلق العشقي محل تلك المشاعر العدوانية التي يستشعرها الطفل تجاه والده من الجنس نفسه، ويضيف **عبد القادر**

قائلاً: بالإضافة إلى هذين الشكلين – الإيجابي والسلبي – لعُقدَة أوديب يوجد شكل آخر يتم الكشف عنه بالدراسة المتعمقة، وهو **عقدة أوديب الكاملة** Complete Oedipus Complex، والتي تتبدى في وجهين: سالب وموجب، وترجع إلى الثنائية الجنسية Bisexuality، ومعها لا يتخذ الصبي اتجاهاً ثنائياً نحو أبيه وعلاقة بموضوع ذات طابع وجداني تجاه أمه فحسب؛ وإنما يسلك في الآن نفسه سلوك فتاة، مُبدياً اتجاهاً أنثوياً ودوداً ناحية أبيه وتجاه الغير، والعداء ناحية أمه، ويشير **عبد القادر** إلى تأكيد **فرويد** على أفضلية افتراض وجود عُقدَة أوديب الكاملة لدى الفرد، وبخاصة لدى العُصابيين (٣٠: ٥٣٠).

وفي تناوله – النقدي الجدلي – لمفهوم العُقدَة الأوديبية (المُركَّب الأوديبي) في خطاب التحليل النفسي الكلاسيكي، يؤكد **عبد الله عسكر** على تنوع – واختلاف – الرؤى في تناول المفهوم لدى أتباع **فرويد**، وفي هذا يقول: إن المنحى الفرويدي فيما يتعلق بالأوديبية، وأزمة الوجود البشري قد أخذ مساره النمائي لدى أتباعه، والمنشقين عليه، حتى أنه للآن لا يوجد اتفاق على تفسير الأوديبية، ويتضح ذلك الاختلاف لدى عدد من المحلِّلين، يعرضهم **عسكر** كالآتي:

ألفريد أدلر Alfred Adler: رفض اعتبار عُقدَة أوديب حقيقة جوهرية، وإنما اعتبرها نتيجة لطبيعة التعلق بين الطفل الذكر وأمه، لكون الأم – في الغالب – ما تُدلل الطفل الذكر، ما يدفعه إلى حصر اهتمامه كله بها، وينغمس في أخيلته الجنسية التي يوجهها نحوها، وبهذا اعتبر **أدلر** الأوديب حقيقة سيكولوجية تخضع لطبيعة العلاقة الباكرة بالأم.

كارل جوستاف يونج C.G Jung: لم يرفض العُقدَة الأوديبية بصورتها الفرويدية التقليدية فيما يتعلق بعلاقة الذكر بوالديه، وأضاف **عُقدَة إلكترا** Electra Complex عند البنت كنظير لعُقدَة أوديب عند الصبي، كما اعتبر عُقدَة الخصاء Castration Complex رمزاً لتضحية الذات، أو التضحية برغبات الطفولة، ولقد اهتم **يونج** عند تناوله لعُقدَة أوديب بالرمز، والحياة اللاشعورية، سواء على المستوى الفردي أو الجماعي، حاضراً أو تاريخاً، وبهذا فإن الأوديبية عنده لا تقتصر فقط على إظهار الرغبة البشرية في

إتيان المحارم، بل توضّح طبيعة الوجود البشري، ومأساته بدءاً من رفض الميلاد وتبعاته بغية تطوير الواقع.

أوتو رانك :Otto Rank تخطى بفهمه للأوديبية فكرة الصراع على الأم إلى مفهوم **صدمة الميلاد** The Trauma Of Birth؛ والمتمثّل في الحرمان من الحالة الأولية السعيدة في الرحم، ولذلك اعتبر الأوديب – وفقاً للأسطورة – هو محاولة للعودة إلى الحالة الأولى، أو الحياة داخل الرحم، كما اهتم **رانك** في تناوله للأوديبية بالوضع الأُسري، وأكد على اختلاف الموقف الأوديبي طبقاً لثقافة الأسرة، وأهمية الطفل بالنسبة لها.

إريك فروم :Erich Fromm تناول الأوديبية في السياق الاجتماعي، واعتبرها تمرداً من الابن على سلطة الأب المطلقة في الأسرة الأبوية، وبهذا يكون **فروم** قد جعل الكائن البشري بمثابة ظاهرة يتحكم فيها الروح الاجتماعي العام، لذلك فلقد انحاز للمجتمع على حساب الذات (٧٤ :٣٢-٤٠).

الأوديب والخطاب اللاكاني...الرمز وانبناء الذات:

يُمثّل التناول اللاكاني لمُركَّب أوديب التطور الإبداعي لأفكار **فرويد** التقليدية، وتأكيدات **يونج** المعرفية التاريخية لمسألة الأوديبية، حيث اتجه اتجاهاً معرفياً لغوياً لإيضاح فكرة الرمز، ودور الأوديبية في إنمائه من منظور بنيوي (٤٣:٧٤).

حيث استطاع **لاكان** – عن طريق اكتشاف البنية الرمزية للاشعور، والنشاط النفسي برمته – أن يُعيد صياغة المُركَّب الأوديبي على نحو يتجاوز الفروق الجنسية بين الصبي والصبية، واعتبرها العلاقة الفارقة بين النظام الخيالي والنظام الرمزي، بدخول الأب كطرف ثالث في العلاقة الثنائية بين الطفل وأمه، سواء أكان هذا الطفل ذكراً؟ أم أنثى؟ فهو الموقف الذي يتدخل فيه القانون عبر الأوامر الكلامية، والتي تَتميَّز بمقدرتها على نقل الطفل من مستوى التخيل، وعلاقات الحب، والكراهية إلى المستوى الرمزي، واكتساب المجاز الأبوي، أو الاستعارة الأبوية، حيث يُسيطِّر على الخيال من خلال الرمز، أو السيطرة على العواطف بالعقل (٨١ : ٩٥).

وبهذا لا يصبح الأوديب بالنسبة لـ **لاكان** أسطورة كما يتخيل البعض، وإنما هو بنية نفسية تتأسس عليها الذات عن طريق الترميز، أي أن هذا الأوديب ينقل الطفل من المثلث الخيالي إلى المثلث الرمزي، وأخيراً إلى البنية النفسية المعتمدة على وجود الذات اللاشعورية، وارتباطها باللغة المُعبِّرة عنها (٢٤٤:٧٢)، حيث يتم ربط الطفل بالعالم من خلال مُركَّب أوديب عبر علاقات قائمة على المنع والقطيعة بالانتقال من الطبيعة إلى الثقافة من خلال القانون (٤٠٠:١٤٢).

فالأوديب – (وكما ذهب إليه **لاكان**) – ليس أسطورة ولا هواماً، إن هو إلا مسألة حسابية، هي طريقة للقول: إنه عندما نعتقد بأن هناك اثنين يوجد ثالث، من هنا عندما نحاول أن نُكوِّن فكرة عن شخصين يتبيّن أن هناك ثالثاً، بالإضافة إلى رابع؛ ألا وهو الموت The Death (فكل علاقة تقوم على ثلاثية البنية، بالإضافة إلى العنصر الرابع وهو الموت) (٥٣:٧٠).

وعند تتبع تطور مفهوم مُركَّب أوديب في الخطاب اللاكاني يتضح أن التناول

الأول للمفهوم في أعمال **لاكان** كان عام ١٩٣٨، وذلك من خلال مقاله عن العائلة- (وذلك ما أتى عليه الباحث عند تناول مفهوم تشريح النظام الخيالي من خلال عرض مفهومي العُقَدة والصورة، ودورهما عند **لاكان**، حيث تم الإشارة إلى المقالين الذين ساهم بهما في الموسوعة الفرنسية وتناول بهما العائلة بالدراسة، وكان عنوان المقال الأول **العُقَد كعامل أساسي في سيكولوجية العائلة**، في حين أتى المقال الثاني حاملاً لعنوان **العُقَد العائلية في الباثولوجي**) - حيث أظهر أنها - (أي عُقدَة أوديب)- آخِر العُقَد العائلية الثلاث، وأكثرها أهمية، وحتى هذه النقطة الأساسية لم يختلف تقييم **لاكان** وإسهامه في الأوديبية عن ذلك الذي قدّمه **فرويد**، وإن كان إبداعه الوحيد في هذه الفترة هو إظهاره لنسبيتها التاريخية والثقافية، متأثراً في ذلك بدراسات **مالينوفسكي** Malinowski وغيره من الأنثروبولوجيين (١٤١ :١٢٧).

وفي بداية عام ١٩٥٠ وبالرغم من إتباعه الدائم لرؤية **فرويد** في العُقدَة الأوديبية باعتبارها عُقدَة مركزية في اللاشعور، إلا أن **لاكان** بدأ يُطوِّر فهمه المُميَّز للأوديبية، ما أدى إلى ظهور عدد من الاختلافات الجوهرية بينه وبين **فرويد**، وإن كان أكثرها أهمية أن الذات من منظور **لاكان** دائماً ترغب في الأم، كما يظَلُّ الأب دائماً المنافس بغض النظر عن كَون تلك الذات ذكراً أو أنثى (١٤١ :١٢٧).

لهذا، وإن كان النظام الرمزي يَتمثَّل في الانتقال من العلاقات الثنائية الخيالية - والتي يتم بها تسجيل الأنا في سجل النظام الخيالي - إلى البنية الثلاثية عبر توسط الأب لتلك العلاقة الثنائية بين الطفل والأم، فإن مُركَّب أوديب هو الأنموذج النقي والأمثل لتلك البنية الثلاثية، والذي من خلاله تُبنى الذات عبر الرمز، ويتم الانتقال من الطبيعة إلى الثقافة.

الثالوث الأوديبي والثلاثية الزمنية...فترات الأوديب:

إن كان للباحث من وقوف على بنية المُركَّب الأوديبي وفقاً للخطاب اللاكاني، فما هناك من سبيل لذلك إلا بعرضه - أي مُركَّب أوديب - وفقاً لفتراته الزمنية،

والتي أشار إليها **لاكان** في حلقته الدراسية عام ١٩٥٦-١٩٥٧ **تشكُّلات اللاشعور**، حيث قَسَّم المُركَّب الأوديبي إلى ثلاث فترات زمنية Three Times يمكن عرضها كالآتي:

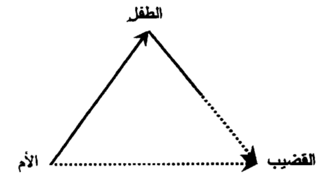
*** الفترة الأولى:**

تقوم هذه الفترة على العلاقة الثنائية المباشرة بين الطفل والأم، حيث يرفض الطفل الانفصال عن أمه ورعايتها له، لذلك فهو يرغب في أن يكون المُكمِّل لما تفتقر إليه وينقصها، وهو القضيب The Phallus، حيث ينصهر مع موضوع رغبة الآخر/الأم، وبهذا يكون محروماً من الفردية والذاتية، ولذلك تُعد تلك الفترة مُمثِّلة للنرجسية الأولية الآتية من المرحلة المرآوية (٢: ٨٥).

وتَتميَّز تلك الفترة بالثالوث الخيالي: الأم، الطفل، القضيب، ولقد سماها **لاكان** بـ **الثالوث قبل الأوديبي** The Preoedipal Triangle، وبالرغم من أنه قبل أوديبي إلا أنه يُعَد فترة في مُركَّب أوديب نفسه، ولكنها سابقة على تدخل الأب، وهي ليست علاقة ثنائية خالصة بين الأم والطفل، بل يُعد القضيب دائماً طرفاً ثالثاً كموضوع خيالي ترغبه الأم متجاوزة الطفل نفسه، ولقد أشار **لاكان** إلى أن وجود القضيب الخيالي The Imaginary Phallus كطرف ثالث في الثالوث الخيالي يشير إلى أن الأب الرمزي The Symbolic Father يمارس وظيفته منذ ذلك الوقت؛ وفي تلك الفترة يلاحظ الطفل في نفسه، وفي أمه ذلك النقصان؛ فكلاهما - (الذات والأم) - مَوْسُوم بالنقصان Lack؛ فالأم مَوْسُومة بالنقصان منذ رؤيته لها غير كاملة، والذات/الطفل مَوْسُوم بالنقصان منذ عجزه عن إشباع رغبة الأم، ويكون النقصان في الحالتين هو القضيب الخيالي، فالأم ترغب في القضيب الذي ينقصها، والذات/الطفل يسعى إلى أن يصبح موضوع رغبتها، يسعى إلى أن يكون القضيب للأم، ويملأ فراغ نقصانها، وفي هذه الفترة - أيضاً - تكون الأم مطلقة القدرة Omnipotent(وذلك وفقاً لرؤية/إدراك الطفل لها) - وتكون رغبتها هي القانون Law، ومن الملاحظ أن تلك القدرة المطلقة يمكن إدراكها بوصفها مُهدِّدة، كما تتزايد مشاعر التهديد تلك لدى الطفل عندما تبدأ الحوافز الجنسية لديه في الظهور - كالاستمناء الطفلي على سبيل

المثال – وهنا يواجه الطفل عجزه عن خداع رغبة الأم بالشبيه الخيالي للقضيب، لأنه يجب أن يُقدِّم لها شيئاً في الواقع، ولكن العضو الفعلي للطفل – ولداً كان أو بنتاً – يكون قاصراً، ومع هذا القصور والعجز لدى الطفل في مقابل الرغبة الأمومية المطلقة – والتي لا يمكن تهدئتها – يتَولَّد القلق لدى الطفل، هذا القلق الذي لا يتبدَّد إلا بتدخل الأب في الفترة الثانية من الثلاثية الأوديبية (١٤١ :١٢٨).

وفي الشكل التالي تتضح تلك العلاقة الثلاثية الخيالية، حيث تَتبيَّن علاقة الأم بموضوع رغبتها، وهو القضيب الخيالي – موضوع نقصها – قبل ميلاد الطفل، والذي تتحول عنه تجاه الطفل بعد ولادته، ومن ثم يفطن الطفل لموضوع رغبة الأم، فيتعيَّن بالقضيب الخيالي، ويُلاحَظ أن الخط المتقطِّع يشير إلى الرغبة اللاشعورية في القضيب.



شكل رقم (١٠) يُبيِّن الفترة الأولى من مُركَّب أوديب،
والعلاقة الثلاثية الخيالية
(الأم، الطفل، القضيب)

*** الفترة الثانية:**

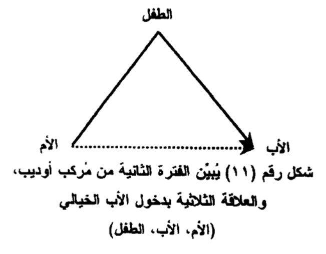
تَتميَّز هذه الفترة بدخول الأب الخيالي The Imaginary Father الذي يفَرِض القانون على رغبة الأم، باستنكار محاولتها في الحصول على الموضوع القضيبي، وبالمثل يستنكر محاولة الذات/الطفل في الحصول على الأم، وكثيراً ما كان **لاكان** يشير إلى هذا التدخل باعتباره خصاءً للأم، ويتحقق هذا التدخل عبر وساطة خطاب الأم، حيث إن تدخل الأب الواقعي The Real Father، وفرض قانونه في هذه الفترة

ليس بالشيء الهام؛ وإنما المهم هو أن يُحترم هذا القانون من قِبَل الأم عبر كلامها وأفعالها، وبهذا يرى الطفل/الذات الأب كمنافس على رغبة الأم (١٤١ :١٢٨-١٢٩).

وعن تلك الفترة، ودور توسط الأب لتلك العلاقة بين الطفل والأم، والتي تتمحوّر حول القضيب الخيالي يشير **عسكر** إلى أن التوسط الصارم للأب يكون في صيغة أمر مزدوج: **فالبنسبة للطفل:** لا تَنَم مع الأم، **وبالنسبة للأم:** لا تستولي على وليدنا، ومن هنا يتصادم الطفل مع قانون الأب، حيث يهز هذا التصادم أُسس الوضع الطفلي (٧٤ :٤٨).

وكما تَبيَّن سابقاً أن توسط خطاب الأم يمنح الشرعية لقانون الأب، فعند رفض الطفل لقانون الأب الذي يَحرِم الأم من القضيب فإنه – أي الطفل – يدخل في منافسة مع الغريم (أي القضيب)، وتُطرح أمامه مسألة To be or not to be أي أن يكون القضيب، أو لا يكون، وهنا تكون أهمية توسط خطاب الأم؛ فالإجابة تكون من الأم سواء بالتسليم أو عدم التسليم بقانون هذا الآخر، حيث إن قانون الأب هو كلام يُمثِّل رمزاً له سلطة القانون تحمله الأم (٧١ :١٠٠)،(١٧٨ :٢٣٧).

وفي الشكل التالي يتضح كيف أن الطفل يتحول عن القضيب الخيالي إلى التَعيُّن بالأب الخيالي، وهذا التَعيُّن يُمَكِّن الطفل من تفهُم قانون الأب، ويساعد على الدخول في الفترة الثالثة والأخيرة من المُركَّب الأوديبي، والذي يَتميَّز بدال اسم الأب، وتَكوُّن الاستعارة الأبوية، وانبناء الذات حيث الانتقال من السجل الخيالي إلى السجل الرمزي.



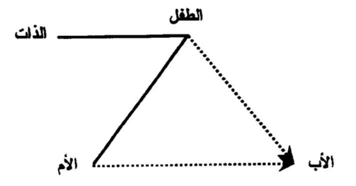
شكل رقم (١١) يُبيِّن الفترة الثانية من مُركب أوديب، والعلاقة الثلاثية بدخول الأب الخيالي (الأم، الأب، الطفل)

*** الفترة الثالثة:**

تُعلِّم هذه الفترة بدخول الأب الواقعي The Real Father بوصفه مالك القضيب، وإن كان لا يتبادله أو يمنحه، ويقوم الأب الواقعي بخصاء الطفل، أي يجعل من المستحيل عليه – أي الطفل – مواصلة المحاولة بأن يكون القضيب للأم؛ وذلك لأنه لا مجال للتنافس مع الأب الواقعي، فهو دائماً يفوز، وعبر تَوصُّل الطفل لإدراك أن الأب هو مالك القضيب تتحرر الذات/الطفل من رغبته المستحيلة، ومن القلق الناتج عن إصراره على أن يكون القضيب، وينتج عن ذلك تَعيُّن الذات/الطفل بالأب، ويُمكِّن هذا التَعيُّن الذاتي الثانوي الرمزي الذات من تجاوز عدوانيتها المرتبطة بالتعيُّن الذاتي الأولي الخيالي. (وهذا ما تم الوقوف عليه عند تناول مفهوم النرجسية، ومن قبله مفهوم مرحلة المرآة والشبيه المرآوي) (١٤١:١٢٩).

ومع التعيُّن بالأب يبدأ بزوغ مثال الأنا Ego Ideal المتجسد بالأب وطموحاته، كما أن نهاية هذه الفترة تؤدي في النهاية إلى ولادة الذات اللاشعورية، حيث إن عملية الأوديب تحدث على غير علم من صاحبها (٧١ :١٠٠)، فالفقد الذي يخبره الطفل يُعَد نقطة تَحَوُّل لدخول الذات في اللغة، ويتم ذلك عبر وظيفة الأب مالك القضيب ومُمثِّل القانون (١٨٩ :١٦٣).

وبهذا، وحيث إن الرمزي هو عالَم القانون، ولأن مُركَّب أوديب هو المدخل للنظام الرمزي، فإن مُركَّب أوديب يضطلع بوظيفة أساسية للإنسان كي يكون قادراً على بلوغ البنية الإنسانية الحقيقية (١٤١:١٢٩)، فعبر استدخال الطفل للقانون، وتَعيُّنه بالأب، وأخذه كمثال يصبح قادراً على إقرار ذاته، ويصبح واعياً بأنه مازال فعالاً، ويتجه نحو المستقبل، ويكامل نفسه داخل المجتمع، والثقافة، واللغة، وبالتالي فالأوديبية تَتميَّز بثلاثة عناصر – (يُمثِّلها الأب الرمزي) – هي: القانون، والمثال، والوعد (٧٤:٤٨–٤٩).



شكل رقم (١٢) يُبيّن الفترة الثالثة من مُركّب أوديب،
والعلاقة الثلاثية بدخول الأب الواقعي،
وتكوُّن الذات

الاستعارة الأبوية :Paternal Metaphor

قدّم **لاكان** مفهوم الاستعارة الأبوية لأول مرة عام ١٩٥٧، وفي عام ١٩٥٨ شَرَعَ في توضيح بنية الاستعارة، حيث بيّن أنها تشتمل على استبدال أحد الدوال بدال آخر، وذلك باستبدال دال اسم الأب The Name Of The Father بدلاً عن دال رغبة الأم، وتشير الاستعارة الأبوية إلى الخاصية الاستعارية لمُركّب أوديب نفسه، حيث تُعَد الاستعارة الأساسية التي تقوم عليها كل دلالة، ولهذا السبب تكون كل دلالة قضيبية؛ ومن هنا فإن إغفال Foreclosure اسم الأب يعني غيابٍ كل من: الاستعارة الأبوية، والدلالة القضيبية، وهذا ما يمكن ملاحظته في الذهان (١٤١: ١٣٧).

وبتَتبُّع مفهوم اسم الأب نجد أن ظهوره الأول كان عام ١٩٥٠ من خلال تناول وظيفة الأب التحريمية في المُركّب الأوديبي عبر قانون منع إتيان المحارم، حيث يتم تحديد هوية الفرد؛ وفي حلقته الدراسية عام ١٩٥٥-١٩٥٦ **الذهانات** تناول **لاكان** اسم الأب باعتباره الدال الأساسي، والذي معه يتقدم الترميز بصورة طبيعية، ما يمنح الذات الهوية ويموقعِها في النظام الرمزي (١٤١: ١١٩).

ويتضح أن **لاكان** قد استخدم منذ البداية اسم الأب ونفيه - أي نفي اسم الأب - للتأكيد على الوظيفة التشريعية والتحريمية للأب الرمزي في المُركّب الأوديبي. ولتوضيح المقصود باسم الأب، ونفي اسم الأب يتوجب على الباحث تناول المفهوم

باللغة الفرنسية، حيث أطلق **لاكان** على الأب الأوديبي مفهوم اسم الأب - Le nom du - père وبترجمة ذلك المفهوم يتبيّن أن nom في اللغة الفرنسية تعني اسم، وبالمجانسة أو التشابه في نطق الكلمتين nom و non يتضح أنها تعني – من حيث التشابه في النطق – لا non، وبهذا فإن اسم الأب يحمل ذلك النفي – (ويُعد هذا التعبير إشارة إلى القانون الناتج عن الرفض الإيجابي لعضو الذكورة/القضيب وسلطته) –؛ وبهذا يكون الأب في مُركّب أوديب ليس شخصاً، ولكنه عبارة عن مجموعة من الرموز، تُدخل الطفل إلى العَالَم المتحضر بالقانون، واللغة، والثقافة (١٤٢:٤٠٠)،(١٤١:١١٩).

وأتت صياغة **لاكان** للاستعارة الأبوية على أساس بنية الرمز عند **دي سوسير** على أساس استبدال دال استعاري أو مجازي هو اسم الأب بالدال الأصلي القضيب أو رغبة الأم؛ ليصبح – أي اسم الأب – مدلول الرغبة وفي الوقت نفسه الدال الذي يولِّد الرغبة، حيث إن اسم الأب هو القَانون اللغوي؛ ورغبة الأم اللاشعورية تتحول عبر الاستعارة إلى القضيب ليس بوصفه العضو الذكري، وإنما بوصفه القيمة الرمزية التي تكون حول الطفل، ومن هنا فإن اسم الأب، أو الأب الرمزي، أو القانون هو الذي يحكم البناء الرمزي، وهذا ما دفع **لاكان** إلى تفسير الذُهان وفقاً للآلية التي سماها بالإغفال، أو الارتهان لاسم الأب، حيث إنه إذا لم تتحقق الاستعارة الأبوية، وأصبح الطفل دالاً رمزياً، فإن عنصر الدلالة الأساسي سوف يغيب عنه فتختلط عليه قواعد اللغة، ونظامها الثقافي، ويَسقُط فريسة للذُهان (٨١ : ٩٩–١٠٥).

ويمكن للباحث عرض الصيغة الرمزية لبنية الاستعارة، والتي صاغها **لاكان** بصيغة جبرية على أساس بنية الرمز لدى **سوسير** كما في الشكل التالي:

$$\frac{S}{\acute{S}} \cdot \frac{\acute{S}}{X} \rightarrow S\ \frac{1}{s}$$

شكل رقم (١٣) يُبيّن الصيغة الجبرية

(الرمزية) للاستعارة

ويُمثِّل – كما يتبيَّن من الشكل السابق – الحرف Ś الدال الأصلي المُمثِّل لرغبة الأم، والذي يُستعاض عنه بدال استعاري بديل يُرمز له بالحرف S، والذي يُمثِّل اسم الأب، لدرجة أن الدال الأول يصبح في مصاف المدلول، ويُعبِّر الحرف S عن المدلول المُستقرأ بواسطة الاستعارة، والذي يشير إلى القضيب، وليس المقصود به العضو الجنسي الحقيقي، بل هو تصور ذهني ورمز في آن معاً، فالتصور الذهني لوظيفة الأب/قانون الأب يُستنتج من تراكب الدال البديل اسم الأب على الدال الأصلي رغبة الأم، في حين ترمُز x إلى الدلالة المجهولة (١١٣:٦٣).

ومن خلال تطبيق بنية الاستعارة في صيغتها الجبرية وفقاً لبنية الرمز عند **سوسير** على الاستعارة الأبوية صاغ **لاكان** المعادلة التالية:

$$\frac{\text{اسم الأب}}{\text{رغبة الأم}} \cdot \frac{\text{رغبة الأم}}{\text{مدلول الذات}} \longrightarrow \text{اسم الأب} \frac{\text{آ}}{\text{القضيب}}$$

شكل رقم (١٤) يُبيِّن صيغة الاستعارة الأبوية

الاستعارة الأبوية والدلالة القضيبية Paternal Metaphor And Phallic Signification:

يَتبيَّن من الاستعارة الأبوية – والتي تم عرضها آنفاً – أن القضيب يُعَد الدال النهائي والمرتبط تاريخياً بالقانون، أو هو الوظيفة التي طابقت – منذ فجر التاريخ – بين شخص الأب وصورة القانون(٨١ : ١٠٦)، فمفهوم القضيب في التحليل النفسي لا يمكن فصله عن الأب ودوره العائلي وموقعه الاجتماعي، ويعود دور الأب إلى كونه يملك الموضوع القضيبي دون غيره بالنسبة للطفل وعلاقته بالأم (٩٤:٧١).

حيث إن القضيب في الخطاب اللاكاني يعني القانون الأبوي الذَكَري، ومفهوم القضيب هو محاولة من **لاكان** لرأب الصدع بين البُعد التحليلي البيولوجي والبُعد التحليلي النفسي، فمن خلال إطلاقه – أي **لاكان** – لمفهوم القضيب على اسم الأب

أكد على طراز الوجود غير الواقعي، وغير البيولوجي لهذا الدال، أو القضيب الذي تنتظم من خلال حضوره – أو غيابه – العلاقات الإنسانية في الحب والكره، ويُعتبر هذا التأكيد للنموذج العام بنيوياً تماماً، فالقضيب ليس عضواً مادياً Penis، وليس تخييلاً، بل هو دال رمزي له وظيفة مُحدَّدة، فالقضيب له دلالة الاستعارة الأبوية (٤٤:٢٦٣)،(١٤٦:١٧٤)،(١٦٦:١٩٩).

وبهذا فالقضيب يُعَد رمزاً وليس عضواً مادياً – العضو الذكري التناسلي –، فهو الدال المُتميِّز، والذي تقوم عليه الدلالة المتناقضة، وفي هذا يقول **لاكان** : «إن القضيب هو الدال المُتميِّز الذي يساعد كل الدوال على تحقيق الوحدة مع مدلولاتها، والتي يُشترط لوجودها وجود هذا الدال» (١٦٩ : ٢٨٥).

لهذا فالقضيب دال الدوال، علامة Mark، يربط دور الكلمة Logos مع مجيء الرغبة، وتشير وظيفته إلى علاقته الأكثر عمقاً، والتي جسَّد فيها القدماء العقل والكلمة، وتُعَد هذه ميزة للقضيب، كونه الدال الذي يتم اختياره باعتباره العنصر الأكثر واقعية في واقعي الرابطة الجنسية، فهو العنصر الأكثر رمزية – بالمعنى الحرفي – باعتباره مرادفاً للرابطة المنطقية (١٧٩: ١٦٨).

ومن هنا فلقد ميَّز **لاكان** بين ثلاثة مواقع للقضيب – وذلك كونه دالاً – وفقاً للأنظمة الثلاثة: الخيالي، الرمزي، الواقع ؛ فالبنسبة لمستوى الدال الواقعي يكون **القضيب الواقعي** The Real Phallus: وهو يدل على العضو التناسلي الذكري Penis أو العضو البيولوجي؛ وبالنسبة لمستوى الدال الخيالي يكون **القضيب الخيالي** The Imaginary Phallus: وهو يشير إلى موضوع خيالي، صورة القضيب، بمعنى تخييل القضيب كموضوع جزئي، والذي يُحتمل أن يَفصل من الجسم بالإخصاء، وهذا القضيب الخيالي يدركه الطفل في الفترة قبل الأوديبية كموضوع رغبة الأم، وبهذا يتعيَّن به الطفل؛ وأخيراً مستوى الدال الرمزي يُمثِّله **القضيب الرمزي** The Symbol Phallus : وهو دال اللذة، الدال الرئيسي لرغبة الآخر، وليس له نظير، ويتم تحديد الهوية الجنسية للذكر والأنثى عبره، كما أنه يُعَد عوضاً عن نقصان دال الآخر الأكبر (١٤١:١٤١-١٤٢).

وترجع أولوية القضيب – والتي تتضح في الخطاب اللاكاني – كدال نهائي للاشعور إلى تلك الدلالات المتعددة لمفهوم القضيب، ويمكن للباحث استعراض تلك الدلالات – والتي بينّتها **إليزابيث جروز** E. Grose معتمداً على العرض الذي تناولها به **عبد الله عسكر** كالآتي:

١ . يُمثّل القضيب دلالة حاسمة في توزيع القوة، والسلطة، وموضعة الكلام، وهو علامة Mark أو شارة Badge للمكانة الاجتماعية.

٢ . إنه الدال على النقص الذي سببه الخصاء، وهو أيضاً دلالة على الحضور والامتلاك، ولذا فهو دلالة عما يعتقد الرجال ملكيته، وما تعتقد المرأة أنه ينقصها.

٣ . هو دال الدوال، ممُثّل الدلالة واللغة، فالقضيب هو الموضوع الذي يشغل أو يملأ المكان الناقص الضمير المفرد (**أنا I**) في الخطاب.

٤ . القضيب كدال ليس له أي محتوى أو مدلول، إنه يمتلئ فقط في السياق العياني، وفي علاقته بالدوال الأخرى.

٥ . هو الوريث لدور الموضوع المحرك للرغبة – القرين، الموضوع أ –، وهو دال رغبة الآخر، والذي يتم تنظيمه بالرجوع إلى الآخر الكبير (اللغة).

٦ . هو مؤسس علاقات التبادل الرمزي، والتي تُعتبر أساس الحضارة، وهو الموضوع المحوري الذي تدور حوله الطقوس التي تُميّز شبكة البناء الرمزي والاجتماعي.

٧ . هو المُمثّل لاسم الأب، حيث تتموضع الذات في الثقافة.

٨ . هو الرغبة النهائية للاشعور، واستدخال لموقع الآخر، ومستودع الرغبات المكبوتة، ولهذا فهو علامة التمايز الجنسي، والهوية الجنسية (٨١ : ١٠٧-١٠٨).

(ب) مركب الخصاء :Castration Complex

اعتاد **لاكان** الحديث عن الخصاء، وأولاه اهتماماً عن ذاك الذي أعطاه لمُركّب الخصاء، ويتضح ذلك في عمله المُبَكِّر، والمُتمثِّل في مقاله عن العائلة (والذي كان عام ١٩٣٨)، حيث لم يستطرد في نقاش مفهوم مُركّب الخصاء، واكتفى بتخصيص عدد قليل من الفقرات لعرضه، واتسمت تلك الفترة باتفاقه – أي **لاكان** – مع تأكيد **فرويد** على أن الخصاء – وفي المقام الأول – يُعَد **تخييلاً** يرتبط بتشويه القضيب Penis –العضو (التناسلي الذكري) –، ولقد ربط **لاكان** هذا التخييل بسلسلة تخييلات بتر الجسد وتَمزُّقه، والتي تُعَد أساساً لصورة الجسد المُمزَّق، تلك الصورة المتزامنة مع مرحلة المرآة (١٤١ :٢١).

وإن كان **لاكان** في تلك الفترة المُبَكِّرة – (من تكوينه كمحلِّل مُمارس ومُنظِّر) – قد اتفق مع الخطاب الفرويدي، إلا أن الاختلاف بين الخطابين: اللاكاني والفرويدي سيبدأ في التجلي مع منتصف الخمسينات، وعلى الأخص في حلقته الدراسية لعام ١٩٥٦–١٩٥٧، حيث أصبح مُركّب الخصاء يلعب دوراً بارزاً في تعليم **لاكان** Lacan's teaching (١٤١ :٢١).

وعند إلقاء الضوء على مُركّب الخصاء في الخطاب الفرويدي يتضح أن **فرويد** قد انطلق من الوضع البدني لإقرار عُقدَة الخصاء، حيث يدور الأمر حول فقدان العضو الذكري أو خسرانه، حيث يخاف الطفل من أن يخسر قضيبه في صدامه مع الأب نتيجة تعلقه بالأم، ويصبح كالبنت بدون قضيب (قلق الخصاء Castration Anxiety)، أما لدى البنت، فهي تشعر بأنه قد تم عقابها بالفعل وهي لا تملك القضيب، وبالتالي فهي تعاني حَسَدَ القضيب Phalic Envy / Penis Envy، ولقد رأى **فرويد** أن الخصاء له شكلان، وأنه يختلف عند الذكر عنه لدى الأنثى، كما أكد على أن عُقدَة الخصاء ظاهرة عالمية تمتد جذورها إلى قاعدة رفض الأنوثة (٨١ : ١٠٨).

وإذا كان الخطاب الفرويدي قد تناول مُركّب الخصاء بهذه الكيفية، فإن **لاكان** رأى أن الخصاء هو المُحصلة الختامية لمُركّب أوديب لدى الجنسين، فمُركّب الخصاء

عملية رمزية تقَطَع الرابطة الخيالية بين الطفل والأم، وتُمكّنه – أي الطفل – من الترميز بنقله من النظام الخيالي إلى النظام الرمزي عبر الاستعارة الأبوية (١٤٠:١٩).

فلقد عرّف **لاكان** الخصاء باعتباره واحداً من الأشكال الثلاثة لنقصان الموضوع Lack of Object، حيث يتمثّل الشكلان الآخران في الإحباط Frustration، والحرمان Privation، وإن كان الخصاء يُعَد البُعد الأكثر دلالة في ثالوث النقصان للحد الذي ينزع فيه النقصان إلى أن يصبح مرادفاً للخصاء (١٤١ :٢١–٩٥).

وإذا تناول الباحث مفهوم **النقصان** Lack وفقاً للخطاب اللاكاني، يتبيّن أن النقصان يرتبط بالرغبة، وهو مصدر نشوئها، ويشير مفهوم النقصان إلى نقصان الوجود Lack of being، فالمرغوب هو الوجود ذاته، والرغبة هي علاقة الوجود بالنقصان، والنقصان هو نقصان الوجود المُتكلّم والناطق بالتحديد؛ فنقصان الذات في الوجود يُعَد مركز الخبرة التحليلية، ولقد قابل **لاكان** بين نقصان الوجود Lack of being المرتبط بالرغبة Desire، ونقصان الملكية Lack of having المرتبط بالطلب Demand، كما ميّز **لاكان** بين ثلاثة أنواع من النقصان تبعاً لطبيعة الموضوع الذي يُرَمز له النقصان (١٤١:٩٥).

ويمكن للباحث عرض الأنواع الثلاثة للنقصان، والموضوعات المرتبطة بها، وتحديد العامل المسئول عن حدوثها، وذلك وفقاً للعرض الذي قدّمه **إيفانز** كما في الجدول التالي:

العامل المُسبِّب *Agent*	النقصان *Lack*	الموضوع *Object*
الأب الواقعي *Real Father*	الخصاء الرمزي *Symbolic Castration*	القضيب الخيالي *Imaginary Phallus*
الأم الرمزية *Symbolic Mother*	الإحباط الخيالي *Imaginary Frustration*	الثدي الواقعي *Real Breast*
الأب الخيالي *Imaginary Father*	الحرمان الواقعي *Real Privation*	القضيب الرمزي *Symbol Phallus*

جدول رقم (٢) يُبيِّن أنواع النقصان الثلاثة،
والموضوعات التي ترمُز إليها

وبهذا فإن الإحباط يُعَد نقصاناً خيالياً لموضوع واقعي؛ بينما يُعَد الحرمان نقصاناً واقعياً لموضوع رمزي؛ في حين يُمَثِّل الخصاء نقصاناً رمزياً لموضوع خيالي؛ بحيث لا يكون الخصاء للعضو التناسلي الذكري البيولوجي، ولكنه خصاء للقضيب الخيالي، ومن ثَم فتفسير **لاكان** لمُركَّب الخصاء يُعَد تباعُداً عن البُعد البيولوجي البسيط، أو التشريحي، أو أية اختزالية بيولوجية (١٤١ :٢٢).

فالخصاء يُعَد بمثابة الإثم، أو الدَّين الرمزي في سجل القانون؛ والفقدان للقضيب كموضوع خيالي، وبذلك تسقط الأُم من الرمزي إلى الواقع؛ في حين تسقط الموضوعات من الواقع لتصبح رمزية، وليصبح تفضيل الأب على الأم هو القائم (١٧٩: ١٦٢)، وبهذا تكون وظيفة الأب هي التوفيق بين القانون والرغبة، وليست معارضة القانون لتلك الرغبة – كما يذهب إليه **مصطفى صفوان** –، بل إن الذات تُضحي بتلك الرغبة عن طواعية بهدف اللجوء لكنف القضيب، وبهذا فإن القضيب كموضوع يؤكد وجوده على هذا النحو من الإطلاق لدرجة ينعدم فيها وجود **الموضوع أ**، ويمضي للعمل كموضوع موجود على الدوام، أو ناقص أيضاً على الدوام (١١٧ :٢٧).

ويقوم مُركَّب الخصاء بدور هام في تَكوُّن الذات، وترجع تلك الأهمية إلى

عـاملين: يتـمـثَّل العـامل الأول في **مـوقع الأب الاجتمـاعي**: والذي يتـمـثَّل في دوره الموروث في التسلسل العـائلي، حـيث إن المجـاز الملتزم بـاسمـه يبـقى هو السـائد في مجتمعٍ أبوي للتعريف عن الفرد بالنسبة إلى المجموعة التي يعيش معها، كما أن اسم الأب يحدِّد قانوناً يلتزم به – على السواء – كل من الذكر والأنثى في تناسلهمـا، وهو قـانون تحـريم الإثم فـي العـلاقـات الجنسـيـة، ومن هذا التـحـريم تتـوطَّد العـلاقـات الاجتماعية. أما العامل الثاني فيتمثَّل في **القضيب**: كونه رمزاً يتعدى مفهوم العضو، ليشـمل كل مـا يرمـز إليـه من اشتـهـاء؛ ليضـع حـداً لمتـعـة مطلقـة غـيـر مـشـروطـة، فالاستجابة تصبح تعدياً على عرف داخلي ينظم تكوين الرغبة (٧١ :١٠١).

ومن خـلال تناول **لاكان** لمُركَّب أوديب بفتـراته الثـلاث – والتي قـام البـاحث بعرضـها سابقاً – فإنه – أي **لاكان** – يستـخدم مصطلح الخصاء ليشيـر إلى عمليتين مختلفتين وهما: خصاء الأم، وخصاء الذات، ويمكن إيضاحهما كالآتي:

خـصـاء الأم Castration of the mother: في الفـتـرة الأولى من مُـركَّب أوديب يُدرك الأطفال – من كلا الجنسين – الأم كونهـا مالكة القضيب، كونها الأم القضيبية Phallic mother، ولكن عبر إرساء قانون منع إتيان المحارم في الفترة الثانية، وبدخول الأب الخيالي فإنه يحرمها من هذا القضيب، وبالرغم من اعتبار **لاكان** لهذا حرماناً للأم من القضيب وليس خصـاءً، إلا أنه غـالبـاً مـا يسـتـخـدم المصطلحـين للحـديث عن حرمان الأم، وخصائها.

خصاء الذات Castration of the subject: يُعَد خصاء الذات هو الخصاء الحقيقي، وذلك كونه فعلاً رمزياً ينصب على موضوع خيالي، فبينما يتم خصاء/حرمان الأم في الفترة الثانية من مُركَّب أوديب عن طريق إنكار فعل الملكية عنها To have(الأم لا تملك القـضـيب)، فإن خـصـاء الذات في الفـتـرة الثـالثـة من مُركَّب أوديب يكون عن طريق إنكار فعل الكينونة عنها To be(الذات يجب أن تتـخلى عن محـاولاتها في أن تكون القضيب للأم)، وبتـخلي الذات عن محـاولاتها في أن تكون موضوع رغبة الأم تتـخلى عن متـعة Jouissance معينة لا يمكن استعادتها مرة أخرى، فالخصـاء يعني

وجوب رفض تلك المتعة، وإن كان المرور عبر قانون الرغبة يُمكّن الذات من تلك المتعة ثانيةً (١٤١ :٢٢).

وبهذا، فإذا ما تحقق الخصاء، قفزت الذات نحو الإنسانية والسوية؛ حيث يُعَد الخصاء باب الخروج من دائرة الكائن إلى عَالَم الرمز والإنسانية، ليأخذ لنفسه مكاناً، ويكتسب الذاتية، ويصبح لوجوده دلالة، فيحصل على هويته من خلال اللغة والرمز؛ وفي حالة رفض الخصاء فإن الوضع السوي للشخصية الإنسانية لن يكتمل، ويُفضي هذا البناء غير السوي إلى العُصاب، أوالذُهان، أو الانحراف (٨١ : ١١١،١١٩–١٢٠).

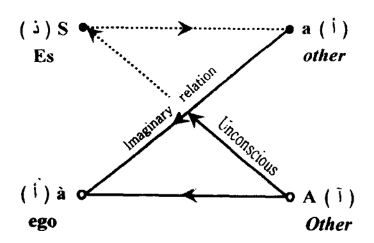
ومن هنا فعبر مُركّب أوديب، وتَكوُن الاستعارة الأبوية، وتحقق خصاء الذات فإن الطفل ينتقل من مستوى العلاقة المباشرة بالأم، والعلاقة الخيالية بالأنا الشبيه إلى مستوى العلاقة الرمزية، لتنمو القدرة على استيعاب اللغة، وإعادة إنتاجها من خلال عملية التصور الذهني، كما تُمكّن الوظيفة الرمزية من السمو بالعدوانية النرجسية، فمُركّب أوديب في صورته السوية يُمثّل مُركّب سمو Sublimation ورفعة، والذي يُشكّل إعادة بناء هوية أوديب، وبالتالي فإن التعيين الذاتي الأوديبي هو الذي يسمح للأنا بالتغلب على عدوانيتها (١٦٣ : ٢٤)،(١٣٥ :١٧٧)،(٧٦: ١٢١)،(٧٧ : ٥٣).

وبهذا يكون النظام الرمزي هو الطريق الوحيدة لإزاحة التثبيتات على الخيالي، والاستفادة من قوة الخيالي عبر تحويل الصور إلى كلمات؛ لذلك فلا يكشف الخيالي عن معنى إلا إذا أصبح رموزاً (١٤١ :٨٣).

وإذا كانت – وكما تَبيّن من النص السابق – الأنا هي النتاج لبنية النظام الخيالي، أو – بتعبير آخر – نتاجاً لتلك العلاقات بكل آخر خيالي في الفترة قبل الأوديبية، فإن الذات تكون نتاجاً للعلاقة بالآخر الكبير في الفترة الأوديبية، تلك العلاقات الأوديبية المتموضعة في بنية النظام الرمزي.

حيث إن بنية الذات توضع في علاقة مع مُركّب أوديب بعناصره الثلاثة: الطفل، الأب، الأم ، بالإضافة إلى الحد الرابع وهو الذات نفسها، وهذا ما قام **لاكان** بإيضاحه من خلال المُخطّط ل Schema L، والذي قدّمه لأول مرة عام ١٩٥٥، ومن

خـلاله – أي المُخطَّط ل – تتـضح المحـاور الثـلاثة: الخـيـالي، الرمـزي، الواقع باعتبارها – بالإضافة لمُركَّب أوديب – مُشكِّلة لبنية الذات، كما تُبيِّن أيضاً العلاقات الرمزية، والخيالية بين العناصر المُكوِّنة لبنية الذات (٢٣:٩٤)،(١٦٩:١٤١)، كما يتضح في الشكل التالي:



شكل رقم (١٥) يُبيِّن المُخطَّط ل *Schema L*،
وبنية الذات

يتضح من المُخطَّط ل أنه يتكون من أربعة عناصر وهي: الآخر الكبير والمشار إليه بالحرف **آ** A، والأنا المشار إليها بالحرف **أ** à، والآخر الصغير والمشار إليه بالحرف **أ** a، ويأتي العنصر الأخير وهو الذات والمشار إليها بالحرف **ذ** S، كما يُبيِّن المُخطَّط أيضاً محوري الخيالي والرمزي من خلال العلاقة بين العناصر الأربعة.

أولاً العلاقة بين أ à و أ a، أو بين الأنا والآخر الصغير (الصورة الأخرى للآخر سواء كان الشبيه المرآوي، أو الموضوع أ موضوع الرغبة الجزئية المستحيلة)، وتُمثِّل هذه العلاقة محور الخيالي حيث العلاقة الثنائية والتعيُّن الذاتي الأولى بما يعنيه من نرجسية، وما تتضمنه من شبق وعدوان، وتشير تلك العلاقة وهذا المحور إلى بُعد اللغة الخيالي بما هي تشويه لخطاب الآخر، أو بما هي حائط للغة حيث يعوق التواصل الرمزي بين الآخر الكبير والذات، وذلك من خلال اعتراض المحور الخيالي للمحور

الرمزي، ولقد عبّر **لاكان** عن هذا البُعد الخيالي للغة باعتباره المدلول، الدلالة، أو الكلام الفارغ.

ثانياً العلاقة بين آ A و ذ S، أو بين الآخر الكبير (القانون، الثقافة...) والذات، وتُمثّل هذه العلاقة محور الرمزي، حيث التعيُّن الذاتي الثانوي، ووجود الثالث (الدال الرمزي) الذي يتوسط العلاقات الثنائية، كما تشير تلك العلاقة وهذا المحور إلى بُعد اللغة الرمزي بما هو خطاب الآخر، خطاب اللاشعور، ولقد عبّر **لاكان** عن هذا البُعد الرمزي للغة باعتباره الدال، الكلام المليء.

في بنية نظام الواقع: On Structure Of The Real Order

استخدم **لاكان** نظام الواقع كأحد الأنظمة الثلاثة: الخيالي، الرمزي، الواقع عام ١٩٥٣، وإن كان المفهوم قد ظهر في أعماله الباكرة منذ عام ١٩٣٦ إلا أنه كان استخداماً فلسفياً، حيث إن المفهوم كان شائع الاستخدام في كتابات الفلاسفة أمثال **إميل ميرسون** Emile Meyerson الذي عرّف الواقع – من منطلق فلسفي – بأنه حقيقة الوجود في ذاته، فهو حقيقة الوجود المطلقة (١٤١ :١٥٩).

ويُعَد نظام الواقع هو النظام الأكثر إثارة للارتباك مقارنة بالنظامين الآخرين: الخيالي والرمزي، كما أنه لم يحظ في **كتابات** écrits باهتمام **لاكان** مثل الذي حظي به النظامان الآخران، وإن كانت الحلقات الدراسية/السيمينار تحتوي على أكثر التعليقات عليه اكتمالاً وإثارة للتساؤل، ويمكن إدراك اتجاهين عامين متباعدين ظاهرياً فيما يُقدّمه **لاكان** عن هذا المفهوم: **الاتجاه الأول**: يتمثّل في أن الواقع هو ذلك الذي هناك – هناك من قبل – بعيداً عن متناول الذات، سواء أكان موضوعاً فيزيقياً؟ أم كان صدمة جنسية؟ فالواقع هو ذلك الذي يعود دائماً إلى المكان نفسه؛ بينما **الاتجاه الثاني**: يتمثّل في أن الواقع هو الهيولي – (**هيولي** Matter هو الوجود في ذاته، الوجود بالقوة، أو الجوهر، أو المادة) – الأصلية التي تعمل عليها اللغة، فنظام الواقع خارج اللغة، إنه الهدف الذي تميل السلسلة الدالة باتجاهه، نقطة تلاشي الرمزي والخيالي، وبهذا فإن الواقع هو المستحيل (١٠٥ :٩٥–٩٦).

فنظام الواقع يظل دائماً خارج الإدراك الواضح، ومستبعداً بشكل أساسي، وغير معروف كلية، وهذا يتفق مع تعريف **لاكان** له بأنه المستحيل، وبهذا المعنى فإن نظام الواقع ليس بإمكانه سوى القليل الذي يستطيع أن يقوم به في مقابل الواقع الشائع، وبهذا فإن نظام الواقع يُعَد شيئاً غير – أو فوق – واقعي بالنسبة للواقع العام وحدوده، حيث إن نظام الواقع مجرد قوة أو أثر غير متمايز، وغير قابل للترميز على الإطلاق، فهو يتمثّل في تحديد شيء خارجي غير معروف بالنسبة للفرد، حيث إنه يسكن بداخل الغموض الداخلي للفرد، ولهذا فإن نظام الواقع يرتبط بالتوترات التي لا توصف للحاجة، العضوية وبلاشعور الجسد (١٣٥:١٩).

وبهذا فإذا كان الترميز الأساسي يسبق الخيالي، فإن الواقع يسبق الرمزي، فالواقع يوجد خارج البنية، إلا أنه يتجلى ضمن هذه البنية من خلال الموضوع أ (٩٤:٣١-٣٢)، فنظام الواقع له دلالة مادية تربطه بعالم البيولوجيا، وبالجسم بصفته الفيزيائية، ويتضح ذلك في الأب الواقعي، والقضيب الواقعي، حيث تكون الإشارة إلى الوجود العضوي المادي، والذي يتمثّل في الأب البيولوجي، والعضو التناسلي الذكري (١٤١:١٦٠).

ولقد حدَّد **لاكان** نظام الواقع من خلال نقاط الارتباط مع الأنظمة الأخرى – الخيالي، والرمزي – كما قام بتعريف نقاط التلاقي تلك بوصفها العُقد اللاكانية، ففيما بين نظام الواقع والنظام الخيالي افترض عُقَد الدوال، والتي تنتمي إلى العملية الأولية، أي إلى المتعة، فعند هذه النقطة – مثلاً – يعني الغذاء شيئاً أكثر من كونه مجرد طريقة لإشباع الحاجة البيولوجية، ففي حين تنتمي الحاجة – بالمفهوم اللاكاني – إلى نظام الواقع، فإن الرغبة – والتي تنتمي إلى النظام الرمزي – هي التي تربط الحاجة بالصور الذهنية والكلمات؛ كما وضّح – أي **لاكان** – نقطة تلاقي الرضيع والواقع بصياغته لمفهوم الموضوع أ، والذي يشير إلى الفجوة الأولية بين خبرة البدن والإدراك، وإلى الصور الذهنية التي سريعاً ما تَسقُط في هذه الفجوة (٢:١٠٥).

كما استخدم **لاكان** – عبر عمله – مفهوم نظام الواقع ليوضّح العديد من الظواهر العيادية، والتي بيّنها **إيفانز** كالآتي:

القلق والصدمة Anxiety And Truma : الواقع هو موضوع القلق الذي تنقصه أية وساطة ممكنة، وبهذا فهو الموضوع الأساسي الذي لم يعد موضوعاً، ولكنه الشيء الذي يواجه الكلمات، ويكون الفشل في تصنيفه، إنه موضوع القلق من الطراز الأول، إنه فقدان القدرة على المواجهة مع هذا الموضوع الواقعي، تلك الحالة التي تُبدي عن نفسها في صورة الصدمة.

الهلاوس Hallucinations: عندما لا يمكن دمج شيء في النظام الرمزي – كما في الذُهان – فإنه ربما يُعاود في الواقع على صورة هلاوس، وبهذا فإن الواقع يُعبِّر عن الواقع الخارجي الموضوعي المادي الموجود في ذاته، وغير القابل للملاحظة بمقدار ما يُعبِّر عما هو داخلي، والذي يتمثّل في الهلاوس والأحلام الصدمية (١٤١:١٦٠).

لهذا، فإن نظام الواقع هو سر البدن-المُتكلِّم، سر اللاشعور، وبناءً عليه احتل – أي نظام الواقع – المركز الحق في تأملات **لاكان** التحليلية، حيث رأى أن الممارسة التحليلية إنما تضع الإنسان في موقع يعالَج فيه الواقع عن طريق الرمزي، وأن التحليل النفسي في اكتشافه يشكِّل مواجهة أساسية مع الواقع، فنظام الواقع هو الذي دائماً ما يقبع وراء الآلية (٢:١٠٣).

وبهذا، فنظام الواقع لا يتشكّل على النحو الذي يتشكّل به النظام الخيالي والنظام الرمزي، فهو الوجود في ذاته، سواء بالنسبة للأشياء الخارجية أو الداخلية، فهو قاع الذات المستحيل، والذي يمنح الأنظمة الأخرى قيمة وجودية (٨١: ١١٤).

الأنظمة اللاكانية والعقدة البرومينية Lacanian Orders And Borromean Knot:

من خلال تناول البنية المُميِّزة لكل نظام من الأنظمة الثلاثة: الخيالي، والرمزي، وأخيراً الواقع اتضح ذلك التباين الواضح بين كل منها، وإن كانت تتكامل لتتكوّن عبرها البنية النفسية للفرد عبر رحلة جدلية تبدأ من اللاشيء – ذلك الوجود الجسدي (العضوي) الغفل (الوجود بالقوة)، والشعور بالتمزُّق، وفقدان السيطرة –

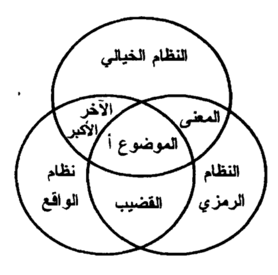
وتنتـهي بـأن يصـبح هذا اللاشيء كل شيء، إن اسـتطاع أن يجـد له مكاناً في قلب الوجود، وامتلك ناصية الكلم، ذلك الذي يجعل منه دالاً قابلاً للتداول عبر شبكة الذوات التي غزل نسجها القانون والثقافة؛ وإن كان الأمر كذلك، فكيف تتكامل تلك الأنظمة الثلاثة في وحدة كلية تتضمّن ذلك التباين؟ تمكّن **لاكان** من طرح مفهومه **العُقدَة البرومينية** Borromean Knot، والذي من خلاله يتبيّن كيف تتكامل الأنظمة الثلاثة.

ولقد كان استخدام **لاكان** لمفهوم العُقدَة البرومينية على سبيل التشبيه، وذلك لوصف العلاقة بين الأنظمة الثلاثة: الخيالي، والرمزي، والواقع من التجربة المعرفية التي تنطوي على جدل الأنا والآخر في المرحلة المرآوية، والعُقدَة البرومينية هي العُقدَة – بالمعنى الحرفي الذي يشير إلى انعقاد الحبل أو الخيط – التي تتكون من ثلاث حلقات، وتمثّل العُقدَة البرومينية الشارة Badge التي كان يضعها الجيش البروميني على حلته العسكرية، كإشارة للأسرة البرومينية المترابطة (٢٢: ٣٧٣)، (٨١ : ١٢١).

وتتكوّن العُقدَة البرومينية من ثلاث حلقات، كل حلقة يتحدّد فيها فراغان: أحدهما داخلي، والآخر خارجي في مركز الحلقة، وتشير هذه الفراغات إلى النقصان والغياب، أو حتى الموت، بالإضافة إلى ذلك فإن الفراغ الخارجي يلعب دوراً أساسياً في ربط الحلقات (١٦١).

وترتبط تلك الحلقات الثلاث بشكل متداخل ثلاثي، بحيث إذا انفكت حلقة منهم، انفكت الحلقتان الأخريان، وتُمثّل الحلقة الأعلى النظام الخيالي الذي تسيطر عليه صورة الجسم، وتتداخل مع حلقة النظام الرمزي وحلقة الواقع محققة للمعنى ولذة الآخر الأكبر (اللغة)، وترتبط العُقَد الثلاث بالموضوع الصغير المحرك للرغبة – الموضوع أ – (الدون) في تآزر مع لذة الدال النهائي للاشعور (القضيب) (٨١ : ١٢١–١٢٢).

ويمكن إيضاح العُقدَة البرومينية، وتكامل الأنظمة الثلاثة: الخيالي، والرمزي، والواقع من خلال الشكل التوضيحي التالي:



شكل رقم (١٦) يُبيِّن العُقدة البرومينية.
وتكامل الأنظمة الثلاثة

وبهذا فإن سقطت أية حلقة من الرابطة، انهار التكامل وحل الاضطراب في اتجاه الحلقة التي تخفي الأخرى، فالدوال المميزة التي تربط هذه الأنظمة هي: **الدال الخيالي**: والذي يستمد وجوده من البدن المتخيل، أو الموضوع الصغير المحرك للرغبة، **والدال الثقافي**: حامل النسب، أو الرغبة النهائية للعقل البشري في أن يكون السيد، والقانون، والمرتبة الأسمى (القضيب)، فمع الموضوع الصغير الخيالي، أو موضوع الرغبة تتحقق هوية التماسك، أو الكينونة المتخيلة التي تتآزر مع الكينونة الرمزية محققة للهوية بين عناصرها الثلاثة التي تبقى لازمة لتكامل الوجود البشري وتماسك الذات (٨١ : ١٢٢).

وللتأكيد على أهمية هذه الرابطة البرومينية بالنسبة للأنظمة الثلاثة ذهب **لاكان** إلى تناول الذُهان باعتباره انحلالاً للعُقدَة/الرابطة البرومينية، كما أنه أدخل عام ١٩٧٥ مفهوماً جديداً، وهو **السنتوم** Sinthome كحلقة رابعة تعمل على ترابط الحلقات الثلاث الأخرى (١٤١:١٨).

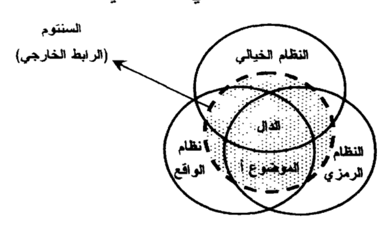
وتعني كلمة سنتوم – بالترجمة الحرفية – **الرجل القديس** فـ Sint تعني القديس، في حين تعني Home الرجل، ولقد استمد **لاكان** هذا المفهوم من أعمال

الروائي **جيمس جويس**(*) . وتدور دلالة السنتوم حول أولئك الأفراد الذين بالرغم من المعاناة التي يعايشونها على نحو يجعلهم على حافة هاوية السقوط الذهاني أو الجنون، إلا أنهم يجدون فكرة قديسية في الواقع تجعلهم مترابطين، ويظل جنونهم مخفياً، وبهذا يتحول اسم العلَم نفسه إلى رابط (٨١ : ١٩٥-١٩٦).

وبهذا ووفقاً لما ذهب إليه **لاكان** فإن السنتوم هو جوهر الإنسان، والسَّند الإيجابي للكينونة؛ كونه يمنح الفرد الترابط، وبهذا فهو النسق الذي يجنب الفرد الذهان، بتوفير الحد الأدنى من الاستمرارية، وفي حال عدم وجوده لا يتبقى شيء، ويصل الفرد لمستوى تدمير النظام الرمزي (١٩٨ : ٤٢٥).

ويُعَد السنتوم هو المفهوم الجديد الذي استخدمه **لاكان** للتعبير عن **العَرَض** Symptom، ولكنه عرض خاص، ينتج من الواقع، فهو ليس بالهلوسة أو الهذاء، ولكنه محاولة ترميمية لإيجاد رابط في الخارج يوثق الأنظمة الثلاثة (٨١ : ١٩٦).

ويمكن إيضاح موقع السنتوم – كحلقة رابعة – في العُقدَة البرومينية، ودوره كرابط للحلقات الثلاث – الأنظمة الثلاثة – كما في الشكل التالي:



شكل رقم (١٧) يُبيِّن السنتوم (الرابط) كحلقة رابعة في العُقدَة البرومينية

(*) روائي أيرلندي ينتمي للمدرسة السريالية، أهتم بالخطاب اللاشعوري لشخصياته الروائية، من أشهر رواياته **عوليس** ، والتي تناولت محورية مفهوم الأب بالنسبة للذات، والبحث عن الهوية بالسعي وراء فكرة الأب ، فمع توصل شخصيات الرواية للأب الرمزي استطاعت أن تلعب – هي الأخرى– دور الأب وتكون قادرة على الحب، وهذا ما استبصره **لاكان** من قراءته لإنتاج **جويس** الأدبي، حيث يتحول الاسم إلى رابط رمزي يؤمِّن للذات التماسك .

ثلاثيات لاكانية...

(البنية الثلاثية في الخطاب اللاكاني)

اتضح من خلال تناول بنية النظام الرمزي كيفية الانتقال من الدال الخيالي إلى الدال الرمزي الثقافي عبر تكوين الاستعارة الأبوية، وكان مُركَّب أوديب بمثابة بنية ثلاثية نموذجية تُناقض كل العلاقات الثنائية الخيالية، حيث تبدَّت وظيفة الأب الفاصلة التي تحوِّل العلاقة الثنائية بين الطفل وأمه إلى بنية ثلاثية، ومن هنا فلقد لاحظ الباحث الدور الهام الذي أولاه **لاكان** لكل بنية ثلاثية، ورفضه لكل علاقة ثنائية مُغرَقَة في السجل الخيالي بأوهامه وتغريبه.

وباستعراض الخطاب اللاكاني يتضح استخدام **لاكان** لمفاهيمه بشكل ثلاثي؛ فمثلاً – وذلك من قبيل الاستشهاد لا الإحصاء – تتضح تلك الثلاثية في مفاهيم: الأب (الخيالي، الرمزي، الواقعي)، الأم (الخيالية، الرمزية، الواقعية)، القضيب (الخيالي، الرمزي، الواقعي)، الأنظمة (خيالي، رمزي، واقع)، المرحلة المرآوية (قبل مرآوية، مرآوية، بعد مرآوية)، كما أنه استخدم ثلاثية مفاهيم: الأنا، الذات، الآخر، وثلاثية: الحاجة، الطلب، الرغبة، وثلاثية البنية الإكلينيكية: العُصاب، الذُهان، الانحراف، وهكذا فإن المفاهيم اللاكانية أتت على هيئة ثلاثية، ولهذا يُفضِّل الباحث عرض بعض هذه الثلاثيات في إلماحة سريعة.

ثلاثية: الحاجة، الطلب، الرغبة:

١ . الحاجـة Need:

يشكِّل مفهوم الحاجة مجرد الخواء، أو نقص مستوى عنصر غذائي في الجسم، ويتم ترجمتها لدى الطفل في حالة التوتر الحركي والصراخ الذي يشير إلى حاجة الطفل للغذاء، أو قد يكون بسبب ضغط عصبي أيضاً ناتج عن ضغط الفضلات، أو الآلام الحشوية التي تستدعي الشكوى وطلب العون، وتنتمي الحاجة إلى نظام الواقع (الوجود في ذاته) (٨١: ١٣٥).

وبهذا فإن المفهوم اللاكاني للحاجة أقرب ما يكون إلى مفهوم الغريزة الفرويدي، ذلك أنها – كما تبيّن – مفهوم بيولوجي بحت مضاد لعالَم الدوافع، ولقد أكد **لاكان** على أن إشباع الحاجة يتم عبر تحويل الطفل لتلك الحاجة على نحو لفظي لغوي، أي يتم التلفظ بها لتصبح طلباً منطوقاً يتوجه به الطفل إلى الأم كي تشبع حاجته، فالحاجة هي توتر منقطع ينشأ عن أسباب عضوية بحتة، ويُفرَّغ في أفعال بعينها تناظر الحاجة (١٤١: ١٢١).

ويشير فيليب شملاِ إلى أنه لا ينبغي الانطلاق من الحاجة الطبيعية، بل من الطلب، وهو طلب مستمر يبقِي الطفل – خلال فترة زمنية – في حالة اعتماد مطلق على أمه، وحتى حين يطلب منها أكثر الأشياء تنوعاً، فإن كل مطلبه هو أن تمنحه حبها دون انقطاع (٩١: ١٠).

٢ . الطلب :Demand

كان ظهور المفهوم في الخطاب اللاكاني عام ١٩٥٨ بالرغم من ظهوره في الحلقة الدراسية للعام ١٩٥٦–١٩٥٧، حيث قام **لاكان** في هذه الحلقة الدراسية بمناقشة بكاء الطفل الموجه إلى الأم، حيث بيّن أن هذا البكاء ليس غريزياً، ولكنه يُدرَج في تزامن مع عالَم الصراخ الطفلي المؤسّس للنظام الرمزي، فيُدرَج في البنية الرمزية قبل تلَفُظ الطفل بكلام مفهوم بفترة طويلة، فلكي يستطيع الطفل إشباع حاجاته البيولوجية عليه التلَفُظ بتلك الحاجات بشكل صوت طلب معبَّر عنه بالألفاظ كي تستجيب الأم لحاجته، وكون موضوع إشباع الطفل يكون عبر الآخر؛ فإن الطلب سوف يتخذ دلالة إضافية هي طلب حب الآخر، فالطلب له وظيفة مزدوجة: التلَفُظ بالحاجة من ناحية، وطلب الحب من ناحية أخرى، وحتى بعد إشباع الحاجة يظل طلب الحب غير مشروط (١٤١: ٣٤–٣٥).

وبالرغم من أن الأم – وهي تمثّل الآخر الذي يتوجه إليه الطفل بالطلب – يمكنها إعطاء الطفل الموضوع الذي يُشبِع حاجته، إلا أنها ليست في وضع يمكّنها – بشكل تام – من أن تستجيب لطلب الحب، حيث إنها تخبر الانشطار نفسه، ويترتب على هذا الانشطار بين الحاجة والطلب رغبة شرهة لا تُشبَع (١٤١: ١٢٢).

ويتوجه الطلب إلى حقل الخيالي الذي يفي بإشباعات متخيلة، ولا تلبث أن تتزعزع ثقة الطفل في خياله وفي قدرته الخاصة، ويدرك مدى التبعية التي تفرضها طبيعة عجزه عن إشباع نفسه، فيخلع القدرة المطلقة الخيالية على الأم، وهنا تأخذ الأم قيمة رمزية أبعد من كونها مستودع اللبن، حيث يتمنى الطفل – بعد أن ينتهي من تحقيق الإشباع البيولوجي وهي الحاجة – أن يسيطر على الموضوع – أي الثدي – ويلتهمه أيضاً (٨١: ١٣٦–١٣٧).

ولقد قام **لاكان** عام ١٩٦١ بتناول مراحل التنظيم الليبيدي المختلفة كأشكال للطلب: فالمرحلة الفمية تتشكّل عبر طلب الغذاء، وهو طلب من الذات، بينما المرحلة الشرجية لا تتشكّل عبر طلب الذات، وإنما عبر طلب الآخر، والمتمثل في طلب الوالدين من الطفل بضبط عملية الإخراج، وفي المرحلتين الفمية والشرجية يحجب الطلب – عبر إشباعه – الرغبة، وإن كانت الرغبة تتشكّل في المرحلة التناسلية (١٤١: ٣٥–٣٦).

٣ . الرغبة Desire:

مفهوم الرغبة عند **لاكان** ليس مرادفاً للنزوة أو الهوى Whim، ولا يعني الأمنية Wish، وهذا ما يُعرَف بصورة شعورية، كما أنها ليست الحاجة، أو الطلب، إنما الرغبة هي: نتاج طرح الحاجة من الطلب، والذي يساوي النقص Lack، فالرغبة على هذا النحو هي المجاز الذي يشير إلى نقص كينونة الذات (٨١: ١٣٧).

فالرغبة هي رغبة في رغبة آخر، وكما تبيّن فلقد عرّفها **لاكان** بأنها مجاز النقص في الكينونة، وتتشكّل عند الحد الذي يصبح فيه الطلب منفصلاً عن الحاجة (٨٤: ١٧٤–١٧٥).

ولقد حدد **لاكان** الرغبة في الرغبة اللاشعورية، وليس أي نوع آخر، وهذا لا يعني عدم أهمية الرغبة الشعورية، ولكنه يدل على مركزية الرغبة اللاشعورية في التحليل النفسي، وهي رغبة جنسية، وتتصف بأنها نهمة (١٤١: ٣٦).

وهدف الرغبة هو الكمال، واستعادة الحالة الأولى للوجود (الكل في واحد)،

وتشكّل الرغبة مجاز الحياة، وإشباعها مجاز الموت، ولذا فهي تقاوم الإشباع، وتظل في إطار العوز والحرمان (٨١: ١٤٠).

والرغبة هي رغبة في الآخر الأكبر، وأساسها رغبة محارمية بالأم – الآخر الأولي –، وهي رغبة في شيء ما أيضاً – ولكن ليس فيما نملك – وموضوعها متغير دائماً – لذلك فالرغبة كناية –، وتظهر الرغبة في مجال الآخر الأكبر– أي في اللاشعور – وتتشكّل الرغبة عبر جدلية العلاقة بين الذوات، وملاحظة رغبات الذوات الأخرى (١٤١: ٣٧).

وتنتمي الرغبة إلى الحقل السرابي الذي يزحف أمام عين العطشان في صحراء الوجود، ومن طلب إلى طلب تتكون الرغبة حول موضوع مستحيل لا تفي الحاجة باستعادته لأنه ما بعد إشباع الحاجة، فالطفل يتخطى طلب اللبن إلى طلب الأم كوجود رمزي مفقود، فالرغبة تبدأ تتشكّل عند الحد الذي يصبح فيه الطلب منفصلاً عن الحاجة (٨١: ١٣٨).

ويمكن للباحث إيضاح الصيغة (المفهوم) اللاكانية: الرغبة هي رغبة في رغبة آخر من خلال العرض الذي قدّمه **إيفانز** كالآتي:

١ . الرغبة في أن أكون موضع رغبة الآخر، بمعنى أن أحصل على الاعتراف بي من قِبل الآخر، وهي فكرة استلهمها **لاكان** من **هيجل** – ولقد بيّن الباحث مدي تأثر **لاكان** بالخطاب الهيجلي، خاصة تلك الشروح التي قدّمها **كوجيف** للفلسفة الهيجلية – فالرغبة تكون إنسانية – فقط – إذا ما رغب الإنسان في الآخر، وليس في الجسد، بمعنى أن يرغب الإنسان في أن يكون مرغوباً فيه، ومعترفاً به من حيث قيمته كإنسان، وكَون الرغبة – بهذا المعنى – تكون موضوع رغبة الآخر، فإن هذا ما يلاحظ في الفترة الأولى من فترات مُركّب أوديب الثلاث، حيث يرغب الطفل في أن يصبح رغبة الأم أي القضيب.

٢ . إن الإنسان يرغب من منطلق رغبة الآخر، فموضوع رغبة الإنسان هو

أساساً موضوع مرغوب من الآخر، وليس سبب الرغبة هو صفة جوهرية فيه (١٤١: ٣٧-٣٨).

ثلاثية: الأنا، الذات، الآخر:

١ . الأنـــا: I

تمثِّل الأنا – في الخطاب اللاكاني – نتاجاً عيانياً للتوحدات الخيالية المتتابعة التي علَقَت في الذهن كقاعدة راسخة، فلقد نظر **لاكان** إلى الأنا على أنها نقطة التوتر في طبوغرافية **فرويد** عن: الهو، والأنا، والأنا الأعلى، بوصفها مكوناً أساسياً في نموذج جدلي حقيقي للذات الإنسانية (١٠٥: ٩٤).

ولقد شدد **لاكان** على أن بنية الأنا هي في الأساس بنية خيالية، حيث رأى أنه من المستحيل فصل الأنا عن الإرتهانات الخيالية التي تُكونها في كليتها، سواء في نشوئها، أو في وضعيتها، أو حتى في وظيفتها الحاضرة، لأنها تنطلق من آخر لأجل آخر (٧١: ١٢٢).

حيث تتشكّل الأنا في مرحلة المرآة – كما تم توضيحه سابقاً – بالتعيُّن بالصورة المرآوية، ولهذا فإنها تمثِّل المكان الذي يغترب فيه الفرد عن نفسه محوِّلاً نفسه إلى نفسه، وهذا الاغتراب الذي تُبنى الأنا على أساسه يُعتبَر مماثلاً في التكوين لتكوين البارانويا، ولهذا أكد **لاكان** على أن الأنا لها بنية البارانويا نفسها، ولذلك فالأنا تمثِّل مكوناً خيالياً يتعارض والذات والتي تمثِّل نتاجاً للنظام الرمزي – وهذا ما تبيَّن عند تناول مركَّب أوديب – ولهذا فإن الأنا تُعتبر إساءة فهم وإساءة تعرُّف للنظام الرمزي، كما أنها تُعتبر مركز المقاومة، وبهذا فإن الأنا مبني مثل العَرَض، بل تُعتبر هي العَرَض الأساسي في قلب الذات، وتُمثل العَرَض الإنساني المميَّز للمرض العقلي للإنسان بلا منازع (١٤١: ٥١).

٢ . الــذات: Subject

كان ظهور مفهوم الذات في أعمال **لاكان** الباكرة منذ عام ١٩٣٢، حيث استخدم **لاكان** المفهوم بطريقة ربطته بالخطاب الفلسفي، والقانوني، واللغوي، ولم

يختلف المفهوم في ذلك الوقت – في الخطاب اللاكاني – عن مفهوم الكينونة الإنسانية، وكان المفهوم يُستخدم – أيضاً – للإشارة إلى الشخص المحلّل نفسياً (١٤١ : ١٩٥).

والذات تتشكّل ويعاد تشكُّلها – وفقاً لـ **لاكان** – في المواجهة مع الآخر، حيث إن ما أبحث عنه في الكلام هو استجابة الآخر، وما يكّونني كذات هو سؤالي، وحتى الرسالة التي تبثها الذات تستقبلها من الآخر، وتتميز العلاقة بين الذات والآخر بوجود الرغبة التي تَعثُر على معناها في رغبة الآخر، ليس لأن الآخر يمسك بمفتاح الموضوع المرغوب؛ ولكن لأن الموضوع الأول للرغبة هو أن يعرفها الآخر (١٠٥ : ٩٨).

ويشير **جاك آلان ميللر** إلى أن الذات – حسب **لاكان** – ليست معطى أولياً، إن المعطى الأول هو الآخر الأكبر، ومن هنا يُطرح السؤال: كيف تتكون الذات لتحل محل الآخر الذي يسبقها في الوجود؟ ويعطي **لاكان** إجابات كثيرة يزداد تحديدها صعوبة شيئاً فشيئاً، وهي تتم على مستويات متعددة؛ **أولاً**: إن التجربة التحليلية تشكّل – هي نفسها – العملية التي يتحقق بها وجود الذات التي تكون في البدء غير محددة تحت وطأة الدوال (الهو الفرويدي)، **ثانياً**: ثم إن أي تشكُّل للاشعور يشهد على ميلاد ذات اللاشعور وبروزها في الوقت نفسه الذي يعمل فيه على محوها، **ثالثاً**: إن الذات هي ما يصدر عن الكائن الحي (الإنسان) بفعل اللغة (١٩ : ٨١).

ومن هنا – وكما بيَّن الباحث سابقاً من خلال عرض النظامين: الخيالي والرمزي – فإن **لاكان** قد ميَّز بين الأنا والذات من خلال انتماء الأولى – وتسجيلها – إلى النظام الخيالي، حيث تتشكّل عبر النظرة والصورة، في حين تنتمي الأخيرة إلى النظام الرمزي والدال اللغوي.

٣ . الآخـــر: Other/other

يأبى مصطلح الآخر بإصرار – أكثر مما يأبى أي مصطلح آخر من مصطلحات **لاكان** – أن يقتصر دوره على تقديم معنى واحد؛ ويقدِّم في تجلياته كلها نقصاً أو

فجوة للعمليات التي تقوم بها الذات، ويُفقِد الذات قدرتها على التفرد، أو الاستبطان، أو الإدراك، أو الاكتمال، أو التبادلية، ويتضمن عدم تدمير الرغبة بالحفاظ على أهدافها مُحلِّقة تحليقاً أبدياً (١٠٥: ٩٧).

وللتأكيد على ذلك يشير **ميللر** إلى أن لفظ الآخر - عند **لاكان** - لا يدل على معنى وحيد، فهو: الآخر الذي تفترضه اللغة، آخر الخطاب العام، ولكنه أيضاً الآخر الذي تفترضه الحقيقة، إنه هذا العنصر الثالث الذي يتوسط أي حوار بين اثنين، وهو مرجع الاتفاقات والمنازعات، إنه آخر طيب النية، وهو أيضاً الآخر الذي يفترضه الكلام، المتكلم الأساس، إنه هذا الذي يوجه إليه الخطاب، هو الآخر الذي لاشعوره هو الخطاب، إنه الآخر الذي يستفزني في عقر هويتي، وأخيراً هناك الآخر الذي يرغب كلاشعور يخفى على الذات التي تخضع له (١٩: ٨١).

ولقد ميَّز **لاكان** بين الآخر الصغير The little other (other)، وبين الآخر الكبير The big Other (Other)، حيث يشير الأول إلى الآخر المرآوي، الصورة المرآوية، ذلك الآخر الذي تتعيَّن به الأنا تعيُّناً أولياً عبر علاقة خيالية، وهذا ما أتى عليه الباحث عند تناوله لبنية النظام الخيالي، ويلتقي هذا المفهوم - الآخر الصغير - مع المفهوم اللاكاني **الموضوع أ**.

حيث إن الآخر الصغير والموضوع أ يوفِّق كل منهما بين حركة الرغبة وتعدد موضوعاتها بصورة غير محددة، ولكنهما يختلفان عند نقطة هامة، فبينما يحتل الآخر الصغير دوراً وسطاً بين الأنا والآخر، وينتمي بالتالي إلى الواقع الخيالي للتعيُّن المرآوي، يمثِّل الموضوع أ موضوع الرغبة التي تخترق وتُعبأ بالنقص - (ولقد أتى الباحث على هذا المفهوم سابقاً) - هو موضوع الرغبة، وهو في الطريق أيضاً ليصبح سبب الرغبة وشرطها (١٠٥: ٩٩).

في حين أتى مفهوم الآخر الكبير - وكما بيَّنت **كاثرين كليمان** - بمثابة المكان الغريب الذي يصدر عنه كل خطاب: مكان العائلة، والقانون، والأب ضمن النظرية الفرويدية، مكان التاريخ والمواقع الاجتماعية، مكان ترد إليه كل ذاتية، أن

نقول إن اللاشعور هو خطاب الآخر معناه أن نؤكد ثانية – وبصورة حتمية – على أنه لا وجود لخطاب حر، ومعناه أننا نعطي قانونه، والآخر أيضاً مكان ضمن بنية الذات (١٨:٩٥).

فالآخر الذي يجب تبجيله بحرف كبير – (أي Other) - يمكن أن يُعرَّف بتعريفات متنوعة: أب، موضع، نقطة، أي رفيق جَدلي، أُفق داخل الذات، أُفق وراء الذات، اللاشعور، لغة، الدال، إنه اسم الأب – الآخر الأصلي – الذي يضع فجوة بين الرغبة وموضوعها (أو موضوعاتها)، الآخر الذي تُقيَد به الذات – وترتبط به – على كل مستويات الخبرة طول الحياة، إنه مصدر اللغة، وهو – بالمثل – مصدر الذات، ويقدِّم شرطاً جوهرياً من شروط إنسانية الإنسان (١٠٥: ٩٩–١٠٠).

ثلاثية البنية الإكلينيكية: الذهان، العُصاب، الانحراف:

تحددت البنية الإكلينيكية في الخطاب اللاكاني في ثلاث بنى أساسية: الذُهان، والعُصاب، والانحراف، وذلك من خلال تواصل **لاكان** مع الفكر الفرويدي، حيث اعتبر **لاكان** أن كل بنية منها – الذُهان، العُصاب، الانحراف – تمثل بنية تمتاز عن الأخرى، ويتضح ذلك من خلال اللغة، فالتحليل النفسي اللاكاني ينظر لكل حالة إكلينيكية باعتبارها تختبر شيئاً، وبهذا فهي تجربة حاسمة في ذاتها، ويتم التعامل مع العَرَض عن طريق إعادة بناء شبكات التواصل والعلاقات بين الذوات من خلال تعبير المريض عن عَرَضه لفظياً، وهذا ما تبناه الشعار اللاكاني **العودة إلى فرويد**، العودة إلى حقل القول.

١ . الذُهــان Psychosis:

يرجع اهتمام **لاكان** بالذُهان إلى ما قبل عام ١٩٣٢، حيث قدَّم – منذ بداية اشتغاله بميدان الطب النفسي وحتى عام ١٩٣١ – العديد من المقالات التي تهتم بالبارانويا، والهلاوس، واضطرابات اللغة، وكلها تتصل بالذُهان والذُهانيين، وإن كانت أطروحته للدكتوراه – ذُهان البارانويا وعلاقته بالشخصية – قد أتت لتموضع تلك المقالات – غير المترابطة – في وجهة تنظيرية/ عيادية تبلورت عبرها رؤيته – أي

رؤية **لاكان** – الباكرة للذُهان، حيث انتهى من دراسته لحالة **إيمي** – وهي الحالة التي أُجريت عليها الأطروحة – بتقديم مفهوم جديد داخل أوساط الطب النفسي، وهو عقاب الذات البارانوي ، وتبع ذلك بمقاله – الأصيل – عن مرحلة المرآة – والذي تم تقديمه عام ١٩٣٦ بمارينباد، ثم عام ١٩٤٩ بزيورخ –، ذلك المقال الذي ألقى الضوء على الذُهان ومظاهر التمزق التي تتبدّى فيه، حيث يتجلي الذُهان عبر علاقة الذُهاني بجسده، ويتبع ذلك المقال بمقاليه عن العائلة وعرضه للعُقَد العائلية ودورها – الفاعل – في الباثولوجي، وفي ذلك المقال – الثاني – يفسر **لاكان** العُصاب والذُهان في ضوء العُقَد العائلية وصورها خاصة عُقدة الإقحام والصورة الأخوية، وتواصل الاهتمام اللاكاني بالخطاب الذُهاني عبر خطاب روما عام ١٩٥٣ ؛ حيث يُلقي **لاكان** الضوء على لغة الذُهاني مبيناً كيف أن الذات – لدى الذُهاني – تتموضع في لغة بلا جدَل لتصبح منطوقاً بها وليست ناطقة، ويتوج التتبع اللاكاني للذُهان ومظاهره وانكسارات الدال اللغوي فيه بتخصيص الحلقة الدراسيَة لعام ١٩٥٥–١٩٥٦ – كاملة – للذُهان، لتأتي حاملة عنوان **الأذهنة** وفيها يميِّز **لاكان** بين العُصاب بآلية الكبت Repression ، والذُهان بآلية الإغفال Foreclosure .

ولقد استند **لاكان** – في تفسيره للذُهان – إلى مفهوم **فرويد** عن الإغفال أو النبذ، واعتبره ميكانيزماً دفاعياً مميزاً للذُهان، كما استطاع – أي **لاكان** – أن يحل إشكالية ازدواجية المعنى الذي يتضمنه مفهوم النبذ والذي تناوله **فرويد** في مقالته الشهيرة عن النفي؛ باعتبار أن النفي أو الإنكار الشامل للواقع يتصل بدافع أولي يتضمن عمليتين متكاملتين هما: الاستدخال، والطرح خارج الذات، ولقد سمّى **لاكان** العملية الأولى وهي الاستدخال باسم الترميز الأولي؛ أما العملية الثانية وهي الطرد خارج الذات فتشكّل الواقع باعتباره الحيز الذي يظل خارج إطار الترميز، ويتمثّل الإغفال في عدم ترميز ما كان يتعين ترميزه عبر الخصاء لنجد أنفسنا أمام إلغاء رمزي، وما يتم إغفاله من النظام الرمزي يعاود الظهور في الواقع (٨١: ١٧٦) .

والإغفال يشير إلى عدم تكامل اسم الأب – حدوث خلل في وظيفة مُركّب أوديب، وحدوث نقصان لوظيفة الأب – في العالَم الرمزي للذُهاني، وبالتالي فالنظام

الرمـزي يكون بـه ثقوب، ولا تعني تلك الثقـوب في النظام الرمـزي للذُهاني غـيـاب اللاشعور، لكنها تعني عدم عمل اللاشعور (١٤١ : ١٥٥).

ولقد استند **لاكان** في صياغته للإغفال على وجود علة في العلاقة الثنائية، حيث يتم حجب القوانين الأبوية عن الاستدخال لتستقر عبر اللغة من خلال الاستعارة الأبوية التي تؤسِّس النظام الرمـزي، هذا الحـجب الذي يبـدو في صـورة نبـذ أولي أو إغفال لاشعوري للاستعارة الأبوية، حيث تبدو الظاهرة الذُهانية بالنداء الحاد على اسم الأب، يحاول أن يملأ مكانه الناقص في لاشعوره بموضوعات خارجية (٨١: ١٧٧).

ولقد أكد **لاكان** على ضرورة التمييز بين الذُهان كبنية إكلينيكية، والمظاهر الذُهانية والتي تتبدى في العديد من المظاهر أهمها: الهلاوس، والضلالات، وإن كانا شرطين ضروريين لظهور الذُهان، حيث إنه من الضروري وجود بناء ذُهاني لدى الذات، وأن تحدث معارضة رمزية لاسم الأب مع الذات (١٤١ : ١٥٥).

وفيما يخص الآلية التي يعمل بها ميكانيزم الإغفال في تشكيل البنية الذُهانية؛ فهي تتلخص في نبذ أولي لدال أساسي ورفض الخصاء، ويتمايز الإغفال – (الذي يعمل به الذُهان) – عن الكبت – (الذي يعمل به العُصاب) – بمعنيين: **الأول**: حيث لا تكامل الدلالات المغفلَة في لاشعور الشخص، **والثاني**: أنها لا تعود من الداخل بل تعود من قِبَل الواقع في الظاهرة الهلوسية بشكل فريد، فالذُهاني ينبذ/ يرفض الخصاء تماماً، كما لو كان لا يوجد خصاء بتاتاً، وهذا الإغفال أو النبذ للخصاء الرمزي يعود بصورة خصاء في الواقع على هيئة هلاوس (١٠٣ : ٩٣).

وبهذا فلقد حدد **لاكان** الذُهان في تلك الفجوة التي تحدث في النظام الرمزي والمتمثلة في سقوط اسم الأب، وهذا ما دفع **لاكان** إلى التأكيد على أهمية اللغة في الذُهان، حيث يُعَد اضطراب اللغة شرطاً أساسياً لتشخيص الذُهان، ولقد بيَّن **لاكان** الاضطرابات اللغوية لدى الذُهاني والتي تتمثل في: الجُمل الكاملة، الاستخدام المكثَّف للتعبيرات والتي قد تُكوِّن لغة جديدة صاغها الذُهاني – (يمتد اهتمام **لاكان** باللغة الذُهانية منذ اهتمامه بالكتابات الإلهامية للحالات الذُهانية التي قام بدراستها) – أو بعض الكلمات القائمة التي يُعيد الذُهاني تحديدها (١٤١ : ١٥٦).

٢ . العُصـــاب :Neurosis

العُصاب هو البناء الثاني في المنظومة اللاكانية الثلاثية (الذُهان، العُصاب، الانحراف)، حيث لا يوجد موقع للصحة النفسية أو السوية، فالسوية في المفهوم التحليلي سواء عند **فرويد** أو **لاكان** تُعَد خرافة، بينما نجد السواد الأعظم من البشر يقعون في دائرة العُصاب، وتظل بنية الإنسان هي بنية الاضطراب بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ، والفرق بين الأشخاص إنما يأتي من مستوى التوازن الفعال بين الأنظمة النفسية الثلاثة، فالشخص الذي نفترض فيه السوية هو الذي يستطيع أن يوازن بين الخيالي، والرمزي، والواقع، أما العُصابي فيحدث لديه خلل في مبدأ توازن هذه الأنظمة وهارمونيتها، فالعُصابي يفتقد المرجع الرمزي للدوال التي تتمحور حول الطلب في صورة سؤال، فالعُصابي يكبت مدلول أعراضه، ومع فقدان المرجع الرمزي للدال فإنه يرتد إلى مستوى من مستويات النظام الخيالي، حيث تغيب الوساطة بين الذات والفكرة، فهو لا يملك طريقاً للوصول إلى البُعد الرمزي لأعراضه، فيعيش خياله في الواقع (٨١: ١٩٨).

ولقد ربط **لاكان** البنية الإكلينيكية الثلاثية بالخصاء والتخييل، فرفض الخصاء يقبع في قلب الأبنية النفسية المَرضية، فالوضع السوي أو العادي للشخصية الإنسانية هو قبول الخصاء، وعدم إمكانية قبول ذلك يفضي إلى البناء العصابي، وبالتالي تظل الذات في حالة من الدفاع ضد النقص الذي تراه في الآخر، والذي يذكرها بالخصاء، ولقد صاغ **لاكان** البناء العُصابي وبنية التخييل بالنموذج الرياضي $ <> a الذي ظهر ضمن **مخطط الرغبة** عام ١٩٦٠، هذا النموذج الذي يحدد البناء العام للتخييل العُصابي، والذي يُعبر عن ارتباط الذات المنقسمة $ بالحفزات الغريزية، بموضوع الرغبة، بالأم، بالآخر الصغير (١٤١: ٣٣،٢٣، ٥٩-٦٠)،(١٠٣: ٨٦-٨٧).

وإذا كان الذُهان يمتاز – كما تبيَّن آنفاً – بالإغفال، فإن العُصاب يمتاز بالكبت، فالكبت هو جوهر العُصاب، وبه تتحول الرغبة الشعورية المستهجنة إلى اللاشعور لتمارس نشاطها على المسرح اللاشعوري، فهو – أي الكبت – لا يدمِّر هذه الذكريات أو المكبوتات، لكنه يأسرها في اللاشعور لتعاود الظهور بأشكال مشوهة: أعراض، أحلام، هفوات، والكبت عملية تَمثُّل: عقلي، فكري، وجداني، ولقد تحدَّث **لاكان** في البداية عن المدلول باعتباره موضوع الكبت، لكنه تخلى عن وجهة نظره؛ حيث أكد على أن الدال هو موضوع الكبت وليس المدلول، ولهذا فإن العَرَض يكون بمثابة الدال الذي كُبِت مدلوله في لاشعور الشخص (١٤١: ١٦٥)،(١٠٣: ٩٢).

٣ . الانحـــراف: Perversion

حدد **لاكان** الانحراف باعتباره بنية إكلينيكية وليس شكلاً سلوكياً، وبذلك التحديد يمكن التمييز بين الفعل المنحرف وبنية الانحراف، ففي الوقت الذي توجد فيه أفعال جنسية منحرفة تكون مرتبطة تماماً ببنية منحرفة فإنه من الممكن أن تكون مثل هذه الأفعال غير مرتبطة بأية موضوعات للانحراف، ومن الممكن أيضاً ألا يرتبط المنحرف بأي فعل انحراف (٨١: ٢١٧).

وتنشأ بنية الانحراف من خلال طريقين أساسيين: **الأول: إنكار المعيار الرمزي والخصاء**، حيث يُنكِر المنحرف أو يتنكر للخصاء، فهو يدرِك افتقار الأم للقضيب، وفي الوقت نفسه يَرفُض قبول حقيقة هذا الإدراك الصدمي، وهذا هو المظهر الأساسي للفيتيشية Fetishism(*)، ويشير الفتش أو الأثر إلى البديل الرمزي للقضيب الأمومي المفقود، ولا تتوقف العلاقة المعقدة بالقضيب بالفتش كبديل رمزي ولكن تتسع لكل

(*) في عرضه للفيتيشية بيَّن **حسين عبد القادر** أن **فرويد** قد أشار إلى المفهوم في كتابه **ثلاث مقالات في نظرية الجنسية** – (مثبت في قائمة المراجع) – باعتبارها بديلاً – غير ملائم – للموضوع الجنسي السوي، فهي – والحالة هذه – نوع من الانحراف الجنسي يُستبدَل بالموضوع السوي موضوعاً آخر متصلاً به وإن كان غير ملائم بالمرة لبلوغ الهدف الجنسي السوي. وعادة ما يكون الموضوع الجنسي البديل والأثير لدى الفيتيشي جزءاً من الجسم كالشَعر أو الأقدام، أو موضوعاً بعينه على صلة بالموضوع المحبوب وجنسه من قبيل أجزاء من الملابس الداخلية (٣٠: ٦٥٠).

أشكال الانحرافات الجنسية، فمشكلة الانحرافات تتأسس في كيفية إدراك الطفل، ففي علاقته بالأم يقوم بالتوحد مع موضوع خيالي يشكّل رغبة الأم (أي القضيب)، ولهذا فإن مثلث العلاقة قبل الأوديبي (الأم، الطفل، القضيب الخيالي) يلعب دوراً هاماً في بنية الانحراف، حيث يلعب القضيب وظيفة كشيء مخفي أو محجوب، **والثاني: الحافز** The drive، حيث يضع الشخص نفسه – عبر الانحراف – في علاقة مع الحافز، حيث يحدد الشخص نفسه كموضوع للحافز كواسطة للذة الآخر، لأن المنحرف لا يسعى من خلال انحرافه إلى تحقيق لذة خاصة به، ولكنه يتوهم بأنه يفعل ذلك من أجل استمتاع أو تلذذ الآخر الأكبر (٨١: ٢١٨-٢١٩).

ولتوضيح البنى الثلاث: الذُهان، والعُصاب، والانحراف، من خلال علاقتها بالآخر الأكبر بقوانينه، والرغبة وتنظيمها، يمكن للباحث الائتناس بكلمات **حسين عبد القادر** (*) – لتكون مختتم لعرض الباحث للبنية الإكلينيكية في النظرية اللاكانية – في تحديده لكل من: العُصابي، والذُهاني، والمنحرف، في الموقف التحليلي، وعبر التداعي الطليق، حيث يقول عن تداعي أصحاب البنى الثلاث: «نجد في العُصاب طلب الآخر الكبير، بينما في الذُهان سنجد هيلة الآخر الكبير وغياب الأب الرمزي، بقدر ما نجد في الانحراف لذة الآخر الكبير والموج الصاخب لتلاطم العلاقة بين القانون والرغبة»، ويضيف قائلاً: «وإن كان كلاهما (مرضى الذُهان، والانحراف) أسرى لبنية نرجسية، حيث لا يرى أي منهم في الآخر غير صورته هو، فمن ناحية سنجد غياب الرغبة وسيادة الأمنية الموجهة للآخرين – وإن لم تكن في حاجة إليهم، ومن ناحية أخرى سنجد غياب الموضوع في التمثل العقلي، باعتبار أن العلاقة النرجسية علاقة بين تمثُّل الذات وصنوها، فكأن النرجسي لن يستطيع أن يلعب دور الراغب، فالآخر موضوع غائب، وكأنها علاقة بلا هدف».

(*)**حسين عبد القادر محمد (٢٠٠٠): السيكودراما وعلاج مدمني البانجو بين الخيال والمتخيل**، برولوج تمهيدي، ورقة عمل مقدّمة للمؤتمر الأول لعلم النفس، بيروت، لبنان.

(٥)

الفصل الخامس

نماذج لدراسة الحالة

- الحالة الأولى: حالة إدمان خمـــور.
- الحالة الثانية: حالة إدمان حشيش.
- الحالة الثالثة: حالة إدمان هيرويـن.
- الحالة الرابعة: حالة إدمان منشطات (كوكايين، وماكستون فورت).

الفصل الخامس

نماذج لدراسة الحالة

مقدمـــة:

إن العلم نشاط قوامه البحث عن العلاقات الوظيفية بين الظواهر، وبهذا فالعلم يُعَد طريقة في التفكير أكثر من كونه طائفة من القوانين؛ فالمنهج العلمي ليس مجموعة من الوصفات المجربة الجاهزة والمستقرة، وليس لائحة بالقواعد التي يتوجب الالتزام بها في كل عصر وعند كل موضوع، بل هو نامٍ متطور (٦٤: ٤٨)؛ حيث يجب على مبحث العلوم ألا يوقف تدفُّق الفهم العام، أو يرتقي بحيث يصبح لوناً من ألوان المعرفة المستقلة، وإلا وقع فريسة للمدرسية، ما يُعَد عَرَضاً من أعراض الضعف الفكري، فلا سبيل إلا بتداول المفاهيم والنظريات (٢١: ٤٦).

ويتمثّل تاريخ المعرفة في سلسلة من النضال بين المألوف وغير المألوف؛ فنحن لا نفطن لمعارف جديدة دون جهاد ضد معارف سابقة، ويصدق ذلك أكثر ما يصدق على العلم بأحوال النفس؛ لأن إدراك جديد عنها تقويض لألفتنا بها (١١٠: ٢). إذن فالولوج إلى العلم يعني القبول بتحول عنيف، والذي يجب عليه أن يناقض ماضياً كان؛ فلا سبيل إذن غير وضع الثقافة العلمية في حالة تعبئة دائمة، إحلال المعرفة المغلقة والجامدة بمعرفة منفتحة وديناميكية، إدخال كل المتغيرات العلمية في حالة الجدل، وفي النهاية إعطاء العقل أسباباً للتطور (٢٠: ١٩٨، ٢٠٢).

وإذا كانت مصداقية الباحث – وبالتالي مصداقية البحث – في إطار العمل العلمي هي أن يجيب بالحقيقة على الواقع (٦٠)، فإن تلك الحقيقة لا يتم التوصل إليها عن طريق التأمل فقط، بل إنه يتم عن طريق البناء، والخلق، والإبداع (٢٧: ١٩٠).

وحيث أن لكل علم ظاهرة تمثّل موضوع البحث، فإن علوم الإنسان موضوعها هو الظاهرة النفسية، ظاهرات الأنس والمؤانسة، ظاهرات الوجود الإنساني، بما هو وجود في حضرة الآخر؛ تلك الظاهرة التي تُعرَف عبر كونها **ما يصدر عن الكائن البشري بفعل اللغة** (٨١: ٧٠)،(٨٧ : ٦).

وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لكل علم من حيث التفرُّد بظواهره، وإذا كان علم النفس موضوعه هو الظاهرة النفسية – والتي تتمثَّل في اللاشعور بالنسبة للتحليل النفسي – وما تقوم به اللغة من دور فاعل في تكوينها، فلا ينبغي – إذن – البحث عن مشكلات ينطبق عليها منهج لدينا؛ وإنما ينبغي البحث بالأحرى عن مناهج تسمح بحل المشكلات القائمة أمامنا (٣٥: ٤٤-٤٥)، بحيث يتناسب المنهج وموضوع البحث، والقول بأن هناك منهجاً وحيداً علمياً يطبَّق في كل بحث مهما اختلف ميدانه إنما يفترض افتراضاً ميتافيزيقياً (١١١).

وإذا كان الفهم والوعي بالظاهرة النفسية يُحتِّم علينا الابتعاد عن كل ما هو ظاهري وعَرَضي، والبحث في التجليات الباطنة التي تكشف عن جوهر العلائق بين الدوال والمدلولات بوصفها علاقات ضرورية (٣٢:٣٤٧)، حيث إن العلاقات المثالية هي إجمالات واضحة المعالم تعين على الفهم أكثر مما تعين على التفسير (٣٥ : ١٠٩)؛ لذلك فإننا نجد أنفسنا أمام خطاب؛ ألا وهو خطاب التحليل النفسي الذي يُقدِّم لنا جواباً على اللغز الذي يطرحه الفكر الإنساني (١٠: ١٧)،(٧٧: ٢٣).

وكلمة التحليل النفسي Psychoanalysis تدل على فعل هو التحليل Analysis، ينصب على موضوع معين وهو النفس Psycho، وتقوم بين الفعل وموضوعه علاقة الوسيلة بالغاية – أي المنهج بمجال البحث –، فالنفس منقسمة على نفسها، منها جانب شعوري نعلم صيغته المُركَّبة، وجانب لاشعوري لا نعلم صيغته بل نجهلها (٨ : ٩). وإذا كان الفعل هو التحليل، والموضوع هو الظاهرة النفسية يمثِّل المُركَّب، فإن تحليل المُركَّب يستوجب منهجاً مناسباً يقوم على ما يُسمَّى بالاستقراء المركزي بصيغة جاليلية تتيح كشف جوانب الظاهرة من خلال الدراسة الكلية للحالة النقية؛ ذلك المنهج المميَّز للدراسات النفسية؛ والذي يُسمَّى بالمنهج الإكلينيكي (٧٩: ١٢).

ويُعرَّف المنهج الإكلينيكي باعتباره الدراسة العميقة للحالات الفردية بصرف النظر عن انتسابها إلى السوية أو المرض، ويمثِّل الموضوع الدراسة المُركَّزة العميقة لحالة فردية، أي دراسة الشخصية في بيئتها، فدراسة الشخصية لا تتطلب منهجاً كمياً

إحصائياً، بل تتطلب منهجاً كيفياً يستند إلى الحدس (١١٨ : ٣٦،٣٤)،(٣٥ : ٩-١٠)،(٤٦)،(٦١).

والمنهج الإكلينيكي - وكما ذهب إليه **صلاح مخيمر** - يعتمد في تناوله للوقائع إلى النهج الجاليلي، حيث إن العملية العلمية في صميمها ليست غير رد كثرة من الظواهر المتماثلة إلى وحدة النظرية التفسيرية أو القانون الفهمي، شريطة ألا يكون ذلك بتشوينها في فئات وأصناف على طريقة النهج الأرسطاليي في تناول الوقائع، بحيث تستخلص الخصائص المشتركة داخل الصنف لتعميدها ماهية لطبيعة هذا الذي يحتويه الصنف، بل تكون بردّ الظواهر المتماثلة وفقاً للنهج الجاليلي في تناول الوقائع إلى وحدة الأنموذج الهيكلي، والذي هو نمط كيفي يقيم العلاقة المثالية، وهذه التي تتجسد في الواقع العياني في تشكيلة التباينات أو التبادلات الوضعية بلغة الجشطلت لا نهاية لتباينها (٦٢).

وبهذا فإن لُب المنهج الإكلينيكي - بل العملية العلمية عامة - إنما ينحصر في (إعادة بناء) بناء Reconstruction الوقائع في ذهن العالم (الباحث) في صورة النظرية التفسيرية أو القانون الفهمي؛ أي في صورة أنموذج هيكلي ونمط كيفي يقدّم العلاقة المثالية، هذه التي تتجسد في الواقع العياني في تشكيلة من التباينات لا نهاية لتباينها بتباين السياقات البيئية (٤٦ : ٣٣).

وفي قيمة المنهج الإكلينيكي كمنهج بحث في الإنسانيات عامة، وليس علم النفس فقط يقول **حسين عبد القادر** : إن مشروعية الوجود يستحيل أن تقوم إلا من خلال الآخر والوعي به، حيث وعي الإنسان بذاته باعتباره رغبة في رغبة، تلك الرغبة الإنسانية خالقة الوعي، والتي لا تقوم إلا على تواصل بالآخر...وإذا كان موضوع علم النفس هو الإنسان، فإن هذا الإنسان هو الفاعل، والمفعول به في الجملة الدلالية، والذي يمثّل ماضياً، وحاضراً، ومستقبلاً بما يحمله من تناقض متحقق في عالَم الواقع، حيث وجوده الفعلي إنما هو نتاج صراع من تلك الديناميات المتناقضة التي تنصهر في الفرد، والذي يجب أن تقوم دراسته مستندة إلى تراكم المعرفة حيث البداية من الصفر المطلق لم يعد لها معنى في تاريخ البحث الفعلي، لذا فإن الوعي

بالذات وبالموضوع يُحتِّم الاستناد إلى المنهج الإكلينيكي، والذي يعتبره جمهرة من علماء المنهج ماهية المنهج في الإنسانيات بعامة لا في علم النفس بخاصة (٢٩ : ١٣).

ومن هنا فالعلم ليس بجداول رياضية ومعادلات إحصائية، بل ليس العلم بتجريبي معملي كما يتوهم البعض ممن يزعمون الالتزام بالموضوعية بعيداً عن كل ذاتية؛ مثل هذه الموضوعية التي يتوهمونها ليس لها من وجود إلا في أذهانهم، فالموضوعية العلمية تنبني دائماً في ذهن الباحث، ومن هنا تكون النسبية في العلم، ومن هنا تكون الذاتية بمثابة الرحم الذي يتمخض عن الموضوعية العلمية (٤٦ : ٣٣).

فالموضوعية الحقة تكون في هذه الوثبة الكيفية من ذاتية التخيلات والأخاييل إلى التأويل الذي يبني الوقائع بناءً جديداً في صورة أنموذج هيكلي، نمط كيفي من العلاقة المثالية بحيث تكون الحالات الأخرى المماثلة مجرد تشكيلة تباينات، مجرد تبدلات وضعية لذلك الأنموذج الهيكلي، فما من سبيل لتخطي الذاتية إلى موضوعية التأويل الحق إلا بالرجوع إلى ما وراء الذات بحيث يمسِك الإكلينيكي بنفسه ضمن إطارها الحقيقي؛ أي ضمن قاعها اللاشعوري (٥٩ : ٥).

وإذا كان كل تحليلي هو إكلينيكي، فإن التحليل النفسي لا يمتاز عن المنهج الإكلينيكي إلا بالعمق والوعي، حيث يدل اصطلاح التحليل النفسي وفقاً لتحديد **فرويد** على ثلاثة أشياء وهي: **أولاً**: منهج للبحث في العمليات النفسية التي تكاد تستعصي على أي منهج آخر، **ثانياً**: فن لعلاج الاضطرابات العُصابية (النفسية)، يقوم على منهج البحث المذكور، **ثالثاً**: مجموعة من المعارف النفسية يتألف منها نظام علمي جديد (٣٣). فالدراسة المتعمقة للإنسان – بما هو إنسان – لابد أن تبدأ بأسلوب البحث في التحليل النفسي (١١١)؛ فإن علوم الإنسان لا تعرف الإنسان إلا في حضرة الآخرين – أقبل عليهم أو أعرض عنهم – هم دائماً وأبداً مرآة وجوده (٨٧ : ٧).

وكما تبيَّن من النص السابق – عبر العرض الذي قام به الباحث لديناميات

البناء النفسي وفقاً للخطاب اللاكاني، والرؤى التحليلية النفسية المفسرة للبنية النفسية للمدمن – أن الظاهرة موضوع الدراسة تتشكّل عبر شبكة ديالكتيكية بين الذوات، وإذا كان الفهم يزداد عمقاً من خلال خطاب التحليل النفسي اللاكاني فقوامه اللغة، فإن الباحث – في نطاق معرفته وحدسه – يرى أن منهج التحليل النفسي وخطابه – في نصه اللاكاني – هو المنهج المناسب لتناول الظاهرة موضوع الدراسة. ولا يدّعي بذلك الباحث قدرته على الاستخدام التقني لمفاهيم خطاب التحليل النفسي عامة، واللاكاني خاصة وذلك لسببين: **الأول يتصل بالباحث** كونه في طور المرآة مستَلَباً – وإن كان استلابه إيجاباً – تتشكّل بنيته المعرفية عبر خطاب المُعلِّم، **والثاني يتصل بالمنهج ذاته**، والظاهرة في بيئتها، فمنهج التحليل النفسي يتطلب تطبيقه فترات زمنية طويلة، كما يتطلب بنية ثقافية خاصة لحالاته، وهذا ما يظن الباحث افتقار بيئتنا الثقافية له، وهو كفيل بتحريك الدفاعات اللاشعورية المتمثّلة في المقاومة لكل فعل تحليلي، والتي كانت قَدَراً وُلِدَ مع ميلاد الفكر/الخطاب التحليلي.

من أجل ذلك فإن الباحث يُفضّل استخدام المنهج الإكلينيكي بأدواته، وفنياته، وقدرته على سَبر أغوار النفس، ولكن في إطار مفاهيم التحليل النفسي عامة، واللاكاني خاصة؛ كونه البنية المعرفية النظرية التي ينطلق منها الباحث، وكونه أيضاً علاقة جدلية يكون أحد طرفيها الباحث والطرف الآخر العينة، والتي تتحدّث من خلالها الظاهرة موضوع الدراسة. ومن المتعارف عليه أن المنهج الإكلينيكي يعتمد على دعامتين: الأولى هي **المقابلة** والتي إن دلّت فلا تدل سوى على ذلك التواصل الجدلي بين طرفين – يمثّل الباحث أحدهما، في حين تكون العينة الطرف الثاني – عبر الدال اللغوي، أما الدعامة الثانية فهي **الإسقاط** والذي يتم عبر الاختبارات الإسقاطية؛ وإن كان من استنتاج من تلك الدعامتين، فهو ذلك الشيء الجلي بأن التحليل النفسي يُعَد – وعن حق – الأنموذج الأنقى – والأرقى، والأكثر عمقاً، والأكثر قدرة على الكشف – للمنهج الإكلينيكي. ومن هنا كانت الأدوات التي استند إليها الباحث في دراسته كالآتي:

١ . المقابلة الإكلينيكية.

٢ . ملف الفحص النفسي، إعداد **عبد الله عسكر** .

٣ . اختبار تفهم الموضوع، إعداد **موراي، مورجان** .

العينـة وخصائصها

تكونت العينة من أربع حالات من مدمني الهيروين، والكوكايين، والحشيش، والخمور ، وهي المواد الإدمانية الأربع التي تم انتقاؤها – كما بيّن الباحث سابقاً – من بين فئات المواد المخدرة والمسكرة لتكون موضع الدراسة؛ وأتت مفردات العينة كالآتي:

* تمثّلت مفردات العينة في أربع حالات من الذكور تم توزيعها على المواد الأربع بواقع حالة لكل مادة ، ولقد تراوحت أعمار الحالات ما بين ثلاث وعشرين وخمس وثلاثين سنة.

* حَرِصَ الباحث على أن يكون لمفردات عينة الدراسة من مدمني الخمور والحشيش تاريخ تعاطٍ لا يقل عن ثلاث سنوات دون انقطاع؛ بواقع مرتين – على الأقل – في الأسبوع، ويرجع ذلك إلى محاولة تجنب أن تكون مفردات العينة غير مدمنة، بمعنى أن تكون مفردات العينة تقع في فئة التعاطي بالمناسبة – وهي أحد فئات التعاطي، ولقد وضّحها الباحث سابقاً – خاصة أن مادتي الحشيش والخمور – وإن كان الحشيش في المقام الأول وبالأخص – لا ينتج عنهما ذلك الخلل/الاضطراب النفسي، والعضوي، والاجتماعي السريع والحاد، والذي يتطلب معه اللجوء إلى طلب العلاج، وهذا بخلاف ما يترتب على إدمان مادتي الهيروين والكوكايين من آثار سلبية حادة، وهذا ما أتى عليه الباحث – أيضاً – عند تناول المواد الإدمانية الأربع.

* أتت مفردات العينة لمادتي الهيروين والكوكايين ممن شُخّصوا طبياً على أنهم حالات إدمانية – اعتماداً نفسياً بدنياً على مادة مؤثرة نفسياً – كما أنهم تلقوا بالفعل معاملة/تدخلات علاجية دوائية، أو نفسية، أو كليهما؛

وإن كانوا لم يُقلعوا عن التعاطي.

* نظراً لعدم اقتصار المدمن بصورة عامة – ومفردات العينة بالتبعية بصورة خاصة – على إدمان مادة واحدة – وهو ما يُعرَف بالتعاطي المتعدِّد – فقد حَرَصَ الباحث على أن تكون المواد الأربع موضع الدراسة هي المواد الأساسية لدى مفردات العينة – حسب توزيع مفردات العينة على المواد الأربع – حتى وإن كان يتم جمعها بمادة أخرى، تستخدم كبديل مؤقت في حالة عدم توافر المادة الأساسية، أو مقترنة بها.

* تم مراعاة أن تكون مفردات عينة الدراسة في حالة عادية – أي ليست تحت تأثير المادة المخدرة/المنشطة، أو المسكرة – أثناء إجراءات تطبيق أدوات الدراسة.

* حَرَصَ الباحث على استخدام عدد من الفنيات العلاجية – وإن كان الباحث قد استخدمها كأدوات تشخيصية، أو بمعنى آخر استكشافية لمفردات عينة الدراسة – المتَّبعة في علاج مدمني المخدرات والمسكرات مع مفردات العينة – كالعلاج الجمعي، والسيكودراما، وجلسات النقاش الجمعي الحر، وغيرها – قبل إجراءات تطبيق أدوات الدراسة، ولم يكن هذا بهدف العلاج، بل كان لعدة أسباب يمكن للباحث عرضها من خلال عدة نقاط منها:

١ . كسب ثقة مفردات العينة بخلق نوع من التواصل بينها وبين الباحث؛ خاصة مع ما يُعرف عن المدمن من صعوبة التواصل مع الآخرين، وما يسيطر عليه من مشاعر توجُّس وعدم ثقة في الآخر، وما يترتب على ذلك من عدوانية في التواصل.

٢ . تكوين صورة عامة عن شخصية كل حالة من الحالات، وذلك من خلال تفاعلها مع الآخرين خاصة في جلسات العلاج/النقاش الجماعي، وهذا تجنباً لصفة المدمن الأساسية وهي أنه إخباري، بمعنى أنه يتصف

بالكذب، والمراوغة، ولا يُوثَق فيه بشكل أو بآخر.

٣ . التعرف على طبيعة الخطاب وبنيته، وكيفية استخدام الدال اللغوي لدى مفردات العينة، وهذا ما تتيحه جلسات النقاش الجماعي الحر.

٤ . التعرف على تجليات اللاشعور في رسالة مفردات العينة، وذلك بتفعيل بنية الخيالي لديها – حيث يتم تحويل الصورة إلى كلمة/رمز – خاصة في جلسات السيكودراما، وما تبديه تلك الفنية الفاعلة – عن حق في علاج مرض الإدمان – من آليات لاشعورية كالإسقاط، والتعيين الذاتي.

إجراءات التطبيق

حَرص الباحث عند إجراء المقابلة – قدر المستطاع – على أن يجعلها تسير وفق فنية التداعي الحر، وذلك لعدة أسباب منها:

* طبيعة البنية المعرفية والمرجعية النظرية للباحث، والتي تمنعه من الخروج عن السياق التحليلي وآليته الرئيسية – بل الوحيدة – وهي الكلام.

* طبيعة الدراسة وهدفها، فالدراسة تهدف إلى إلقاء الضوء على بنية النظام الخيالي، وهذا الخيالي– وكما بيَّن **لاكان** – لا يأخذ معنى، ولا يمكن النفوذ إلى قوته إلا بتحويله إلى لغة، كلام.

* المنهجية التي تبناها الباحث للدراسة وهي المنهج الإكلينيكي في صورته التحليلية، والمنهج الإكلينيكي تتجلى دعامته الرئيسية في الدراسة المتعمقة للحالة الفردية، ومن هنا فلا سبيل إلى ذلك التعمق سوى بالإمساك بالقاع اللاشعوري للحالة، وهذا يتحقق – فقط، وفي حدود رؤية الباحث – عبر التداعي الحر للمفحوص، دون تقيُّد بقوالب ثابتة من أسئلة تُلقى على المفحوص، وإن كان هذا لم يمنع من تدخل الباحث – من حين لآخر – في سياق التداعي من أجل توجيه تداعي المفحوص نحو المناطق التي تُمثِّل – حسب رؤية الباحث – مراكز صراع في بنيته النفسية، سواء أكان

هذا الصراع شعورياً؟ أم لاشعورياً؟.

* وجَد الباحث أن المدمن – بصورة عامة – لا يُفضِّل الكلام عن نفسه بصورة مرسلة، بمعنى أنه يُفضِّل أسلوب الاستجواب لأن هذا الأسلوب – وكما اتضح للباحث – يُمكِّنه من المراوغة والكذب، لهذا وجَد الباحث أن إعطاء المدمن الفرصة للاستبصار بلاشعوره – قدر المستطاع – قد يساعد على كشف تلك البنية اللاشعورية، وهذا لا يمكن تحقيقه بطريقة الاستجواب.

* اعتمد الباحث على ملف الفحص النفسي والذي يشتمل على المقابلة الموجهة، والتي تشتمل على أحد عشر حقلاً تطوق الحالة المدروسة وتاريخها على نحو شمولي، وهذا أعطى الباحث قدراً من الحرية في جعل المقابلة الإكلينيكية طليقة بالقدر الذي يعطي الحالة الفرصة للتعبير عن مكنوناتها دون تقيد بقوالب ثابتة من الأسئلة. ولهذا أتت المقابلة الإكلينيكية – مع جميع حالات الدراسة – على هيئة التداعي الحر، حيث تكلم كل مفحوص بحرية تامة عن نفسه كما يراها، وكما يرى رؤية الآخرين لها، وكما كان يتمنى أن تكون عليه.

ولقد تمت إجراءات تطبيق أدوات الدراسة من خلال عدة خطوات يمكن للباحث عرضها كالآتي:

* عمَدَ الباحث – وكما أشار إليه آنفاً – إلى استخدام عدد من الفنيات العلاجية مثل: العلاج الجمعي، والسيكودراما، والنقاش الجماعي الحر، وغيرها، وذلك قبل تطبيق أدوات الدراسة، ولقد بيَّن الباحث مبررات استخدام تلك الفنيات، كما وضَّح أنه لم يوظفها كفنية علاجية بقدر ما أَنِس إليها كأداة تشخيصية مكَّنته من التواصل مع حالات الدراسة، وتم تطبيق تلك الفنيات – وغيرها من الفنيات المستخدمة في ميدان علاج الإدمان – على مدار ثماني جلسات بواقع جلستين في الأسبوع.

* تم تطبيق المقابلة الإكلينيكية بعد استخدام الفنيات العلاجية سابقة الذكر، ولقد تراوحت جلسات المقابلة ما بين جلستين إلى ثلاث جلسات تبعاً لتداعيات الحالة.

* تم تطبيق الجزء الخاص بمرضى تعاطي المخدرات والمسكرات من ملف الفحص النفسي، بالإضافة إلى المقابلة الموجهة - والتي يتضمنها الملف أيضاً - وذلك في جلستين.

* تم تطبيق اختبار تفهم الموضوع وذلك بواقع جلستين إلى ثلاث جلسات تبعاً لتداعيات الحالة؛ ولقد استخدم الباحث عشرين بطاقة من بطاقات الاختبار تم تقسيمها إلى مجموعتين: المجموعة الأولى اشتملت على البطاقات:١، ٢، ٣ ص.ر، ٤، ٥، ٦ ص.ر، ٧ ص.ر، و٨ ص.ر، ٩ ص.ر، ١٠، أما المجموعة الثانية فاشتملت على البطاقات: ١١، ١٢ ر، ١٣ ر.ن، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧ ص.ر، و١٨ ص.ر، ١٩، ٢٠ .

الحالة الأولى: حالة إدمان خمور

بيانات أولية:

الاسم: م. **السن:** ٢٦ سنة. **النوع:** ذكر. **الحالة الاجتماعية:** أعزب.
مستوى التعليم: جامعي. **العمل:** مصمم ديكور بأحد دول الخليج.

الوضع العائلي:

الأب: متوفى، وكان سنه عند الوفاة ٦٥ سنة، سبب الوفاة الإصابة بمرض السرطان، مستواه التعليمي متوسط، كان يعمل بالداخلية مساعد شرطي ، كان تواصل الحالة مع الأب – كما بيِّن المفحوص – ضعيفاً جداً (مكنش بيني وبينه أي كلام أو تعامل)، وأتى وصف المفحوص للأب بأنه (طيب كان غلبان...في حاله ملَوش دعوة بحد...يرجع من الشغل يطلع فوق السطح يقعد في غيِّة الحمَام بِأَكْلُه ويشرَبه).
الأم: ٦٠ سنة، تقرأ وتكتب، ربة منزل، لم تتزوج بعد وفاة الأب، حالتها الصحية سيئة، تواصل الحالة مع الأم – كما بيِّن المفحوص – متوسط، وأتى وصفه إليها بأنها طيبة (آه...طيبة، بالرغم إني لما بزَعَّلها بحِس إنها تستاهل ده...مش عارف ليه).

الإخوة: للحالة أربعة إخوة منهم أخ ذكر وثلاث أخوات، وأتى ترتيب الحالة الأخير، حيث أتى ترتيب الإخوة كالآتي: الأخت الكبرى آ ٤٣ سنة، الأخت م ٤٠ سنة، الأخ ب ٣٦ سنة، الأخت ن ٣١ سنة، ثم الحالة م ٢٦ سنة.

١ . الأخت آ : ٤٣ سنة، جامعية، تعمل مُدرسة، متزوجة ولديها أربعة أبناء، وبالرغم من تأكيد المفحوص على أنها – أي الأخت آ – مثلت له – ولفترة طويلة من حياته – الأم، والأب، والصديقة، وأن علاقته بها جيدة، إلا أنه لم يستطع أن يحدد نمط شخصيتها حيث قال: (أنا مش عارف هي طيبة والاَّ شريرة ومتسلطة؟).

٢ . الأخت م : ٤٠ سنة، جامعية، تعمل مُدرسة، متزوجة ولديها ثلاثة أبناء، أتت علاقة المفحوص بها – وكما أشار هو إلى ذلك – جيدة، كما وصفها بأنها طيبة جداً.

٣ . الأخ ب : ٣٦ سنة، طبيب وأستاذ جامعي، متزوج ولديه ثلاثة أبناء، علاقة الحالة به ضعيفة جداً، وأتى وصفه – أي المفحوص – له بأنه شرير؛ ولقد لعب الأخ ب دوراً فاعلاً في اتجاه الحالة نحو الإدمان، وهذا ما ستكشف عنه تداعيات الحالة أثناء المقابلة، ٤ . الأخت ن : ٣١ سنة، جامعية، تعمل مهندسة، متزوجة ولديها ثلاثة أبناء، وأتت علاقة الحالة بها – كما بيّن المفحوص – جيدة جداً، وبالرغم من التواصل الجيد بين الحالة وأخته، إلا أنه رآها متسلطة جداً تفرض سيطرتها عليه.

المقابلة الإكلينيكية

بدأ المفحوص كلامه واصفاً نفسه بأنه مهمّش: (م إنسان مهمش...حياته كلها أحلام...يخطط حلو...بس مفيش أي حاجة بتحصل في الحقيقة...كلها أحلام)، ثم استطرد قائلاً: (أنا معرفش أتكلم عن نفسي...مفيش حد طلب مني قبل كده إني أتكلم عن نفسي...أنا أفضّل إنك تسألني وأنا أجاوب...)، ولقد قابل الباحث طلب المفحوص بالصمت، ما دفع المفحوص إلى الكلام مرة أخرى حيث انتقل حديثه إلى العائلة وعلاقته بأفرادها: (همه اللي عملو مني ده...آه...أنا ملقتش حد يسمعني، يكلمني، يفهمني...فشلو في إنهم يكسبوني...كنت وحيد...فانزلت الشارع أدور فيه على أي حد أكلمه ويكلمني...لقيت شلة صاحبتهم...علموني الشرب...كنت بلاقي نفسي معاهم) .

ولقد أبدى المفحوص اهتماماً واضحاً بأخيه ب ، حيث كان الحديث عن الأخ هو النقطة الأخيرة التي تتوقف عندها تداعياته في معظم الأحيان، ولقد أتى مجمل الوصف الذي قدّمه المفحوص للأخ مشيراً إلى مدى اضطراب العلاقة بينهما: (أنا فاشل إنما هو ناجح...ناجح قوي...جراح وأستاذ في الجامعة...سافر بلاد كتير راح انجلترا، وإيطاليا، وفرنسا...بيدرس، بيرفع من مستواه...هو اللي علمني الكذب...آه...كان بيضربني...بيضربني جامد...كل اللي كان بيني وبينه ذاكرت يا م ؟ آه ذاكرت...وطبعاً أنا مكنتش بعمل أي حاجة هو عايزها...في مرة مسك الخرزانة وقعد يضربني لحد ما تعب علشان شافني بشرب سجارة في الشارع...بعدها لما كان بيسألني بتشرب سجاير؟ كنت بقله بطلت...طبعاً أنا كنت بشرب مش بس

سجاير أنا كنت بشرب حشيش كمان)، ويسترسل المفحوص في تداعياته عن الأخ ب (استفرد بيه بعد جواز أختي الكبيرة آ لأنها كانت أبويه، وأمي، وصاحبتي...هي اللي كانت بتزاكرلي...كانت بتاخدني معاها كل مكان بتروحه الجامعة عند صاحباتها...أصعب يوم مر عليه وأنا صغير اليوم اللي اتجوزت فيه...حسيت إنها ضاعت مني...ومن وقتها ب بقى مكانها...كرّهني في الحياة...بس تخيل بالرغم من كرهي ليه أنا معجب بيه لأنه ناجح ويقدر يعمل اللي هو عايزه) .

ولقد لاحظ الباحث وجود آثاراً لحروق، أو جروح بذراع المفحوص اليسرى، وعند سؤاله عن طبيعة هذه الجروح في بداية الجلسات الفردية التي تم إجراؤها معه بيّن أنها كانت وشماً ثم قام بإزالته، ولقد استرجع المفحوص سؤال الباحث أثناء المقابلة الإكلينيكية، حيث أعطى إجابة جديدة: (إنت سألتني قبل كده عن الجرح اللي في إيدي...صح؟ ده كان وشم فعلاً بس مش زي مانت أتخيلت...ده كان وشم باسم ب أخويه...وشمته على إيدي عشان في كل لحظة يكون قدام عيني...أنا بكرهه...بس فجأة حسيت ومش عارف ليه إني لازم أتخلص منه...كنت شارب ودايس في الشرب مسكت السكينة وعملت اللي إنت شايفه ده) ، وللتأكيد على مدى كراهيته – أي المفحوص – للأخ يقول: (أنا بكون سعيد جداً لما بحرق دمه...في يوم قلي أنا هاخدك أعملك تحليل دم لأني شاكك إنك بتشرب مخدرات...وقتها نزلت اشتريت حقنة وسحبت الدم قدامه وقلتله خد حللي...هو قوي بس بحس إنه بقى يخاف مني....).

ولقد لاحظ الباحث أن المفحوص يتجنب الكلام عن الأب والأم كلية، ويتركز خطابه على الأخ والأخت الكبرى، لذلك أراد – أي الباحث – أن يستثير تداعيات المفحوص حول الأب والأم، فوجه إليه استفساراً: (ووالدك ووالدتك دورهم كان إيه في حياتك؟ وكنت شايفهم إزاي؟ يعني كلمني عنهم) ، وعند إشارة الباحث للأب أبدى المفحوص ملامح الاشمئزاز والشفقة في آن واحد، وبدأ تداعياته عن الأب: (ده كان راجل غلبان...غلبان قوي...سايب كل واحد يعمل اللي هو عايزه...كان بيشقى ويتعب علشان ولاده...بس مش كان ليه أي دور في حياتي ولا في حياة

إخواتي...يرجع من الشغل يتغدى ويطلع فوق السطح يفضل قاعد مع الحمام...أخويه ب هو اللي كان مسيطر على البيت...بس مش سيطر عليه إلا بعد جواز أختي...يارتها ما اتجوزت....).

وفي الجلسات السابقة لتلك الجلسة كان المفحوص قد أشار إلى حبه الشديد للأم، مبيناً أنها تُمثل له مصدر الحب والدفء، لكنه في هذه الجلسة بدأ يعطي تداعيات جديدة: (أنا بحب أمي جداً...وقلتلك الكلام ده قبل كده...بس النهارده حصلت حاجة غريبة...شديت معاها في الكلام جامد لدرجة إنها عيطت...كنت قبل ما أتكلم معاك لو شفتها بتعيط بحس إني بأنهار...الغريبة إنها النهارده لما عيطت مش حسيت باللي كنت بحس بيه بالعكس حسيت إني سعيد ولأول مرة أشوف إنها السبب في اللي أنا بقيت فيه...عشان كده حسيت بمتعة إنها بتتعذب...)، ولقد كشف المفحوص في جلسات سابقة للباحث أن الأم لا تمانع تعاطيه للخمور: (أمي بتسبني أعمل اللي أنا عايزه...وانا قلتلها إن الخمرة بتريحني...عشان كده تلاقي الخمرة عندي في التلاجة عادي).

وتبيّن عبر تداعيات المفحوص أنه في طفولته اعتاد أن يكون له شخصيتان: واحدة يتعامل بها في البيت، والأخرى كان يتعامل بها خارج المنزل، وإن كانت تداعياته – أيضاً – قد بيّنت رفضه للشخصيتين، وكان مبرره – كما أشار – أن الشخصيتين لا تمثلانه لأنه يعتقد أنه شخص آخر، بمعنى أن له شخصية ثالثة يعتقد أنها تمثله عن حق لكنه عاجز عن تحديدها: (أنا كنت في البيت م المؤدب اللي بيسمع الكلام بس في الشارع بره البيت يعني كنت ببق واحد تاني أنا نفسي كنت باستغرب إزاي م اللي في البيت نعم وحاضر الخجول المؤدب هو م اللي بيكون بره في الشارع شرس وبتاع مشاكل وغاوي خناق وشرب خمرة وسرقة...)، وعن رؤيته لنفسه خارج المنزل يقول: (بس بالرغم من ده كان دايماً جوايه خوف مش عارف سببه إيه...ولحد دلوقتي الإحساس ده مش بيفارقني خالص...دايماً خايف حتى لما كنت أدخل خناقة وبالرغم إني كنت بضرب اللي قدامي إلا إني بعدها كنت أحس بالخوف وألاقي جسمي كله بيترعش وبالذات إيدي...تصور إني في المدرسة ماكنش

في حد يقدر يتكلم معايه ولا مدرس ولا حتى مدير المدرسة...بس أنا دايماً كنت أسأل نفسي همه خايفين مني ليه؟).

وفيما يخص تداعيات المفحوص حول التعاطي فلقد تبيَّن أنه بدأ تعاطي الحشيش في سن الثالثة عشرة واستمر تعاطيه مدة ثلاث سنوات قبل أن يتعرف بالخمور ويجد فيها ضالته باعتبارها مادة محررة للطاقة، وتقلل من وطأة الكبت، وفي هذا يقول: (أنا شربت سجاير بالعند في أخويه لأني بحب أحرق دمه...ولحد قريب حارق دمه...كان بيكلمني في التليفون ولقيته بيقلي إنت هتفضل ضايع كده لحد إمته؟ فقلتله لما تحب تعمل كبير إعمل كبير على مراتك...قلي تقصد إيه بالكلام ده؟ قلتله إفهم اللي تفهمه...في اليوم ده عمل مشكلة مع مراته وسابتله البيت...المهم خلينا في الخمرة...أنا كنت بقول إني شربت سجاير وحشيش وبعدين خمرة...وبصراحة أنا حبيتها قوي مش عارف ليه؟ تخيل وأنا في الجيش أخدت حبس ٤ شهور عشان شربت خمرة في الكتيبة...وانا في السجن أبويه مات يوميها لعنت الخمرة وقلت مش ممكن أشرب تاني بس خرجت من الحبس شربت تاني) ، ثم صمت فترة، وعندما تكلم توجه بسؤال للباحث: (إنسان حقير صح؟) ، ولم يعط الباحث إجابة لسؤال المفحوص، فيواصل كلامه: (أكيد إنسان حقير...تصور وأنا بره (يقصد بالخارج) كنت مرة سكران طينة والشرطة مسكتني وخدت حكم جلد...وقتها كنت شايف أخويه ب هو اللي ماسك الخرزانة وبيضربني) ، ثم صمت وبدت على يده اليسرى رعشة خفيفة – وإن كانت ملحوظة – ثم استطرد قائلاً: (أنا حاسس بخوف شديد دلوقتي...خايف منك حاسس إن عنيك ونظراتك خرزانة...حاسس إنك شايفني من جوه قوي وأنا أحب الناس تشفني حلو والناس فعلاً شايفاني كده شيك شغال في مكان كويس بكسب كويس...بس طبعاً كل ده كذب لأني من جوه حقير) ، ويكرر سؤاله على الباحث مرة ثانية: (صح؟ أنا حقير...صح؟) .

وعن تداعيات المفحوص حول حياته الجنسية تبيَّن أنه كان يمارس العادة السرية منذ المرحلة الابتدائية، ونظراً لعدم بلوغه فكان يصل إلى حالة الأورجازم Orgasm أو الرعشة الجنسية دون قذف، كما تبيَّن أن المفحوص كان لديه اعتقاد بأن عملية الميلاد تحدث عن طريق الفم: (أنا كنت بمارس العادة السرية قبل البلوغ بفترة

طويلة واحد صاحبي علمهالي...وكنت فاكر إن الست بتولد من بقها...ولما كبرت وبلغت كنت بمارس الجنس مع بنت الجيران...بس مش كان بيبقى في الموضوع ده متعة مش عارف ليه؟)، ويواصل المفحوص تداعياته حول حياته الجنسية بقوله: (أنا بحس في موضوع الجنس ده إني طفل شاف لعبة فيبقى عايزها قوي وبعد كده يزهق منها ويرميها) ، ولقد أبدى المفحوص مقاومة عند الحديث عن حياته الجنسية، ووجه سؤالاً للباحث ليبدي به اعتراضه: (هو الجنس إيه علاقته بالإدمان...إيه علاقة الجنس بالخمرة؟)، ولقد بيَّن الباحث للمفحوص أنه يسعى للتعرف على شخصيته في شتى النواحي وليس من زاوية الإدمان فقط، وهذا ليتمكن من فهمه ومساعدته، وعند هذه النقطة وجه الباحث للمفحوص سؤالاً يتصل بالجنسية المثلية: (تعرف حد شاذ جنسياً، أو شفت حد كده؟)، استنكر المفحوص السؤال وأجاب بالنفي، فعاود الباحث سؤال المفحوص: (هل حدث معك تحرش جنسي؟) ، أبدى المفحوص ارتباكاً واضحاً وصَمَتَ لفترة ثم بدأ الكلام قائلاً: (أنا عارف إن الناس بتحتقر الجاي...وأكيد إنت كمان بتحتقرهم صح؟)، لم يعط الباحث إجابة على تساؤل المفحوص، فتابع كلامه: (بس أنا شايف إن الجاي زيه زي أي إنسان من حقه إنه يستمتع بالحياة زي ما هو عايز...ثم إن أكيد في ظروف خلته كده...بره في (...) ٥٠٪ من اللي موجودين هناك جاي ومن كل الجنسيات والديانات...وأنا ليه أصحاب كتير منهم...رئيسي في الشغل وصاحبي في نفس الوقت جاي وأنا عايش معاه في شقته...ومره واحد غلط فيه وشتمه بإنه جاي كنت هموته...وبعدين أنا أعرف ناس فضلو استريت لحد العشرينات وبعد كده بقو جاي).

وفي الجلسة التالية بدأ المفحوص حديثه قائلاً: (إنت وعدتني إنك استحالة تعرّف أي مخلوق الكلام اللي بقوله ومش هتكتب أي بيانات عني صح؟) ، أجاب الباحث بالتأكيد، فواصل المفحوص كلامه: (أنا قلتلك إني شفت جاي كتير وإن رئيسي في الشغل جاي...والحقيقة إنه حاول معايه كتير بس أنا رفضت ، فسأله الباحث: (ليه؟)، أجاب المفحوص: (لأنه كبير في السن...وأنا فعلاً مارست الجنس مع شباب بس أنا مش جاي...أنا عندي صديقه روسيه وبمارس معاها

الجنس...والغريبة إنها شكت فيه زي ما أنت شكيت فيه وكانت بتقلي في ضحك إنت جاي) ، وعند سؤال الباحث للمفحوص عن تاريخه مع الجنسية المثلية أجاب: (أنا قبل السفر بره كنت استريت عادي وكنت ببقى قرفان من الناس دي بس لما سافرت ولقيت نسبة كبيرة من الشباب كده بدأت أغير رأيي وحسيت إنه عادي دي حياتهم وهمه حرين فيها...وفي يوم كنت سكران طينة حصل ده مع واحد صاحبي...بعدها بقيت عادي...وحسيت بعدها إني مش ميال لصديقتي في موضوع الجنس أحب أشفها واخرج واسكر معاها بس موضوع الجنس مش بقى يشدني...عشان كده كانت بتقلي إنت جاي) ، ويستطرد المفحوص قائلاً: (بس أنا مش جاي أنا مش هعمل كده تاني) .

وفيما يخص تداعيات المفحوص عن عمله تبيّن أنه متمكن من عمله وأنه ماهر فيه، وإن كان – كما يقول المفحوص – لا يسعى لتطوير نفسه وأدائه في العمل: (أنا شاطر في شغلي...وعندي حتة الابتكار فيه يعني بعمل تصميمات كويسه...وعلاقتي بكل اللي بشتغل معاهم كويسه...وعلى فكرة أنا معرفش اشتغل أو أروح الشغل إلا بعد شرب كاسين وسكي وده عادي...والسكر بيكون بالليل)، وتبيّن من تداعيات المفحوص أن دخله المادي مرتفع جداً وإن كان لا يكفي متطلباته، حيث إنه مسرف، بالإضافة إلى المبالغ التي يصرفها على الخمور والسهرات التي يتطلبها التعاطي.

وعن رؤيته للحياة تبيّن من تداعيات المفحوص أنه لا يستطيع أن يستمتع بالحياة، وإن كان يبدو عليه أمام الآخرين – وكما بيّن – أنه يستمتع بها: (الحياة حلوه قوي بس أنا مش عارف أعيشها...بجد مش عارف...وساعات بقول عشت ماعشتش آخرها هموت يبقى مفيش حاجة ليها لازمة...ويمكن ده اللي بيخليني مش حاسس بطعم لأي حاجة).

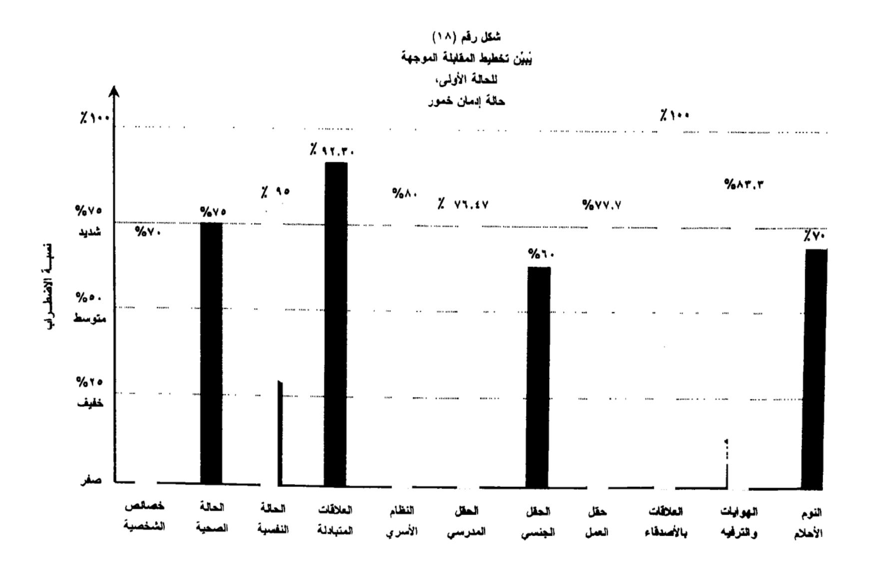
وفيما يخص تداعيات المفحوص حول الأحلام أشار إلى أن أحلامه قليلة ويجد صعوبة في تذكرها عندما يستيقظ، وإن كان هناك حلم يطارده دائماً: (بلاقي نفسي في مكان ضلمه والمكان ده بيضيق عليه وأحس إني بتخنق وبقوم من النوم مخنوق قوي...وساعات بشوف الحلم ده وأنا صاحي وبحس إني مش عارف أتنفس) .

تحليل المقابلة

كشفت مستدعيات المفحوص منذ البداية عن النزعة المازوشية والإدراك الخيالي للذات (إنسان مهمش، أنا معرفش أتكلم عن نفسي، مفيش حد طلب مني قبل كده إني أتكلم عن نفسي) ، فالذات مرتهنة ببنية خيالية، وتعمل تحت طلب الآخر وتحقيق لذته.

وعن بنية الذات فلقد كشفت مستدعيات المفحوص عن التعيُّن الخيالي بالأخت الكبرى ما دعَّم نزعاته المازوشية بالقدر الذي وطَّد فيه العلاقة النرجسية بالصورة المرآوية (أختي الكبيرة آ كانت أبويه، وأمي، وصاحبتي) ؛ لتنتقل الذات عبر المحور الخيالي من التعيُّن بالأخت إلى التعيُّن بالأخ الذي مارس دور الأب في حياة المفحوص، ويأتى تعيُّن المفحوص بالأخ تعيُّناً خيالياً حيث أدرك المفحوص الأخ على أنه أب خيالي مطلق القدرة ومُهدِّد للذات ومعتدٍ عليها؛ ما أعاق الذات من الانتقال للفترة الثالثة من مُركَّب أوديب، والذي يمكِّنها من اكتساب الهوية؛ لتظل الذات رهينة الفترة الثانية من فترات الأوديب، فأتت الذات خاضعة للآخر خضوعاً مازوشياً يتسم بالشعور بالدونية والعجز (أنا فاشل إنما هو ناجح...ناجح قوي...هو اللي علمني الكذب...كان بيضربني جامد...بالرغم من كرهي ليه أنا معجب بيه لأنه ناجح ويقدر يعمل اللي هو عايزه) .

وتبيَّن عبر مستدعيات المفحوص مدى اضطراب الهوية الجنسية – كنتاج للتعيينات الخيالية المضطربة التي لم تمكِّنه من اكتساب الهوية الجنسية – وذلك من خلال النزعات الجنسية المثلية التي تجاوزت حد النزعة اللاشعورية المكبوتة إلى حد الفعل، كما تبيَّن من تداعي المفحوص – أيضاً – الدور الفاعل الذي لعبته الخمور في تفجير تلك البنية المنحرفة (وفي يوم كنت سكران طينة حصل ده مع واحد صاحبي)، كما ساعدت الخمور – كمادة محررة للطاقة – المفحوص على تفعيل البنية الخيالية ما ساعد النرجسية – ببُعديها الشبقي والعدواني – من التمكن من الذات واستلابها ليغيب الآخر الرمزي من المسرح النفسي للمفحوص.



شكل رقم (١٨)
يبيّن تخطيط المقابلة الموجهة
للحالة الأولى،
حالة إدمان خمور

استجابات الحالة على بطاقات اختبار تفهم الموضوع

البطاقة رقم (١):

تحقيق الأحلام

هاني طفل من بداية عمره يحلم أن يكون مهندس مثل والده المهندس خالد. كانت بداية هاني بجعل والده مثله الأعلى، وحلمه أن يحقق هدف والده، كان هاني يذاكر عدد كبير من الساعات يومياً إلى أن ينام أثناء المذاكرة، وكانت والدته أحلام تساعده على المذاكرة وتهيئ له الجو الهادئ للمذاكرة.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن التعيين الذاتي بالأب الخيالي وموضعته كمثال للأنا (كانت بداية هاني بجعل والده مثله الأعلى)، كما تكشف عن إدراك المفحوص لحرمانه الواقعي من القضيب، حيث تموضعت الذات في خدمة لذة الآخر الأكبر (وحلمه أن يحقق هدف والده)، كما تكشف استجابة المفحوص – أيضاً – عن اضطراب العلاقة بين القانون والرغبة وعدم قدرة المفحوص على تجاوز الفترة الثانية من المُركّب الأوديبي بالانتقال من التعيُّن بالأب الخيالي إلى التعيُّن بالأب الواقعي، وتحقيق الخصاء الرمزي (كان هاني يذاكر عدد كبير من الساعات يومياً إلى أن ينام أثناء المذاكرة)، ويأتي الإفصاح عن الأمنية في العودة إلى العلاقة الثنائية بالأم حيث البنية النرجسية التي يغيب فيها الآخر والرغبة.

ومن الجدير بالذكر أن المفردات اللغوية التي استخدمها المفحوص كدوال أتت مُعبِّرة عن بنيته اللاشعورية، حيث تعيَّن المفحوص بالطفل الذي استخدم له الدال **هاني** (هانئ) الذي يعكس تقبُّل المفحوص لوضعية العمل على تحقيق لذة الآخر الأكبر، في حين أتى الأب حاملاً للدال **خالد** وما يشير إليه من القدرة المطلقة للأب الخيالي، بالقدر الذي يدل فيه على الاستخدام الرمزي للدال اللغوي، في حين أتت الأم متمثلة في دال **أحلام** بما يشير إليه من خيال، واستخدام خيالي للدال اللغوي، وأخيراً

فلقد أتت استجابة المفحوص للبطاقة حاملة عنوان **تحقيق الأحلام** ليصبح الخيال الذي غرقت فيه الذات واقعاً معاشاً.

البطاقة رقم (٢):

مهمة كل فرد

أسرة تتكون من ثلاثة أفراد، لكل فرد مهمة يقوم بعملها، الأب خالد يعمل نجار يصنع داخل منزله الأبواب لكسب الرزق، وزوجته هيام ربة المنزل تقوم بدورها اليومي بأعمال المنزل وبعد أن تنتهي من عملها كانت تقف بجوار زوجها أثناء عمله، وابنته صفاء الطالبة بعد عودتها من مدرستها تتجه إلى غرفتها للمذاكرة وبعد أن تنتهي تجلس مع أباها وأمها ليحكي كل منهم ما حدث له في يومه.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن إدراكه لشبكة العلاقات العائلية والدور الاجتماعي (أسرة تتكون من ثلاثة أفراد، لكل فرد مهمة يقوم بعملها) ، كما يشير – أيضاً – العنوان الذي اختاره لاستجابته– **مهمة كل فرد** – إلى هذا الإدراك، وإن كان هذا الإدراك أتى إدراكاً خيالياً حيث انعدام التواصل بين العائلة والعالم الاجتماعي الثقافي المحيط (الأب خالد يعمل نجار يصنع داخل منزله الأبواب) ، فالدور الاجتماعي يمارس في المنزل وكأنه البئر النرجسي، ويكون نتاج هذا الدور هو الأبواب وكأن الأب الخيالي يعوق الذات من الانخراط في النسق الاجتماعي، كما أتى تعيُّن المفحوص بالفتاة ليكشف عن نزعاته الأنثوية اللاشعورية المكبوتة (صفاء الطالبة بعد عودتها من مدرستها تتجه إلى غرفتها) ، بقدر ما يكشف عن الحبس النرجسي للذات مع صورتها، وينهي المفحوص استجابته بالإشارة إلى حالة الحكي؛ والذي يدل على الاستخدام الخيالي للدال اللغوي، فالحكي – في هذه الحال – يغيب فيه بعد التواصل الجدلي، فهو أشبه بتداعٍ حر دون حضرة الآخر الأكبر، فهو بمثابة منولوج تحاور فيه الذات صورتها.

ويواصل المفحوص – كما سيحدث في باقي استجاباته على بطاقات الاختبار

- الاستخدام الخيالي للدال اللغوي، ويتضح ذلك في الأب الذي حمل دال **خالد** ، والأم التي حملت دال **هيام** ، والابنة التي حملت دال **صفاء** .

البطاقة رقم (٣ ص.ر):

الوحدة القاتلة

أصعب شيء في الدنيا هو الوحدة وغالباً وحدة عمرو، عمرو يعيش مع أسرته المكونة من ٥ أفراد كان يعيش بينهم في وسط أسرته ولكن دائماً في وحدة قاتلة لأنه لم يجد من أهل بيته من يؤنس له وحدته ويؤمنه ويحميه ويمنع عنه الخوف الذي أصيب به بسبب الوحدة التي يعيشها وأثرت عليه في كل تصرفات حياته.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن البنية النرجسية في بُعدها العدواني؛ حيث الغرق في العلاقة الخيالية بين الأنا وشبيهها، والتي تُفضي إلى ما أسماه **لاكان** بالعدوان النرجسي الانتحاري (أصعب شيء في الدنيا هو الوحدة) ، فلقد أتى الآخر كموضوع غائب على المستوى الرمزي – حيث إخفاق الذات في التواصل الجدلي مع الذوات الأخرى – وإن كان يتبدّى حضوره الواقعي (عمرو يعيش مع أسرته المكونة من ٥ أفراد كان يعيش بينهم في وسط أسرته ولكن دائماً في وحدة قاتلة) ، ويأتي الاستخدام اللاشعوري لآلية التبرير كأحد الآليات الدفاعية التي تستخدمها الأنا – وفقاً لتيار سيكولوجية الأنا – في مواجهة الوجدان المؤلم الذي بدأ يفلت من قبضة الكبت، وينتقل من المستوى اللاشعوري إلى المستوى الشعوري، وليعطي تبريراً/ تفسيراً للوضع النرجسي الذي تحياه الذات، بل ليعطي مبرراً لسلوك التعاطي (الوحدة التي يعيشها أثرت عليه في كل تصرفات حياته) .

كما تكشف استجابة المفحوص عن غياب الأب الرمزي، وسيطرة الأب الخيالي المُهدِّد، والذي تستشعر معه الذات الخوف وعدم الأمان (لم يجد من أهل بيته من يؤنس له وحدته ويؤمنه ويحميه ويمنع عنه الخوف) ، وكأنه يبحث بين هذه الذوات عن دال اسم الأب الذي يؤمّن وجوده، ويحميه من أخاييل الجسد المُمزّق، ولقد

أتى عنوان استجابة المفحوص **الوحدة القاتلة** كاشفاً – في ذاته – عن تلك البنية النرجسية، وسيطرة البُعد العدواني دون البُعد الشبقي.

البطاقة رقم (٤):

اختلافات تهدم السعادة

سعيد دائماً على اختلافات مع زوجته علياء بسبب سلوكها وعاداتها التي دائماً ما يرفضها، سعيد كان لا يعجبه وضعها لصور نساء عاريات داخل غرف المنزل وبالرغم من أنه قال لها مرات كثيرة لا تضع هذه الصور لكنها لا تفعل ما يأمرها به. قرر سعيد أن يترك المنزل ولكن علمت علياء فأمسكت به ووعدته أن ~~تفعل~~ ما كانت يريده.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن تعيُنه الخيالي بصورة المرأة، وهذا يُبيِّن النزعات الأنثوية لديه، كما تُبيِّن استجابته – أيضاً – غياب القانون الثقافي، أو عدم الرضوخ للقانون والبقاء في عالم اللذة (قال لها مرات كثيرة لا تضع هذه الصور لكنها لا تفعل ما يأمرها به) ، ويُعد هذا بمثابة مؤشر لغياب الأب الرمزي، كما أخفقت الذات في الولوج إلى العالم الرمزي بالقدر الذي أخفقت فيه في التوفيق بين الرغبة والقانون، بالرغم من محاولة تحقيق هذا التوفيق، ويتضح ذلك من الشطب الذي قام به المفحوص (قرر سعيد أن يترك المنزل ولكن علمت علياء فأمسكت به ووعدته أن تفعل ما كانت ~~تفعل~~ يريده) ، كما أتت الهفوة اللاشعورية في فعل **كانت يريده** والذي قصد به المفحوص **تفعل ما كان يريده** ، فالشطب أتى للفعل تفعل دون الالتفات إلى الفعل كان.

كما يأتي عنوان استجابة المفحوص **ليشير لاشعورياً إلى اختلافات**، وكأن لسان حاله يقول إن الاختلاف ليس بالشيء الذي يهدم السعادة؛ ذلك كونه يدرك ذاته مختلفة؛ فهي لا تخضع للقانون السائد، وإن كان **شعورياً أراد أن يقول خلافات**، كما أتت الأسماء ذات دلالة، فالزوج وإن كان رافضاً وغير راض على مستوى شعوري

واعي سلوك الزوجة، إلا أنه حمل الدال **سعيد** ، كما أتت الزوجة (الأنثى) لتحمل الدال **علياء** ، وكأن المفحوص يعلي من شأن الأنوثة على الذكورة.

البطاقة رقم (٥):

الوحدة تقتل بلا جروح

عفاف أرملة لديها ٤ أبناء جميعهم تزوج وكل واحد منهم استقر بمنزل خاص به مع أسرته وتركوا أمهم تعيش بمفردها وكانت الأم كل يوم تنظر إلى غرف أبنائها وترتبها وتستعيد ذكريات أبنائها وهم أطفال وتعيش على ذكرى زوجها المتوفى وأبنائها الذين تركوها وانشغلوا بأمور الحياة.

التفسير:

يواصل لاشعور المفحوص التجلي في البطاقة الخامسة كاشفاً عن البنية النرجسية التي تَعطَّل بُعدها الشبقي ليفسح المجال لسيطرة البُعد العدواني، حيث أصبحت الذات في حبسها الانفرادي تقتات على نفسها في عالمها الخيالي رافضة الانخراط في السياق الاجتماعي الثقافي بقانونه المنظم للرغبة(...كل واحد منهم استقر بمنزل خاص به مع أسرته وتركوا أمهم تعيش بمفردها) ، وأكثر ما يشير إلى ذلك هو العنوان الذي وضعه المفحوص لاستجابته **الوحدة تقتل بلا جروح** ، كما تتجلى الخبرة المرآوية اللاذة، ومحاولة الذات استرجاع تلك الحالة من الابتهاج الطفلي بالصورة المرآوية في (كانت الأم كل يوم تنظر إلى غرف أبنائها وترتبها وتستعيد ذكريات أبنائها وهم أطفال) ، كما يأتي تعيُّن المفحوص بالأم ليواصل لاشعوره الإفصاح عن النزعات الأنثوية بالقدر الذي يدل فيه على العلاقة الإنصهارية بالأم.

البطاقة رقم (٦ ص.ر):

الفـــراق

حازم يترك أمه ليسافر إلى العمل في الخارج والحزن يسكن داخل كل منهم لأنهم لا يستطيعون العيش بدون بعضهما البعض ولكن ظروف الحياة تجبر الإنسان على فعل ما لا يحبه ويتركها حازم ويسافر على أمل العودة.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص للوهلة الأولى – من عنوان الاستجابة – عن انفصال الذات عن الطبيعة والاتصال بالثقافة والانخراط في العالم الرمزي الاجتماعي بقوانينه التحريمية، إلا أن استجابة المفحوص الكاملة – بعيداً عن عنوانها – تكشف عن العلاقة الثنائية الخيالية بين المفحوص والأم، والتي تصل إلى المرحلة الإنصهارية، فلا يمكن استمرارية الذات دون تلك العلاقة (...لأنهم لا يستطيعون العيش بدون بعضهما البعض) ، وتشير استجابة المفحوص بشكل ملحوظ إلى الفترة الأولى من مُركّب أوديب حيث التعيُّن الخيالي بالقضيب – موضوع رغبة الأم – الذي ينقص الأم، لذلك فالأم لا تستطيع العيش بدونه، كما أنه يرغب في الأم – موضوع الرغبة المستحيلة – فهي تمثل له المدد النرجسي، الصورة المرآوية، ولذلك فهو لا يستطيع العيش بدونها.

ولقد حدث الانفصال بين الذات والأم – كما تكشف استجابة المفحوص – كنتاج لدخول الأب الخيالي – المُهدِّد – الذي تعينت به الذات خيالياً – دون إرادتها وبشكل قهري – في الفترة الثانية من مُركّب أوديب (لكن ظروف الحياة تجبر الإنسان على فعل ما لا يحبه) ، وإن كانت الذات تسعى إلى استعادة تلك العلاقة الثنائية مع الأم، وتراودها تلك الصورة النرجسية (ويتركها حازم ويسافر على أمل العودة) .

البطاقة رقم (٧ ص.ر):

الخبرة ترشد إلى الصواب

ابن الأخ يصبح كابن لعمه والعم مثال لمعلم الحياة ومساعد فى حل مشاكل الدنيا. هذا هو ما كان عليه باسم وعمه نور كان باسم يتجه إلى عمه في نهاية الأسبوع ليناقشه في الأمور التي تعرض لها طوال الأسبوع ما بين الأحداث والمواقف ويروي لعمه كيف تصرف في حل المشاكل وعمه يقول له على الصواب والخطأ ويرشده للأفضل.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن محاولة الذات – وإن كانت محاولة خيالية – الانخراط في النظام الرمزي، وذلك بنسج صورة بديلة للأب تمثلت في العم – من الجدير بالذكر أن المفحوص لم يكن له أعمام، فوالده كان الابن الوحيد لأبيه – الذي يلعب دور الأب الرمزي، ويمثل اسم الأب الذي عبره تكتمل الاستعارة الأبوية، ويتم تصفية المُركَّب الأوديبي بالتعيُّن الرمزي الثانوي بالأب الواقعي **الدال القضيبي**، كما تكشف استجابة المفحوص عن الاستخدام الرمزي للدال اللغوي، والتواصل الجدلي بين الذوات في ديالوج (كان باسم يتجه إلى عمه في نهاية الأسبوع ليناقشه في الأمور التي تعرَّض لها طوال الأسبوع)، وتتضح وظيفة الأب الرمزي كقانون، ومثال، ووعد من خلال: عنوان استجابة المفحوص **الخبرة ترشد إلى الصواب**، ومن اسم العم الذي حمل الدال **نور**، ومن (وعم يقول له على الصواب والخطأ ويرشده للأفضل).

البطاقة رقم (٨ ص.ر):

القلق والخوف

يتملك القلق والخوف وائل وهو ينتظر أن ينتهي الأطباء من إجراء عملية لأبيه سامي ضابط الشرطة الذي أصيب بطلقات نارية أثناء عمله وكانت كل دقيقة تمر على وائل وهو ينتظر أبيه أن يخرج سالماً كانت وكأنها عدد من الساعات ولم يكف فمه عن الدعاء لله أن ينجي أبيه.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن إسقاط للنزعات العدوانية المكبوتة تجاه الأب، بالقدر الذي تكشف فيه عن التناقض الوجداني تجاه الأب، ذلك التناقض الوجداني الذي تكوَّن في الفترة الثانية من مُركَّب أوديب، حيث التعيُّن الخيالي بالأب وما يحمله من شبق وعدوان، فهو إعجاب بالأب لكنه في الوقت ذاته تنافس باعتبار الأب غريماً للذات ومنافساً لها على الأم، ومن هنا أتت استجابة المفحوص لتحل – لاشعورياً – هذا الصراع المحتدم والمتمثل في التناقض الوجداني، فيأتي الأب مصاباً بطلقات

نارية وتُجرى له عملية جراحية، ولكن الذات/الابن (المفحوص) ينتظر أباه أن يخرج سالماً، كما تكشف استجابة المفحوص عن استخدامه الرمزي للدال اللغوي (ولم يكف فمه عن الدعاء لله أن ينجي أبيه) .

البطاقة رقم (٩ ص.ر):

الرضا يجلب البركة

يتجه رضا وأخاه وليد وزميلهم في العمل إلى أخذ قسط من النوم في فترة الراحة وبعد نومهم جاء إليهم زميلهم رائد ليخبرهم أن قد جاء وقت العمل وقد نام كل منهم وقت قليل إلا أنهم اتجهوا إلى العمل في كل نشاط لأن البركة تأتي لمن يرضى.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن استحضار اللذة التخديرية التي يحققها له التعاطي، وإن كانت هذه الحالة من السكر لا تعطيه مستوى اللذة المطلوب (وقد نام كل منهم وقت قليل) ، كما تُبيِّن الاستجابة محاولة الذات التوفيق بين نرجسيتها والاستغراق في الخيال وبين الانخراط في النظام الرمزي والخضوع لقوانينه (إلا أنهم اتجهوا إلى العمل في كل نشاط) ، كما تشير استجابة المفحوص إلى نزعات جنسية مثلية (يتجه رضا وأخاه وليد وزميلهم في العمل إلى أخذ قسط من النوم) ، كما اتضحت تلك النزعات المثلية في البطاقة السابقة (٨ ص.ر) من خلال التعلق الشديد بالأب والخوف من فقده، فالذات تخضع – خضوعاً مازوشياً – للأب، كما تبدَّت تلك النزعات في البطاقة (٦ ص.ر) عبر التعيُّن الأنثوي بالأم، وفي البطاقة (٤) أيضاً.

البطاقة رقم (١٠):

نبع العطاء والحب

الأم نبع العطاء والحب فإن كان من حق إنسان أن يختار إله لنفسه لسجدت إلى أمي. منال أم لثلاثة أبناء تعمل معلمة ولأنها تعمل بالنهار في مجال التعليم وبعد ذلك تكون ملكاً لأبنائها وزوجها إلا أنها تأتي كل يوم إلى أمها لتحضنها وتجلس بجوارها لتجد في حضن أمها الأمان.

التفسير:

يواصل المفحوص في هذه البطاقة الكشف – لاشعورياً – عن النزعات المثلية بالقدر الذي يكشف فيه عن التعيُّن الأنثوي المازوشي، ولقد تبيَّن عبر المقابلة الإكلينيكية الدور الذي مثلته الأنثى في حياة المفحوص؛ سواء الأم أو الأخت الكبرى، حيث أتت استجابة المفحوص كاشفة عن التعيُّن الذاتي بالأم مطلقة القدرة مالكة القضيب، والتي جسَّدها المفحوص كإله اختاره لنفسه كي يسجد له (إن كان من حق إنسان أن يختار إله لنفسه لسجدت إلى أمي) ، ولقد موضع المفحوص – لاشعورياً – ذاته كابنة هي أم في الوقت ذاته، كما تشير استجابة المفحوص إلى العلاقة الإنصهارية بين الذات والأم، تلك العلاقة النرجسية التي يغيب فيها الآخر كموضوع رمزي (إنها تأتي كل يوم إلى أمها لتحتضنها...لتجد في حضن أمها الأمان)، وبهذا فإن استجابة المفحوص تغيب فيها العلاقة الإنسالية الغيرية.

البطاقة رقم (١١):

الحياة والموت

السماء والأرض. الحياة والموت. الجهل والعلم. كل هذه الأشياء مكملة لبعضها البعض فالسماء تبعث المياه إلى الأرض لتنمو بها الحياة والأرض بداية الطريق للصعود إلى السماء. والحياة رسالة تنتهي عند الموت وإن لم يكن يأتي الموت فلن تكتمل رسالة الحياة. الجهل والعلم يكملان بعضهما العلم يأتي بعد معاناة الجهل ليصلح وإن لم يكن الجهل موجود في بداية كل شيء ما أصبح هناك علماء.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن محاولة الذات استخدام الرمز الدال اللغوي استخداماً شبه فلسفي – أشبه بالكتابات الإلهامية التي تناولها **لاكان** بالتحليل عند دراسته للحالات الذهانية – يشير إلى أزمة كينونة أو وجود بالقدر الذي يشير فيه إلى عدوانية مُسقطة على الخارج في نفس الوقت الذي تتجه فيه نحو الذات، وتبيَّن ذلك عبر المتضادات غير المترابطة لغوياً، وإن كانت الذات قد عجزت عن هذا الاستخدام

الرمزي، فالعلاقة الخيالية بين الأنا أ a والشبيه أ a –والتي بينها **لاكان** في **المخطط ل** – مثلت حائط اللغة؛ حيث عاقت التواصل الرمزي بين الذات والآخر الأكبر، وأتت تلك العلاقة لتشوه خطاب الآخر، وأتت استجابة المفحوص مبينة ذلك الانشطار الذي تخبره الذات، كما كشفت عن البنية النرجسية المسيطرة على المفحوص (الأرض بداية الطريق للصعود إلى السماء) .

البطاقة رقم (١٢ ر):

عطاء لا ينتهي

سالم يجلس بجوار ابنه أحمد المريض النائم على فراشه ويكاد أباه أن يصاب بالموت خوفاً على ابنه الذي مضى عليه ثلاثة أسابيع لا يفارق فراش المرض وطوال هذه الفترة سالم لا يفارق ابنه أحمد ولو لحظة واحدة.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن نزعة مازوشية حيث التلذذ بالمرض (مضى عليه ثلاثة أسابيع لا يفارق فراش المرض) ، وربما كان المرض يحقق للذات مكاسب لاشعورية، وقد يعبر عن الاستخدام اللاشعوري لآلية التبرير، كما تكشف الاستجابة أيضاً عن الاستكانة والرضوخ للأب (سالم يجلس بجوار ابنه أحمد المريض النائم على فراشه) ، وربما أشارت استجابة المفحوص على مستوى آخر إلى افتقاده للأمن، وإن كانت الاستجابة في هذه البطاقة توضح النزعات المثلية اللاشعورية لدى المفحوص.

البطاقة رقم (١٣ ر.ن):

حب وحرمان

أحمد أستاذ جامعي يعيش حياة سعيدة بين عمله وحياته الزوجية التي كانت تمده بالقدرة على العطاء بمساعدة زوجته التي كانت مصباح حياته المضيء الذي يرشده ولكنها مرضت فبدأ أحمد يصاب ببعض الحالات التي عجزته عن إكمال عمله وأصيب بحالة يأس بعد موتها على فراش الزوجية أمام عيناه.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن رفض – لاشعوري – للإنسالية الغيرية، كما تكشف عن عدم قدرة الذات على تجاوز العلاقة الثنائية الخيالية إلى العلاقات الرمزية، رغم الجهد الذي تبذله للتغلب على نرجسيتها (أحمد أستاذ جامعي يعيش حياة سعيدة بين عمله وحياته الزوجية) ، (بدأ أحمد يصاب ببعض الحالات التي عجزته عن إكمال عمله وأصيب بحالة يأس) ، وتتبدى العلاقة النرجسية بالصورة المرآوية وما تمثله للذات من مدد نرجسي (بمساعدة زوجته التي كانت مصباح حياته المضيء الذي يرشده) .

البطاقة رقم (١٤):

العودة إلى النفس

محمد شاب ٢٦ عاماً لديه القدرة والذكاء ولكنه لم يحقق أي هدف طوال عمره. لديه أخ مثل أعلى أمام عينه ولكن لم يستفيد منه لأنه يعيش الحياة بشكل آخر أهم الأشياء التي تشغل باله هو أن يعيش اليوم ولا يجعل اهتمام بداخله لغد وبعد مرور ٢٦ عام بدون هدف في الحياة وجد طوق النجاة الذي أفاقه مما كان فيه وقرر أن يعود إلى نفسه ليفكر في حل مشاكله بعد أن كان يعتمد على الآخرين لحل مشاكله.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن رفضه للقانون، والمثال، والوعد، أو رفضه للخصاء الرمزي والقانون الثقافي الاجتماعي، والتعامل معه باعتباره صورة عن طريق النظرة ليحوله إلى قانون خيالي (لديه أخ مثل أعلى أمام عينه ولكن لم يستفيد منه لأنه يعيش الحياة بشكل آخر)، كما تشير استجابة المفحوص إلى النرجسية ووهم القدرة المطلقة (محمد شاب ٢٦ عاماً لديه القدرة والذكاء) ، كما بيّنت الاستجابة – أيضاً – سيطرة مبدأ اللذة، وغياب مبدأ الواقع من حياة المفحوص (الأشياء التي تشغل باله هو أن يعيش اليوم ولا يجعل اهتمام بداخله لغد) .

وأتت محاولة المفحوص اليائسة في الهروب من عالمه الخيالي الواهم بسقوطه

في بئر نرجسيته بوهم القدرة المطلقة، حيث تُعزل الذات عن الآخر، فهي علاقة بلا هدف تعيش فيها الذات مع صورتها (وقرر أن يعود لنفسه).

البطاقة رقم (١٥):

العودة إلى الصواب

يتجه الناس إلى الصواب بعد أن يكونوا قد ضاعوا في اللهو واللعب كما كان رامي يعيش حياته ولا يدرك أنه قد يموت في يوم من الأيام حتى أصبح شيخ كبير في العمر وبعد أن أدرك أنه لا محال من الموت بعد أن فاته الكثير من العمر وهو لم يفعل شيء لأخواته كان يتوجه كثيراً إلى المقابر ليأخذ عظته من الموت.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن سيطرة النزعة التشاؤمية مع الشعور بالعجز والفشل في الانخراط في العالم الاجتماعي (أصبح شيخ كبير في العمر وبعد أن أدرك أنه لا محال من الموت بعد أن فاته الكثير من العمر وهو لم يفعل شيء) ، كما تكشف عن رفضه للنظام الرمزي وقانونه؛ حيث يسيطر عليه النظام الخيالي بنرجسيته (...بعد أن يكونوا قد ضاعوا في اللهو واللعب كما كان رامي يعيش حياته ولا يدرك أنه قد يموت في يوم من الأيام)، وهذه الهيمنة للنظام الخيالي بنرجسيته جعلت القانون – والذي يمثله الأب – هو الموت القابع بالمقابر (كان يتوجه كثيراً إلى المقابر ليأخذ عظته من الموت) .

البطاقة رقم (١٦):

رفض المفحوص إعطاء استجابة على البطاقة (١٦)، فلقد أمسك بالبطاقة وتأملها فترة من الوقت في صمت تام، ثم قال: (مش عارف) ، استطرد قائلاً: (أنا كده هتكلم عن نفسي وعن حياتي) ، ولقد حاول الباحث تشجيع المفحوص لكنه رفض بشكل قاطع قائلاً: (أنا أشوف وأقول لكن...لكن دي لأ).

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن فقر في بنية النظام الخيالي، وعدم قدرة على التخييل بالقدر الذي تكشف فيه عن الشك والريبة في الآخر ورؤيته على أنه معتدي

(أنا كده هتكلم عن نفسي وعن حياتي) ، وإن كانت البطاقات الأخرى تكشف عن محاولة الذات استخدام الدال اللغوي، فإن هذه البطاقة أتت لتشير إلى افتقار الذات إلى هذه القدرة؛ فهي تعجز عن الاستخدام الرمزي للدال اللغوي؛ حيث ارتهنت في علاقة خيالية بين الأنا والصورة المرآوية، فالصورة هي التي تحقق الابتهاج وتحرك الاستجابة (أنا أشوف وأقول لكن...لكن دي لأ)، ويتفق ذلك مع بنية الذات لدى المفحوص حيث تموضعت في خدمة لذة الآخر الأكبر؛ فهي مفعول بها وليست فاعلة، فلقد أتت عاجزة عن الاستخدام الرمزي للدال اللغوي، فهي لم تمتلك الدال القضيبي ولم تتعيَّن به.

البطاقة رقم (١٧ ص.ر):

السعادة بإسعاد الآخرين

سعيد يعمل راقص استعراضي بأحد المسارح وكان دائماً سعيد مثل اسمه وسعادته عندما يرى في عيون مشاهديه السعادة وهو يصعد على الحبال بكل لياقة وبعد أن ينهي عمله يتجه إلى منزله ليجلس مع ولده حازم ويحكي له عن شعوره عندما يرى المشاهدين وهم سعداء فيجعل ابنه فخور بعمل أبيه.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن التعيُّن الأنثوي والنزعات الأنثوية، فلقد تعيَّن المفحوص بالبطل الذي أتى كراقص في مسرح (سعيد يعمل راقص استعراضي بأحد المسارح) ، كما تكشف استجابة المفحوص عن سيطرة العلاقة الخيالية بالآخر كنتاج للعلاقة الخيالية النرجسية بين الأنا والصورة المرآوية، ويتضح ذلك في الاعتماد على النظرة والعين في العلاقة بالآخر (وسعادته عندما يرى في عيون مشاهديه السعادة) .

البطاقة رقم (١٨ ص.ر):

وراء كل رجل عظيم امرأة عظيمة

كلنا نبحث عن شيء يدفعنا إلى النجاح وكل منا يجده في شيء مختلف عن الآخر، أيوب يجد سعادته عندما تساعده زوجته في ارتداء ملابسه قبل أن يتجه إلى

عمله وعندما يعود يكون متعب يجدها في استقباله بابتسامه تنسيه عناء يوم عمل طويل.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن علاقته الخيالية بالأم، والتي تأخذ في استجابته صوراً متعددة؛ منها الزوجة، فالأم مطلقة القدرة هي التي تمنحه الوجود والمدد النرجسي الذي يحتاجه، وبدونه تسيطر عليه مشاعر الدونية، كما تكشف استجابته – تبيّن ذلك منذ عنوان استجابته – عن بنية نرجسية ووهم القدرة المطلقة، فلقد أتى عظيماً وذلك لأن وراءه امرأة عظيمة هي الأم التي أسقطها في صورة الزوجة، وتشير استجابته – أيضاً – إلى تلك الرغبة المحارمية فالمرأة العظيمة وهي الأم تمثلت في الزوجة.

البطاقة رقم (١٩):

القلعة الحامية

كل أسرة مهما كانت صغيرة تصبح مثل دولة يجب أن يكون لها حدود كسور يحميها ويشعر أهلها بالأمان ويعيشون داخله ليحميهم من حرارة الشمس والرياح والأمطار ويهيئ لكل فرد في الأسرة الراحة لكي يخرج إلى الدنيا البيت الكبير فيعمل معها وكأنها منزله.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن افتقاده للأمن بالقدر الذي تكشف فيه عن ضعف التواصل بالآخر والخروج عن السياق الاجتماعي (يكون لها حدود كسور يحميها ويُشعر أهلها بالأمان ويعيشون داخله) ، كما تكشف استجابته عن البنية الخيالية والاستخدام الخيالي للدال اللغوي (الرياح، الأمطار) ، ورفض الدال الرمزي (يحميهم من حرارة الشمس) فالشمس بحرارتها هي القانون الأبوي، الدال الرمزي الثقافي.

البطاقة رقم (٢٠):

محاكمة النفس

مروان شاب في العشرينات من عمره هادي الطباع وحيد لأب يعمل موظف حكومي وأم ربة منزل، تخرج مروان من كلية الحقوق بتقدير امتياز ولكن لم يحالفه الحظ في أن يصبح وكيل نيابة كما تمنى وأصيب باكتئاب وبدأ يقف تحت أعمدة الكهرباء بسيطة الضوء بقريته الصغيرة المظلمة.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن الإخفاق في تصفية الموقف الأوديبي واكتساب الاستعارة الأبوية (لم يحالفه الحظ في أن يصبح وكيل نيابة) فوكيل النيابة دال رمزي للقانون الأبوي، كما تكشف استجابته – أيضاً – عن سيطرة البنية النرجسية ووهم القدرة المطلقة (تخرٌج مروان من كلية الحقوق بتقدير امتياز) ، ليأتي – في النهاية – الانسلاخ التام من النظام الرمزي، والالتحام بصورته المرآوية في علاقة نرجسية عدوانية، فبقدر ما يحب صورته بقدر ما يكرهها؛ ما أصابه بالاكتئاب والعجز (أصيب بالاكتئاب وبدأ يقف تحت أعمدة الكهرباء بسيطة الضوء بقريته الصغيرة المظلمة) ، وتشير أعمدة النور إلى القضيب الذي فشلت الذات في أن تكونه بالقدر الذي فشلت فيه على أن تتعيّن به رمزياً، ولهذا أتت الاستعارة الأبوية قاصرة دون الارتهان الكامل لاسم الأب.

تعليق على الحالة

مثلت الحالة نموذجاً لبنية الانحراف – وفقاً للتقسيم اللاكاني للبنية الإكلينيكية – حيث الغياب التام للآخر الرمزي كموضوع، وسيطرة العلاقة الخيالية النرجسية بين الأنا والصورة المرآوية، فالآخر لا يُعَد أكثر من صورة مرآوية توظّف فيها الذات طاقتها الليبيدية، ومع هذه البنية المنحرفة تم موضعة الذات في خدمة لذة الآخر الأكبر ليغيب الرمز والعلاقة الجدلية بالآخر.

الحالة الثانية: حالة إدمان حشيش

بيانات أولية:

الاسم: أ. **السن:** ٢٥ سنة. **النوع:** ذكر. **الحالة الاجتماعية:** أعزب.
مستوى التعليم: جامعي. **العمل:** محاسب.

الوضع العائلي:

الأب: ٥٩ سنة، مستواه التعليمي جامعي، يعمل بمجال السياحة، وأتى مستوى التواصل بينه وبين المفحوص ضعيفاً جداً بالإضافة إلى عدم تواجد الأب في المنزل – منذ طفولة المفحوص – كنتاج لطبيعة عمله في أحد المدن السياحية (ما اتعودتش أشوفه في البيت من طفولتي...كنت مع ماما على طول...وكنت باعتبره ضيف...وبصراحة ضيف غير مرغوب فيه)، وأتى وصف المفحوص للأب بأنه شرير (أنا بحس إني مش ابنه...دا يمكن يكون عدوي اللدود كمان...آه إنت لو شفت كان بيضربني إزاي...)، وعن حالة الأب الصحية بيَّن المفحوص أنه يعاني من السكر وارتفاع ضغط الدم. **الأم:** ٥٠ سنة، مستواها التعليمي جامعي، ربة منزل، حالتها الصحية جيدة، تواصل الحالة مع الأم – كما بيَّن المفحوص – جيد، وأتى وصفه لها بأنها طيبة (أنا كنت باعتبر أمي حائط الصد اللي بيحميني من شراسة أبويه).

الإخوة: للحالة أخ واحد وهو ع ٢٨ سنة، مستوى تعليمه جامعي، يعمل محامياً، أعزب، مستوى تواصل الحالة به – كما بيَّن المفحوص – ضعيف، وأتى وصف الحالة للأخ بأنه طيب (أخويه مقضيها...عايش مع نفسه ولنفسه...وعلى فكرة أنا مش عارف إيه العيب في إني بشرب حشيش؟! إذا كان أبويه خمرجي وأخويه الكبير بيضرب كميا...وبيشرب حشيش كمان).

المقابلة الإكلينيكية

بدأ المفحوص تداعياته واصفاً نفسه بأنه إنسان عادي: (أنا إنسان عادي جداً، بحب الهدوء...لدرجة الهدوء الممل، أحب أقعد مع نفسي قوي، قليل الكلام...مش

بحب أتكلم كتير) ، ثم انتقل إلى الحديث عن طفولته قائلاً: (وطبيعتي الهادية دي من طفولتي...أنا كنت هادي قوي وأنا صغير، كلامي كان قليل، مكنتش باحب العب مع العيال...كنت بحب أقعد لوحدي كتير) ، ثم انتقل المفحوص إلى نقطة مثلت – حسب رؤيته – منعطفاً في حياته، حيث كان المفحوص يلعب كرة القدم في فريق أشبال أحد النوادي الكبيرة، لكنه ترك النادي لعدم قدرته على الانخراط مع اللاعبين، وعدم قدرته على ترك المنزل لفترات طويلة: (أنا كنت بالعب كرة قدم في فريق أشبال نادي (...) بس سبته...كان عندي حوالي عشر سنين...مش عارف كنت باتخنق وأنا في النادي وكنت بحس إني عايز أروح...بالرغم إني كنت حريف كوره..)، ويواصل المفحوص تداعياته حول هذا الموضوع مبيناً مدى تأثيره على علاقته بأبيه قائلاً: (الموضوع ده عملي مشكلة كبيرة مع بابا وقتها ولحد دلوقتي...حاول معايه كتير إني أرجع النادي وضربني جامد بس أنا رفضت أرجع...ولحد النهارده لسه بيلومنيَ علىِ الموضوع ده ويقلي كان زمانك دلوقتي بني آدم بدل ما أنت فاشل كده)، ثم صمتَ لفترة من الوقت بعدها قال: (بس حتى لو بقيت أحسن واحد في الدنيا هو دايماً شايفني فاشل....) .

وفي تداعيات المفحوص عن الأب تبيَّن احتدام الموقف الأوديبي وتأزم علاقته بالأب، حيث يقول: (أنا علاقتي ببابا في الضياع...بابا بيعاملني كأني مش إبنه...فعلاً...مفيش أب يعمل في إبنه كده...من طفولتي كان بيضربني جامد بطريقة مش طبيعية بإيد المقشة بكرسي بأي حاجه قدامه...لدرجة إني كنت باتعور...وده مش كان بيأثر فيه خالص...أنا فعلاً بكرهه...هو طبعاً دلوقتي مش بيضربني بس دايماً يسخر مني...وأنا شبه مقاطعه يعني مفيش أي كلام بيني وبينه)، وفيما يخص علاقة المفحوص بالأخ الأكبر فلقد بينَّت تداعياته عدم وجود تواصل بينه وبين الأخ: (أخويه طيب...بس أنا مليش تعامل معاه خالص...وعلى فكره هو كمان بيشرب مخدرات...عايش حياته وناسيني خالص...الغريبة إنه حبيب بابا بيدلعه وبيعمله كل اللي هو عايزه...ودايماً يقول إنه خلف ولد واحد يعني أخويه...بالرغم إني شايفه عادي زيي ويمكن أكون أنا أحسن منه) .

وفيما يخص تداعيات المفحوص حول الأم تبيَّن مدى ارتباطه وتعلقه الشديد بها: (ماما حبيبتي وهي اللي ليه في البيت...من طفولتي وهي بتحبني وبتحميني من شراسة بابا...كنت بنام معاها في سريرها...لأن بابا شغله كان في (...) كان شغال في السياحة ولسه لحد دلوقتي، ولما كان بيجي أجازة كان بيضايق قوي من موضوع نومي مع ماما في السرير وكان بيشتمني ويقولي روح نام في سريرك...بس كنت بخاف قوي وكانت ماما تيجي تنام جمبي في سريري لحد لما أنام وبعد كده تقوم ترحله...كنت بحس بالأمان وأنا معاها...حتى لما كنا نروح نصيف كنت أسيب العيال وأفضل قاعد جمبها ولو عايز ألعب كنت أخليها تقف جمبي وأنا بالعب) .

وفي تداعيات المفحوص حول حياته الجنسية تبيَّن أن علاقته بالجنس ترجع إلى الثامنة من عمره تقريباً، وإن كان – كما بيَّن المفحوص – لم يكن مدركاً لما يحدث: (أنا معرفتي بالجنس بدأت بالصدفة...كنت في البيت لوحدي فتحت التليفزيون وبالصدفة جبت قناة من قنوات الدش وكانت قناة جنس...بعد كده كنت باتفرج عليها باستمرار...أنا كنت مستغرب اللي بيحصل ومش حكيت لحد عن الموضوع ده حتى لصحابي...أنا بطبعتي مش بتكلم كتير باسمع بس وبحب أكون منطوي على نفسي) ، وفي تطور حياته الجنسية بيَّنت تداعيات المفحوص أن الجنس شغل – ولازال – حيزاً كبيراً من تفكيره: (أنا لما بلغت بقى الجنس مسيطر على أفكاري جداً وبدأت أمارس العادة السرية بشراهة لدرجة إني كنت بعملها أكتر من مرة في اليوم...دلوقتي ممكن ٣ أو ٤ مرات في الأسبوع...وبدأت أمارس الجنس بس مش علاقة كاملة مع البنت اللي بحبها ولحد دلوقتي أنا مش مارست الجنس بشكله الكامل)، ويواصل المفحوص تداعياته عن الجنس؛ حيث أشار إلى أن الجنس يعني بالنسبة له المرأة الناضجة: (أنا لما بفكر في الجنس مش بلاقي نفسي مشدود للبنات الصغيرة في السن أنا بفضَّل اللي في سن التلاتينات أو الأربعينات...ومش عارف ليه؟) .

وفيما يتصل بتداعيات المفحوص حول التعاطي فلقد تبيَّن أنه بدأ تعاطي الحشيش وهو في المرحلة الثانوية في الصف الثاني الثانوي تحديداً، كما تبيَّن أنه بدأ

التعاطي بدافع التجريب، لكنه وجد في الحشيش الهدوء والسكينة التي تتناسب وطبيعة شخصيته: (أنا مش كنت متخيل إني ممكن أشرب...يعني السجاير مثلاً كان كل الولاد اللي في سني أو نسبة كبيرة منهم في الطفولة طبعاً بيدخنو سجاير بس أنا مش كنت بحب ريحتها...بس وأنا في تانية ثانوي كان الكل بيتكلم عن الحشيش...المهم جربته مع ولاد صحابي...بصراحة لقيته كويس قوي...حسيت إني هادي قوي وإن الدنيا حلوه ومفيش مشاكل...نسيت كل حاجة) ، ويواصل المفحوص تداعياته حول تعاطيه للحشيش قائلاً: (أنا كنت في البداية بشرب مرتين تلاته في الأسبوع يعني بس عدد مرات الشرب زاد لحد ما وصل إني ممكن أشرب مرتين في اليوم ويومياً) ، وفي استخدامه لآلية التبرير والإنكار على مستوى لاشعوري يقول المفحوص: (وعلى فكرة أنا مش مدمن لأن الحشيش مش إدمان أنا لو عايز أبطل هبطل...وكمان أخويه بيشرب مخدرات وبابا بيشرب خمره...وهمه اللي مدمنين بجد مش أنا) .

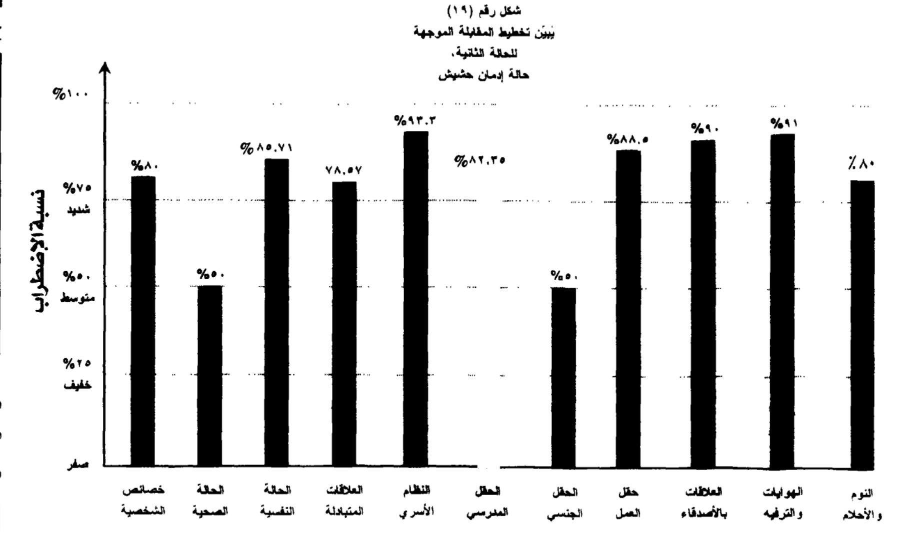
وفيما يخص تداعيات المفحوص حول أحلامه تبيِّن أنه يتحدث أثناء النوم، بل يمشي أثناء نومه، وتبيِّن أيضاً سيطرة الأحلام الجنسية على معظم أحلامه، وإن كان لا يستطيع تذكر المرأة التي تكون معه في هذه الأحلام: (أنا بشوف أحلام جنسية كتير ومش بافتكر مين اللي كانت معايه في الحلم لما باصحى) ، كما بيِّن أن الكوابيس تطارده دائماً: (كتير بحلم إن في واحد بس ملهوش ملامح واضحة بيخنقني وأنا نايم) .

تحليل المقابلة

كشفت مستدعيات المفحوص عن اضطراب بنية الذات مع سيطرة المشاعر الدونية وتحقير الذات، وهذا ما دفع المفحوص إلى تعاطي الحشيش الذي يمكِّنه من استخدام آلية الإنكار في الدفاع ضد الوجدان المؤلم، والشعور بالدونية، والإنجراح النرجسي الذي تستشعره الذات عبر اصطناع حالة هوسية تعمل على إحداث تغيير للمزاج الاكتئابي المسيطر على المفحوص (حسيت إن الدنيا حلوة ومفيش مشاكل...نسيت كل حاجة) .

ولهذا أتت الذات مستلَبة في علاقة خيالية بين الأنا وصورتها المرآوية، تلك الصورة التي تمثل مصدر الإشباع والمدد النرجسي الذي يفتقده المفحوص، كما أتى إدراكه للآخر إدراكاً خيالياً، وإن كان يحاول استنهاض الدال الرمزي للانخراط فى النسق الاجتماعي لكنه يفشل فى تحقيق ذلك التواصل الجدلي بالآخر كنتاج لقصور الاستعارة الأبوية، والإخفاق فى حل الموقف الأوديبي، فلقد ارتهنت الذات بالعلاقة الخيالية بالأم؛ حيث أتى تعيُّن المفحوص بالقضيب الخيالي موضوع رغبة الأم (ماما حبيبتي وهي اللي ليه في البيت...من طفولتي وهي بتحبني وبتحميني من شراسة بابا).

كما بينت تداعيات المفحوص اضطراب العلاقة بالأب، واعتباره غريماً ومنافساً على حب الأم، ما فجر لدى المفحوص العدوانية التي يتم قمعها كي لا تتجه إلى الخارج ضد الآخر ويتم توجيهها نحو الذات، وهذا ما يتفق ونزعات المفحوص المازوشية؛ حيث التلذذ بتعذيب الذات في محاولة – لاشعورية – لتأكيد فكرة الآخر المضطهِد للذات، بالقدر الذي يتماشى ونزعات المفحوص الأنثوية التي نتجت عن اضطراب التعيين الذاتي، وكان لذلك الدور الفاعل في دفع المفحوص إلى الانسلاخ من النسق الرمزي، والإغراق في عالمه الخيالي النرجسي حيث الصورة، تلك الصورة النرجسية التي يكفل له تعاطي الحشيش التواصل الخيالي معها في محاولة خيالية – أيضاً – لاستعادة تقدير الذات.



شكل رقم (١٩)
يبيّن تخطيط المقابلة الموجهة
للحالة الثانية،
حالة إدمان حشيش

استجابات الحالة على بطاقات اختبار تفهم الموضوع

البطاقة رقم (١):

طفل حائر

أحمد طفل حائر يعيش وحده في غرفة مغلقة ليحاول أن ينهي واجباته الدراسية ولكنه لا يستطيع أن يذاكر لأنه حدث في يومه بعض المشاكل في المدرسة وخارج المدرسة، عندما ذهب أحمد إلى المدرسة قابل مُدرسه وزملائه فكان المدرس يعامله بسخرية وغضب لأنه لم يكن منتبهاً إلى دروسه فحس أحمد بحزن شديد ولم يكن مختلطاً بزملائه فى المدرسة وعندما عاد من المدرسة وجد البنت التي كان يحبها ولم يكن يعرفها ولكنه يحاول أن يتعرف عليها فعندما جلس أمام الكتاب ليلاً لم يعرف أن ينهي واجباته بسبب التفكير في مشاكله اليومية.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن رفضه للخصاء (...يحاول أن ينهي واجباته الدراسية ولكنه لا يستطيع أن يذاكر) ، كما تكشف استجابته – أيضاً – عن تعيُّنه النرجسي بالصورة المرآوية والانتقال من حالة عدم التعرف على هوية الصورة إلى حالة الابتهاج عندما اكتشف أنها صورته (وجد البنت التي كان يحبها ولم يكن يعرفها ولكنه يحاول أن يتعرف عليها) ، كما أتت صورة الأب أباً متسلطاً قاسياً لتشير إلى الأب الخيالي المهدِّد (عندما ذهب أحمد إلى المدرسة قابل مُدرسه...كان المدرس يعامله بسخرية وغضب لأنه لم يكن منتبهاً إلى دروسه) ، فالذات أخفقت في التعيُّن بالأب والخضوع للقانون الرمزي؛ لذلك فالأب يصب غضبه عليها، وتشير استجابة المفحوص بصورة عامة إلى عدم قدرة الذات على الانخراط فى النسق الاجتماعي والرضوخ لقوانينه؛ فهي رهينة العلاقة النرجسية بالصورة المرآوية (أحمد طفل حائر يعيش وحده في غرفة مغلقة) ، (ولم يكن مختلطاً بزملائه في المدرسة) ، فالآخر غاب كموضوع رمزي، وغاب معه التواصل الجدلي لتصبح الذات – كما بيَّنت استجابة المفحوص – حائرة ما بين صورتها الغاوية والقانون الثقافي.

البطاقة رقم (٢):

الوحدة

نجلاء تعيش في قصة حب شديدة وتحب صديقها في العمل ولكنها لا تستطيع أن تبوح بحبها أمام أحد وتظل سارحة دائماً وفي نفس الوقت تعيش أمها حياة مملة بسبب عدم اهتمام زوجها بها وانشغاله دائماً في العمل فوالد نجلاء يهتم كثيراً بالعمل ولا يعطي لزوجته أي اهتمام ولن ترضى نجلاء بحياة أبوها مع أمها.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن تفكك البناء العائلي، وغياب التواصل الجدلي بين أفراد العائلة، ورفض المفحوص لحياته العائلية (ولن ترضى نجلاء بحياة أبوها وأمها)، ولقد أتى تعيُّن المفحوص بالفتاة ليكشف عن النزعات الأنثوية بالقدر الذي يتبدى فيه التعيُّن النرجسي بالصورة المرآوية ببُعدها الشبقي اللاذ (نجلاء تعيش قصة حب شديد)، كما يتبيَّن من عنوان استجابة المفحوص **الوحدة** فشل الذات في التواصل الجدلي بالآخر، والارتهان في عالم الصورة الخيالي، بالقدر الذي عجزت فيه عن الاستخدام الرمزي للدال اللغوي (ولكنها لن تستطيع أن تبوح بحبها أمام أحد وتظل سارحة دائماً).

البطاقة رقم (٣ ص.ر):

الفقر

ياسر رجل يعيش في بيت في دور أرضي ويعيش عيشة فقيرة للغاية لدرجة أنه حاول أن يسرق كثيراً ولكنه لا يستطيع حتى أن يدفع إيجار بيته حتى قال له صاحب البيت أن يترك البيت فاضطر أن يعيش في الشارع على الرصيف وكان يتسول في الشارع حتى جاءه رجل وأخذه إلى بيته ليعمل عنده في البيت ويساعده فأحس أنه ملاك وأتى إليه من السماء.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن انخفاض في تقدير الذات والشعور بالدونية (ياسر رجل يعيش في بيت في دور أرضي ويعيش عيشة فقيرة للغاية) ، (اضطر أن يعيش في الشارع على الرصيف وكان يتسول في الشارع) ، وإن كان هذا التحقير الظاهر للذات يخفي – على مستوى لاشعوري عميق – نزعة نرجسية، حيث دافعت الذات ضد هذه الدونية بإضفاء هالة من التأليه للأب الخيالي مطلق القدرة الذي تعيَّنت به (حتى جاءه رجل وأخذه إلى بيته...فأحس أنه ملاك وأتى إليه من السماء)، كما تكشف استجابة المفحوص عن نزعات سادومازوشية (لدرجة أنه حاول أن يسرق كثيراً)،(ليعمل عنده في البيت) .

البطاقة رقم (٤):

زوجة معذبة

نجاة زوجة لرجل أعمال تحبه حباً شديداً ولكنه لا يحبها كما هي تحبه فهو يعاملها بقسوة شديدة ولكنها تحاول أن تجعله يحبها كما تحبه ومن الأسباب التي تجعله لا يحبها أنه يحب العلاقات النسائية وتزوج من زوجات كثيرة وهي تعلم ذلك لكنها لا تستطيع أن تتركه ولكنها تحاول أن تغيره .

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن سيطرة النزعات الأنثوية بالقدر الذي تكشف فيه عن سيطرة النزعة المازوشية والتلذذ بالألم، ويتجلى ذلك في عنوان استجابة المفحوص **زوجة معذَّبة** ، وفي تعيُّنه بصورة المرأة، حيث أتت الذات متعيِّنة بالأب الخيالي مطلق القدرة، فالذات تعمل على خدمة الآخر الأكبر وتحقيق لذته بشكل مازوشي (نجاة زوجة لرجل أعمال تحبه حباً شديداً ولكنه لا يحبها كما هي تحبه فهو يعاملها بقسوة شديدة ولكنها تحاول أن تجعله يحبها كما تحبه) .

البطاقة رقم (٥):

فتى أحلامي

منال بنت مدللة تعيش مع أب وأم أغنياء وتعيش حياة سعيدة ولكنها تحس أحياناً بالقلق لأنها تبحث عن فتى أحلامها ليأخذها على حصانه الأبيض وتعيش حياة رومانسية وحدها في البيت لتوهم نفسها أنها تحب وفي يوم من الأيام وجدت منال رجل ينظر لها وهي واقفة في البالكونة فأحست بالحب إليه وظلت تنتظر أن يأتي ويتزوجها.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن سيطرة البنية الخيالية والنرجسية على الذات، والتعيُّن بالصورة المرآوية، فالدور الفاعل أتى للنظرة (وجدت منال رجل ينظر لها)، وحيث أن الذات رهينة للعلاقة الخيالية فلقد أتى الآخر خيالي (تبحث عن فتى أحلامها ليأخذها على حصانه الأبيض) ، كما غاب الآخر الرمزي فالذات في حبسها الانفرادي مع صورتها المرآوية (...وتعيش حياة رومانسية وحدها في البيت) ، ورغم استبصار المفحوص بالوهم الذي يعيشه إلا أنه أسير لهذه البنية الخيالية الواهمة ولا يستطيع الخروج منها (لتوهم نفسها أنها تحب) ، ويواصل المفحوص في هذه البطاقة الإفصاح عن نزعاته الأنثوية؛ فلقد تعيَّن بالمرأة في صورتها المازوشية المستكينة المنتظرة للآخر الذي مثَّله الأب الخيالي مطلق القدرة.

البطاقة رقم (٦ ص.ر):

الحيرة

خالد رجل يعيش مع أمه وحدها في بيتها وهو الذي يصرف على البيت ولكنه لا يستطيع أن يصرف على البيت بطريقة كافية وذلك الذي يشغل باله بصفة مستمرة ولكن أمه تدعي له أن يصبح أفضل رجل وهو في نفس الوقت عاجز أن يكفي لها احتياجاتها وفي بعض الأحيان قام ببعض الأعمال غير المشروعة لكي يستطيع أن تستمر حياته ويرضي أمه بالمال والحياة المرفهة ولكنه قلق من أن تعرف أمه الحقيقة.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن احتدام الموقف الأوديبي، وشعور الذات بالتهديد والخوف من مواجهة الحقيقة، أو انكشاف أمرها بأنها ليست مالكة للقضيب موضوع رغبة الأم، فمجمل استجابة المفحوص يدور حول الفترة الأولى من مُركَّب أوديب حيث تعيُّن الذات بالقضيب الخيالي الذي يمثل موضوع رغبة الأم، والذي تدَّعي الذات امتلاكه (خالد رجل يعيش مع أمه وحدها في بيتها وهو الذي يصرف على البيت)، وأتى إقصاء الأب من العلاقة بين الذات والأم لتصبح علاقة ثنائية خيالية يغيب عنها الآخر الرمزي، وإن كانت الذات تستشعر العجز وعدم القدرة فهي ليست مالكة للقضيب (ولكنه لا يستطيع أن يصرف على البيت بطريقة كافية وذلك الذي يشغل باله بصفة مستمرة)، ويأتي الخوف من انفضاح أمر الذات العاجزة أمام الأم موضوع الرغبة (ولكنه قلق من أن تعرف أمه الحقيقة) ، وفي محاولة الذات/المفحوص لإقصاء الأب مالك القضيب فإنه يلجأ إلى غواية الأم عن طريق الملكية – فالذات لم تنخرط في النظام الرمزي؛ لذلك فهي عاجزة عن الاستخدام الرمزي للدال، والكينونة – من أجل الحفاظ على موضوع الرغبة – الأم – واستمرارية العلاقة الثنائية الخيالية (قام ببعض الأعمال غير المشروعة لكي يستطيع أن تستمر حياته ويرضي أمه بالمال والحياة المرفهة) .

البطاقة رقم (٧ ص.ر):

قسوة أب

محمد كان طفلاً مدللاً من أمه ولكنه يعامل معاملة قاسية من أبوه وكان يضطهده ولكن محمد يحاول ود أبوه ولكن أبوه كان رجل سكير ومتزوج على أمه ولكن عندما كبر محمد واعتمد على نفسه وأصبح رجل ناجح في حياته وأفلس أبوه وأصبح رجل ضعيف رجع لكي يوده ويحاول أن يصلح ما عمله ولكن محمد كان قد قسى قلبه على أبوه فلم يعد يحبه ولا يستطيع أن ينسى ما عمله فيه.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن احتدام الموقف الأوديبي، وتأتي استجابته على هذه البطاقة لتتكامل مع استجابته على البطاقة السابقة (٦) حيث التثبيت على الفترة الأولى من مُركّب أوديب والتعيُّن الخيالي بالقضيب الخيالي الممثل لموضوع رغبة الأم، فتتبدى العلاقة الثنائية بين الذات/المفحوص والأم (محمد كان طفلاً مدللاً من أمه)، والعلاقة الخيالية بين الذات/المفحوص والأب الخيالي المهدِّد في الفترة الثانية من مُركّب أوديب، حيث التنافس الأوديبي، فلقد اتخذت الذات من الأب غريماً ومنافساً لها على حب الأم، فأتى الأب قاسياً ومضطهِداً للذات يسعى لفصلها عن الأم (ولكنه يعامل معاملة قاسية من أبوه وكان يضطهده) ، وفي محاولة لاشعورية من الذات/المفحوص في تخفيف وطأة الأنا الأعلى ومشاعر الذنب تم رسم صورة مشوهة للأب مع إظهار للنزعة المازوشية (ولكن محمد يحاول ود أبوه ولكن أبوه كان رجل سكير ومتزوج على أمه) ، ونظراً لفشل الذات في محاولتها تخفيف حدة الشعور بالذنب لموقفها من الأب ورغبتها المحارمية من الأم، ونظراً لسيطرة النرجسية بعدوانيتها ووهم القدرة المطلقة بدأ المفحوص في إسقاط عدوانيته على الأب في صورة سادية مفرطة لكي يعلن عن ارتهانه في عالم الصورة النرجسي الخيالي، وعدم قدرته على اكتساب الاستعارة الأبوية، والولوج إلى العالَم الرمزي، وتتضح النرجسية ووهم القدرة المطلقة في (كبر محمد واعتمد على نفسه وأصبح رجل ناجح في حياته)، في حين تتبدى العدوانية المسقطة على الأب في (أفلس أبوه وأصبح رجل ضعيف...محمد كان قد قسي قلبه على أبوه فلم يعد يحبه) .

البطاقة رقم (٨ ص.ر):

الخوف

نادر رجل وحيد يعيش وحده في بيته بعد موت أبوه وأمه ولم يكن متزوجاً ولكنه دائماً تأتي له هلاوس ويخاف من الموت ويتخيل نفسه يُذبح أو يُقتل ويظل يفكر في ذلك كثيراً ويخاف نادر عندما يعلم أن واحد يعرفه قد مات أو يرى حيوان يموت أمامه فيشعر بالخوف الشديد وينهار.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن نزعات عدوانية حادة – وإن كانت لاشعورية مكبوتة – بالقدر الذي تكشف فيه عن أخاييل الجسد الممزق، وما تستثيره من مخزون لاشعوري للفترة قبل المرآوية، كما تكشف الاستجابة – أيضاً – عن الارتهان في عالم الصورة الخيالي وغياب الآخر الرمزي كموضوع، فالذات في حبس انفرادي مع أنا ممزَّق ومطارَد – أيضاً – بهلاوس البتر والذبح، ولقد أتت مفردات المفحوص المتمثلة في (هلاوس، يخاف، يذبح، يقتل، مات، ينهار) دالة على العدوانية كما تدل على البنية الخيالية بشكل واضح، وإن كان استخدام المفحوص للاسم **نادر** قد يشير إلى نزعة نرجسية فكما هو متفرد في قدراته فهو متفرد في مخاوفه.

البطاقة رقم (٩ ص.ر):

الكسل

ثائر رجل يعمل عاملاً في شركة مياه ولكنه يحب عمله بطريقة شديدة ويحب المشاركة في العمل ولكنه في عمله يعاني من مشكلة فظيعة وهي كسل العمال الذين يعملون معه وهو الوحيد الذي يعمل وأحياناً يعطون له بعض أعمالهم لكي يقوم هو بها ولكن لا يستطيع أن يغيرهم ولا يستطيع أيضاً أن يترك العمل.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن رفضه لنزعاته الأنثوية اللاشعورية على مستوى شعوري؛ فلقد تعيَّن بالشخص المستيقظ في البطاقة وأعطاه اسم **ثائر**، كما تشير الاستجابة إلى الاستمناء (ثائر رجل يعمل عاملاً في شركة مياه) ، وبالقدر الذي يشير فيه الدال **مياه** على الاستمناء فهو يشير إلى المرحلة الفمية وعملية الرضاعة، وأتت استجابة المفحوص كاشفة عن بنية نرجسية واهمة (هو الوحيد الذي يعمل وأحياناً يعطون له بعض أعمالهم لكي يقوم هو بها) ، وأتى عنوان استجابة المفحوص للدلالة على الخيال وغياب القانون **الكسل** .

البطاقة رقم (١٠):

خيانة زوجة

ثروت رجل ثري للغاية ماتت زوجته ولم تنجب منه أطفال فظل وحيداً حزيناً لدرجة أنه كان يذهب إلى صالات الديسكو ليهون عن نفسه فقال أنه هناك فتيات كثيرة حتى رأى بنت فأحس أنه يرتاح معها وعندما تتكلم معه يحس بالحنان فنوى أن يتزوجها ويغيرها وتنجب له أطفال وتزوجها فعلاً وكان يحبها حباً شديداً ولكنها كانت لا تحبه وتزوجته بسبب ماله.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن رغبة إنسالية غيرية بالقدر الذي تكشف فيه عن رغبة في الاستقرار العائلي والمناخ العائلي الذي يفتقده المفحوص على المستوى الواقعي (...وتنجب له أطفال وتزوجها فعلاً)، كما تكشف الاستجابة – أيضاً – عن نزعة نرجسية (ثروت رجل ثري للغاية)، كما يتبيّن سيطرة الخيال على المفحوص، والاعتماد على الصورة والنظرة (كان يذهب إلى صالات الديسكو...رأى بنت).

وربما كشفت استجابة المفحوص – على مستوى لاشعوري أعمق – عن احتدام الموقف الأوديبي ورؤية الأم على أنها خائنة – يتبيّن ذلك من عنوان الاستجابة **خيانة زوجة** – وتعميم تلك الرؤية وإسقاطها على كل النساء، فإن كانت العلاقة مع الزوجة الأولى – كما تبيّن في استجابة المفحوص – لم ينتج عنها أبناء فهي علاقة محارمية (ماتت زوجته ولم تنجب منه أطفالاً فظل وحيداً حزيناً)، وكان موت الأم – خيانتها – بالتخلي عنه من أجل الأب مالك القضيب، فلقد أتت العلاقة الثانية مع فتاة ليل – وكأنه تمهيد مسبق للصورة المشوهة للمرأة – لم تحبه وخانته هي الأخرى، وبهذا فلقد أتت الذات/المفحوص غارقاً في عالم خيالي، عاجزاً عن ولوج النظام الرمزي، أسيراً لعلاقة ثنائية خيالية.

البطاقة رقم (١١):

طريق الرحمة

زياد رجل يحاول أن يكون صالحاً ولكنه لا يستطيع فيرى أن الحياة مسدودة أمامه في شتى الطرق ولا يعرف السبب فحاول أن يغير من شخصيته وذلك دون جدوى حتى جاء له رجل وقال له أن الإسلام طريق الخير والإصلاح فتدين زياد واستقرت حياته وانتهت مشكلاته وعلم أن الله كان يفعل فيه ذلك حتى ينصلح.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن مشاعر القلق والشعور بالذنب (زياد رجل يحاول أن يكون صالحاً ولكنه لا يستطيع فيرى أن الحياة مسدودة أمامه في شتى الطرق ولا يعرف السبب) ، كما تكشف الاستجابة عن بنية نرجسية فالذات/المفحوص يشعر أنه مميَّز لذلك يأتيه من يدعوه إلى الطريق السليم، وإن كانت استجابة المفحوص تكشف – على مستوى لاشعوري أعمق – عن الموقف الأوديبي؛ حيث أسقط المفحوص صورة الأب الرمزي الفاصل الواصل الممثل للقانون على الذات الإلهية، فلقد أعطى تفسيراً خيالياً لمعاناته بأن من فعل به ذلك هو الله، وللتأكيد على نرجسيته الواهمة يبرر فعل الله – أي الأب – معه بأنه أراد أن يصلح منه (وعلم أن الله كان يفعل فيه ذلك حتى ينصلح) ، فالاستجابة في مجملها محاولة خيالية من الذات في التعيُّن بالأب الرمزي الممثل للقانون ومانح الشرعية في الوجود.

البطاقة رقم (١٢ ر):

الخوف

شكري كان طفل لا يحب والده ويعيش حياة مترفة مع أصدقائه ولا يسمع لأبيه لدرجة أنه حدثت له مصائب ولكنه مستمر في لهوه حتى مات أبوه غاضباً عليه فانقلبت الحياة عليه وكان يرى والده في المنام وهو يقول له أنه سيرى الويل عندما يموت وفي حياته فعرف أن حياته ستدمر بسبب غضب أبوه عليه.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن مواصلة لاشعوره في التجلي عارضاً لذلك الموقف المحوري في حياة المفحوص وفي بنية ذاته، وهو الموقف الأوديبي المحتدِم، والذي يمثل المأزق – عن حق – الذي يصارع المفحوص – شعورياً ولاشعورياً – من أجل الخروج منه، وإن كانت الذات عاجزة عن تخطي هذا الموقف المحوري كونها رهينة لبنية نرجسية وأنا واهم، فأتى الصراع ما بين عالم الصورة الفاتنة والعلاقة الثنائية الخيالية بالأم ووهم امتلاك القضيب، وبين عالم الرمز والدال اللغوي الممثل للقانون الثقافي والذي يمثله الأب بقانونه المنظم للرغبة والموفق بينها وبين النرجسية، ولا سبيل أمام الذات لذلك إلا بالتخلي عن وهم امتلاكها للقضيب، والتعيُّن بالأب لاكتساب اسم الأب والاستعارة الأبوية.

وهذا ما كشفت عنه استجابة المفحوص من رفض للخصاء الرمزي، وسيطرة للنرجسية والعلاقات الثنائية الخيالية سواء بالصورة المرآوية، أو بالأم، مع تجلي غياب بُعد الصوت في العلاقات النرجسية، فهو لا يسمع صوت الآخر الرمزي (كان طفل لا يحب والده ويعيش حياة مترفة مع أصدقائه ولا يسمع لأبيه) فالدال الرمزي (الصوت) معطل لحساب الدال الخيالي (الصورة) المسيطر، وإن حدث وأنصت النرجسي للدال الرمزي (الصوت) فلا يكون دالاً رمزياً بل خيالياً نابعاً من اللاشعور (صورة) (كان يرى والده في المنام وهو يقول له أنه سيرى الويل) .

البطاقة رقم (١٣ ر.ن):

النساء

حسن رجل محترم يهتم بعمله وحياته ولكنه يحاول أن يجد فتاة أحلامه حتى يشبع رغبته الجنسية ومع ذلك فإن الحياة الجنسية متاحة له في حياته ولكنه يحاول تجنبها بشتى الطرق ويأتوا له في الأحلام وفي الواقع ولكن حسن متمسك بدينه، ولكنه وجد فتاة أحلامه وتزوجها وعاشوا حياة سعيدة.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن محاولة لاشعورية للاصطباغ بالمثالية، وربما كان استخداماً لآلية الإعلاء؛ حيث يسعى المفحوص إلى كف – لاشعوري – لرغبته الجنسية الغيرية (حسن رجل محترم يهتم بعمله وحياته) ، (الحياة الجنسية متاحة له في حياته ولكنه يحاول تجنبها بشتى الطرق...حسن متمسك بدينه) ، ويواصل المفحوص الكشف عن لاشعوره في استجابته مبيناً سيطرة نزعات الجنسية الغيرية (يحاول أن يجد فتاة أحلامه حتى يشبع رغبته الجنسية) ، ويأتي إشباع الرغبة الجنسية على مستوى خيالي (ويأتوا له في الأحلام)، وربما كان هذا الكف للرغبة الجنسية الغيرية ومحاولة التسامي بها نتاجاً للصورة المشوهة التي تَمثّلها المفحوص – لاشعورياً – للمرأة الخائنة – كما تبيّن في البطاقة (١٠) – ويتضح ذلك من عنوان استجابته **النساء** ، كما يتبيّن من الصورة التي وصف بها المرأة، فهي كما تبيّن من استجابته رمز للغواية والمتعة الجسدية فقط (يجد فتاة أحلامه حتى يشبع رغبته الجنسية) ، (الحياة الجنسية متاحة له في حياته ولكنه يحاول تجنبها) ، وربما كان – على مستوى لاشعوري أعمق – هذا الكف للجنسية الغيرية نتيجة لنزعاته الأنثوية اللاشعورية.

البطاقة رقم (١٤):

نور الأمل

عادل رجل يعيش حياة سيئة ويقوم بكثير من الذنوب والمعاصي والحشيش والقمار والنساء ولكنه في الأصل رجل صالح ولكن الزمن غيره كثيراً فكان يأمل أن يجد سبيل يغير له حياته إلى الأحسن فلم يجد حتى قابله شيخ وقال له أنه إذا اقترب من الله ستتحسن حياته إلى الأفضل وأحس أن ذلك حياة جديدة له.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن سيطرة الخيال ومبدأ اللذة مع غياب للآخر الرمزي الممثل للقانون (عادل رجل يعيش حياة سيئة ويقوم بكثير من الذنوب

والمعاصي والحشيش والقمار والنساء) ، مع محاولة الذات الاصطباغ بالمثالية (ولكنه في الأصل رجل صالح) ، وإن كانت الاستجابة تشير – أيضاً – إلى علاقة المفحوص بالأب – وهذا ما يتضح في معظم استجابات المفحوص – ومحاولة الذات اكتساب الاستعارة الأبوية، التي يسعى المفحوص – لاشعورياً – إليها.

البطاقة رقم (١٥):

أبي لم يمت

كان رامي يحب أبوه حباً شديداً ويعتبره أبوه صديقاً له ولا يفارقه وفجأة مرض أبوه مرضاً شديداً فأحس رامي أنه منهار فظل جالساً معه في المستشفى حتى مات والده بجانبه فأحس رامي أن الحياة انتهت وكان يذهب إلى الترب ليزور أبوه ويراه واقفاً أمامه ويظل يتكلم معه.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن العلاقة الخيالية بالأب (كان يذهب إلى الترب ليزور أبوه ويراه واقفاً أمامه) ، كما تكشف عن التعيُّن بالأب الخيالي، وبالقدر الذي تشير فيه الاستجابة إلى مازوشية المفحوص تجاه الأب (كان رامي يحب أبوه حباً شديداً)، (أحس رامي أنه منهار) فإنها – أي استجابة المفحوص – تشير إلى العدوانية التي توجهها الذات نحو الأب (مرض أبوه... حتى مات في المستشفى) ، وأتت استجابة المفحوص لتكشف عن تشاؤم وعدم قدرة على اكتساب الاستعارة الأبوية كنتاج لرفض الذات للخصاء الرمزي.

البطاقة رقم (١٦):

المدمن الإرهابي

كان هناك شاب يفعل بعض الأشياء الخاطئة ويشرب المخدرات ثم فجأة بدأ يصلي ويتجه نحو العبادة، ولكنه تحول من عبادة الله إلى التطرف واتجه نحو الإرهاب والقتل بلا رحمة وبدأ يفكر هل كان الإدمان أفضل؟ أم الإرهاب أفضل؟ واكتشف أن أسرته هي التي صنعت منه المدمن الإرهابي.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن قصور في الاستعارة الأبوية وعدم تصفية الموقف الأوديبي؛ حيث سيطرت على المفحوص النزعات العدوانية المتجهة نحو الذات ونحو الآخر، مع غياب للآخر الرمزي وقوانينه وإسقاط القانون الأبوي على القانون الديني؛ فكلاهما حرك – نتيجة لافتقار الذات لهما – لدى المفحوص بنية الأنا الواهم الذي يشبه بنية البارانويا، ويستخدم المفحوص التبرير على مستوى خيالي ليتخلص من تبعية الذات لأي قانون أو نظام (أسرته هي التي صنعت منه المدمن الإرهابي) ، وتأتي تساؤلات المفحوص لتشير إلى سيطرة النظام الخيالي وغياب للآخر الرمزي؛ فالذات إما أن تغرق في عالم خيالي هلوسي يحرك النرجسية ووهم القدرة المطلقة، أو تتفجر العدوانية وتسترجع الأنا أخاييل الجسد الممزق، فإما الإدمان وإما العدوان والإرهاب، وكلاهما يجسد النظام الخيالي بالقدر الذي يشيران فيه إلى غياب الرمز الثقافي والقانون.

البطاقة رقم (١٧ ص.ر):

الأمل

على رجل يأمل إلى الوصول إلى هدف في حياته وهو أن يعيش في حياة مستقرة رغم كل الظروف التي تقابله من عقبات ومشاكل يومية ولكنه لا يبالي لذلك ويظل يستمر في طريقه ويعلو في وظائفه ويترقى حتى وصل إلى رتبة المدير العام ولكنه يطمع في أعلى من ذلك ويحاول الاستمرار في طريقه.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن إدراك خيالي للواقع، وسيطرة للنرجسية، ووهم القدرة المطلقة؛ فهو يطمع في العلو إلى ما لا نهاية، ولديه رغبة سرابية لا تشبع، فهو يطمع في تحقيق الرغبة المستحيلة ولا يعطي اعتباراً للواقع بقوانينه؛ فالمسيطر هو مبدأ اللذة ووهم القدرة المطلقة (رغم كل الظروف التي تقابله من عقبات ومشاكل

يومية ولكنه لا يبالي لذلك ويظل يستمر في طريقه ويعلو...حتى وصل إلى رتبة المدير العام ولكنه يطمع في أعلى من ذلك) .

البطاقة رقم (١٨ ص.ر):

قيود الحياة

ثروت رجل متوسط الحال يعيش مع زوجته و ٣ أبناء في بيت في منطقة متوسطة الحال ولكنه يتمنى أن تظل حياته هكذا ويسعد زوجته وأولاده ويظل معهم مدى الحياة ولكن زوجته وأولاده يطلبون منه طلبات كثيرة فوق طاقته وهو يحاول إلى حد ما أن يحققها لهم حتى يظلوا سعداء ولكنه يواجه أحياناً حاجات فوق طاقته فاضطر أن يعمل عملاً إضافياً حتى يحقق لهم طلباتهم.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن محاَولة الذات الولوج إلى النظام الرمزي والعمل بالقانون الثقافي، فلقد تعيّن المفحوص بصورة الرجل الذي يحاول أن يستجيب لطلبات زوجته وأولاده (زوجته وأولاده يطلبون منه طلبات كثيرة فوق طاقته وهو يحاول إلى حد ما أن يحققها)، فالمفحوص يسعى إلى الانخراط في السياق الاجتماعي بقوانينه رغم بنيته النرجسية الواهمة.

البطاقة رقم (١٩):

بيت الشياطين

بيت ماجد هو بيت يعيش فيه مع أهله ولكن أهله غير متدينين ويحبون حياة اللهو والترفيه والمعاصي حيث يشرب والده الخمور وتلعب أمه القمار ويأتى كل يوم أبوه ومعه عشيقته البيت حتى حاول ماجد أن ينفصل عن البيت حتى يعيش حياة نظيفة بعيداً عن البيت المليء بالشياطين.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن البنية الخيالية حيث تحريف الواقع **بيت الشياطين** – وإن كان يشير إلى استعارة لغوية – حيث رأى المفحوص العائلة وأفرادها

على أنهم شياطين وهذا بيتهم، كما تكشف الاستجابة – أيضاً – عن عدوانية متجهة نحو الآخر؛ فأتى الأب يشرب الخمور، والأم تلعب القمار، وفي هذا إشارة لاحتدام الصراع الأوديبي، كما يكشف المفحوص عن نرجسيته وعن أناه المثالي الواهم (حاول ماجد أن ينفصل عن البيت حتى يعيش حياة نظيفة بعيداً عن البيت المليء بالشياطين).

البطاقة رقم (٢٠):

الحب

عمرو رجل في الأربعين من عمره ولكنه لا يجد سبيل للزواج حتى الآن مع أن جميع أصدقائه تزوجوا وهو لم يتزوج حتى الآن فلم يستطع أن يغير من نفسه وظل على شخصيته وفضل أن يعيش على طبيعته حتى يكون مستقيماً في طريقه حتى وجد بنت جميلة ومحترمه وتزوجها وأحس أنها النور الذي وجده بعد ظلام شديد في حياته.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن نزعات أنثوية ومازوشية كامنة على مستوى لاشعوري عميق، والتي تلعب دوراً في كف الجنسية الغيرية التي تسعى لإشباع الرغبة الجنسية في ظل علاقة رمزية، فتلك النزعات الأنثوية المكبوتة على مستوى لاشعوري عميق تتبيّن في (وهو لم يتزوج حتى الآن فلم يستطع أن يغير من نفسه وظل على شخصيته وفضّل أن يعيش على طبيعته)، فتلك الطبيعة المازوشية تعوق الجنسية الغيرية، كما تتبيّن الجنسية الغيرية ومحاولة المفحوص تكوين علاقة تخضع للقانون الرمزي في (وجد بنت جميلة ومحترمة وتزوجها وأحس أنها النور الذي وجده بعد ظلام شديد في حياته).

تعليق على الحالة

تمثّل الحالة نموذجاً لبنية العُصاب حيث الإخفاق في حل الموقف الأوديبي وصراعه المحتدم، ما ترتب عليه قصور في الاستعارة الأبوية، واضطراب التعيين الذاتي بالقضيب الرمزي؛ مما أدى إلى اضطراب الهوية الجنسية لدى المفحوص، فأتت الجنسية الغيرية مكفوفة لعدم الشعور بالقدرة الجنسية، وسيطر على المفحوص الطلب الذي يتوجه به إلى الآخر، وحيث أن الطلب هو – وفي المقام الأول – **طلب حب**، فإن المفحوص بات يعاني من التقدير المنخفض للذات، وسيطرة مشاعر الدونية، والقابلية للإنجراح النرجسي، فكان تعاطي الحشيش من أجل تلك الحالة الهوسية المصطنعة التي تخفف من وطأة الوجدان المؤلم الذي يستشعره المفحوص.

الحالة الثالثة: حالة إدمان هيروين

بيانات أولية:

الاسم: م. **السن:** ٣٥ سنة. **النوع:** ذكر. **الحالة الاجتماعية:** متزوج.
مستوى التعليم: متوسط. **العمل:** توكيلات ملاحية.

الوضع العائلي:

الأب: متوفى، وكان سنه عند الوفاة ٧٢ سنة، سبب الوفاة الإصابة بمرض السكر، حيث كان الأب يعاني من غيبوبة السكر، وتم بتر قدمه، مستواه التعليمي متوسط، كان يعمل مدير نادي رياضي اجتماعي، كان تواصل الحالة مع الأب – كما بيَّن المفحوص – متوسطاً (أبويه كان نزيه قوي...بيحب الحياة ويحب يعيشها...وكان سايبني براحتي تماماً)، وأتى وصف المفحوص للأب بأنه طيب (كان بيلبيلي كل طلباتي...وكان بيهتم قوي إنه يلبسني هدوم ماركات....) **الأم:** ٦٤ سنة، مستواها التعليمي متوسط، ربة منزل، تزوجت بعد انفصالها عن الأب بضابط جيش وأنجبت منه، وعن تواصل الحالة بالأم أشار المفحوص إلى أن علاقته بها جيدة (أمي تعبت معايا كتير...واستحملت معاملتي الوحشة كتير...اكتر من مراتي)، وأتى وصفه إليها بأنها طيبة، وعن حالتها الصحية بيَّن المفحوص أنها لا تستطيع الحركة بصورة جيدة بسبب إصابتها بمرض الروماتيزم.

الإخوة: للحالة ثلاثة إخوة ذكور، اثنان أشقاء وأخ غير شقيق، وأتى ترتيب الحالة الثالث، حيث أتى ترتيب الإخوة كالآتي: الأخ الأكبر أ ٤٣ سنة، الأخ م ٤٢ سنة، الأخ خ ٢٢ سنة.

١ . **الأخ** أ : ٤٣ سنة، جامعي، يعمل محاسباً بإحدى دول الخليج، متزوج ولديه ثلاثة أبناء، وعن مستوى التواصل بينه وبين الحالة بيَّن المفحوص أنه جيد (أخويه أ باعتبره الأب الروحي ليه... ماتخلاش عني وهو اللي بيدفعلى فلوس المستشفى...ودايماً يقلي إنه متأكد إني هبطل شرب...يا رتني أعرف أكون زيه)،

كما وصفه المفحوص بأنه طيب. ٢ .الأخ م : ٤٢ سنة، جامعي، لا يعمل، تزوج ثلاث مرات، وأنجب طفلة من الزوجة الأخيرة، مستوى التواصل بينه وبين الحالة – كما بيَّن المفحوص – جيد، وأتى وصف الحالة له بأنه طيب (الدنيا ملطشه معاه قوي...بس هو صابر...ويمكن بيشرب عشان ينسى همومه...زيي؟). ٣ .الأخ خ : ٢٢ سنة، أخ غير شقيق، مستوى التعليم متوسط، لا يعمل، أعزب، مستوى تواصل الحالة به – كما بيَّن المفحوص – جيد، وأتى وصف الحالة له بأنه طيب.

الزوجة والأبناء: المفحوص متزوج ولديه طفل ذكر عمره عام ونصف العام بحالة صحية جيدة، وعن مستوى التوافق مع الزوجة بيَّن المفحوص أنه جيد (مراتي بتحبني قوي...وعلاقتنا كويسه بالرغم إن في مشاكل بتحصل بسبب شربي)، وأتى وصف المفحوص للزوجة بأنها طيبة، كما أشار – أي المفحوص – إلى أن موقف الزوجة من إدمانه هو الرفض، وترتب على ذلك حدوث بعض المشاحنات بينه وبينها يترتب عليها – غالباً – ترك الزوجة للمنزل، وإن كان المفحوص قد أشار إلى أنه يعيدها إلى المنزل بعد أن يَعِدها بأنه سيقلع عن التعاطي.

المقابلة الإكلينيكية

بدأ المفحوص تداعياته عن مرحلة الطفولة بقوله: (طفولتي كانت سعيدة جداً...كنت طفل مميز جداً...كان عندي صحاب كتير وكنت دايماً الزعيم أو الريس بتاع الشلة...كنت بحب ده قوي...واللي كان بيساعدني على كده الفلوس لأن بابا كان بيديني فلوس كتير...يمكن أكبر مصروف ممكن طفل ياخده في السن ده كان مصروف م) (يقصد نفسه) ، ويواصل المفحوص تداعياته عن مرحلة الطفولة قائلاً: (واللي أنا فاكره كويس إن كل اللي في البيت كانوا بيدلعوني بابا وماما واخواتي الكبار...أنا فاكر بابا كان دايماً يقلي لازم تبقى أشيك واحد في أصحابك في البلد كلها...وعلشان كده كان يحب يجبلي دايماً هدوم ماركات...مرة كان جايبلي طقم حلو قوي كان مستورد وهو اللي لبسهولي وقلي أخرج إلعب مع صحابك...في اليوم ده مش فاكر إيه اللي حصل بس البنطلون اتقطع بابا زعل قوي على البنطلون...بس جابلي في نفس اليوم واحد تاني) .

وفيما يخص تداعيات المفحوص حول الأب؛ فقد أتت كالآتي: (أبويه كان راجل نزيه قوي قوي...كان بيحب الحياة ويحب يعيشها...أهم حاجة في حياته كانت الأكل الحلو واللبس الحلو والفسح والخروج...بابا عمره ما ضربني ولا حتى شتمني كان دايماً يديني فلوس ويقلي أنا عايزك تبقي أحسن واحد في الدنيا...وعلى فكره بابا كان بيشرب...كان بتاع كاس...وأخويه التاني بيشرب مخدرات هو كمان...المهم من كتر مصاريف بابا ومصارفنا إحنا كمان جه بابا في يوم وباع الشقة وشقتنا كانت في أرقى حي في البلد (...) واتنقلنا لمكان تاني مستواه أقل بس بابا كان بيصرف علينا وعلى البيت بنفس المستوى يمكن أكتر...وفي الوقت ده بقيت مميز جداً جداً في اللبس في الأكل في المصاريف لأن مستوى المنطقة دي كان متوسط...في الوقت ده حسيت بنفسي قوي وصدقت كلام بابا إني أحسن واحد في الدنيا) ، وتتواصل تداعيات المفحوص عن حياته العائلية قائلاً: (الدنيا كانت حلوه قوي...ماما بتدلعني وتهتم بيه...بابا مش مخليني عايز حاجه..أنا أكتر واحد مميز في صحابي...إخواتي بيحبوني قوي أخوهم الصغير بقى...يعني ملخص الموضوع ده

إن الكل كان بيتسابق علشان يسعد م وطبعاً م كان سعيد...بس فجأة مش عارف إيه اللي حصل بين بابا وماما واطلقو...الموضوع ده مش ضايقني...تصور مش عارف ليه؟...بقيت شويه مع ماما وشويه مع بابا وحياتي فضلت زي ما هيه....).

وفيما يتصل بتداعيات المفحوص عن الأم فقد أتت كالآتي: (ماما بتحبني قوي...كلهم بيحبوني قوي...وأنا صغير زي ما قلتلك ماما كانت بتهتم بيه أكتر واحد في إخواتي وكنت بحس إنها سعيدة بيه قوي وكانت دايماً تقلي إني زكي جداً أزكى واحد في إخواتي...وحتى بعد لما انفصلت عن بابا كانت بتعاملني كويس يمكن أكتر من الأول...وبعد كده اتجوزت ظابط في الجيش...رتبه...كنت معجب بيه قوي...سلطه وشخصيه...وخلفت منه أخويه الصغير خ بيحبني قوي...هو طيب وأنا بعلمه إزاي يتعامل في الدنيا) .

وفيما يتصل بتداعيات المفحوص حول حياته الجنسية قال: (أنا عرفت الجنس من زمان قوي من طفولتي وكنت دايماً أتكلم مع صحابي عن الجنس وكنت أحب أعاكس البنات قوي...ولما بلغت كنت بمارس العادة السرية كتير قوي كل يوم...أنا فاكر أول مرة مارست فيها الجنس كانت بفلوس كنت أنا واتنين صحابي...جبنا واحدة ومارسنا معاها الجنس بس كان شرطي يوميها إني أكون أول واحد...والموضوع ده كان مهم جداً بالنسبالي مش عارف ليه؟ يمكن علشان أحس إني راجل...يمكن...المهم إني بعد ما خلصت معاها كنت حاسس إني سعيد قوي) ، ويواصل المفحوص تداعياته حول حياته الجنسية قائلاً: (واستمريت في العلاقات دي...وبابا كان عارف أنا كنت بحكيله كل حاجه حتى الشرب بس هو مش كان موافق على شرب البودرة كان بيقلي إنها خطر وكان ينصحني إني أشرب خمره أو حشيش بس...المهم لما كنت بحكيله كان يضحك ويقلي المهم تكون مبسوط...ومرة شفت بنت عجبتني قوي وحاولت معاها كتير بس رفضت قلت بس يبقى أخطبها المهم خطبتها بس بعد كده مارست معاها الجنس وحصلت مشكلة لأنها كانت بكر المهم خدتها لدكتورة ولميت الدور...بس المشكلة إني لقيت كل الحريم كده حتى لو رفضت في الأول بتيجي في الآخر بس كل وحده ليها مفتاح...في الفترة دي شربي زاد

بسبب المشكلة دي لأن البنت وترتني جداً عياط وخوف يعني إنت فاهم الحوارات دي...وأنا قلت لبابا قلي أخلع منها فخلعت....) .

وفيما يتصل بتداعيات المفحوص حول التعاطي تبيَّن أنه بدأ بالتدخين في سن مبكرة في بداية المرحلة الإعدادية، ثم بدأ في تعاطي الحشيش والخمور في سن التاسعة عشرة بدافع التجريب واقتداءً بالأب، لكنه بيَّن أنه لم يفضِّل الخمور بالقدر الذي فضَّل به الحشيش، كما اتضح أنه كان يتعاطى المهدئات والمسكنات، ثم بدأ في تعاطي الهيروين، وفي هذا يقول: (أنا شربت حجات كتير حشيش وخمره وأفيون وبرشام بس لما عرفت طريق البودرة كملت فيه وحسيت إنها بتريحني...يعني حبتها لأنها بتخليني هادي وبحس إن مفيش أي تفكير في أي حاجة...وأنا شايف إن البودرة والحشيش شبه بعض قوي بس البودرة أقوى بكتير طبعاً...لأني أول حاجة شربتها كانت الحشيش...بس أنا لما دست في الهيروين قوي بدأت الأمور تتغير يعني بقيت أخده كعلاج مش علشان أعمل دماغ لأني لو ماخدتش بحس بآلام فظيعة...وأنا حاولت أتعالج كتير يمكن أكتر من ٧ مرات أدخل فيها مستشفيات غير الدكاترة اللي كنت برحلهم العيادات...ويمكن المره دي أبطل خالص...لأن حياتي مع مراتي بقت مهددة بالفشل....) .

وينتقل المفحوص بتداعياته إلى جانب من حياته أشار إلى أنه شكَّل له أزمة كبيرة، حيث يقول: (أنا حصلي حاجة غريبة قوي وكل الدكاترة قالولي إنها بسبب الهيروين...بس أنا مش عارف...يمكن يكون صح...أنا خطبت بنت غير اللي حكتلك عنها وكانت الأخيرة قبل مراتي...المهم البنت دي كانت جميلة قوي ومش عارف أنا حبتها ولا لأ؟...المهم كنت دايماً أراقبها وأحطها في اختبارات لحد ما اتخنقت وقالتلي نسيب بعض أحسن لأني تعبت منك...وقتها حسيت إن روحي بتتاخد مني...وسبتها...وفي يوم وأنا ماشي في الشارع لقتها ماشيه مع وحدة (...) كنت بنام معاها وشغالة قوادة رحت ماسكها من شعرها وقلتلها إنتي ماشيه مع (...) دي ليه؟ قلتلي يا مجنون وأنت مالك؟...أنا سمعت كلمة مجنون دي لقيت نفسي باضربهم لحد ما غرقوا في دمهم والناس اتلمت عليه وخدوني على القسم واتعملي

محضر بس (...) خلتها تتنازل عن المحضر لأنها خافت علشان ليها ملف في الآداب...المهم أنا بعدها بدأت أحس إني مطارد وفي حد بيراقبني وإن المخابرات بتراقبني وإني في خطر..ويمكن ده اللي خلاني أبقى شرس مع كل الناس...طبعاً الموضوع ده راح بعد ما دخلت المستشفى واتعالجت....).

وفيما يتصل بتداعيات المفحوص حول حقل العمل وعلاقته برؤسائه قال: (أنا دايماً كنت بلاقي مشاكل في الشغل..قيود وأوامر والموضوع ده بيستفزني بالإضافة إني بحس وبجد إني بفهم أحسن من اللي بيديني أوامر...بس هي أرزاق...لكن أنا بحاول أتعايش يعني المركب لازم تمشي....).

تحليل المقابلة

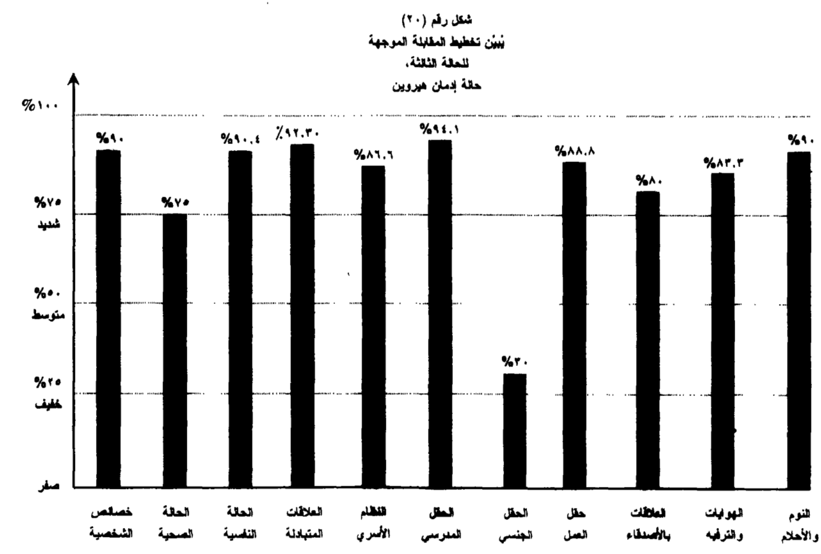
كشفت مستدعيات المفحوص عن إدراك خيالي للذات، وتوهم للقدرة المطلقة (طفولتي كانت سعيدة جداً...كنت طفل مميز جداً...كنت دايماً الزعيم أو الريس...كنت بحب ده قوي) ، وأتى الآخر غائباً من علاقات المفحوص، فالآخر بالنسبة له لم يُعَد أكثر من صورة مرآوية يرى ذاته فيها، أو كرجع الصدى، فالدال الرمزي كان غائباً من حياة المفحوص لدرجة أنه لا يسمع حتى رجع الصدى، فالصورة كانت قانونه الذي بُنِيَت منه الذات (يمكن أكبر مصروف ممكن طفل ياخده في السن ده كان مصروف م) .

ولقد تكونت هذه البنية الخيالية من علاقة مضطربة بالآخر، حيث لم يخبر المفحوص الموقف الأوديبي ولم يدخل صراعه، فالأب أتى دوره غائباً، إن لم يكن قد لعب دور الأم المشبعة للحاجة والطلب، ما مكّن الأنا من التضخم، حيث تعينت بصورتها المرآوية ليصبح ذلك الأنا الطفلي طاغية لا يرى الآخر، بل يرى صورته التي يستمد منها الإشباع النرجسي المفرط (أبويه كان راجل نزيه قوي قوي...كان بيحب الحياة ويحب يعيشها...أهم حاجة في حياته كانت الأكل الحلو واللبس الحلو والفسح والخروج...بابا عمره ما ضربني ولا حتى شتمني كان دايماً بيديني فلوس ويقلي أنا عايزك تبقى أحسن واحد في الدنيا)، وأمام هذا المدد النرجسي من الدال

الذي يُفترض أن يكون دالاً رمزياً منظماً للرغبة تضخم الأنا ليأتي إدراك الذات والآخر إدراكاً خيالياً.

وما بين تضخم الأنا وغياب الآخر الرمزي تاهت الذات، واستُلِبت في بنية نرجسية؛ فأصبح الآخر موضع ريبة وتشكك، فسيطرت البنية البارانوية وأصبح القانون أو النظام الرمزي مصدر تهديد (بدأت أحس إني مطارد وفي حد بيراقبني وإن المخابرات بتراقبني وإني في خطر) .

ونتيجة لغياب النموذج الأبوي، واضطراب التعيين الذاتي، وقصور الاستعارة الأبوية إلى حد الإغفال أو الارتهان لاسم الأب اضطربت هوية الذات، والهوية الجنسية للمفحوص، وتم كف الجنسية الغيرية، لتطفو على السطح نزعات الجنسية المثلية.



شكل رقم (٢٠)
يبين تخطيط المقابلة الموجهة
للحالة الثالثة،
حالة إدمان هيروين

استجابات الحالة على بطاقات اختبار تفهم الموضوع

البطاقة رقم (١):

ظلام الذهن

ظل أمجد في تلك الليلة المظلمة أو التي كانت مظلمة كما يراها هو يذاكر وبعد عدد من الساعات لا يعرف عددها أراد أن يعيد ما حصله من مذاكرة ولكنه اكتشف أنه لا يتذكر شيء مطلقاً وجلس مهموماً يبحث عن سبب التشتيت الذهني الذي هو فيه. ولكن بعد فترة اكتشف أنه كان يتمنى أن يذاكر ولكن معاناته جعلته لا يفرق بين الواقع والتمني.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن استخدامه لآلية الخلط بين الواقع والخيال وعدم القدرة على التمييز بينهما، وكأنه في حالة حلم يستغرق الليل والنهار فهو لا يفرق بين الواقع والتمني ، فلقد أتى إدراكه الخيالي للواقع – وكأنه إدراك هلوسي – ليجعل النهار مظلماً بجعله ليلة مظلمة، فالظلام يؤمِّن له استمرارية الحالة الهلوسية – حالة الحلم – التي يعيش فيها والتي تمكنه من الهروب من قبضة النظام الرمزي بقانونه ليواصل حياته في عالمه الخيالي مع صورته المرآوية (في تلك الليلة المظلمة أو التي كانت مظلمة كما يراها هو) ، بالإضافة إلى الخلط فإن المفحوص يكشف عن عدم القدرة على إدراك بُعد الزمان؛ ففي عالمه الخيالي الهلوسي الخاص يفقد بُعد الزمان – وما يشير إليه من معنى رمزي – قيمته (بعد عدد من الساعات لا يعرف عددها) ، كما تكشف استجابة المفحوص في مجملها عن عدم تحقق خصاء الذات، والإخفاق في التعيُّن بالأب الرمزي، وعدم اكتساب الاستعارة الأبوية (ولكنه اكتشف أنه لا يتذكر شيء مطلقاً) ، فالآخر كموضوع رمزي غائب وليس له وجود في استجابة المفحوص، والدوال الرمزية في استجابته أتى استخدامه لها استخداماً خيالياً قائماً على الخلط والتشويه؛ فعجزت الذات عن إدراك بُعدي الزمان والمكان، لتصبح – أي الذات –

مستلبة في علاقة نرجسية بصورتها المرآوية غاب عنها الطلب والرغبة لتسيطر الأمنية؛ فالآخر المحرِّك للرغبة غائب كما تبيَّن (جلس مهموماً يبحث عن سبب التشتت الذهني الذي هو فيه. ولكن بعد فترة اكتشف أنه كان يتمنى) .

البطاقة رقم (٢):

الشاكوش

بالرغم من أنها فتاة جميلة ولكن كانت مأساة هناء أنها تعيش في حي شعبي وكانت في قرار نفسها تعتقد أنها مقيمة في ذلك الحي بفيزا مؤقتة وسوف ترحل مع أول فارس يقدر ذلك الجمال. ومع ذلك فهي لا تمانع من أن يقع في حبها جارهم النجار ربما لا مفر من وجوده في حياتها وكان أكثر ما يلفت نظرها هو عمله بالشاكوش الذي تشعر في كل مرة أن هذه الطرقة فوق رأسها كي تفوق وتصحو ولكنها كانت تفضل أن تدفن رأسها بين الوسادات حتى يأتيها الفارس.

التفسير:

يواصل المفحوص في استجابته على البطاقة الثانية ما بدأه في البطاقة الأولى حيث قصور الاستعارة الأبوية – إن لم يكن ارتهانها بما يشير إليه مفهوم الإغفال كآلية مميزة للذُهان، وإن كان الذُهان هنا لا يتبدى في مظاهر بقدر ما يتبدى في بنية – فلقد تعيَّن المفحوص بالفتاة ليكشف عن نزعاته الأنثوية المازوشية بالقدر الذي يكشف فيه عن استلابه في الصورة المرآوية وما تثيره من شبق وابتهاج (بالرغم من أنها فتاة جميلة ولكن كانت مأساة هناء أنها تعيش في حي شعبي) فوهم القدرة والكمال يسيطر على الذات، ويواصل المفحوص استخدامه لآليات الدفاع فيكون الإنكار للواقع المعاش (وكانت في قرار نفسها تعتقد أنها مقيمة في ذلك الحي بفيزا مؤقتة وسوف ترحل مع أول فارس يقدِّر ذلك الجمال) ، ويأتي لاشعور المفحوص ليشير إلى مُركَّب أوديب في فترته الثانية – التي لم تكتمل عند المفحوص؛ فالأم مانحة الشرعية لقانون الأب وحاملة الخطاب غائبة – فالذات قد ترضخ للأب رضوخاً مازوشياً (ومع ذلك فهي لا تمانع من أن يقع في حبها جارهم النجار ربما لا مفر من وجوده في حياتها) .

ويأتي رفض الذات/المفحوص للنظام الرمزي والقانون الثقافي، وإصراره على الاستمرار في عالمه الخيالي الهلوسي مع صورته المرآوية واضحاً من رفضه لزعامة القضيب الرمزي ودلالته الرمزية الحاسمة باعتباره قانوناً فاصلاً واصلاً (وكان أكثر ما يلفت نظرها هو عمله بالشاكوش الذي تشعر في كل مرة أن هذه الطرقة فوق رأسها كي تفوق وتصحو) ، وتأتي الذات في النهاية غارقة في العلاقة الخيالية بين الأنا والصورة المرآوية، ومع سيطرة النرجسية كان لابد من غياب الدال الرمزي (الكلمة، الصوت) لتكون الزعامة للدال الخيالي (الصورة)؛ فالذات لا تسمع صوت الآخر (كانت تفضّل أن تدفن رأسها بين الوسادات حتى يأتيها الفارس) .

البطاقة رقم (٣ ص.ر):

بكاء بلا فائدة

البكاء هو كلمة السر في حياة داليا فكلما ضاقت الدنيا بها ولا تجد ما تفعله ولا تجد من تشكو إليه ليساعدها تظل تبكي وهي تتمنى أن يسمعها كل من في الكرة الأرضية ولكن لسبب ما وأمر غامض تسعد النطفة أو يشقى الجنين فوليد تسجد الدنيا له ووليد في سلة المهملين.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن نزعات أنثوية تشير على مستوى لاشعوري أعمق إلى جنسية مثلية مكبوتة، فلقد أتى تعيُّن المفحوص بالشخصية التي بالبطاقة باعتبارها أنثى، كما تشير استجابته – أيضاً – إلى عجز الذات عن الاستخدام الرمزي للدال اللغوي، فاللغة تعجز الذات عن استخدامها؛ وكأنه النكوص إلى مرحلة قبل لغوية ليكون البكاء هو لغة التواصل مع الآخر الذي ليس له وجود؛ فالآخر الرمزي كموضوع تتوجه إليه الذات بطلبها أو رغبتها غائب، ولهذا فلم يكن لدى المفحوص طلب أو رغبة، بل كانت الشكوى والأمنية، ويتضح ذلك في (البكاء هو كلمة السر في حياة داليا ، لا تجد من تشكو إليه ، تظل تبكي وهي تتمنى) ، فالأنا الطفلي في حالة من التمزق (فكلما ضاقت الدنيا بها) وكأنها الفترة قبل المرآوية، ولغياب الآخر الرمزي

من حياة المفحوص أتت حالة التمزق التي يعيشها مبهمة غير مبررة (ولكن لسبب ما وأمر غامض) ، وينهي المفحوص استجابته بعبارة – وكأنها رؤيته الفلسفية الخاصة التي تتجلى فيها نرجسيته – تجسد الشبق والعدوان ووهم القدرة المطلقة (تسعد النطفة أو يشقى الجنين فوليد تسجد الدنيا له ووليد في سلة المهملين) .

البطاقة رقم (٤):

خائن ولكن

كانت دائماً أمام عينه وخلفه وعن يمينه ويساره تلك الفتاة اللعوب. بالرغم من أنه متزوج من حنان وهي امرأة اسم وفعل ولكن أدهم دائماً يحب التغيير كما تعود وهو صغير يبدل في لعبه وملابسه وأيضاً في النساء وكانت حنان تحاول دائماً أن تصل إليه وتحتضنه وكان كلما استسلم لزوجته تظهر أمام عينه سحر بسحرها فهي موظفة لدى شياطين الجن تفتن الرجال وتعلقهم في حبالها وعندما تأخذ ما تريد ترميهم شر رمية. ومع علم أدهم بكل ذلك لم يستطع الاستغناء عنها. ويبقى الحال على ما هو عليه.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن التعيُّن بالصورة المرآوية الغاوية المستلبة (كانت دائماً أمام عينه وخلفه وعن يمينه ويساره تلك الفتاة اللعوب) ، فالمفحوص رهينة لتلك العلاقة الثنائية الخيالية النرجسية بين الأنا والصورة المرآوية، فصورته المرآوية فاتنة تثير به الشبق (تظهر أمام عينه سحر بسحرها فهي موظفة لدى شياطين الجن تفتن الرجال وتعلقهم في حبالها) بالقدر الذي تثير العدوان فهي علاقة مدمرة للذات تصل إلى العدوان النرجسي الانتحاري فالمفحوص يدرك أن تلك العلاقة قاتلة (وعندما تأخذ ما تريد منهم ترميهم شر رمية)، ولكن نظراً لغياب الآخر الرمزي، وارتهان الذات في تلك العلاقة الثنائية الخيالية، وعدم اكتساب الاستعارة الأبوية لم تستطع الذات ولوج النظام الرمزي، وأصبحت الصورة هي مصدر المدد النرجسي الذي يؤمن له الوجود – وإن كان وجوداً خيالياً واهماً – بعيداً

عن الرمز الذي لم يستطع تخليصه من بئر نرجسيته المميت (ومع علم أدهم بكل ذلك لم يستطع الاستغناء عنها. ويبقى الحال على ما هو عليه)، ويأتي عنوان استجابة المفحوص **خائن ولكن** ليشتمل على كل استجابته؛ فرغم خيانته للقانون الأبوي، القانون الإنساني الثقافي إلا أنه وجد لنفسه المبرر في قدرة الصورة والخيال على استلابه وتغريبه.

البطاقة رقم (٥):

الخادمة

إذا رأيت نجوى ظننت أنها الخادمة نظراً لعدم اهتمامها بنفسها وبعض تجاعيد الزمن التي أصابتها ولكنها في الحقيقة أم وزوجة ولكنها قدرها أن تتفانى مع زوجها وأولادها. ولا داعي لأي حسابات أخرى.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن النزعات الأنثوية المازوشية (إذا رأيت نجوى ظننت أنها الخادمة نظراً لعدم اهتمامها بنفسها وبعض تجاعيد الزمن التي أصابتها)، وإن كانت تكشف – أيضاً – عن تحقير الذات والاستهانة بها؛ فالذات تخضع للآخر الأكبر وتعمل على خدمة لذته وتحقيقها (ولكنها قدرها أن تتفانى مع زوجها وأولادها)، وأتى المفحوص رافضاً – على مستوى لاشعوري – لموقفه الواعي في التنازل عن صورته المرآوية وعالمه الخيالي الذي يمنحه المدد النرجسي (ولا داعي لأي حسابات أخرى) .

البطاقة رقم (٦ ص.ر):

المصير

كانت تدعو له بالنجاح والتوفيق إنها أم أحمد وكانت تستقطع من قوتها كي يأخذ ما يريد وينهي تعليمه حتى أصبح رجلاً ذا وظيفة مرموقة وحان وقت دفع الفاتورة ولكن كان يدعي أنه مديون وغير متيسر الحال هذا ما أصاب أمه بصدمة

وهي لا تصدق نفسها. هذا الابن الذي فنت عمرها من أجله هو نفسه من يتنصل منها وأصبح شعاره الأوحد نفسي ثم نفسي.

التفسير:

أتت استجابة المفحوص حاملة عنوان **المصير** ومصيره تمثل في الإخفاق في حل الموقف الأوديبي وتصفيته، إن لم يكن قد دخل مركّبه أساساً، فالمفحوص ارتهن عند حقل الحاجة حيث الإشباع البيولوجي لحاجاته العضوية التي توفرها الأم، وربما انتقل إلى الطلب – حيث طلب الحب – الذي تحقق في عالمه الخيالي، حيث تعيّن بالقضيب الذي ترغب فيه الأم، ولهذا وفرت له الأم الحب، وحققت له الإشباع النرجسي المطلوب حتى تضخمت أناه واتصفت بتوهم القدرة (وكانت تستقطع من قوتها كي يأخذ ما يريد)، (حتى أصبح رجلاً ذا وظيفة مرموقة)، ولكن – ونظراً لغياب الآخر الرمزي – لم يفِ بالدين الأوديبي فلم يخُض صراعه، ولم يخبر قيمته ودوره الفاعل في تحرير الذات من الأسر النرجسي، فظلّ أسيراً لبنية خيالية في علاقة نرجسية بين أناه والصورة المرآوية؛ فليس هناك مكان للآخر – كثالث فاصل واصل – في هذه العلاقة الثنائية (وأصبح شعاره الأوحد نفسي ثم نفسي) فنفسي الأولى هي أناه، وتأتي نفسي الثانية لتشير إلى أناه المرآوي بالقدر الذي تدل فيه على تأكيد لأنانيته وإغراقه في علاقة ثنائية نرجسية مع صورته المرآوية.

البطاقة رقم (٧ ص.ر):

الشايب

ظن مراد أن شبابه سيدوم ولكن بعد سنوات من الشباب والمرح نظر إلى نفسه في المرآة فلم يرى إلا كهل شايب وجلس يتذكر نفسه ومنظره وهو في عمر الثلاثينات ولكن قد مضى قطار العمر.

التفسير:

إن كانت استجابة المفحوص على البطاقة (٦) قد كشفت عن غياب الآخر الرمزي الممثل للأب بالقدر الذي كشفت فيه عن غياب الأم كحاملة للخطاب الأبوي؛

وحصرها في الثدي المُدر للبن الممثل لإشباع الحاجة والمحقق للأمن والحب باعتباره طلب، فإن المفحوص يواصل تأكيده – اللاشعوري – على غياب الموقف الأوديبي – كموقف محوري في بناء الذات – من حياته، حيث غاب الآخر كموضوع في استجابة المفحوص لتبقى العلاقة الثنائية المرآوية، وإن كانت مرآته لم تعد مشبعة ومانحة للمدد النرجسي كما كانت، بل لقد فقدت الصورة القدرة على إثارة ابتهاجه (بعد سنوات من الشباب والمرح نظر إلى نفسه في المرآة فلم يرى إلا كهل) ومن الغريب أن يكون اللاشعور دالاً إلى هذه الدرجة ويتضح ذلك في عبارة المفحوص (نظر إلى نفسه في المرآة) ، وإن كانت مرآته أصبحت قاصرة بل عاجزة عن منحه المدد النرجسي المطلوب – كما كانت الأم في البطاقة (٦) – فإن خياله وبنيته مليئة بالصور القادرة على منحه هذا الإشباع النرجسي ليظل المفحوص حبيساً لبنية خيالية منعزلاً تماماً عن كل ما هو رمزي (وجلس يتذكر نفسه ومنظره وهو في عمر الثلاثينات) .

البطاقة رقم (٨ ص.ر):

إلا أخي

كان هيثم يسير مع أخوه في وسط البلد وذهبا لشراء بدلة جديدة لأن هناك مناسبة عائلية وفي الوقت الذي نزل فيه سيد أخو هيثم من التاكسي وفي الاتجاه المقابل أتت سيارة مسرعة لتصدم سيد وإذ بثلاثة أشخاص يحملونه إلى داخل السيارة ولم يلحق بهم هيثم وكان هؤلاء الأشخاص أطباء جراحة وكانوا يبحثون عن شخص يجرون له عملية لنقل الأعضاء وبعد أن أخذوا منه الكلية وفص من الكبد رموه إلى الشارع وهو في حالة حرجة إلى أن توصلوا لمكانه بمعرفة الشرطة وقال هيثم إلا أخي سوف أبحث عنهم في كل مكان لأقدمهم للعدالة.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص في مجملها عن نزعات عدوانية بالقدر الذي تكشف فيه عن استثارة البطاقة لأخاييل الجسد الممزق وأخاييل الافتراس؛ ويتبيّن ذلك في

(أتت سيارة مسرعة لتصدم سيد) وربما أشارت السيارة إلى القضيب الرمزي كقانون يفصل الذات عن الأنا وصورتها المرآوية المتسيدة، (وبعد أن أخذوا منه الكلية وفص من الكبد رموه إلى الشارع) فهي أخاييل الجسد الممزق التي تطارد المفحوص لاشعورياً، ويأتي استنطاق المفحوص للدال الرمزي الممثل للقانون في محاولة دفاعية ضد أخاييل الافتراس والجسد الممزق في قوله (توصلوا لمكانه بمعرفة الشرطة) فالشرطة دال للقانون الثقافي، وإن كان هذا الدال الممثل للآخر الرمزي تأخر ظهوره فلم يستطع تخليص الذات من ذلك التمزق الذي تعيشه الأنا، ويأتي العنوان الذي اختاره المفحوص – لاشعورياً – لاستجابته **إلا أخي** كاشفاً عن تلك العلاقة الثنائية مع الصورة المرآوية، وكأن لسان حال المفحوص يقول **إلا قريني** أو شبيهي المرآوي نبع المدد النرجسي (ذهبا لشراء بدلة جديدة) .

البطاقة رقم (٩ ص.ر):

قوات غير مسلحة

علاء ومرعي وباسم أصدقاء وتصادف أنهم جميعاً في عمر واحد وفي كتيبة واحدة بالجيش وفي ذلك اليوم وقفوا جميعاً خدمة وبعد أن سلموا خدمتهم كانوا مجهدين جداً فارتموا على بعض من الإجهاد وتركوا كل ما كان يشغلهم واستسلموا للنوم. عدا مرعي ولكن سوف ينام.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص بداية من العنوان عن غياب القانون الأبوي الذي يُسلّح الذات بالدال اللغوي؛ لكي تتمكن من خلق مكان لها في الواقع فكان العنوان **قوات غير مسلحة** ، وأتت صورة الآخر – في استجابة المفحوص – عاجزاً غير قادر (كانوا مجهدين جداً)، وعلى مستوى آخر؛ كشفت استجابة المفحوص عن مقاومة لاشعورية لنزعات الجنسية المثلية المكبوتة التي رآها في الآخر (فارتموا على بعض من الإجهاد وتركوا كل ما كان يشغلهم واستسلموا للنوم) إلا أنه يستسلم في نهاية استجابته لتلك النزعات المثلية من خلال الشخصية التي تعيّن بها (عدا مرعي ولكن سوف ينام) .

البطاقة رقم (١٠):

الوفـــاء

في زمن أصبح كل شيء يقاس بالمادة. كان لعادل ومريم رأي آخر فهم منذ أن ارتبطا ببعض كانا يظنان دائماً أنهم في شهر عسل دائم حتى أصبح أقصى ما يفعلونه هو أن يأخذ كل شخص الآخر بالحضن ويشعرا أنهم في عالم ثاني لا وجود له في زمن المادة.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن تعطل للجنسية الغيرية على مستوى الفعل، والاكتفاء بالإشباع الهلوسي عن طريق النظر، وكأن الموضوع هو الصورة المرآوية التي وظف فيها المفحوص طاقته الليبيدية في حالة من الإشباع الخيالي الهلوسي (أصبح أقصى ما يفعلونه هو أن يأخذ كل شخص الآخر بالحضن ويشعرا أنهم في عالم ثاني لا وجود له في عالم المادة) فالغيرية عند المفحوص ليست مادية بل هي خيالية قائمة على النظرة التي لا تحقق الإشباع الفعلى لذلك فهي سرمدية لا تنتهي (كانا يظنان دائماً أنهم في شهر عسل دائم).

البطاقة رقم (١١):

الحريق

كان كل شيء هادئ وبدون مقدمات أصبح لا شيء يفلت من النار الحريق يلتهم الأخضر واليابس لقد كان هذا المكان منذ دقائق مليء بالعزوبة ولكن أوشك أن يكون بلا معنى ولا عنوان إنه الحريق الذي يخفي معالم الأشياء.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن قلق حاد من خبرة الجسد الممزق الذي تطارده مهددة حالة اللذة والابتهاج التي يحياها في علاقته النرجسية بالصورة المرآوية (كان كل شيء هادئ وبدون مقدمات أصبح لا شيء يفلت من النار الحريق...كان هذا المكان منذ دقائق مليء بالعذوبة).

البطاقة رقم (١٢ ر):

روحانيات

ذهبت سهى إلى عشرات من الأطباء وهي لا تعلم سر حزنها واكتئابها وبعد كثيراً من المداولة بينها وبين أصدقائها وأقاربها نصحها أحدهم بالذهاب إلى فكري ذلك الطبيب الروحاني وهو يعالج بالتنويم المغناطيسي وقد كان وبدأ رحلة العلاج مع سهى.

التفسير:

يواصل المفحوص في استجابته الكشف عن نزعاته الأنثوية بالقدر الذي يكشف فيه عن نزعات جنسية مثلية لتتفق استجابته على هذه البطاقة مع استجابته في البطاقتين (١٠، ٩)، فلقد أدرك المفحوص صورة الشاب بالبطاقة على أنها صورة أنثى وتعيَّن بها، ولقد أتت استجابته كاشفة – أيضاً – عن سيطرة البنية الخيالية على الذات (وهي لا تعلم سِر حزنها واكتئابها)، ليكون الاستسلام – في النهاية – للعالم الخيالي بالقدر الذي تُشبع فيه النزعة المثلية على مستوى لاشعوري (فكري ذلك الطبيب الروحاني وهو يعالج بالتنويم المغناطيسي وقد كان وبدأ رحلة العلاج مع سهى).

البطاقة رقم (١٣ ر-ن):

خائف من شيء ما

كان أحمد يسير في حياته كما تشاء الظروف وترميه المقادير فقد التحق بوظيفة بسيطة وكان يحاول أن يوفي بطلبات زوجته التي تعرف عليها وأحبها ولكنها كانت من النوع الذي لا يشبع فظلت تلاحقه بطلباتها فقد استدان من طوب الأرض حتى أصبح مهدداً بالسجن وفي يوم وقف مع نفسه وقرر أن يتخلص من هذا العبء الثقيل الذي اسمه هيام وهي زوجته فوضع لها السم في الطعام وقال لقد بدأت حياتي وأخذ يجفف عرقه.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن كف للجنسية الغيرية، وعدم الشعور بالكفاءة أو القدرة الجنسية، ويتبدى ذلك منذ عنوان استجابة المفحوص **خائف من شيء ما** ، كما تكشف استجابته عن تصويره للمرأة بأنها شرهة لا تكتفي جنسياً (وكان يحاول أن يوفي بطلبات زوجته...ولكنها كانت من النوع الذي لا يشبع فظلت تلاحقه بطلباتها)، ويستمر المفحوص – لاشعورياً – في الكشف عن الكف للجنسية الغيرية لديه بتصويره للعلاقة الغيرية بأنها عبء ثقيل (قرر أن يتخلص من هذا العبء الثقيل الذي اسمه هيام وهي زوجته)، كما تشير استجابة المفحوص إلى العدوانية المتجهة إلى الخارج والمسقطة على الآخر (فوضع لها السم في الطعام) ، وترتهن استمرارية حياة المفحوص – كما كشفت عن ذلك استجابته – بالتخلص من الآخر واستعادة الحالة الشبقية بالصورة المرآوية خارج النسق الرمزي (وقال لقد بدأت حياتي وأخذ يجفف عرقه) .

البطاقة رقم (١٤):

الانتحار

وجع وألم وإحباط هذا كل ما يشعر به فؤاد فلا يرى سبب إلى هذا الظلام الذي يحيط به من كل اتجاه ولا يعرف هذا الظلام حقيقي أم هو بداخله فقط وربما كان الاثنين معاً فقرر أن يفر إلى النور حتى وإن كان ذلك سيكلفه حياته. فصعد فوق الشباك وبدأ يرتب لما هو قادم.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن الإدراك المشوّش للواقع، وحالة الخلط التي أصبحت معها الذات عاجزة عن التمييز بين ما هو واقعي وما هو خيالي (فلا يرى سبب إلى هذا الظلام الذي يحيط به من كل اتجاه ولا يعرف هذا الظلام حقيقي أم هو بداخله فقط وربما كان الاثنين معاً)، كما تكشف استجابة المفحوص – أيضاً – عن الفترة قبل المرآوية بما تعنيه من تمزق وتشظُّر للجسد لا يقوى المفحوص على احتماله

(وجع وألم وإحباط) ، وأتت الرغبة اللاشعورية في العودة إلى الحالة الإنصهارية مع الأم عبر العودة إلى الرحم – الجنة المفقودة – بالانتحار، حيث التخلص من ذلك الشعور – غير المحتمل – بالألم (فقرر أن يفر إلى النور حتى وإن كان ذلك سيكلفه حياته) ، وأتت الاستجابة في مجملها لتشير إلى غياب الآخر كموضوع وارتهان الذات في العالم الخيالي بأوهامه.

البطاقة رقم (١٥):

العفريت

كان منزعج جداً هذه المرة من الإقامة ومستوى الخدمة وتلك الليلة هي أول أيامه في الترب وتحت الأرض. فأرسل عفريته يستطلع الجو فلم يجد عفريت محيي إلا موت من كل جانب فجلس يقرأ لهم الفاتحة.

التفسير:

أتت استجابة المفحوص كاشفة عن بنية خيالية أدرك بها المفحوص ذاته والآخر بالقدر الذي كشفت فيه عن غياب الرمز، بل السخرية من القانون الرمزي والدال اللغوي الذي تمثّل – من خلال استجابة المفحوص – في (الموت، قراءة الفاتحة)، فولوج الذات إلى النظام الرمزي – بالنسبة للمفحوص – يثير بداخله السخرية؛ فهو لا يولي النظام الرمزي وداله – الأقوى – وهو الموت أدنى اعتبار، لذلك أتى حياً رغم موته (كان منزعج جداً هذه المرة من الإقامة ومستوى الخدمة وتلك هي أول أيامه في التراب) في حين كان الآخر ميتاً (فلم يجد عفريت محيي إلا موت من كل جانب) .

البطاقة رقم (١٦):

الفاتنة

إذا رأيتها ظننت أنك ترى كل ما هو جميل في الكون مع التأكيد أن هذا الوجه وهذا الجسد بهما إبداع لا يوصف إنها نجلاء التي إذا وقفت أمامها تنسى عالمك ومن أنت ويذهب بك الخيال إلى أبعد من الخيال وتحاول جاهداً أن تجد بها أي غلطة

وتفتش من أعلى إلى أسفل فلا تجد أي أخطاء وكان هذا حال كل من يراها. إنك تتمنى أن ترى نجلاء ثم تمتلكها إلى الأبد.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن البنية النرجسية في بُعدها الشبقي اللاذ حيث الصورة المرآوية الآسرة الفاتنة، فلقد سُلِبت الأنا في تلك العلاقة الخيالية مع صورتها المرآوية مطلقة القدرة المصطبغة بالمثالية والكمال، لتتوارى الذات تاركة المسرح للأنا الواهم ليكون المونولوج – كنتاج لغياب الآخر الرمزي كموضوع – في علاقة خيالية قائمة على الصورة والنظرة بين الأنا وشبيهها المرآوي حيث الموت (إذا وقفت أمامها تنسى عالمك ومن أنت ويذهب بك الخيال إلى أبعد من الخيال...تتمنى أن ترى نجلاء ثم تمتلكها إلى الأبد) .

البطاقة رقم (١٧ ص.ر):

المغامر

تمر الأيام ويبقى الوضع على ما هو عليه بالنسبة لحاتم من هو في السماء يرى من هم دونه صغاراً ومن هو في الأرض يرى من هم أعلى كباراً ولكن قد يكون هناك حلاً وسطاً ألا وهو التسلق ربما يحدث ما نظنه مستحيلاً ونفعل ما يوصلنا إلى ما نراهم كباراً.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن محاولة في التسوية بين الواقع – الذي يدركه المفحوص ولكنه يرفضه – والخيال الذي يعيشه ويشعر معه بنرجسيته ووهم القدرة المطلقة، فأتت الذات منقسمة ما بين الواقع والخيال، وتشير استجابة المفحوص – أيضاً – إلى غياب الآخر كموضوع رمزي يوفق بين الرغبة والنرجسية، تلك النرجسية التي تتجلى في استخدام المفحوص لضمير الجمع كتفخيم للأنا (نظنه، نفعل، يوصلنا) ، كما تشير الاستجابة إلى التقليل من قيمة الآخر الرمزي الممثل للقانون الذي يراه كبيراً، وإن كان في الحقيقة يشعر بدونية هذا الآخر وضآلته مقارنة بنرجسيته ووهم القدرة التي يستشعرها في أناه.

البطاقة رقم (١٨ ص.ر):

الاستسلام

لم يصدق أحد ما حدث لماهر إنه شخص طيب يعيش حياة عادية وفجأة تتغير تصرفاته ويكسر ويغضب ويتكلم ولكن ليس بصوته إنما بصوت غير معلوم ويتمتم والمفاجأة أنه بداخله شخص من الجان فأحضروا له شيخ ليصرفه وبدأ الشيخ عمله وإذا به يغيب عن الوعي.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن استخدامه للإسقاط بالقدر الذي يستخدم فيه الإنكار لنزعاته العدوانية (وفجأة تتغير تصرفاته ويكسر ويغضب ويتكلم ولكن ليس بصوته...والمفاجأة أنه بداخله شخص من الجن) ، كما تكشف استجابة المفحوص عن **الآخر الصغير** أو الدون (الموضوع أ) الخارج عن السيطرة؛ فهو الذي يحرك المفحوص – دون إرادته – فالمفحوص غارق في عالمه الخيالي بأوهامه بعيداً عن النظام الرمزي بقانونه الثقافي، ويأتي في استجابته الآخر كموضوع رمزي متمثلاً في **الشيخ** هذا الدال اللغوي القادر – وحده – على صرف هذا **الجن** القرين، والإجابة على سؤال الهوية الذي تطرحه الذات، واستعادتها من اغترابها الخيالي لتأخذ مكاناً في السياق الرمزي (وبدأ الشيخ عمله وإذا به يغيب عن الوعي) .

البطاقة رقم (١٩):

منزل القرية

كل منازل القرية في الفلاحين قد تكون من دور أو اثنين أو ثلاثة ومنها ما يكون بالطين أو بالطوب ولكن هناك منزل واحد فقط هو الذي ترى أو تتخيل ورائه كلمة الله فما أعظمه من منزل.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن سيطرة البنية الخيالية حيث الإدراك الخيالي للآخر الرمزي (ترى أو تتخيل ورائه كلمة الله) فالآخر أو الدال اللغوي أتى خلف

الصورة التي تحظى باهتمام المفحوص وتسيطر عليه، كما أن الرمز لديه ما هو إلا وسيلة لإضفاء العظمة على الذات (فما أعظمه من منزل) .

البطاقة رقم (٢٠):

نور العاصمة

ما يميز العاصمة في معظم الأحيان هو الضجيج والصخب الأنوار والزحام. ولكن على الجانب الآخر هناك أشخاص لا تشعر بذلك بدليل إبراهيم أراد أن يذوب في هذا الزحام ولو مرة بعد كثير من المعاناة بسبب مرضه الذي لا يعرف له علاج وعندئذ ذهب إبراهيم إلى الشارع فلم يجد أحد فنظر في ساعته فوجد أنه في أول الليل. أين الأنوار أين الزحام لا شيء سوى أنفاسه ونفسه فوقف أسفل عامود إنارة وكأنه أتى من سفر بعيد ليعيد ما تبقى من عمره ويرتبه.

التفسير:

أتت استجابة المفحوص لتكشف عن البنية الخيالية للأنا بالقدر الذي تكشف فيه عن غياب الآخر، حيث الحبس الانفرادي للذات مع الأنا الوهن المنهك (بعد كثير من المعاناة بسبب مرضه الذي لا يعرف له علاج)، كما تكشف استجابة المفحوص عن محاولة التعيُّن بالقضيب الرمزي (عامود إنارة) لاستعادة ذاته من الاغتراب الخيالي والانخراط في النسق الرمزي (كأنه أتى من سفر بعيد ليعيد ما تبقى من عمره ويرتبه) .

تعليق على الحالة

تمثل الحالة نموذجاً للبنية الذُهانية، وإن كانت المظاهر الذُهانية غير ملموسة بشكل قاطع إلا أنها تتبدى بشكل أو بآخر في تداعيات المفحوص، ولا يعني كونها بنية ذهانية – وليست حالة ذهانية – غياب المحكات الذهانية منها، فالحالة/المفحوص يتبدى من تداعياته آلية الإغفال، فالأب – الدال الرمزي – غائب للحد الذي غابت فيه الرغبة وسيطرت الأمنية، فالمفحوص تاهت ذاته في عالم خيالي قائم على الأمنية، وأصبحت مستلبة في تلك العلاقة الخيالية النرجسية بين الأنا وصورتها.

الحالة الرابعة: حالة إدمان منشطات

(كوكايين، ماكستون فورت)

بيانات أولية:

الاسم: أ. **السن:** ٣٠ سنة. **النوع:** ذكر. **الحالة الاجتماعية:** متزوج.
مستوى التعليم: متوسط. **العمل:** أعمال حرة (تجارة).

الوضع العائلي:

الأب: متوفى، وكان سنه عند الوفاة ٦٩ سنة، سبب الوفاة الإصابة بمرض في القلب، مستواه التعليمي يقرأ ويكتب، كان يعمل بالتجارة، كان تواصل الحالة مع الأب – كما بيّن المفحوص – ضعيفاً جداً (كنتَ بخاف منه قوي...عمري ما اتكلمت معاه...لما كنت أعوز حاجه كنت أقول لأمّي وهي تقله...)، وأتى وصف المفحوص للأب بأنه متسلط وشرير (دا كان عملي رعب...وكان بيضربني جامد....) **الأم:** ٥٥ سنة، أمية، ربة منزل، لم تتزوج بعد وفاة الأب، حالتها الصحية سيئة، وعن تواصل الحالة بالأم أشار المفحوص إلى أن علاقته بها جيدة (أمي ست حنينه عليه قوي من وانا صغير وهي بتهتم بيه...حتى دلوقتي وبعد ما اتجوزت وخلفت بتعاملني زي زمان)، وأتى وصفه – أي المفحوص – للأم بأنها طيبة (أنا بعد ما كل فلوسي اللي ورستها واللي جمعتها من التجارة ومن المخدرات راحت على الضرب أمي هي اللي بقت تصرف عليه وعلى بيتي بعد ما اتجوزت...دا هي اللي بتدفعلى فلوس المستشفى).

الإخوة: للحالة تسعة إخوة أربعة ذكور، وخمس إناث، وأتى ترتيب الحالة الثاني في الذكور، والخامس في الترتيب العام، حيث أتى ترتيب الإخوة كالآتي:

الأخت إ ٥٢ سنة، جامعية، تعمل مدرسة، متزوجة ولديها ثلاثة أبناء، الأخ م ٥٠ سنة، الأخت ي ٤٩ سنة، جامعية، تعمل مدرسة، متزوجة ولها أربعة أبناء، الأخت ر ٣٥ سنة، أمية، لا تعمل، غير متزوجة، الأخ ج ٢٨ سنة، مستواه التعليمي

متوسط، لا يعمل، أعزب، الأخت د ٢٦ سنة، جامعية، مدرسة، متزوجة ولديها ابنة، الأخت س ٢٥ سنة، جامعية، مدرسة، متزوجة ولديها ابن، الأخ أ ١٧ سنة، طالب، لا يعمل، أعزب.

وأتى مستوى التواصل بين الحالة وجميع الإخوة والأخوات – فيما عدا الأخ الأكبر م – جيداً، وأتى وصفه لهم بأنهم طيبين، وإن كانت مستدعيات الحالة عن إخوته بيّنت أنه مرتبط – على المستوى اللاشعوري – بأختيه إ ، و س (مش عارف ليه بحبهم قوي كده؟...بس اللي أنا عارفه إني بارتاح معاهم...يمكن لأنهم حنينين عليه وقابلني على وضعي ده....).

أما فيما يخص الأخ م ، فهو في سن الخمسين، جامعي، يعمل مأمور ضرائب، متزوج ولديه ثلاثة أبناء، حالته الصحية سيئة؛ حيث يعاني من الضغط والسكر، وعن مستوى تواصل الحالة به – كما بيّن المفحوص – فكان ضعيفاً جداً (أنا ما أحبش أشوفه...ولا أتكلم عنه...دا فاكر نفسه هو الوحيد اللي بيفهم وعارف كل حاجه...)، ولقد أتى وصف المفحوص له بأنه شرير ومتسلط (عايز يعمل كبير عليه....).

الزوجة والأبناء: المفحوص متزوج ولديه طفلة عمرها عام بحالة صحية جيدة، وعن مستوى التوافق مع الزوجة بيّن المفحوص أنه جيد (مراتي بتحبني قوي...وعلاقتنا كويسه...وبعدين هي غلبانه وعايزه تعيش)، وأتى وصف المفحوص للزوجة بأنها طيبة، كما أشار – أي المفحوص – إلى أن موقف الزوجة من إدمانه هو الخضوع، والتفهم (هي سلمت أمرها لله....).

المقابلة الإكلينيكية

بدأ المفحوص تداعياته عن نفسه قائلاً: (أنا واحد منحرف...بس وأنا صغير...أنا كنت طفل عادي يمكن كنت شقي شويه لأ أنا كنت شقي قوي كنت أحب اللعب والجري والخناق..كنت باضرب كل العيال اللي قدي وحتى اللي أكبر مني...مش كنت أحب أقعد في البيت كنت على طول في الشارع) ، ولقد أبدى المفحوص مقاومة شديدة في التداعي، وربما كانت نتيجة لعدم القدرة على التركيز، وفقدان المفحوص القدرة على استخدام الدال اللغوي، ويتضح ذلك من خلال: (أنا مش عارف أقول أيه يا بيه...أنا أصلاً كلامي قليل وبحس إني مش عارف أجمع الكلام) .

ولقد حاول الباحث – قدر المستطاع – استثارة البنية اللاشعورية للمفحوص في محاولة لاستنطاق لاشعوره، فلقد كانت تداعيات المفحوص قليلة وغير مترابطة، ولقد لاحظ الباحث أن زمن الرجع لدى المفحوص طويل، وتتصف استجابته بالتردد مع التشتت الواضح لأفكاره، وهذا ما دفع الباحث إلى مخاطبة المفحوص قائلاً: (أنا عايزك تتكلم عن أي حاجة تيجي في خيالك أو تفتكرها، سواء خاصة بحياتك وعلاقتك بالعيلة أبوك، أمك، اخواتك، أو خاصة بالمخدرات، يعني اللي تحب تتكلم عنه في حياتك كلمني عنه) ، ولقد بدأ المفحوص في التداعي، وبدأ تداعياته بالكلام عن الأب، كالآتي: (هو ممكن الواحد يكره أبوه لدرجة أنه يبقى عايز يقتله ويبقى ده عادي؟) ، توجه المفحوص بهذا الاستفسار للباحث، فأجابه الباحث متسائلاً: (إنت بتكره أبوك؟) ، فأجاب المفحوص: (آه...بكرهه قوي...يالله بقى أهه مات...، فوجه الباحث تساؤلاً للمفحوص: (إنت بتكرهه قوي ليه؟ هو كان بيعاملك إزاي؟ علاقتك بيه كانت إزاي؟) ، فبدأ المفحوص كلامه: (علاقة أيه يا بيه أبويه ده كان راجل جبار..كان دايماً يضربني ضرب بافتره وكان دايماً يهزئني...علشان كده كنت دايماً طافش من البيت...أبويه كان راجل غني وهو اللي عمل نفسه بنفسه اشتغل وتعب لحد ما كون ثروة تجارة ومزارع وأرض زراعية...وكان عايز يعمل

عزوة فخلف كتير...ومش عارف كان حاططني في دماغه ليه؟ كلامه كله أوامر وزعيق عايزني أزاكر واشتغل معاه واصلي كله أوامر ولو ما عملتش اللي هو عايزه يبقى يومي أسود ضرب وإهانة...علشان كده كنت دايماً أهرب منه ومن البيت وحتى من المدرسة...وكنت بطلع زهقي في المشاكل والخناق...أنا كنت عامل رعب للعيال في المدرسة وفي الشارع أنا كنت فتوة المنطقة يا بيه أوعى يغرك جسمي الضعيف ده أنا كنت قد كده عشر مرات...أنا ساعات كنت بحس إني مش ابن الراجل ده) .

وفيما يتصل بتداعيات المفحوص حول الأم تبيّن ارتباطه الشديد بالأم، حيث أتت تداعياته كالآتي: (أمي ست طيبة ودايماً واقفه معايه سواء ضد أبويه أو أخويه الكبير أو الدنيا اللي مش راضيه تتظبط معايه) ، ويواصل المفحوص تداعياته عن الأم قائلاً: (أنا لما كنت أعوز حاجة من أبويه كنت أقول لأمي وهي تقله...ولما كان أبويه يمنع عني الفلوس كانت هي بتديني اللي أنا عايزه...وفي موضوع الشرب كانت تقلي أشرب بس بلاش الحقن...وعلى فكرة هي اللي دخلتني المستشفى وهي اللي بتدفعلى الفلوس بتاعت العلاج...يعني يا بيه مش لازم يبقالي حد في الدنيا ولا إيه؟ يعني يبقى الغدر والظلم من كل الناس لازم يبقى في حد معايه وأنا مليش في الدنيا إلا أمي....) .

وفيما يخص الأخ الأكبر، فلقد أتت تداعيات المفحوص لتُسقط صورة الأب على الأخ الأكبر، حيث يقول المفحوص: (أخويه م فاكر نفسه فاهم كل حاجه وعارف كل حاجه...هو صورة من أبويه بالظبط الفرق اللي بينهم إن أخويه أفندي وأبويه كان معلم تاجر ليه اسم في السوق...وأنا مش بحب أخويه ده خالص هو الوحيد اللي مش بحبه في إخواتي كلهم طيبين بالأخص أختي إ وأختي س حنينين عليه قوي) .

وبخصوص حياة المفحوص الجنسية تبيّن من تداعياته أنه – نظراً لانخراطه في الشارع منذ طفولته – قد عرف الجنس في سن مبكرة: (الجنس عرفته وعرفت العلاقة بين الراجل والست من وأنا طفل صغير وكنا في لعبنا أنا والعيال بنلعب عريس وعروسه ولما بلغت كنت بمارس العادة السرية وكنت بمارس الجنس كتير قوي مع

ستات شغالين في الكار ده بس من غير فلوس يعني أنا عمري ما دفعت قرش واحد في الموضوع ده أنا كنت أصرف على الكيف واعمل واجب مع صحابي فيه بس الموضوع ده لأ) .

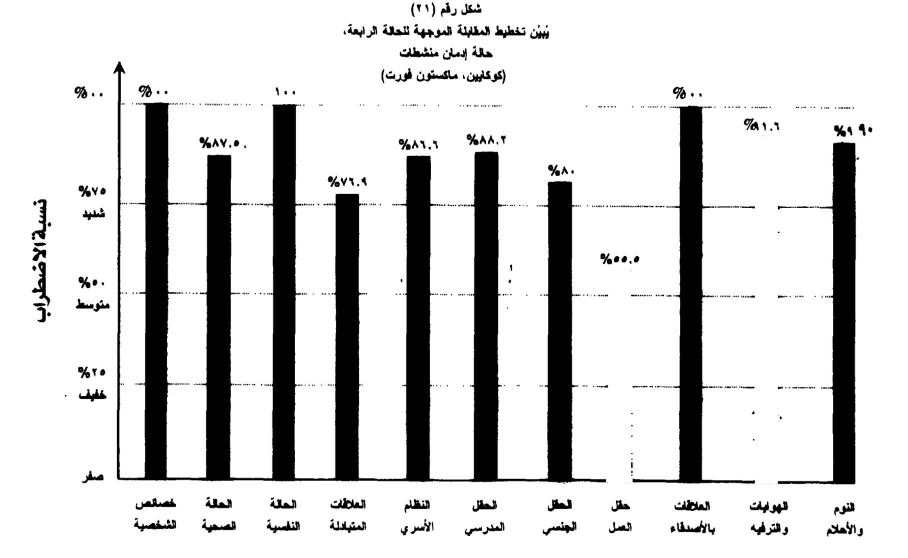
وعن التعاطي تبيّن من تداعيات المفحوص أنه بدأ التعاطي في سن مبكرة، كالآتي: (أنا بدأت أشرب سجاير وأنا عندي ١٣ سنة وكان السبب إني حبيت أبقى راجل والرجولة عندي كانت مرتبطة بالسجاير وبعدها بدأت أشرب بيرة وخمره وحشيش بس أنا حبيت الخمرة أكتر من الحشيش لأن الحشيش كان بيخليني هادي قوي زي ما قلتلك)، ويواصل المفحوص تداعياته مبيناً أنه بدأ في الاتجار بالمخدرات – على نطاق محدود – وهو في السادسة عشرة، وأخذ ينخرط في هذا السياق بشكل سريع إلى أن أصبح من المعروفين في هذا المجال، وتم تسجيله كمسجل خطر في الداخلية، ويشير أنه بدأ في هذه الفترة يتعاطي الماكستون فورت والكوكايين، كما أنه بدأ يجني مبالغ كبيرة من الاتجار بالمخدرات عوضته عن الأموال التي كان يسطو عليها من تجارة والده، وكان يصرف من هذه الأموال على تعاطيه، وعلى الجنس، وتجنيد العديد من الشباب للعمل معه في هذا المجال، كما بيّن أنه ظل على هذا الوضع إلى أن تورط في جريمة قتل، وأثناء حبسه على ذمة التحقيق – وبإرشاد من محاميه – قام بمحاولة انتحار بإحداث جراح بالغة الخطورة في مناطق عديدة من جسده، وبتقديم تقارير طبية تم إخلاء سبيله، وبعد ذلك بدأت محاولات العلاج، خاصة وأن المفحوص بدأ يشعر بضعف شديد في قدراته العقلية بالإضافة إلى فقدانه لكل ما جمعه من أموال، ويتضح ما قام الباحث بعرضه آنفاً في تلك الكلمات التي قالها المفحوص: (أنا حبيت الكوكايين والماكس قوي لأنه بيخليني فايق ونشيط وأنا ضربت كتير قوي...أنا مش خليت وريد في جسمي ما ضربتش فيه حتى القضيب ضربت فيه...بس المخدرات دمرتني...بص يا بيه أنا مفيش حاجة غلط في الدنيا دي مش عملتها مخدرات وسرقة ونسوان وقتل كل حاجة أنا زي ما بتقولو منحرف...بس المشكلة إني بدأت أحس إني بقيت غبي مش مجمع...يعني أنا مش عارف أنا بتكلم معاك إزاي...أنا كان زماني دلوقتي تعيش أنته لولا أمي....) .

تحليل المقابلة

كشفت تداعيات المفحوص – منذ بدايتها – عن عجز واضح في استخدام الدال اللغوي، فهو دال مفقود نتيجة لغياب الدال الأبوي (أنا بحس إني مش عارف أجمع الكلام) فهي حالة التبعثر والتمزق التي يدركها المفحوص واقعاً يعيشه، إنها حالة أشبه بالنكوص إلى مرحلة قبل لغوية، حيث تقف الذات عاجزة عن التواصل الجدلي بالآخر فهو غائب ليس له وجود، وتعاني الأنا الطفلي من حالة التمزق الفعلي المعاش، ذلك الواقع الذي تفشل معه مرآة الأنا وشبيهها في تحويله إلى جُماع حتى ولو كان جُماعاً خيالياً واهماً.

أتى المفحوص – عبر تداعياته – ببنية خيالية قوامها تعيُّن خيالي بالأم القضيبية، مع احتدام للصراع الأوديبي أدى إلى فشل الذات في اكتساب الاستعارة الأبوية، ويتحول الأب من مانح للوجود ولشرعية هذا الوجود إلى غريم/عدو يجب التخلص منه كي تؤمِّن الذات وجودها (هو ممكن الواحد يكره أبوه لدرجة إنه يبقى عايز يقتله ويبقى ده عادي؟) ، وبرغم موت الأب – الواقعي – إلا أن وجوده الرمزي خالد لا يموت، ولازال الفراغ الذي يحتل بنية الذات يبحث عن الامتلاء، ويتوهم المفحوص أن المخدر يمكنه ملء هذا الفراغ، فتزداد الثغرة وتتسع في البنية النفسية، وتتحول إلى هجاس الاضطهاد (أبويه ده كان جبار...) ، فالآخر معتدٍ؛ لذلك يجب الاعتداء عليه، وسوف يتضح ذلك في تداعيات المفحوص على بطاقات اختبار تفهم الموضوع.

ومجمل تداعيات المفحوص في المقابلة أشارت إلى تلك البنية الذُهانية، فإدراك الذات والآخر أتى إدراكاً خيالياً، وسيطرت النزعة العدوانية والمشاعر الاضطهادية على المفحوص، إضافة إلى توهمه الملحوظ للقدرة المطلقة.


شكل رقم (٢١)
يبيّن تخطيط المقابلة الموجهة للحالة الرابعة،
حالة إدمان منشطات
(كوكايين، ماكستون فورت)
نسبة الاضطراب
%٠٠
%٧٥
شديد
%٥٠
متوسط
%٢٥
خفيف
صفر
%٠٠
%٨٧.٥٠
١٠٠
%٧٦.٩
%٨٦.٦
%٨٨.٢
%٨٠
%٥٥.٥
%٠٠
%٨١.٦
%٩١.٩٠
خصائص الشخصية
الحالة الصحية
الحالة النفسية
العلاقات المتبادلة
النظام الأسري
الحقل المدرسي
الحقل الجنسي
حقل العمل
العلاقات بالأصدقاء
الهوايات والترفيه
النوم والأحلام

استجابات الحالة على بطاقات اختبار تفهم الموضوع

البطاقة رقم (١):

الحيرة ما بين العلم والعمل

محمد عمره الثامنة عشر فهو في حيرة شديدة جداً ما بين تكميل علمه والمذاكرة والنجاح أم ترك العلم والمذاكرة والعمل أو الحصول على المال من أي طريقة. وأنه حتى لو نجح هذا العام هل العام القادم سوف يتمكن من العلم أم أن الظروف سوف تمنعه من تكملة العلم وأنه لا فائدة من المذاكرة.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن عدم تحقق خصاء الذات كنتاج لرفض المفحوص للخصاء (محمد...في حيرة شديدة جداً ما بين تكميل علمه والمذاكرة والنجاح أم ترك العلم والمذاكرة والعمل)، كما تكشف استجابة المفحوص عن فقدانه للثقة في القانون الأبوى (اسم الأب) باعتباره قانوناً ومثالاً ووعداً (حتى لو نجح هذا العام هل العام القادم سوف يتمكن من العلم...لا فائدة من المذاكرة)، فالوعود التي يقدمها النظام الرمزي للذات/المفحوص لم تكتسب المصداقية بالنسبة له، فكان رفضنه للخصاء وإقصاؤه للآخر الرمزي كموضوع، والارتهان في عالم الصورة.

البطاقة رقم (٢):

نظرة ما بين العلم والجهل

هذه الفتاة تنظر إلى العلم والقراءة لكي تبني لها مستقبل جيد وأمها تبكي من القلق عليها من الخوف من الشباب والسفر إلى الجامعة وكانت زينب تحب العلم والقراءة أفضل من الجهل. وكان أبوها رافض التعليم وأرادها تساعده في عمله وجهده.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن تعيُّنه بالفتاة؛ ما يشير إلى نزعات أنثوية مكبوتة، كما كشفت استجابة المفحوص – أيضاً – عن موقفه من الأب والأم؛ حيث أتى تعيُّنه بالأم التي ارتهنت بها الذات (وأمها تبكي من القلق عليها) في حين أتت صورة الأب مشوهة فهو يقف أمام رغبة الذات التي تشارك فيها الأم، حيث رفض القانون الأبوي.

البطاقة رقم (٣ ص.ر):

فقدان الأمل واليأس

من أصعب ما يشعر به السيد فقدان حياته العلمية فكيف يستطيع الإنسان أن يكمل حياته الخاصة أو الاجتماعية بدون أن يكون لديه أمل فالأمل يا أخ السيد يدفع الإنسان للأمام ويجعله يتقدم خطوة بخطوةَ أفضل من اليأس والحرمان ويحوله إلى وحش لا يرى أمامه إلا أن يعادي من أعلى منه في خلقه وعلمه وعمله.

التفسير:

أتت استجابة المفحوص لتكشف عن نزعات عدوانية متجهة نحو الآخر (والحرمان يحوله إلى وحش لا يرى أمامه إلا أن يعادي من أعلى منه) ، كما تكشف استجابة المفحوص عن نزعة مثالية؛ حيث تسعى الذات إلى الاصطباغ بالمثالية؛ فلعبت دور الناصح للآخر وكأنها تنطق باللاشعور المخاطب للأنا/الآخر فما الآخر سوى أنا في ظل البنية النرجسية.

البطاقة رقم (٤):

وسوسة الشيطان ورعاية الأسرة

هذه الصورة تعبر عن وسوسة الشيطان. وكان محسن في عينه غضب وامرأته حسنيه تهدئه وتمنعه من الغلط والمشاكل وترشده إلى ما يصح أن يفعله وهي بذلك تكون حاسة بالغدر والخيانة ومتأكدة أنه ستحدث مصيبة أو موقف صعب.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن اضطراب في الهوية الجنسية، وهذا ما يتفق مع البطاقة (٢)؛ فلم ينتبه المفحوص لخلفية البطاقة التي تشير إلى موضوع جنسي، كما تشير استجابته إلى نزعات عدوانية (وكان محسن في عينه غضب) بالقدر الذي تشير فيه إلى اضطراب العلاقة بالآخر؛ فالعلاقة بالآخر أتت لتشير إلى التوجس وعدم الأمان (وهي بذلك تكون حاسة بالغدر والخيانة)، ومجمل استجابة المفحوص يشير إلى العلاقة الخيالية بالآخر.

البطاقة رقم (٥):

حنان الأم

كيف تستطيع أم أحمد أن تصف حنان الأم وهي تطمئن على أولادها في المذاكرة وكانت الأم قلقانه على أبنائها أخذها الحنين أن تطمئن عليهم والواضح من الصورة أنها شعرت بالقلق وقلة الاطمئنان وشعرت بالأمان على أولادها عندما رأتهم عينها.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن افتقاده للأمن والاستقرار العائلي، كما تكشف عن زعامة الصورة الدال الخيالي، وغياب الدال الرمزي (شعرت بالأمان على أولادها عندما رأتهم عينها)، ويأتي تعيُّن المفحوص بالمرأة/الأم ليشير إلى العلاقة الإنصهارية بين الذات والأم.

البطاقة رقم (٦ ص.ر):

عاطفة الأم وقلقها

هذه الأم تعبر عن قلقها وهذا محمد كان شغال في الخارج والأم خائفة على ابنها الوحيد الذي يقوم باحتياجاتها من علاج أو مصاريف لكي تدعي له بطريق الخير والصلاة والعبادة والأم تقول لابنها كن خائفاً على نفسك وتدعي له بطريق الخير.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن تعيُّنه بالقضيب الخيالي موضوع رغبة الأم (ابنها الوحيد الذي يقوم باحتياجاتها...علاج أو مصاريف) ؛ فاستجابة المفحوص في مجملها أتت لتكشف عن الفترة الأولى من مركّب أوديب؛ والمتمثلة في العلاقة الثنائية الخيالية بين الذات/المفحوص والأم، مع غياب الأب كطرف ثالث.

البطاقة رقم (٧ ص.ر):

غضب الأب

هذا الشاب الطايش وهذا الأب في حيرة وغضب وهو اسمه عبد الرحمن كان يعمل سائق وكان يعمل ويجهد في سبيل أن يسد الخانات المفتوحة وسوف يحضر من عمله ويمشي مع أصحاب السوء الذين دمروه وأفسدوه في الشرب والمشاكل والخيانة وهذا أغضب الأب جداً.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن احتدام الموقف الأوديبي، وفشل الذات في اكتساب الاستعارة الأبوية، وتوقف فترات الأوديب عند الفترة الثانية، وإن كان الأوديب قد وصل إلى فترته الثانية إلا أن قانون الأب لم يأخذ الشرعية عبر خطاب الأم، فظلت الذات رهينة للعلاقة الخيالية مع الأم عبر التعيُّن بالقضيب الخيالي (وكان يعمل ويجهد في سبيل أن يسد الخانات المفتوحة) فالذات/المفحوص يسعى لتحقيق رغبة الأم، كما أتى الأب – الذي لا ترضخ الذات لقانونه – مُهدداً للذات وإن كانت لا تكترث له (هذا الأب في حيرة وغضب...وهذا أغضب الأب جداً)، كما تكشف استجابة المفحوص عن استغراقه في عالم اللذة الخيالي (وسوف يحضر من عمله ويمشي مع أصحاب السوء الذين دمروه وأفسدوه في الشرب والمشاكل والخيانة) .

البطاقة رقم (٨ ص.ر):

خيانة الأصدقاء

أنا أرى من الصورة رجل ملقى على الأرض فاقد الوعي وشخصان أصدقاء يقتلعان الساعة بعنف شديد وفي يده سلاحاً وأرى من الجانب الآخر سلاحاً نارياً مما يؤدي إلى وجود عنف وشجار لأنهم أصحاب خونة وليس عندهم ضمير.

وشخص آخر شكله نضيف وشريف في حاجة في عينه عايز يقلها وممكن يكون خايف .

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن نزعات عدوانية، ويتضح ذلك في (يقتلعان الساعة بعنف شديد، سلاحاً نارياً، شجار، خايف)، كما تكشف الاستجابة عن العلاقة الخيالية بين الذات والآخر، فأتى إدراك الآخر إدراكاً خيالياً مشوهاً؛ حيث أتى الآخر معتدياً وخائناً، كما تكشف استجابة المفحوص عن اضطراب في هوية الذات – وهذا ما يتضح في أكثر من بطاقة – فلم يستطع المفحوص التعيُّن بأية شخصية من شخصيات البطاقة، وإن كانت الاستجابة تشير إلى رغبة لاشعورية في التعيُّن بالشخص المعتدى عليه – كما رآه المفحوص – وأتى وصفه له (رجل ملقى على الأرض فاقد الوعي) ، كون هذا التعيُّن يحقق له الشعور بأنه ضحية مجني عليه ليتفق مع صورة الآخر الخائن (أصحاب خونة وليس عندهم ضمير) .

البطاقة رقم (٩ ص.ر):

الحلم الضائع

الحلم الضائع شيء رهيب أن تبني حياتك كلها على حلم ويملئ هذا الحلم كل حياتك وتنام وأنت تحلم به وتستيقظ وأنت تحدد فيه وفجأة يضيع هذا الحلم ويتهدم ويصير شيء لم يكن فكيف يستطيع الإنسان أن يحتمل كل ذلك.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن البنية الخيالية؛ فالأنا غارقة في عالم خيالي، والذات مرتهنة في علاقات خيالية، حيث غياب الرمز والقانون المنظم للرغبة، فالمفحوص لم يعد قادراً على التمييز بين الواقع والخيال؛ فأتت حياته على هيئة حلم استيقظ منه ليصطدم بالواقع وقوانينه.

البطاقة رقم (١٠):

الحب والرومانسية

هذه الصورة تعبر عن الحب بين الزوج وزوجته، الزوج اسمه أحمد والزوجة اسمها أسماء ويعبر لها بالحنان والحب والرومانسية الحب شيء جميل يحمل كل المعاني الجميلة كالدفء والرومانسية فكيف لا يحمل كل المعاني الجميلة فباسم الحب تشعر بالدفء وأنت في حضن من تحب.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن نزعة جنسية غيرية، وإن كانت أفلاطونية؛ فالعلاقة الجنسية الغيرية تتوقف عند الرومانسية، كما تشير استجابة المفحوص إلى حاجته للأمن.

البطاقة رقم (١١):

الصحراء

أنا أرى غموض في هذه الصورة السوداء لأن الواضح منها عبارة عن صحراء وجبال متكسرة وحشرات وثعبان وإنسان نائم وهو مكان يشبه المغارة السوداء وربما يكون هذا الإنسان ميت وليس نائم.

التفسير:

يتبيَّن من استجابة المفحوص سيطرة البنية الخيالية، وغياب القانون الثقافي الاجتماعي نتيجة لغياب الآخر، فأتى إدراكه للبطاقة إدراكاً خيالياً يحرك العدوانية؛

فالآخر ميت ومحاط بحشرات وثعبان وجبال (متكسرة) وكأنها حالة التمزق التي يدركها الأنا الطفلي.

البطاقة رقم (١٢ ر):

النوم المغناطيسي

هذا الشخص كان شغال في الخارج وهو اسمه أحمد ولسه واصل من السفر ومعه مبلغ من المال والذهب والملابس ووالده يدخل عليه ويحاول أن يكتم أنفاسه لكي يسرق كل الفلوس ويقول أن ابنه مات.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن نزعات جنسية مثلية، ويتضح ذلك منذ عنوان استجابته **النوم المغناطيسي**، كما تكشف – أيضاً – عن العلاقة الاضطهادية بالأب، حيث أتى إدراك المفحوص للأب إدراكاً خيالياً؛ فمثّل الأب المنافس المُهدِّد للذات (ووالده يدخل عليه ويحاول أن يكتم أنفاسه لكي يسرق كل الفلوس)، وإن كانت استجابة المفحوص حول عدوانية الأب تشير إلى إسقاط الذات لعدوانيتها تجاه الأب.

البطاقة رقم (١٣ ر-ن):

غلطة وندمان عليها

أنا أرى في هذه الصورة شخص يجفف عرقه وفتاة ملقاة على السرير في أوضه شكلها أوضة طالب وشكل الطالب عامل حاجة غلط وندمان عليها.

الفتاة نائمة نوماً غريباً مخنوقة والطالب ندمان لأنه وقع معها في مصيبة وبعدين أتقلبت جريمة وهو في غاية الندم.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن كف للجنسية الغيرية – وهذا ما يتفق ونزعاته المثلية – فهي تمثل بالنسبة للمفحوص فعلاً خاطئاً (شكل الطالب عامل حاجة غلط وندمان عليها)، كما تكشف استجابته عن العلاقة الخيالية بالآخر، والتي يسيطر عليها

العدوان (الفتاة...مخنوقة والطالب ندمان لأنه وقع معها في مصيبة وبعدين أتقلبت جريمة) .

البطاقة رقم (١٤):

الهلاك

هذه الصورة تدل على شخص قاعد على شباك ويده مرفوعه على حاجة أعلى ممكن يكون زرار النور أو ماسك في الشباك وطالع ناوي الغدر والسرقة من منزل الغير وأكيد هو مدمن مخدرات ولازم يشتري المخدرات لذلك يسرق.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن نزعات عدوانية واضحة تجاه الآخر (وطالع ناوي الغدر والسرقة) ، كما تشير إلى سيطرة البنية الخيالية وعالم اللذة (أكيد هو مدمن مخدرات ولازم يشتري المخدرات) .

البطاقة رقم (١٥):

مكان غير قابل للبشر

هذه الصورة غريبة جداً ومخيفة تدل على الجن وهذه مقابر خواجات أو مسيحيين وهي مليئة بالشر والخوف والقتل والدم ووسطها وقف جن أو عفريت غريب الشكل وغير تابع للبشر لأنه شيطان يقوم بكل الشر ولا يعرف الخير أبداً.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن بنية خيالية واضطراب هوية الذات؛ فهو ليس إنساناً بل شيطاناً (لأنه شيطان يقوم بكل الشر ولا يعرف الخير أبداً) ، كما تشير إلى الإدراك الخيالي المشوه للآخر مثلما كان إدراك الذات خيالياً مشوهاً، ويأتي اضطراب هوية الذات جلياً في (هذه مقابر خواجات أو مسيحيين) ، وتتبدى النزعات العدوانية المصاحبة للعلاقات الخيالية في (مخيفة، مليئة بالشر، القتل، الدم) .

البطاقة رقم (١٦):

الـــدم

هذا إنسان يائس من الحياة كانت مشاكل محمد مع والده بسبب المخدرات وأصحاب السوء كان الأب يطلب من ابنه البعد عن الشر بس كان المفروض يصاحبه (إن كبر ابنك خاويه) وكان الأب شغال تاجر كبير وعنده أراضي ومزارع، وفجأة رأى الأب محمد داخل عليه يقوله أنا عايز فلوس فقاله روح لأمك أنا مش هديك حاجه فرد محمد أنا هاخد الفلوس حالاً فقال الأب إنت بتتحداني قال الابن آه ودخل المطبخ وأحضر السكينة وطعن الأب ثلاث طعنات واستولى على الفلوس وترك الأب غرقان في الدم وخرج وجلس أمام باب المنزل.

التفسير:

يعتقد الباحث أن استجابة المفحوص على هذه البطاقة بها من الثراء ما يكشف عن بنية المفحوص اللاشعورية، فلقد أتت استجابات المفحوص على كل بطاقات الاختبار قصيرة ومقتضبة، في حين أتت استجابته على هذه البطاقة البيضاء – التي تشعره بالحرية في الإفصاح عن مكنوناته اللاشعورية – طويلة جداً بالقياس بغيرها، ولقد أتت استجابة المفحوص كاشفة عن الموقف الأوديبي، محددة وضعية الأب والأم والذات، بالقدر الذي تجلت فيه النرجسية المميزة للنظام الخيالي ببُعدها العدواني.

كشفت استجابة المفحوص عن اضطراب العلاقة بالأب، حيث أتت الذات رافضة لقانون الأب الرمزي، كما أتى إدراك الذات للأب على أنه منافس ومهدد لها (بس كان المفروض يصاحبه (إن كبر ابنك خاويه)) ، ومثّل الأب في استجابة المفحوص الأب الخيالي مطلق القدرة (وكان الأب شغال تاجر كبير وعنده أراضي ومزارع) فهو الأب مالك كل نساء القبيلة، والمُحرِّم لهذه الملكية على الذات (رأى الأب محمد داخل عليه يقوله أنا عايز فلوس فقاله روح لأمك أنا مش هديك حاجة) ، حيث أتت الأم هنا وكأنها الذات؛ فالعلاقة أم، ذات/أب فهي علاقة ثنائية خيالية لم يستطع الأب بقانونه أن يفصلها، فظلت الذات رهينة لتلك العلاقة الإنصهارية

الخيالية، ويحتدم الموقف الأوديبي بإصرار الذات/المفحوص الحصول على الأم/المال إلى أن يصل إلى مرحلة الصراع أو التنافس (أنا هاخد الفلوس حالاً فقال الأب إنت بتتحداني قال الابن آه) ، لتصل الدراما الأوديبية نهايتها بذلك المشهد المأساوي – وإن كان **أوديب سوفوكليس** لم يكن واعياً بجريمته فإن المفحوص واع بها – حيث قتل الأب والاستيلاء على الأم/الثروة (ودخل المطبخ وأحضر السكينة وطعن الأب ثلاث طعنات واستولى على الفلوس وترك الأب غرقان في الدم)، وربما كانت الطعنات الثلاث تمثل: الذات، الأم، والأب نفسه، وفي الإفصاح عن العدوانية المتفجرة لدى المفحوص لم يكن من خلال فعل القتل ذاته بقدر ما كان من خلال الشعور بالنصر وامتلاك القبيلة – وفقاً لقراءة **فرويد** في **الطوطم والتابو** – حيث سيطرة الذات/أوديب/الإنسان البدائي/المفحوص على مجريات الأمور بدون الشعور بالذنب؛ فالمفحوص يغيب عنه كل ما هو مقدّس أو محرّم؛ فهو – ووفقاً لـ **لاكان** – أسير لتلك البنية الخيالية الواهمة البعيدة كل البعد عن أي رمز أو دال ثقافي (وخرج وجلس أمام باب المنزل) .

البطاقة رقم (١٧ ص.ر):

اللص

هذا الشخص طالع من أسفل إلى أعلى وجسمه شكله رياضي لكن مفيش رياضه بالشكل ده وأعتقد أنه طالع على الحبل بغرض السرقة وسيدخل من الشباك منزل أي حد ويسرق كل المال والذهب الموجود ولن يعرفه أحد.

التفسير:

يواصل المفحوص في استجابته للبطاقة (١٧) الإفصاح عن نزعاته العدوانية المتجهة نحو الخارج، نحو الآخر، فهو غارق في عالمه الخيالي، يسيطر عليه مبدأ اللذة (سيدخل من الشباك منزل أي حد ويسرق كل المال والذهب الموجود ولن يعرفه أحد) ، كما أتى الآخر في استجابة المفحوص عاجزاً عن إدراكه؛ فهو يتمتع بقدرة مطلقة.

البطاقة رقم (١٨ ص.ر):

شيء يجذب إلى الخوف

هذا الشخص جالس في مكان مظلم ومخيف جداً وفجأة يحدث له شيء ويخاف لأن من خلفه رجل يجذبه للخلف ووجهه يدل على الخوف والفزع وهذا الرجل يجذبه لكي يقتله بعد أن يسرق كل ما معه من فلوس.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن نزعات جنسية مثلية (من خلفه رجل يجذبه للخلف) ، كما تكشف الاستجابة عن سيطرة البنية الخيالية والعدوانية المتجهة نحو الذات، فالآخر مُهدِّد ومعتدٍ (وهذا الرجل بجذبه لكي يقتله بعد أن يسرق كل ما معه من فلوس) .

البطاقة رقم (١٩):

بيت الرعب

أنا أرى في هذه الصورة منزل بسيط أمامه زرع وصبار والبيت يدل شكله على الحريق والجو مقلوب بالهواء والمطر والخوف والنار مشتعلة في كل البيت وأكيد الناس الموجودة في البيت ستموت من النار والدخان.

التفسير:

تكشف استجابة المفحوص عن الاستخدام الخيالي للدال، وغياب الشعور بالأمن والاستقرار، مع سيطرة النزعات العدوانية، وغياب الآخر كموضوع رمزي، ومجمل استجابة المفحوص يشير إلى البنية الخيالية (البيت يدل شكله على الحريق والجو مقلوب بالهواء والمطر والخوف والنار مشتعلة) .

البطاقة رقم (٢٠):

غموض الليل

هذا شخص يقف تحت ماسورة يديه في جيبه ينتظر حاجة يمكن في شخص سيحضر له حاجة أو عايز يتسلق الماسورة لتساعده على كسر السقف وطلب حاجته من هذا المكان الغريب والغامض والمظلم.

التفسير:

لم تأت استجابة المفحوص على هذه البطاقة بجديد عن البطاقات اللاتي سبقتها؛ حيث سيطرة النزعات العدوانية، والإغراق التام للذات في علاقات خيالية محرّفة ومشوّهة للواقع.

تعليق على الحالة

تمثل الحالة نموذجاً للبنية الذُهانية، وتجلّى ذلك أكثر ما تجلّى في خطاب الحالة؛ فلقد كان مليئاً بالفجوات/الثغرات، كما تجلّى في العدوانية المتجهة نحو الآخر، وفي الإدراك المشوه للذات والآخر؛ فلقد كان إدراكاً خيالياً، بالقدر الذي تجلّى فيه من خلال آلية الإغفال، فاسم الأب مرتهن؛ فلم يكتسب المفحوص الاستعارة الأبوية، كما سيطرت النرجسية على المفحوص عبر تعيُّنه بالصورة المرآوية التي تجمع تبعثره الفعلي المعاش.

(٦)

الفصل السادس

نتائج الدراسة

وفقاً للتحليل النفسي البنيوي

الفصل السادس

نتائج الدراسة وفقاً للتحليل النفسي البنيوي

مقدمة:

تمثَّل الهدف الرئيسي للدراسة – الممثلة للمتن بين أيديكم – في إلقاء الضوء على واحد من أكثر المفاهيم اللاكانية أهمية، بل أكثر المفاهيم محورية في خطاب التحليل النفسي اللاكاني؛ وهو مفهوم **النظام الخيالي**، وذلك بربطه بواحدة من أكثر الظواهر الإنسانية تفرداً وهي ظاهرة الإدمان، حيث سعى الباحث – من خلال الدراسة الإكلينيكية – إلى الكشف عن طبيعة بنية النظام الخيالي ومكوناتها، والوقوف على الدور الذي يضطلع به في ظاهرة إدمان المخدرات والمسكرات، ولقد مثَّل هذا التساؤل الذي سعت الدراسة إلى الإجابة عنه.

ومن أجل ذلك قام الباحث باختيار أربع حالات من مدمني المخدرات والمسكرات، حيث تم توزيع الحالات الأربع على أربع مواد من المواد المؤثرة نفسياً وهي: الخمور، والحشيش، والهيروين، والكوكايين.

ولقد مثلت المواد الأربع أربع مجموعات أساسية من المواد المؤثرة نفسياً، فالخمور تنتمي إلى مجموعة المواد المحررة للطاقة، ومثلتها في الدراسة الحالة الأولي، أما الحشيش فينتمي إلى المواد المهدئة والمهلوِسة، ومثلتها في الدراسة الحالة الثانية، بينما أتى الهيروين منتمياً إلى المواد الضابطة المحدِثة للتوازن، ومثلتها في الدراسة الحالة الثالثة، في حين يأتي الكوكايين ضمن المواد المنشطة المولدة للطاقة النفسية، ومثلتها في الدراسة الحالة الرابعة.

ولقد تم تطبيق عددٍ من الأدوات الإكلينيكية – المقابلة الإكلينيكية، وملف الفحص النفسي، واختبار تفهم الموضوع – على حالات الدراسة الأربع، وكان لهذه الأدوات الدور الفاعل في تمكين الباحث من الكشف عن البنية النفسية لحالات الدراسة، واستنطاق لاشعورها باعتباره مبنياً على غرار بنية اللغة، حيث تم التوصل

إلى عدة نتائج حول البناء النفسي لمدمني المخدرات والمسكرات؛ يمكن للباحث عرضها فيما يلي:-

تشكّلت بنية النظام الخيالي لدى مدمني المخدرات والمسكرات فى التعيين الذاتي النرجسي بالصورة المرآوية

كشفت نتائج الدراسة عن طبيعة التعيينات الذاتية لدى الحالات الأربع الممثّلة لحالات الدراسة، حيث أتى تعيُن الحالات تعيُناً أولياً خيالياً بما يتضمنه من نرجسية ببُعديها: الشبقي والعدواني، فلم تتمكن حالات الدراسة من الوصول إلى التعيين الذاتي الثانوي الرمزي الذي يمكّن الذات من التخلص من أسر الصورة والافتتان بها، لتظل الذات رهينة لتلك العلاقة الثنائية الخيالية بين الأنا وشبيهها المرآوي، أو صورتها المرآوية.

كما بينت نتائج الدراسة أن إدمان المخدرات والمسكرات كان له دور فاعل – لدى الحالات الأربع – في تدعيم تلك العلاقة الثنائية الخيالية، ما كان له الأثر في زيادة النرجسية، وتضخم الأنا الطفلي وسيطرة وهم القدرة المطلقة، فبنية النظام الخيالي قائمة على تلك العلاقة الثنائية الخيالية بين الأنا والصورة المرآوية، تلك العلاقة التي يحدثها التعيين الذاتي الأولي؛ والذي يمثل تعييناً نرجسياً خيالياً بالصورة، ولقد أخذت الصورة عدة أشكال فهي: صورة الأم/ثدي الأم، والصورة المرآوية، وصورة الأخ/المنافس، صورة الأب الخيالي، والقضيب الخيالي في المُركّب الأوديبي؛ فالمدمن يسعى إلى تسكين الآلام النرجسية واستعادة الاتزان عبر المخدر الذي يعينه على العيش في مستوى خيالي عبر حوار مع صورته المرآوية.

كشفت البنية الإكلينيكية لدى مدمني المخدرات والمسكرات عن اضطراب في صورة الجسد

كشفت نتائج الدراسة – كما تبيّن آنفاً – عن التعيُن النرجسي لمدمن المخدرات والمسكرات بالصورة المرآوية، والذي يمثل تعيُناً أولياً خيالياً بما يتضمنه من تحريك للحفزات العدوانية، وهذا ما يترتب عليه عدم القدرة على الانخراط في السياق

الاجتماعي، أو العمل وفقاً للنظام الرمزي بقانونه الثقافي.

وتلك العلاقة الثنائية النرجسية تشتمل على نزعات عدوانية اضطهادية؛ يكون لها الأثر في استرجاع حالة التمزُّق والتشطُّر الأولي التي كانت تعيشها الأنا الطفلي قبل التعيُّن بالصورة المرآوية، وهذا ما أكدته نتائج الدراسة من أخاييل الافتراس والتمزق، والشعور بالإنهاك، وفقدان القدرة، كما كشفت نتائج الدراسة عن العدوانية المتجهة نحو الذات ونحو الآخر، وهذا ما بينته استجابات الحالات على اختبار تفهم الموضوع.

وبهذا فإن نتائج الدراسة بينت أن صورة الجسد لدى حالات الدراسة مضطربة كنتاج للعلاقة الخيالية بين الأنا والصورة المرآوية، والإدراك الخيالي للذات والآخر، وما ترتب عليه من اضطراب في هوية الذات.

وهذا ما يتفق مع رؤية **لاكان** حيث أكد على أن الطابع الشبقي- العدواني للافتتان النرجسي بالصورة المرآوية يمكن أن يقود إلى تدمير الذات، فالعدوانية تتعين في العلاقة الثنائية بين الأنا والصورة المرآوية، وتتمثل في التناقض بين الكمال المنعكس والتمزق الواقعي (١٤١: ١١٩-١٢٠).

مثّل فعل تعاطي المخدرات والمسكرات تفعيلاً لبنية النظام الخيالي، وبنية: الذّهان، والعُصاب، والانحراف

كشفت نتائج الدراسة عن طبيعة بنية النظام الخيالي لدى مدمني المخدرات والمسكرات، والتي تمثلت في العلاقة الثنائية بين الأنا والصورة المرآوية، كما بينت أن المادة المخدرة أو المسكرة تعمل على توطيد تلك العلاقة الخيالية وتفعيلها؛ حيث أتت حالات الدراسة بدون التعاطي أو بدون تأثير المادة في حالة وهن نفسي جسدي، وفقدان لتقدير الذات مع الشعور بالدونية، وسيطرة الوجدان المؤلم والحزن والشعور بالذنب، في حين أن هذا المزاج يتغير مع التعاطي، حيث يسيطر المزاج الانبساطي، والشعور بالقدرة والتحكم، وبهذا فإن اضطراب العلاقة بالآخر، وفشل الذات في الانخراط في النسق الاجتماعي العام يتم السيطرة عليه عبر التعاطي.

وفي حين أتى استخدام حالات الدراسة للمخدرات والمسكرات كوسيلة لعلاج الذات، والهروب من الوجدان المؤلم، والواقع المحبِط، والإنجراح النرجسي، ومحاولة تحسين صورة الذات والآخر، فإن فعل التعاطي أتى بنتيجة عكسية، حيث فعّل البنية النفسية المضطربة لدى حالات الدراسة، ويتضح ذلك من خلال الآتي:

الحالة الأولى: مثلت الحالة الأولى – وهي حالة إدمان خمور – بنية انحراف، فالآخر أتى غائباً كموضوع، وغاب عن مسرح الذات التواصل الجدلي به بالقدر الذي غابت فيه الرغبة، وأصبحت الذات رهينة تحقيق لذة الآخر الأكبر فهي خاضعة لطلب الآخر، غارقة في صورتها النرجسية حيث سيادة الأمنية.

فلقد كان لدى المفحوص نزعات جنسية مثلية مكبوتة، وبالرغم من وجود تلك البنية الإكلينيكية قبل فعل التعاطي، حيث إنها ترجع إلى اضطراب في البناء النفسي للمفحوص؛ كنتاج لاضطراب التعيين الذاتي، إلا أن فعل التعاطي أدى إلى تحرير تلك النزعات اللاشعورية من قبضة الكبت، وفعّل بنية الانحراف؛ حيث تم التعبير عن بنية الانحراف بسلوك انحرافي فعلي، وهذا ما تبيّن من تداعيات المفحوص في المقابلة، وما كشفت عنه استجاباته على اختبار تفهم الموضوع.

الحالة الثانية: مثلت الحالة الثانية – وهي حالة إدمان حشيش – بنية عُصابية، حيث الإدراك الخيالي للذات والآخر، وقصور الاستعارة الأبوية وبالتالي النظام الرمزي، وسيطرة الطلب الذي تتوجه به الذات إلى الآخر الأكبر، والاستعمال المفرط لآلية الكبت.

حيث بينت الدراسة بنية المفحوص الاكتئابية، والتي تمثلت في الشعور بالدونية، والإحباط، والإنجراح النرجسي، فالمفحوص كان لديه تثبيت على المرحلة الفمية المتأخرة، ومثّل فعل التعاطي محاولة منه للدفاع ضد هذا الوجدان المؤلم ومشاعر الذنب باصطناع حالة هوسية تمكّنه من إنكار هذا الواقع النفسي الذي يعيشه، ولقد ترتب على تعاطي المفحوص تفعيل تلك البنية العُصابية، حيث تصاعد الاضطراب في علاقته بالآخر، بالقدر الذي تصاعد فيه الشعور بالذنب والدونية، ولم

يكن أمام الذات من سبيل للتخفيف من حدة هذا الوجدان المؤلم سوى الإسراف في التخييل عبر المخدر.

الحالتين الثالثة والرابعة: مثلت الحالتان الثالثة والرابعة – وهما حالة إدمان هيروين، وحالة إدمان كوكايين – بنية ذُهانية، حيث ارتهان/إغفال اسم الأب، وعدم اكتساب الاستعارة الأبوية، فالدال الرمزي أتى غائباً ليَحدُث ذلك الثقب في البناء النفسي للحالتين.

وكأن المخدر – لدى المفحوصين – بمثابة الدال الناقص في البناء النفسي، حيث حاول المفحوصان ملء الفراغ الناتج عن فقدان الدال الأبوي بالمخدر، وإن كان ذلك لم يمكّن الذات من التحرر من العلاقة الخيالية بالصورة المرآوية، فكان الإغراق في العلاقات الخيالية، وغياب الآخر كموضوع، وتعطل الرغبة، وبداية ظهور الضلالات والهلاوس المعبرة – بشكل واقعي – عن ذلك الدال الرمزي المفقود.

ومن هنا فلقد كان لفعل التعاطي الدور الفاعل في تحريك البنية الإكلينيكية – ذُهان، وعُصاب، وانحراف – لدى حالات الدراسة، وهذا ما كشفت عنه نتائج الدراسة.

وفيما يخص تفعيل التعاطي لبنية النظام الخيالي، فلقد أثبتت نتائج الدراسة صحته، فعبر التعاطي يحدث التطابق بين الأنا والصورة المرآوية، ويتمكن المتعاطي من الحصول على المدد/الإشباع النرجسي الذي يحتاجه، كما أنه يساعده على التخييل، ولقد أتت تخييلات الحالات الأربع – كما بينته الدراسة – ما بين التخييلات الجنسية والعدوانية، فالشبق والعدوان هما البعدان المميزان للنرجسية، بل المميزان للنظام الخيالي عامة؛ فالتعاطي يساعد المتعاطي على تفعيل الذُهان، وتستمر الحالة في إطار لعب دور الذُهاني أكثر من الإصابة بالذُهان، فالمدمن ينخرط في انحرافه الذي يمثل لذة الآخر الأكبر.

كشفت بنية الذات لدى مدمني المخدرات والمسكرات عن اضطراب النظام الرمزي

كنتاج للقصور في الاستعارة الأبوية، والإخفاق في حل الموقف الأوديبي

كشفت نتائج الدراسة عن اضطراب التعيين الذاتي لدى حالات الدراسة الأربع؛ حيث توقف التعيين الذاتي لدى الحالات عند التعيين الذاتي الأولي، وهو – كما بين الباحث – تعيين خيالي، ولقد تمثَّل التعيين الذاتي الأولي في التعيين بالصورة المرآوية، أو التعيين بالقضيب الخيالي عبر التعيين بالأم، أو التعيين بالأب الخيالي المهدِّد للذات مطلق القدرة.

وإذا كان مُركَّب أوديب يمثِّل موقفاً حيوياً ومحورياً في بنية الذات، وإذا كان مُركَّب أوديب – وفقاً للخطاب اللاكاني – يمر بثلاث فترات هي: **الفترة الأولى**، والتي تُعلِّم بالعلاقة الثلاثية الخيالية (الأم، الطفل، القضيب الخيالي) ، **والفترة الثانية**، والتي تتميز بتدخل الأب الخيالي كطرف ثالث مع الأم والطفل، **والفترة الثالثة**، والتي يتم فيها دخول الأب الواقعي والتي عبرها يتم التعيُّن بالقضيب الرمزي واكتساب اسم الأب، فإن حالات الدراسة أتت عاجزة عن الوصول إلى الفترة الثالثة من مُركَّب أوديب؛ حيث توقفت الدراما الأوديبية لدى حالات الدراسة عند الفترتين: الأولى، والثانية.

فلقد كشفت نتائج الدراسة عن احتدام الموقف الأوديبي، وفشل الذات في حل صراعه، فكان التعيُّن بالقضيب الخيالي الممثل لموضوع رغبة الأم، والذي ينتج عن التوقف عند الفترة الأولى من مُركَّب أوديب، أو التعيُّن بالأب الخيالي مطلق القدرة والمهدِّد للذات، والذي ينتج عن التوقف عند الفترة الثانية من مُركَّب أوديب، وكلا التعيينين – التعيُّن بالقضيب الخيالي، والتعيُّن بالأب الخيالي – لا يمكِّن الذات من اكتساب الاستعارة الأبوية، وهذا الإخفاق في اكتساب الدال الأبوي يؤدي إلى سيطرة المحور الخيالي – والذي يتمثل في العلاقة بين الأنا والصورة المرآوية/الشبيه وفقاً

للمخطط ل – على الذات، حيث تتبدى النرجسية بعدوانيتها، لذلك أتى إدراك حالات الدراسة للذات وللآخر إدراكاً خيالياً، وأتى الآخر كموضوع إما غائباً ليس له وجود، أو خيالياً معتدياً على الذات ويجب التنافس معه من أجل البقاء.

لذلك لم تتمكن حالات الدراسة من الانتقال من السجل الخيالي بصوره، ونرجسيته، وأوهامه إلى السجل الرمزي بقانونه الفاصل الواصل المنظم للرغبة، والموفق بينها وبين النرجسية، والذي يمنح الذات شرعية الوجود ويكسبها هويتها، فلقد عجزت – أي الذات – عن اكتساب اسم الأب أو الاستعارة الأبوية؛ فالصلة وثيقة بين تعاطي المخدرات وغياب الأب، وهذا لا يعني الغياب الفعلي بل غياب الدور، بمعنى غياب القانون، والمثال، والوعد، حيث تبقى العلاقة أم – طفل دون توسط الأب بقانونه المُحرِّم.

الخلاصـــة

هدفَ الباحث عبر تلك الدراسة – وكما أشار آنفاً – إلى الوقوف على بنية النظام الخيالي باعتباره يمثل مفهوماً أساسياً في نظرية المحلِّل النفسي الفرنسي **جاك لاكان** ، بالقدر الذي هدف فيه إلى الوقوف على البنية النفسية لدى مدمني المخدرات والمسكرات، وكما تبيّن من نتائج الدراسة – التي تم عرضها آنفاً – أتت بنية النظام الخيالي لتشير إلى مجموعة من الصور التي يتم جمعها في اللاشعور، تلك الصور التي تبدأ بصورة الجسد الممزّق كصورة أولية أو كمعطى أولي تعبِّر عن واقع نفسي معاش، وما تُسببه من توتر وألم يتبدى – أكثر ما يتبدى – في حالات التوتر العضلي وعدم التآزر الحركي، والتي يقف الوليد الإنساني أمامها موقف العاجز، وتبق تلك الحال هي المسيطرة لحين ظهور الصورة الثانية؛ وهَي نظرة الأم ووجهها، تلك الصورة التي تُمهد لبزوغ الصورة المرآوية، وعبر هاتين الصورتين يتمكن الأنا الطفلي من تكوين شكل كلي – وإن كان خيالياً – يمكّنه من التحكم في حالة التمزُّق التي يعيشها، وتمثل الصورة المرآوية المفهوم الرئيسي في مرحلة المرآة – ذلك المفهوم اللاكاني الصك – والتي تتكون من ثلاث فترات: قبل مرآوية، ومرآوية، وبعد مرآوية.

وتأتي النرجسية ببُعديها: الشبقي والعدواني لتمثل العنصر الثاني من عناصر بنية النظام الخيالي بالإضافة إلى الصورة والعُقدَة، ليكون العنصر الثالث؛ وهو التعيين الذاتي في شكله الأولي الخيالي، حيث يكون التعيين بالصورة تعييناً أولياً، وتواصل عناصر بنية النظام الخيالي عملية التكوين؛ فيأتي القضيب الخيالي بالفترة الأولى من الأوديب، ثم الأب الخيالي بالفترة الثانية من الأوديب، ويستمر التعيُّن الخيالي ليقطع المحور الخيالي بين الأنا والصورة المرآوية التواصل بين عنصري المحور الرمزي: الذات والآخر الأكبر؛ لتُستلَب الذات في العلاقة الخيالية ويتعطل الرمز ويكون الذُهان، أو العُصاب، أو الانحراف؛ لتجد ظاهرة الإدمان البنية النفسية المناسبة لها؛ فيتوحش الخيال، وتتكسر الدوال، ويتعطل التواصل الجدلي بالآخر، وتنعزل الذات في حبس

انفرادي مع أنا واهم، فتكون العدوانية والعدوان في صورة خيالية حيث تدمير الذات والآخر، وما الآخر سوى أنا، وما الأنا سوى تشيء وتمزُّق، ويبدأ الانهيار الحضاري الثقافي، وأول ما يبدأ بالمنظومة الخلقية القيمية، فتتراجع الأخلاق وما تحمله من بُعد روحاني، ولا تستمر الحال طويلاً إلى أن ينهار الجسد.

ومن هنا كانت أهمية الدراسة في وضع رؤية للمداخل العلاجية المناسبة للتعامل مع الظاهرة، وعبر الوقوف على طبيعة بنية النظام الخيالي، وعبر التيقن من مقولة **لاكان** في النظام الخيالي(**إن السبيل الوحيد لبلوغ قوة الخيالي ونفوذه هو تحويل الصور إلى كلمات**)، فالخيالي لا يعطي معنى ودلالة إلا إذا تُرجم إلى رموز ، فإن الباحث يرى في فنّيتي العلاج الجمعي، والسيكودراما أنسب الفنيات العلاجية للتعامل مع مرضى الإدمان.

كما أن من أهمية الدراسة – أيضاً – محاولة الوقوف على الجديد في خطاب التحليل النفسي، ولقد تحقق ذلك من خلال العرض الذي قام به الباحث لمفاهيم التحليل النفسي اللاكاني، وإن كانت الدراسات السابقة – التي اتخذت من التحليل النفسي منطلقاً لها – قد نظرت إلى الإدمان باعتباره سلوكاً مرضياً لبنية نفسية مضطربة، وفسرته في ظل عدد من العوامل منها: اضطراب التعيين الذاتي الذكري، واضطراب العلاقة بالأب، واضطراب العلاقة بالموضوع، والافتقاد إلى الحب وسيطرة مشاعر الذنب، واضطراب صورة الذات، والاعتمادية الطفلية، واستخدام المخدر لخفض التوتر وإحداث اللذة – فلقد أتت الدراسة الحالية لتتفق مع ما توصلت إليه الدراسات السابقة، وهذا ما أثبتته النتائج التي تم التوصل إليها، فلقد أتى الإخفاق في حل الصراع الأوديبي، وأتى الأب إما خيالياً مهدِّداً للذات، أو واقعياً يمثل مصدراً لإشباع الحاجة المادية متشابهاً إلى حد التطابق مع الأم، كما أتى إدراك الذات والآخر خيالياً مشوهاً، ومثّل المخدر مصدراً لاستثارة التخييل الشبقي والعدواني.

وفيما يخص الصراع اللاشعوري حول النزعات الجنسية المثلية – التي سبق التعرض لها عند استعراض التفسير السيكودينامي للبناء النفسي للمدمن – التي تحدث عنها عدد من المحلّلين منهم: كارل إبراهام، وخانتزيان، وبريهم وغيرهم، مؤكدين

على الصراعات اللاشعورية المرتبطة بالجنسية المثلية الكامنة لدى مدمني الكحول؛ والتي يسمح التعاطي بالتعبير عنها، تلك الرؤية التي وقف منها **مخيمر** موقف المعارض، فإن الباحث عند تناوله للبناء النفسي للمدمن اكتفى بعرض الرؤى المختلفة في هذا الموضوع، وأجّله لحين إتمام الدراسة الإكلينيكية للحالات للوقوف على ديناميات البناء النفسي لمدمني المخدرات والمسكرات، ولقد أتت نتائج الدراسة مؤيدة للرؤية القائمة على وجود صراع لاشعوري مرتبط بالجنسية المثلية.

وإن كان الباحث يختلف قليلاً مع تلك الرؤية، ففي حين تم الربط – لدى أنصار هذا التوجه – بين الجنسية المثلية والكحول/الخمور، فإن نتائج الدراسة الحالية كشفت عن وجود نزعات جنسية مثلية – واضحة – لدى حالات الدراسة الأربع باختلاف المواد التي يتم تعاطيها، حيث كشفت تداعيات الحالات في المقابلة الإكلينيكية، واستجاباتها على اختبار تفهم الموضوع عن نزعات جنسية مثلية لدى كل الحالات، وليس لدى مدمن الخمور فقط، وإن كانت الخمور – كمادة محررة للطاقة ومقللة لوطأة الكبت – تساعد على حل هذا الصراع بتحويل الجنسية المثلية من نزعة لاشعورية مكبوتة إلى سلوك فعلي.

وإن كان الباحث لا يرى العلاقة حتمية بين الانحراف والإدمان عامة والخمور خاصة، فالانحراف – وكما ذهب **لاكان** وكما بينت نتائج الدراسة – يمثل بنية إكلينيكية غير قابلة للتغيير، وتلك البنية يمتد تكوينها إلى مراحل الطفولة الباكرة؛ فالانحراف ليس سلوكاً يظهر بشكل فجائي، وبهذا فإن الانحراف كبنية يكون مستقلاً تماماً عن السلوك الإدماني باختلاف نوع المادة الإدمانية، فقد يظهر الانحراف كسلوك دون أن يكون الفرد مدمناً، كما أنه قد يظهر مع أية مادة إدمانية غير الكحول، وهذا لا يعني أن الباحث يُلغي دور الخمور في تحريك تلك البنية المنحرفة وتفعيلها، وهذا ما أثبتته نتائج الدراسة.

المراجع

أولاً : مراجع باللغة العربية

١. **أحمد أبو زيد** (١٩٩٥): " **المدخل إلى البنائية** "، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة.

٢. **السيد البدوي صديق** (١٩٩٧): " **دراسة كلينيكية لمرضى الفصام البارانوي في ضوء المفاهيم الأساسية عند جاك لاكان** "، رسالة دكتوراه، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس

٣. ،، ،، ،، (٢٠٠٧): " **جاك لاكان، تاريخ حياته** "، (في): " **جاك لاكان، مصطفى صفوان** "، أوراق فلسفية، العدد السادس عشر، القاهرة.

٤. **إريك برن** (١٩٩٨): " **الطب النفسي والتحليل النفسي** "، ترجمة. إبراهيم سلامة إبراهيم، مراجعة: كلير فهيم، الألف كتاب الثاني، عدد ٢٩٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

٥. **أحمد ديب شعبو** (١٩٨٤): " **آفاق الثورة العقلانية وحدودها في مجال العلوم الإنسانية، حول المنهج البنيوي في الأنثروبولوجيا والألسنية " شتراوس، تشومسكي** " "، الفكر العربي المعاصر، العدد التاسع والعشرين، مركز الإنماء القومي، بيروت.

٦. **أحمد عكاشة** (١٩٩٨): " **الطب النفسي المعاصر** "، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

٨. **أحمد فائق** (١٩٦٧): " **التحليل النفسي بين العلم والفلسفة** "، الأنجلو المصرية، القاهرة.

٩. **أحمد فتحي** (١٩٨٩): " **الخمر والمخدرات في الإسلام** "، مؤسسة الخليج العربي، القاهرة

١٠. **إريك فروم** (١٩٨٨): " **أزمة التحليل النفسي** "، ترجمة: طلال عتريس، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت.

١١. **أنَّا فرويد** (١٩٧٢): " **الأنا وميكانيزمات الدفاع** "، ترجمة: صلاح مخيمر، عبده ميخائيل رزق، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة

١٢. **أوتو فينخل** (١٩٦٩): " **نظرية التحليل النفسي في العُصاب** "، ترجمة: صلاح مخيمر، عبده ميخائيل، الجزء الأول، الأنجلو المصرية، القاهرة.

١٣. ،، ،، (١٩٦٩). " **نظرية التحليل النفسي في العُصاب** "، ترجمة: صلاح مخيمر، عبده ميخائيل، الجزء الثاني، الأنجلو المصرية، القاهرة.

١٤. إديث كريزويل (١٩٩٣): " **عصر البنيوية** "، ترجمة: جابر عصفور، دار سعاد الصباح، الكويت.

١٥. بسام بركة (١٩٨٣): " **اللغة بين الدراسات النفسية والدراسات اللسانية** "، الفكر العربي المعاصر، العدد الثالث والعشرين، مركز الإنماء القومي، بيروت.

١٦. بيلا جرانبرجر (٢٠٠٠). " **النرجسية، دراسة نفسية** "، ترجمة: وجيه أسعد، وزارة الثقافة، دمشق.

١٧. برنارد روك (٢٠٠٦): " **إدمان المخدرات السامة** "، ترجمة: راوية صادق، (في): " **جامعة كل المعارف، ما الحياة؟** "، إشراف، إيف ميشو، الجزء الأول، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.

١٨. بيتر لوري (١٩٩٠): " **المخدرات، حقائق اجتماعية ونفسية وطبية** "، ترجمة: نور الدين خليل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة

١٩. جاك آلان ميللر (١٩٨٣): " **جاك لاكان بين التحليل النفسي والبنيوية** "، ترجمة عبد السلام بن عبد العالي، الفكر العربي المعاصر، العدد الثالث والعشرين، مركز الإنماء القومي، بيروت.

٢٠. جاستون باشلار (١٩٩٨): " **إبستمولوجيا** "، ترجمة: درويش الحالوجي، دار المستقبل العربي، القاهرة.

٢١. جان دوفينيو (٢٠٠٠). " **تكوين الانفعالات في الحياة الاجتماعية** "، ترجمة إلهام غالي، دار شرقيات، القاهرة

٢٢. جابر عصفور (١٩٩٣): " **تعريف بالمصطلحات البنيوية الأساسية** "، (في): إديث كريزويل " **عصر البنيوية** "، ترجمة جابر عصفور، دار سعاد الصباح، الكويت

٢٣. جون فيتكس (٢٠٠٥): " **حالات من الاضطراب النفسي والعقلي** "، ترجمة: مي السيد مقلد، مراجعة وتقديم، خالد عبد المحسن، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة

٢٤. جوناثان كلر (٢٠٠٠): " **الشعرية البنيوية** "، ترجمة: السيد إمام، دار شرقيات، القاهرة.

٢٥. جان لابلانش،ج.ب. بونتاليس (١٩٩٧): " **معجم مصطلحات التحليل النفسي** "، ترجمة: مصطفى حجازي، الطبعة الثالثة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت.

٢٦. جاك لاكان (٢٠٠٧): " **مرحلة المرآة، بوصفها مُشكِّلة لوظيفة ضمير الذات كما تتكشف لنا في خبرة التحليل النفسي** "، ترجمة: نيفين زيور، (في): " **جاك لاكان، مصطفى صفوان** "، أوراق فلسفية، العدد السادس عشر، القاهرة.

٢٧. جان لاكروا (١٩٧٥). " **نظرة شاملة على الفلسفة الفرنسية المعاصرة** "، ترجمة: يحي هويدي، أنور عبد العزيز، دار المعارف، القاهرة

٢٨. جان ميشال بالمي (١٩٨٨). " **مرحلة المرآة وتشكُّل الأنا** "، ترجمة. مصطفى كمال، بيت الحكمة، العدد الثامن، الدار البيضاء.

٢٩. حسين عبد القادر محمد ، حسين محمد سعد الدين (١٩٩٤): " **انحراف الأحداث والسيكودراما** "، كلية الآداب، جامعة المنصورة.

٣٠. حسين عبد القادرمحمد (٢٠٠٥): " **العلاقة بالموضوع، النرجسية، عقدة أوديب، الفيتيشية** "، (في): " **موسوعة علم النفس والتحليل النفسي** "، فرج عبد القادر وآخرون، الطبعة الثالثة، دار الوفاق للطباعة والنشر، أسيوط.

٣١. حسين علي محمد (١٩٩٢): " **دراسة مقارنة لديناميات شخصية متعاطي الهيروين ومتعاطي الحشيش** "، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الزقازيق.

٣٢. خيرة حمر العين (٢٠٠٠): " **لسانيات النص** "، (في) " **علامات في النقد** "، المجلد العاشر، العدد الثامن والثلاثين، النادي الأدبي الثقافي، جدة

٣٣. دانيل لاجاش (١٩٥٧): " **المجمل في التحليل النفسي** "، ترجمة: مصطفى زيور، عبد السلام القفاش، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

٣٤. ،، ،، (١٩٧٠): " **المنشأ النفسي للجريمة** "، ترجمة: عبد الحليم محمود، المجلة الجنائية القومية، المجلد الأول، العدد الأول، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة

٣٥. ،، ،، (١٩٨٦): " **وحدة علم النفس** "، ترجمة: صلاح مخيمر، عبده رزق، الأنجلو المصرية، القاهرة.

٣٦ داريان ليدر (٢٠٠٣): " **لاكان** "، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، سلسلة أقدّم لك، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.

٣٧. روجيه بلمتيد (١٩٨٨): " **السوسيولوجيا والتحليل النفسي** "، ترجمة: وجيه البعيني، دار الحداثة، بيروت.

٣٨. روبرت ديجارليه، وآخرون (٢٠٠٤): " **الصحة العقلية في العالم** "، ترجمة: إيهاب عبد الرحيم، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.

٣٩ رسمية سعيد عبد القادر (١٩٨٣): " **تعاطي المخدرات لدى الشباب المتعلم الفلسطيني، دراسة في سيكولوجية المتعاطي** "، رسالة دكتوراه، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس.

٤٣. رشا عبد الفتاح الديدي (٢٠٠١): " **المرأة والإدمان، دراسة نفسية اجتماعية من منظور التحليل النفسي** "، الأنجلو المصرية، القاهرة.

٤٤ ،، ،، ،، (٢٠٠٧): " **التحليل النفسي البنيوي للمرأة بين لاكان والنسوية** "، (في). " **جاك لاكان، مصطفى صفوان** "، أوراق فلسفية، العدد السادس عشر، القاهرة.

٤٥. زكريا إبراهيم (١٩٩٠) " **مشكلة البنية، أو أضواء على البنيوية**"، مكتبة مصر، القاهرة

٤٦ سامية القطان (١٩٨٠): " **كيف تقوم بالدراسة الكلينيكية** "، الجزء الأول، الأنجلو المصرية، القاهرة

٤٧. سعيد حسن بحيري (٢٠٠٠): " **اتجاهات لغوية معاصرة** "، (في). " **علامات في النقد** "، المجلد العاشر، العدد الثامن والثلاثين، النادي الأدبي الثقافي، جدة.

٤٨. سعد زغلول المغربي (١٩٦٠). " **تعاطي الحشيش، دراسة نفسية** "، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة عين شمس.

٤٩. ،، ،، ،، (١٩٦٣): " **ظاهرة تعاطي الحشيش، دراسة نفسية اجتماعية** "، دار المعارف، القاهرة.

٥٠ ،، ،، ،، (١٩٦٦): " **سيكولوجية تعاطي المخدرات** "، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة عين شمس

٥١. ،، ،، ،، (١٩٨٦): " **سيكولوجية تعاطي الأفيون ومشتقاته** "، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

٥٢. **سامي محمود علي (١٩٩٤):** " **المتخيل في خبرة الحشيش في مصر** "، مجلة أدب ونقد، العدد مائة وتسعة، القاهرة.

٥٣. **سيد غنيم، هدى برادة (١٩٧٥):** " **الاختبارات الإسقاطية** "، دار النهضة العربية، القاهرة.

٥٤. **سيجموند فرويد (١٩٧٠):** " **ليوناردو دافنشي، دراسة تحليلية** "، ترجمة: أحمد عكاشة، الأنجلو المصرية، القاهرة.

٥٥. ،، ،، (١٩٨٣): " **الطوطم والتابو** "، ترجمة: بو علي ياسين، دار الحوار، اللاذقية، سوريا.

٥٦. ،، ،، (١٩٩٤): " **ثلاث مقالات في نظرية الجنسية** "، ترجمة: سامي محمود علي، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة.

٥٧. ،، ،، (٢٠٠٠) . " **في النرجسية، مقدمة** "، ترجمة: نيفين زيور، (في) نيفين زيور، " **من النرجسية إلى مرحلة المرآة، قراءات في التحليل النفسي** "، الأنجلو المصرية، القاهرة.

٥٨. **سيزا قاسم (١٩٨٦):** " **السيميوطيقا، حول بعض المفاهيم والأبعاد** "، (في). " **أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة، مدخل إلى السيميوطيقا، مقالات مترجمة ودراسات** "، إشراف: سيزا قاسم، نصر حامد أبو زيد، دار إلياس العصرية، القاهرة

٥٩. **صلاح الدين حسني مخيمر (١٩٧٧):** " **تناول جديد في تصنيف الأعصبة والعلاجات النفسية** "، الأنجلو المصرية، القاهرة.

٦٠. ،، ،، ،، (١٩٧٨): " **في التناقض الوجداني** "، الأنجلو المصرية، القاهرة

٦١. ،، ،، ،، (١٩٨١): " **المفاهيم- المفاتيح في علم النفس** "، الأنجلو المصرية، القاهرة.

٦٢. ،، ،، ،، (١٩٨١): " **مقدمة ترجمة كتاب عن الذاتية والموضوعية في علم النفس** "، كيرت ليفين، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة

٦٣. **صلاح فضل (١٩٩٧).** " **مناهج النقد المعاصر** "، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

٦٤. **صلاح قنصوة (١٩٨٧):** " **في فلسفة العلوم الاجتماعية** "، الأنجلو المصرية، القاهرة

٦٥. **عادل الدمرداش (١٩٨٢):** " **الإدمان مظاهره وعلاجه** "، عالم المعرفة، العدد ستة وخمسين، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

٦٦. عبد الستار إبراهيم، عبد الله السيد عسكر (١٩٩٩): " علم النفس الإكلينيكي، في ميدان الطب النفسي "، الطبعة الثانية، الأنجلو المصرية، القاهرة.

٦٧. عبد الوهاب جعفر (١٩٨٠). " البنيوية في الأنثروبولوجيا، وموقف سارتر منها "، دار المعارف، القاهرة.

٦٨ عبد العزيز حمودة (١٩٩٨): " المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك "، عالم المعرفة، العدد مائتين واثنين وثلاثين، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

٦٩. عدنان حب الله (١٩٨١): " الجدلية العقلانية عند لاكان "، الفكر العربي المعاصر، العدد السادس عشر، مركز الإنماء القومي، بيروت

٧٠. " " " (١٩٨١): " حوار بين جان كليفرول وعدنان حب الله "، الفكر العربي المعاصر، العدد الحادي عشر، مركز الإنماء القومي، بيروت

٧١. " " " (١٩٨٨): " التحليل النفسي من فرويد إلى لاكان "، مركز الإنماء القومي، بيروت.

٧٢ " " " (٢٠٠٧): " الأنا عند فرويد ولاكان "، (في): " جاك لاكان، مصطفى صفوان "، أوراق فلسفية، العدد السادس عشر، القاهرة.

٧٣ عبد الله السيد عسكر (١٩٨٥): " تعاطي الأقراص المخدرة وعقاقير الهلوسة لدى الشباب المتعلم، دراسة استكشافية للخصائص النفسية لشخصية المتعاطي "، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الزقازيق.

٧٤ " " " (١٩٩٠): " الأوديبية بين الأسطورة والتحليل النفسي، دراسة تحليلية ثقافية "، الأنجلو المصرية، القاهرة

٧٥. " " " (١٩٩١): " الوظيفة الوقائية لأحلام النوم "، دراسات نفسية، المجلد الأول، العدد الثاني، رابطة الأخصائيين النفسيين المصرية، القاهرة.

٧٦. " " " (١٩٩٢): " غياب الأب الرمزي، دراسة في التحليل النفسي لمضمون رواية الطريق لنجيب محفوظ "، الأنجلو المصرية، القاهرة.

٧٧. " " " (١٩٩٤): " الصدام الأيديولوجي وهوية الذات، دراسة في التحليل النفسي لمضمون رواية قلب الليل لنجيب محفوظ "، الأنجلو المصرية، القاهرة

٧٨. ،، ،، ،، (١٩٩٥): " **دلالة أعراض فصام البارانويا، دراسة في التحليل النفسي واللغة** "، دراسات نفسية، المجلد الخامس، العدد الأول، رابطة الأخصائيين النفسيين المصرية رانم، القاهرة.

٧٩. ،، ،، ،، (١٩٩٧): " **مقدمة في التحليل النفسي** "، الجزء الأول، الطبعة الثانية، الأنجلو المصرية، القاهرة.

٨٠. ،، ،، ،، (١٩٩٩): " **مدخل إلى الاضطرابات النفسية** "، الجزء الأول، الأنجلو المصرية، القاهرة.

٨١. ،، ،، ،، (٢٠٠١) " **مدخل إلى التحليل النفسي اللاكاني** "، الطبعة الثانية، الأنجلو المصرية، القاهرة.

٨٢ ،، ،، ،، (٢٠٠٥): " **الإدمان بين التشخيص والعلاج** "، الطبعة الخامسة، الأنجلو المصرية، القاهرة.

٨٣. ،، ،، ،، (٢٠٠٧): " **حينما يتطرف الخطاب الديني تتفجر البنية البارانوية أو العنف** "، (في): " **جاك لاكان، مصطفى صفوان** "، أوراق فلسفية، العدد السادس عشر، القاهرة.

٨٤. ،، ،، ،، (٢٠٠٨): " **هيجل وجاك لاكان** "، (في): " **مائتي عام من الفينومينولوجيا، هيجل** "، أوراق فلسفية، العدد الثامن عشر، القاهرة.

٨٦. **فرج أحمد فرج** (١٩٧١): " **أسباب الانتقال من مخدر إلى مخدر آخر** "، الندوة الدولية العربية حول ظاهرة تعاطي المخدرات، القاهرة.

٨٧. ،، ،، ،، (١٩٩٣): " **مقال في العدوان، مقدمة إبستمولوجية** "، مجلة علم النفس، العدد السابع والعشرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

٨٨. **فردينان دي سوسير** (١٩٨٥): " **علم اللغة العام** "، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز، مراجعة مالك يوسف المطلبي، دار آفاق عربية، بغداد

٨٩. ،، ،، ،، (١٩٨٦). " **فصول من دروس في علم اللغة العام** "، ترجمة: عبد الرحمن أيوب، (في): " **أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة، مدخل إلى السيميوطيقا، مقالات مترجمة ودراسات** "، إشراف: سيزا قاسم، نصر حامد أبو زيد، دار إلياس العصرية، القاهرة.

٩٠ فرانسواز دولتو (٢٠٠٠): " **في لعبة الرغبة** "، ترجمة: فادية لاذقاني، دار المستقبل العربي، القاهرة.

٩١. فيليب شملا (١٩٨٨): " **لاكان واللغة** "، ترجمة: مصطفى كمال، بيت الحكمة، العدد الثامن، الدار البيضاء.

٩٢. فاروق عبد السلام (١٩٧٧). "**سيكولوجية الإدمان** "، عالم الكتب، القاهرة.

٩٣. فرج عبد القادر طه(٢٠٠٥): " **البنية** "، (في) " **موسوعة علم النفس والتحليل النفسي** "، فرج عبد القادر وآخرون، الطبعة الثالثة، دار الوفاق للطباعة والنشر، أسيوط.

٩٤. كاترين ب كليمان (١٩٨٨): " **الخيالي، الرمزي، الواقعي** "، ترجمة: مصطفى كمال، بيت الحكمة، العدد الثامن، الدار البيضاء.

٩٥. ،، ،، ،، (١٩٨٨): " **جاك لاكان** "، ترجمة: مصطفى كمال، بيت الحكمة، العدد الثامن، الدار البيضاء.

٩٦. ،، ،، ،، (٢٠٠٠): " **التحليل النفسي** "، ترجمة: محمد سبيلا، حسن أحجيج، سلسلة ضفاف، دار الزمن، الرباط

٩٧ لطفي الشربيني (د. ت): " **معجم مصطلحات الطب النفسي** "، مراجعة: عادل صادق، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، مركز تعريب العلوم الصحية، الكويت

٩٨. لويس كامل مليكة (١٩٨٥): " **علم النفس الإكلينيكي، التشخيص والتنبؤ في الطريقة الإكلينيكية** "، الجزء الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

٩٩. ،، ،، ،، (١٩٩٧): " **علم النفس الإكلينيكي، تقييم الشخصية** "، الجزء الثاني، مطبعة فيكتور كيرلس، القاهرة.

١٠٠. مَجمع اللغة العربية (١٩٩٠): " **المعجم الوجيز** "، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

١٠١ محمد النابلسي (١٩٩٧): " **أصول الفحص النفسي ومبادئه** "، المكتب العلمي للكمبيوتر والنشر والتوزيع، الإسكندرية.

١٠٢. منال أحمد شحاتة(١٩٩٧): " **الأبوة وعلاقتها بتعاطي الأبناء للمخدرات** "، رسالة دكتوراه، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس.

١٠٥ مالكولم بووي (١٩٩٩): " **لاكان والعودة إلى فرويد** "، (في): " **جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي** "، ترجمة: عبد المقصود عبد الكريم، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.

١٠٦. مجموعة باحثين (١٩٩٣): " **علم النفس وميادينه من فرويد إلى لاكان، ممارسة علم النفس ونقده** "، ترجمة: وجيه أسعد، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، دمشق.

١٠٧. ميخائيل جوسوب (٢٠٠٠): " **فحص مشكلات الكحول والمخدرات** "، (في): " **مرجع في علم النفس الإكلينيكي للراشدين** "، س. ليندزاي، ج. بول، ترجمة: صفوت فرج، الأنجلو المصرية، القاهرة

١٠٨. محمد رشاد كفافي (١٩٧٣): " **سيكولوجية اشتهاء المخدر** "، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس.

١٠٩. محمد رمضان (١٩٨٢): " **تعاطي المخدرات لدى الشباب المتعلم، دراسة في سيكولوجية التعاطي** "، رسالة دكتوراه، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس.

١١٠. مصطفى زيور (١٩٥٧): " **تصدير ترجمة كتاب المجمل في التحليل النفسي** "، دانيل لاجاش، النهضة المصرية، القاهرة

١١١. ،، ،، (١٩٧٨): " **تصدير كتاب علم النفس وقضايا العصر** "، فرج عبد القادر، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة

١١٢. ،، ،، (١٩٨٦): " **في النفس، بحوث مجمعة في التحليل النفسي والطب النفسي الجسمي والطب النفسي والفلسفة** "، دار النهضة العربية، القاهرة.

١١٣. ماري زيادة (١٩٨٣): " **اللسانية وخطاب التحليل النفسي عند جاك لاكان** "، ترجمة: فاطمة طبال بركة، الفكر العربي المعاصر، العدد الثالث والعشرين، مركز الإنماء القومي، بيروت.

١١٤. مصطفى سويف (١٩٩٦): " **المخدرات والمجتمع، نظرة تكاملية** "، عالم المعرفة، العدد مائتين وخمسة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

١١٥. ،، ،، (٢٠٠١): " **مشكلة تعاطي المخدرات بنظرة علمية** "، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

١١٦. مصطفى صفوان (١٩٥٨): " **شخصية الجانح في ضوء النظريات التحليلية النفسية** "، مجلة الصحة النفسية، المجلد الأول، العدد الأول، الجمعية المصرية للصحة العقلية، القاهرة.

١١٧. ،، ،، (١٩٩٤): " **نبذة حول الأب المثالي** "، ترجمة: محمد مهدي قناوي، أدب ونقد، العدد مائة وتسعة، القاهرة.

١١٨. **محمد عبد الظاهر الطيب (١٩٨٠):** " **الموضوعية والذاتية في علم النفس** "، دار المعارف، القاهرة.

١١٩. **مروان فارس (١٩٨٣):** " **النهج الألسني عند دوسوسور** "، الفكر العربي المعاصر، العدد الخامس والعشرين، مركز الإنماء القومي، بيروت

١٢٠. **محمد فتحي عيد (١٩٨٩).** " **المخدرات والنشء، المشكلة والحل** "، رسالة الإمام، العدد التاسع عشر، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة

١٢٣ **ماهر نجيب إلياس (١٩٩٤):** " **العلاقة بين البناء النفسي ونوع المخدر، دراسة إكلينيكية** "، رسالة دكتوراه، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس.

١٢٤. **نيفين مصطفى زيور (٢٠٠٦):** " **في التحليل النفسي** "، الأنجلو المصرية، القاهرة

١٢٥. **هناء أبو شهبة (١٩٩٠):** " **دراسة إكلينيكية متعمقة، دراسة حالة مدمن هيروين** "، مجلة علم النفس، العدد السادس عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة

١٢٦. **ول ديورانت (٢٠٠١).** " **قصة الحضارة، الهند وجيرانها، الشرق الأقصى، الصين** "، المجلد الثاني، ترجمة: زكي نجيب محمود، محمد بدران، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

١٢٧. **وجدي عبد اللطيف (١٩٩٠):** " **التحقق من التفسير السيكودينامي لسيكولوجية مدمني المخدرات** "، رسالة دكتوراه، غير منشورة، كلية التربية ببنها، جامعة الزقازيق.

١٢٨ **وفاء محمود مسعود (١٩٩٧):** " **بعد المتخيل عند جاك لاكان، دراسة في نماذج من الحكاية الشعبية الخرافية** "، رسالة دكتوراه، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس.

١٢٩. **يونيل يوسف عزيز (١٩٨٥):** " **مقدمة ترجمة كتاب علم اللغة العام** "، فردينان دي سوسير، دار آفاق عربية، بغداد.

ثانياً : مراجع باللغة الإنجليزية

130. American Psychiatric Association, APA, (1994): ***"Diagnostic And Statistical Manual Of Mental Disorders". 4th Edition, Washington.***

131. Arrive, M,(1992): ***"Linguistics and psychoanalysis, Freud, Saussure, Hjelmslev, Lacan and other",*** *Translated by: Jams Leader, John Benjamin's publishing company, Amsterdam.*

132. Barry, H,(1988): ***"Psychoanalytic Theory Of Alcoholism"*** *(In): C . D . Chandron And D.A.Wilkinson, "* ***Theories On Alcoholism "****, Toronto: Addiction Research Foundation, New York.*

133. Beck, A. Etal,(1993): ***"Therapy Of Substance Abuse"****. The Guilford Presses, New York.*

134. Blume, S. B,(1989): ***"Dual Diagnosis, Psychoactive Substance And Personality Disorders"****, Journal Of Dependence Psychoactive Drug, Vol21, No12.*

135. Boothby, R,(1991): ***"Death And Desire, Psychoanalysis Theory In Lacan's Return To Freud"****, Rutledge, London And New York.*

136. Brehm, N. M And Khantzian. E,(1992): ***"Psychodynamic Perspective In Substance Abuse"****, Comprehensive Text Book Millman. R. Willims And Wilkins, 2nd Edition.*

137. Calsyn, D and Saxon, A,(1990): ***" Personality Disorder subtypes among cocaine and Opioid Addicts "****, International journal of the addictions, Vol,25, No,9.*

138. Dervin ,D,(1997): ***" Where Freud was, there Lacan shall be, Lacan and the fate of transference "****.(In): American Imago. the Johns Hopkins university press.*

139. Dackis, C. A And Gold, S,(1992): ***"Psychiatric Hospitals For Treatment Of Dual Diagnosis"****, (In):Lowinson. J. H, Ruiz. P. Millman R. B,* ***"Substance Abuse Acomperehensive"****, 2nd Edition, William And Wilkins.*

140. Dor, J,(1999): *" The clinical Lacan ",Edited by: Judith Fether, Susan Fairfield, New York.*

141. Evans, D,(1996): ***"An Introductory Dictionary Of Lacanian Psychoanalysis"**, Rutledge, London And New York.*

142. Evans, M,N,(1979): ***" Introduction to Jacques Lacan's lecture, The neurotic's individual myth ",(In):" The psychoanalytic quarterly"**. by: Psychoanalysis quarterly Inc, Vol ,XLVIII, No,3, New York.*

143. Fishman, M. W And Foltin, R. W,(1991): ***"Cocaine And The Amphetamines"**, (In): I. B. Class, **"The International Hand Book Of Addiction Behavior"**. New York, Routtedge.*

144. Flores, Ph.J,(1988): ***"Group Psychotherapy With Addiction Population"**, The Hawarth Press, New York.*

145. Frosch, W.A,(1989): ***"An Analytic Over View Of Addictions"**. (In):Harvey B.M, Howlery. J. Shatter (EDS)" **The Addictions, Multi Disciplinary Perspectives And Treatment"**, Tornoto, Lexington Books.*

146. Frosh, S,(1995): ***" Masculine mastery and fantasy, or the meaning of the phallus ".(In) :" psychoanalysis in contexts, paths between theory and modern culture"**, Edited by: A, Elliott and S, Frosh. Routledge, London and New York.*

147. Grosz ,E,(1990): ***"Jacques Lacan a feminist introduction"**, Routledge, London.*

148. Gassop,M,(1994): ***"Drug And Alcohol Problems"**,(In):S.J.E Lindsay And G. E Powell (EDS)**"The Hand Book Of Clinical Adult Psychology"** , New York.*

149. Hall, H and Mcgrew, (1992): ***" Modernity and its futures "**,Oxford polity press, in association with the open university.*

150. Hartocolllis.p,(1980): ***"Alcoholism, Borderline And Narcissistic Disorder Psychoanalytic Overview"***,*(In):W. Fann, Karacan And R. S Willows (EDS)* ***"Phenomenology And Treatment Of Alcoholism, Medical And Scientific Book"***, *New York.*

151. Imlah, Norman, (1970): ***"Drug In Modern Society"***, *Geoffrey Chapman, London.*

152. Juditha Lewis,(1994): ***"Addictions, Concepts And Stralegies For Treatment"***. *Aspen Publication, U.S.A.*

153. Jackson, V,(1982): ***" Sex difference in socialization and family dynamics of female and male heroin users "***. *Journal of social issues, Vol,38,No.2.*

154. Kessler. Etal,(1996): ***"The Epidemiology Of Occurring Addictive And Mental Disorder, Implication For Prevention And Service Utilization"***, *American, Journal Of Orthopsychiatry, VOL 66.*

155. Khantzian, E.J, (1982): ***"Psychology, Psychodynamics Alcoholism"***, *(In):M.E.Pattison And E.Kaufman (EDS),* ***"Encyclopedia Of Alcoholism"***, *Gardner Press, New York.*

156. Kohut, H,(1977): ***"Preface In Psychodynamics Of Drug Dependence"***, *IDA Research Monograph.12. Washington DC:N.S. Department Of H.E.W.*

157. Kosten, T.A.Etal, (1989): ***"Personality Disorder In Opiate Addicts Show Prognostic Specificity"***, *Journal Of Substance Abuse Treatment, VOL 16 No4.*

158. Krystal, H, And Raskin, H. A,(1970): ***" Drug Dependence, Aspects Of Ego Functions"***, *Wayne State University, Press, Detroit.*

159. Koppel man ,Kate, (2002): ***" Devotional ambivalence, the virgin Mary as Empress of hell "***, *Essays in medieval studies, Illinois medieval association.*

160. Kristeva ,J,(1982): *" Power of horror an essay on objection ", Columbia university press, New York.*

161. Leupin ,A,(1991): *"Introduction: Knots in knowledge and truth" .(In): "Lacan and the human science". Edited by: A. Leupin, university of Nebraska press, Lincoln and London.*

162. Lacan ,J,(1948): *" Aggressivity in psychoanalysis ",(in):"The Écrits, A selection", translate by: A. Sheridan, 1977, w.w .Norton and company, New York, London.*

163. „ „ (1949): *" The Mirror Stage formative of the function of the I as revealed in psychoanalytic experience ",(in):"The Écrits, A selection", translate by: A. Sheridan, 1977, w.w .Norton and company, New York, London.*

164. „ „ (1953): *"The Function and field of speech and language in psychoanalysis ",(in):"The Écrits, A selection", translate by: A. Sheridan, 1977, w.w .Norton and company, New York, London.*

165. „ „ (1955): *"The Freudian thing or the meaning of the Return to Freud in psychoanalysis ",(in):"The Écrits, A selection", translate by: A. Sheridan. 1977, w.w .Norton and company, New York, London.*

166. „ „ (1956): *"On a question preliminary to any possible treatment of psychosis ",(in):"The Écrits, A selection", translate by: A. Sheridan, 1977, w.w .Norton and company, New York, London.*

167. „ „ (1957): *"The Agency of the letter in the unconscious or reason since Freud ",(in):"The Écrits, A selection", translate by: A. Sheridan. 1977, w.w .Norton and company, New York, London.*

168. „ „ (1958): *"The direction of the treatment and principles of its power ",(in):"The Écrits, A selection", translate by: A. Sheridan. 1977. w.w .Norton and company, New York, London.*

169. „ „ (1958): ***"The signification of the phallus "**,(in):"**The Écrits, A selection"***, *translate by: A. Sheridan, 1977, w.w .Norton and company, New York, London.*

170. „ „ (1977): ***"The four fundamental concepts of psychoanalysis"***, *Edited by: J.A. Miller, Translated by: A. Sheridan, The Hogar press, London.*

171. Lawson, G. Etal, (1983): ***"Alcoholism And Family, A guide To Treatment And Prevention"***, *Aspen Publication, Ince, USA.*

172. Liesswing, N and Dougherty, R,(1993): ***" Psychopathology in alcohol and cocaine dependent patients "***, *comparison of finding from psychological listing, journal of substance abuse treatment. Vol.10,N0,6.*

173. Levin, J.D.,(1987): ***"Treatment Of Alcoholism And Other Addictions"***, *Jason Aaronson, North Voile, New York.*

174. Lowinson And Millman Robert, (1992): ***"Substance Abuse"***, *Acomperehensive Text Book, 2nd Edition, Williams And Wilkins, New York.*

175. Macey, D,(1988): ***" Lacan in contexts "***, *Edited by: Verso, university of London, New York.*

176. Miller ,J,(1978): ***"The four fundamental concepts of psychoanalysis"***, *Translated by: A. Sheridan ,w.w. Norton company ,Inc, New York.*

177. „ „ (1988): ***"The seminar of Jacques Lacan"***, *Book II* ***:"The ego in Freud's theory and in the techniques of psychoanalysis 1954-1955"***, *Translated by: Tomas Elli, Sylvan, Cambridge university press, New York.*

178. Muller ,J and Richardson ,W,(1982): ***" Lacan and language, a reader's guide to Écrits "***, *International universities press, New York.*

179. Marcelle, M,(1992): ***" Jacques Lacan and the French context"****, translated by: A. Tomiche, Rutgers university press, new Brunswick, New Jersey.*

180. Marlatt, Rose,(1980): *"Addictive Disorder", (in):Alan Bellack And Michel Hereson,****"Perspective In Abnormal Psychology"****, University Press, New York.*

181. Malow,R.M,Etal, (1989): ***"Personality Classification And Symptoms In Disorders Cocaine, Opioid Addicts"****, Journal Of Consulting And Clinical Psychology, VOL57 No6.*

182. Oscar G. Buckstein, Etal,(1989): ***"Comorbidty Of Substance Abuse And Other Psychiatric Disorder In Adolescents"****, The American Journal Of Psychiatry, VOL146, No9.*

183. Porter ,D,(1991): ***"Psychoanalysis and the task of the translator"****,(In):****"Lacan and the human science"****. Edited by: A. Leupin, university of Nebraska press, Lincoln and London.*

184. Rose ,J,(1981): ***" The Imaginary "****,(In):****"The talking cure, essays in psychoanalysis and language"****, Edited by: C. MacCabe, The Macmillan press ltd, London.*

185. Sharp, C. And Farnazzai, L,(1991): ***"Inhalants"****, (In):D, Ciravlo, R. Shader (EDS)* ***"Clinical Manual Of Chemical Dependence"****, American Psychiatric Press, Washington.*

186. Simeon, D.Etal, (1992): ***"Self Mutilation In Personality Disorder, Psychological And Biological Correlates"****, American Journal Of Psychiatry, VOL149,No21.*

187. Scott ,Lee ,H,(1991): ***" Jacques Lacan "****, The university of Massachusetts press, Amherst.*

188. Safouan, M,(1981): ***"Representation and pleasure"****, Translated by: B. Brewster.(In):****"The talking cure, essays in psychoanalysis and language"****, Edited by: C. MacCabe, The Macmillan press ltd, London.*

189. Sperngnther ,M, (1995): ***"Mourning Freud",(In):"psychoanalysis in contexts, paths between theory and modern culture"**, Edited by: A, Elliott and S, Frosh, Routledge, London and New York.*

190. Stone, M.H,(1993): ***"Term Out Come In Personality Disorder"**, Britch Journal Of Psychiatry, VOL162, No9.*

191. Stockhlder ,K,(1998): ***" Lacan versus Freud, subverting the enlightenment ",(In)**:American Imago, the Johns Hopkins university press.*

192. San-Narciso and Izquierdo- Gemma, (1998): ***" Evolution of personality disorder in heroin addiction "**, American journal of addict, Vol,10,No,1.*

193. Tomason, H. And Dilts, S,(1991): ***"Opioids",(In)**:R.J.Frances And S.I Miller." **Clinical Text Book Of Addictive Disorders"**, Guilford, New York.*

194. Thom, M,(1981): ***"The unconscious structured as a language", (In):"The talking cure, essays in psychoanalysis and language"**, Edited by: C. MacCabe, The Macmillan press ltd, London.*

195. Wurmser, L,(1982): ***"Addictive Personalities",(In)**:Lion, J. R, **"Personality Disorders, Diagnosis And Management"**, Baltimore, Williams And Wilkins.*

196. Vergote, A,(1985): ***"The symbolic body and the symbolic symptom"**, International journal of psychology, North Holland.*

197. Vukov, M, Et al, (1995): ***" Personality Dimensions of opiate addicts"** ,university of Belgrade Yugoslavia, Acata-psychiatry- Scand , Vol,91,No,2.*

198. Zizek ,S,(1992): ***" Symptom",(In):" Feminism and psychoanalysis"**, A critical dictionary, Edited by :E .Wright , Blackwell. U.K and U.S.A.*

هـذا الكتـاب...



يمثّل هذا الكتاب إعادة قراءة لظاهرة الإدمان، وذلك عبر استخدام الطرح اللاكاني للنفس البشرية، فكان الكتاب إبحاراً بين شاطئي النفس - في انحرافها وسوائها - باستخدام مفاهيم خطاب التحليل النفسي الثقافي المعرفي الذي شيّد شروحه وتنظيره الطبيب والمحلل النفسي الثوري الفرنسي جاك لاكان؛ فجاء الكتاب في فصوله الستة محاولة لتحقيق الفائدة العلمية المعرفية للمتخصص الممارس، والباحث الدارس في ميدان علاج الإدمان وميدان التحليل النفسي، والقارئ العادي المهتم بظاهرة الإدمان أو النفس البشرية وخاصة مكونها اللاشعوري.

ولتحقيق الفائدة العلمية المرجوة تم تقسيم الكتاب إلى ثلاثة محاور: المحور الأول تناول المُخدِّرات والمُسكِرات، فتم إلقاء الضوء على المفاهيم الأساسية المستخدَمة في حقل الإدمان، واستعراض فئات المواد المخدِّرة والمُسكِرة، والأعراض الجسدية النفسية المصاحبة للتعاطي، وكيفية التشخيص، مع تناول مُفصَّل لمواد الحشيش والهيروين والكوكايين والخمور، مع استعراض للرؤى السيكودينامية المفسِّرة للسلوك الإدماني والبناء النفسي للمدمن، ومثَّل هذا المحور المدخل والفصلين الأول والثاني، في حين أتى المحور الثاني ليُلقي الضوء على الطبيب والمحلِّل النفسي جاك لاكان، وروافده المعرفية وتكوينه النظري العملي كطبيب نفسي، وعلاقته بالحركة السريالية والخطاب الفلسفي والبنيوية " اللغوية والأنثروبولوجية "، ثم استعراض نظريته ورؤاه ومفاهيمه الخاصة في التحليل النفسي، وكيفية تشكُّل البناء النفسي في حالتيه السوية والمَرَضية كما في الانحراف والعُصاب والذُهان، ومثَّل هذا المحور الفصلين الثالث والرابع، وتم تخصيص المحور الثالث للدراسة الإكلينيكية للحالات، والنتائج وتفسيرها، ومثَّل هذا المحور الفصلين الخامس والسادس.

المؤلِّـف

